التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

آدم و نوح عليهماالسلام

آية اللّٰه العظمى الصادقي الطهراني

«الفهرس»

الرسالات بين الكتاب والسنة المكلفون امة واحدة شروط الرسالات... ٧
الهدى والضلال في تخيير دون تسيير... ٢١
تفريق الذين ضلالة... ٣٧
لكل امة رسالية منسك والدين واحد وامة الرسل واحدة... ٤٢
رسالة واحدة وأمة واحدة... ٤٤
رسل من الجن والإنس... ٤٧
رسالات في شيع الاولين... ٥٤
ردوا ابدى المرسلين في افواههم... ٥٩
يا رسل الله ماذا أجبتم... ٨٣
استهزاآت بالرسل في حجج اللجاج... ٨٩
ثورات الانبياء في سورة الأنبياء... ٩٥
حجة داحضة في اختصاص آية الرسالة بما يهوون... ١١٣
وامتصامها عما لايهدون... ١١٣
النبى لايُغل ولو قلاّ... ١٢٢
تحريفات في الوحى وخاتمة الوحى خليصة عن كل تحريف... ١٢٦
رسالة واحدة لأمة واحدة وربٌّ واحد... ١٤٥
قالوا ما أنزل الله على بشر من شئً... ١٥٠
درجات الوحى إلى اولى العزم بوحدة الرسالة... ١٧٠
صبغة الوحى الى انبياء الله... ١٧٧
تعدد شرايع الدين للإبتلاء... ١٨١
تمنيات الرسل وامنيات الشياطين... ١٩٢
الرسالات تخالف تمنيات الشياطين... ٢٠١
آجال الامم... ٢١٦
الرسل رجال من اهل القرى... ٢٣٠
الرسل الربانية مع الكتاب والميزان... ٢٣٧
آدم عليه‌السلام بداية الرسالة الربانية... ٢٤٦
سورة البقرة: الآيات ٣٤ الى ٣٩... ٢٦٠
آدم عليه‌السلام نسى عهد الله فدعى ربه وغوى قبل رسالته... ٣٠٠
هل اشرك آدم عليه‌السلام وزوجه... ٣٠٩
ابتى آدم... ٣١٨
نوح أول الخمسة من اولى القوم من الرسل... ٣٣٠
سورة نوح ـ مكية ـ وآياته ثمان وعشرون... ٣٣٠

سورة نوح... ٣٣٠
نوح في نبرات رسولية... ٣٥٢
نوح في رسالته... ٣٦٣
سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٠٥ الى ٢٢١... ٣٧٦
لبث نوح عليه‌السلام في رسالته الف سنة الا خمسين عاماً... ٣٨٣
سورة هود (١١): الآيات ٢٥ الى ٩٤... ٣٨٦
سفينة نوح عليه‌السلام وأهل بيت محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله:... ٤٢١
أضواء على قصة نوح:... ٤٢١
يونس الرسول عليه‌السلام في تبرات وعبرات... ٤٣٠
حول هود عليه‌السلام وقومه... ٤٣٣
هود... ٤٣٩

الرسالات بين الكتاب والسنة
المكلفون امة واحدة شروط الرسالات

كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيَما اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ٢١٣
الأمة هي من الأم: القصد، فهي جماعة ذات قصد واحد، وقد تطلق على الفرد الذي له همامة جماعة ذات قصد واحد، أم إمامة جماعة، وله الهمة العالية التي تخلق أمة على منهجه ومنهم إبراهيم: «إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (١٦: ١٢٠).
و ترى «أُمَّةً واحِدَةً» هنا ـ بالنسبة للناس ككلّ ـ هي أمة الهداية، أنهم كلهم كانوا على هدى قبل بعث النبيين؟ وهذه مستحيلة في نفس الذات، فان مختلف الأهواء والرغبات الإنسانية هي أسس عوامل الاختلافات الشاسعة بين الناس! وحين لم تجمع الناس وـ لن يجتمعوا ـ على هدى بدعوات الرسل، فكيف تجتمع ـ إذا ـ دون دعوة رسالية!.
ثم إذا كان القصد من بعث النبيين القضاء على الخلافات الإنسانية، فما هي الحاجة إليهم وهم على هدى! رغم أن الرسالات جعلت الناس في شطري الهداية والضلالة: «وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ» وأنهم جاءوا لرفع خلافات دائبة بينهم: «وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيَما اخْتَلَفُوا فِيهِ»! فما هي الهدى الواحدة بينهم؟!.
أم هي أمة الضلالة، أنهم كانوا ككلّ كفارا؟ وتراهم كلّهم بما ذا كفروا ولم يبعث بعد نبيون حيث: «فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ ..»! ثم وكيف يمكن الإجماع على ضلال الكفر لو كفروا بشرعة إلهية، وحملة

الشّرعة هم على هدى من ربهم، ولا يخلوا المرسل إليهم ـ لو كانت رسل ـ من استجابة مّا للرسالات! وحتى قبل الدعوات الرسالية، ليس الناس كلهم كفاراً بمبدإ الفطرة والعقلية الإنسانية!.

فلم يكونوا ـ إذا ـ لا مهتدين ولا كفارا، بل «كانوا ضلالاً لا مؤنين ولا كافرين ولا مشركين»[1]

حيث الدعوات الرسالية هي التي تخلق هذه الأمم الثلاث، والبشرية قبلها «أُمَّةً واحِدَةً»متماثلين في أصل الضلالة عن الهدى الرسالية، وهذا هو الذي يستتبع بينهم خلافات حسب مختلف الأهواء والرغبات «فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيَما اخْتَلَفُوا فِيهِ» على كونهم أمة واحدة، في الضلالة عن هدي الوحي، مهما كانوا مهتدين برسل الفطر والعقول، فإنها لا تكفي هدى لابقة لائقة بالإنسان بحيث تصبح الإنسانية أمة واحدة كاملة، إذاً فوحدة الأمة البشرية قبل بعث النبيين لا تعني عدم الإختلاف بأسره، بل وحدة في الضلالة عن هدى الوحي كما ولم يكونوا كافرين إذ لا وحي به يكفرون.

هذا! ولكن ما هو الجواب عن سؤل: متى كان الناس أمة واحدة فبعث اللّه النبيين؟ وقد بزغت الإنسانية برسالة الوحي، فآدم الرسول هو أوّل إنسان من هذه السلسلة، ثم من ولده وأحفاده كشيث وإدريس، وقد كان نبياً حسب النص «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا»(١٩: ٥٦) وكما تلمح آيات أو تصرح بأنبياء قبل نوح: «أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ» (١٩: ٥٨)، ثم وكيف يجوز في حكمة اللّه ورحمته أن تظل البشرية ردحا من الزمن أمة واحدة في ضلال ثم يبدو اللّه أن يبعث النبيين، فيحتجون ـ إذا ـ على اللّه كما قال اللّه: «وَ رُسُلًا قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَ كَلَّمَ اللّهُ مُوسى تَكْلِيماً. رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلّا يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَ كانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً»(٤: ١٦٥) ـ «وَ لَوْ أَنّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزى»(٢٠: ١٣٤).

ذلك! وإلى آيات أخرى تنص على تحليق الرسالات الإلهية على الأمم كلها دون إبقاء: «وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ» (١٦: ٣٦) ـ (وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ» (١٠: ٤٧) ـ (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ» (٢٢: ٦٧) ـ (وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلّا خَلا فِيها نَذِيرٌ» (٣٥: ٢٤).

فمتى كان الناس ـ إذا ـ أمة واحدة ضلّلا فبعث اللّه النبيين ..؟!

قد تعني «أُمَّةً واحِدَةً» للناس، وحدتهم في الضلالة: ـ لا على هدى كاملة ولا كافرين ـ انهم كانوا في الفترة الرسولية بين آدم وإدريس، ام وبين إدريس ونوح (عليهم السّلام)، فلم يكن في تلك الفترة نبي صاحب كتاب شرعة ولا نبوة، وانما دعوة رسالية لا رسولية في فترة بعيدة من الزمن جعلت الناس في

---

[1]. نور الثقلين ١: ٢٠٨ في تفسير العياشي عن يعقوب بن شعيب قال سألت أبا عبد اللّهعليه السلام عن الآية فقال: كان الناس قبل نوح امة واحدة فبد الله فأرسل الرسل قبل نوح، قلت: ا على هدى كانوا ام على ضلالة؟ قال: كانوا على ضلالة قال: بل كانوا ضلالا لا مؤنين و لا كافرين و لا مشركين.

وفيه عن المجمع و روي عن الباقر (عليه السلام) انه قال: كانوا قبل نوح امة واحدة على فطرت الله لا مهتدين و لا ضلالا فبعث الله النبيين.

الأكثرية الساحقة ضلّالا قاصرين بتقصيرهم في التحري عن الدعوة الرسالية الموجودة، مهما كان الوصول إليها والحصول عليها صعباً.

«فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِيِّينَ» أصحاب كتاب الشرعة الذي فيه تفاصيل زائدة على وحي الرسالة الخاصة بإرشاد الفطرة والعقلية الإنسانية إلى هداهما الخالصة.

فقد كانت في مثل هذه الرسالة كفاية للإنسان البدائي، دون حاجة ماسة ضرورية إلى تفاصيل أحكام النبوة المذكورة في كتابات النبوات.

فالأنبياء هم أصحاب كتابات الوحي الحاملة للشرعة الأحكامية زيادة على الرسالة الفطرية والعقلية، وليس الرسل كلهم يحملونها، كما ويذكر النبيون مع الكتاب دون الرسل إلّا النبيون منهم.

إذا فلم تمض على البشرية زمن الفترة الرسالية «لِئَلّا يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَى اللّٰهِ حُجَّةٌ»

بل هي إما فترة رسولية، أم فترة الأنبياء أو والنبوات، كما الأخيرة كانت بين المسيح ومحمد صلوات الله عليهما: «لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ..» ـ «لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ».

و لئن سأل سائل هل كان النبيون قبل نوح ـ وهم اصحاب كتب ـ كانوا من أولى العزم؟ وهم خمسة! ام لا؟ فكيف كانت لهم شرائع مستقلة مهما كانت لواحد منهم كإدريس! قلنا: النبوة مهما استلزمت كتاب الوحي ولكنها كتاب أكمل من كتاب الرسالة وهما مشتركان في عدم حمل شرعة سوى تدليل العقل والفطرة، أم ان العزم بكامله ليس إلّا في الخمسة.

و قد تعني «كان» فيما عنت كونا منسلخاً عن الزمان، ناظراً ـ فقط ـ إلى كيان الإنسان، أنه «أُمَّةً واحِدَةً» في الضلال ـ وعلى طول خط الحياة بخطوطها وخيوطها ـ ما لم يهتد بوحي النبوات الربانية، فلا تكفيه الفطرة والعقلية الإنسانية لإخراجه عن متاهة الضلالة وتيه الغواية، كيف ولم يخرج عنها تماماً على ضوء الدعوات الرسالية، ففريق لم يؤنوا، وفريق آمنوا ثم تفرقوا واختلفوا في نفس الشرعة التي هي عامل الوحدة.

ثم الإختلاف اثنان، اختلاف قبل النبوات هو طبيعة الحال القاصرة، فطرة بعصمتها الإجمالية، وعقلية خاطئة غير معصومة، واختلاف بعد النبوات بين حملة الشرائع بعد النبيين، وبين المحمول إليهم من جرّاء خلافاتهم في كل شرعة شرعة.

هذا، كما و«ما كانَ النّاسُ إِلّا أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا» (١٠: ١٩) قد تنظر إلى الاختلاف الثاني وهو في الدين، بعد الاختلاف الأول الذي اقتضى بعث النبيين.

كما وآيتنا تصرح بهذين الاختلافين فالأول هو المستفاد من: «لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيَما اخْتَلَفُوا فِيهِ» اختلافاً على وحدتهم في أمة الضلالة، فالهدف الأقصى والأسمى من بعث الله النبيين هو الحكم بين الناس المختلفين في أهوائهم ورغباتهم، والثاني يستفاد من: «وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ» ـ اي في كتاب النبوة ـ «إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ» علماء وجهالاً، حيث تذرعوا بعامل الوحدة لبثّ الإختلاف فيما هو الداعي إلى الوحدة، كما اختلفوا في القرآن في أبعاد أخراها الرجوع إليه كأصل ورأس للزاوية.

فهناك قبل إنزال الكتاب، أم قبل النظر المهتدي إلى الكتاب، اختلاف اوّل هو طبيعة الحال، قضية مختلف الأهواء والرغبات من ناحية، وقصور الفطر والعقول من أخرى.

ثم هنا إختلاف ثان هو في الكتاب، اختلافاً في تصديقه، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، واختلافاً آخر

بعد تصديقه، تثاقلاً عليه دون انتقال إلى الشرعة التالية، كاليهود المتثاقلين على شرعتهم تكذيبا للمسيح، والمسيحيين المتثاقلين على شرعتهم تكذيبا للقرآن، أم اختلافاً في الكتاب في حقله نفسه، إرجاعاً إليه كأصل، أم تركاً له إلى روايات وأقاويل لا أصل لها، ثم اختلافاً في الإرجاع، تحميلاً عليه آراء زينوها وراء الكتاب، أم رجوعاً إليه كما هو، تفسيراً بنفسه.

«وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ» فالذين أوتوه هنا ـ بطبيعة الحال ـ هم علماء الكتاب، لا الموحى إليهم إذ لا اختلاف بينهم ولا بغي، و لا الناس الجهال حيث لم يؤوا إلّا تكليفاً به ببيان علماء الكتاب.

فقد حملهم البغي بينهم على الإختلاف فيه، بين تكذيب واختلاف وإرجاع الى غيره، ثالوث يجمعه إهمال الكتاب عن أصالته في حقل الشرعة الإلهية.

و الاختلاف في الكتاب: الشرعة ـ أصلاً وفرعاً ـ قد يكون بغياً وتقصيراً، وهو المندّد به هنا وفي سواه، وأخرى قصوراً، ثم القصور قد يكون من مخلّفات التقصير من القاصرين او الذين سبقوهم، أم هو قصور مطلق مطبق، ولا يعذر إلّا الآخرون، ولو روعي الكتاب كأصل في كل فرع وأصل، لا سيما بتشاور في تفهمه، لقلت الخلافات في الكتاب.

و إنما تنشأ الإختلافات الكثيرة في الكتاب من عدم الرجوع الى الكتاب كما هو حقه، و عدم التأمل فيه حقه، ومن هنا تقبل الفتن على أهل الكتاب ثم لا تزول إلّا بالرجوع الى الكتاب حقه وكما يروى عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: «فإذا أقبلت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فانه حبل الله المتين وسببه الأمين لا يعوج فيقام ولا يزيغ فيستتب من جعله خلفه ساقه الى النار ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة..».

و الهدى الإلهية للذين آمنوا لما اختلفوا: ـ الذين أوتوه بغياً بينهم ـ ليست إلّا على ضوء الإيمان بالكتاب، والرجوع اليه كرأس الزاوية في شرعة الله، والعمل به وتطبيقه، فهنا يأتيه الهدى الفرقان: «إِنْ تَتَّقُوا اللّٰهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً ....».

و قد أمر الله بالوحدة على ضوء كتاب الشرعة وندد بالمختلفين: «وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتابِ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ» (٢: ١٧٦) (وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ» (٣: ١٠٥) (وَ ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ»(١٦: ٦٤) (إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»(٢٧: ٧٦).

و لقد أخذ حملة القرآن الذين حمّلوه يختلفون فيه لحد أخذوا يبحثون عن تحريفه وصيانته، وعن حجية ظاهرة أم عدمها، وعن الإفتاء بنصه او ظاهره إذا خالف شهرةً او اجماعاً أو روايات، وإلى أن ألغوه عن بكرته سنادا إلى أنه لايفهم منه مراده، أم خوفة من الإنزلاق في تفسيره بالرأي، وما أشبه ذلك من عوامل إبعاده عن حوزاته، وإقلاعه عن روضاته، وهنا يتجلى شكاة الرسول:

«وَ قالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً».

و في خضمّ الخلافات في كتاب الشرعة، بادئة من حملتها ومنتهية الى سائر المكلفين «فَهَدَى اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ» وكما وعد الله: «إِنْ تَتَّقُوا اللّٰهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً»فالإيمان الصالح غير الدخيل ولا المصلحي التجاري، إنه أساس الفرقان عند اختلاف الناس في كتاب الهدى، حملة ومحمولاً إليهم «وَ اللّٰهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ»: من يشاءه الله وهو من يشاء هدى بعد هدى في

الفتن الدينية العارمة التي تجعل من العلماء جهالا فضلا عن الجهال إلّا من هدى اللّه بهداه الصالحة المعبر عنها هنا ب«الَّذِينَ آمَنُوا»، فلا يخلوا أي مكلف في أي عصر او مصر عن هدى ربانية في مثلثها، فطرية وعقلية، وعلى ضوئهما هدى شرعية، مهما كانت شرعة أولي العزم، أمّا دونها كما كانت بين آدم ونوح عليهم‌السلام.

ففي زمن الفترة الرسولية لا تجد فترة رسالية، حيث الشريعة السابقة محكّمة فيها مهما صعب الوصول إليها والحصول عليها، فإن «أفضل الأعمال أحمزها».

و قد تعني «كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً» فيما عنت أنهم كانوا ضلالاً لردح من الزمن، وقد يكون بين آدم وإدريس عليهم‌السلام فان إدريس أوّل النبيين وما كان آدم إلّا رسولا، ومن ثم نوح ومن بعده من أولى العزم وسائر النبيين[1]، حيث النبوة هي الرفعة فهم ـ إذا ـ اولوا الرفعة والمنزلة بين المرسلين، ومن ميّزاتهم أن لهم كتباً: «وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ ...».

و لقد بزغت النبوة القوية بولاية العزم من نوح عليه‌السلام كما دلت عليه آيات، فهم حملة الشرائع المستقلة، فلم يكن أحد من النبيين سواهم ـ فضلاً عن المرسلين ـ أصحاب شرائع مستقلة، وقد شرحنا في سورة نوح[2] وجهة الشرعة الإلهية قبل نوح عليه‌السلام.

و قد تشبه هذه الأمة الواحدة قبل نوح، الأمة الواحدة قبل محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله زمن الفترة بينه وبين المسيح، مهما اختلفت فترة عن فترة وضلّال عن ضلّال.

و لقد كانت النبوات المصحوبة بكتابات الوحي، ولا سيما لأولى العزم، هي محاور الدعوات الربانية، والنبيون هم أقل من المرسلين بكثير، فكل نبي لا بد وهو رسول وليس كل رسول نبياً.

ذلك، ولقد بحثنا في طيات الفرقان حول الرسالات والنبوات وتحليقها على كل الأمم على ضوء آياتها فلا نعيد.

«.. فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ» ومنهم الأمة المهتدية الإسلامية حيث هداهم اللّه لما اختلفوا ـ هؤلآء الكتابيون ـ من الحق، إذ أوتوا القرآن المهمين على كل ما سبق، وكما يروى عن حامل لواء الحق: «نحن الأولون والآخرون، الأولون يوم القيامة وأول الناس دخولاً الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا اليوم الذي

---

[1]. نور الثقلين ١: ٢٠٨ في تفسير العياشي عن مسعدة عن أبي عبد اللّه عليه السّلام في الآية قال كان ذلك قبل نوح، قيل: فعلى هدى كانوا؟ قال: لا كانوا ضلّالا و ذلك بانه لما انقرض آدم (عليه السّلام) و صالح ذريته بقي شيث وصيه لا يقدر على اظهار دين اللّه الذي كان عليه آدم و صالح ذريته و ذلك ان قابيل توعده بالقتل كما قتل أخاه هابيل فسار فيهم بالتقية و الكتمان فازدادوا كل يوم ضلالا حتى لم يبق على الأرض معهم إلّا من هو سلف و لحق الوصي بجزيرة في البحر يعبد اللّه فبدا اللّه تبارك و تعالى ان يبعث الرسل و لو سئل هؤاء الجهال لقالوا قد فرغ من الأمر فكذبوا انما هو شيء يحكم به اللّه في كل عام ... قلت ا فضلّال كانوا قبل النبيين ام على هدى؟ قال: لم يكونوا على هدى كانوا على فطرة اللّه التي فطرهم عليها لا تبديل لخلق اللّه و لم يكونوا ليهتدوا حتى يهديهم اللّه أما تسمع يقول ابراهيم: «لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضّالِّينَ» اي ناسيا للميثاق.

[2]. ج ٢٩ الفرقان ص ١٤٥ حيث تحدثنا فيها حول اولى الشرائع الإلهية المستقلة.

اختلفوا فيه فهدانا الله فالناس لنا فيه تبع فغداً لليهود وبعد غد للنصارى»[1]
فالذين آمنوا ملحدين او مشركين ام هوداً او نصارى، آمنوا بشرعة الإسلام المتمثلة في القرآن، فهم المهديون لما اختلفوا من الحق بإذنه، حيث القرآن هو ميزان الحق.
و أما الذين كفروا من اهل الكتاب وسواهم فظلوا فيما ضلوا مرتكسين، لم يكن اللّه ليهديهم إذ لم يؤنوا بالهدى التي تهديهم، مهما ساد الفرق بين العلماء المقصرين والأميين القاصرين، ولكنه فرق في العذاب واللّاعذاب، دون ان يهدى القاصرون، ثم فرقة ثالثة هم عوان بين ذلك، إذ قلدوا علمائهم وهم يعلمون أنهم خائنون.
«وَ اللّٰهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ»: يهدي من يشاء الهدى فيشاء اللّه هداه، وجهان موجهان حيث المفعول مقدر يتحملهما دون اختصاص.
فالهدى الربانية في خضم الخلافات العارمة الضالة المضللة، إنها فرقان من اللّه وعدها المؤنون المتقون: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللّٰهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً»(٨:٢٩).
فهنالك فرقان على ضوء الإيمان بالقرآن فانه فرقان بين كل حق وباطل، وثم هنا فرقان فوقه على ضوء التقى بعد الإيمان، فإنها فرقان بين مختلف المذاهب الإسلامية، وفرقان بين كل المسالك الإيمانية.
فالتقى والإيمان الصالح هما جناحان يطير بهما المؤن التقي إلى آفاق الفرقان، كلما ازدادا ازداد وكلما نقصا نقص «وَ اللّٰهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ».
إن كتابات السماء ـ سوى القرآن ـ صرفت عن جهات أشراعها، وهيمنة القرآن عليها يبين الغث عن السمين والخائن عن الأمين.
و كتاب الوحي في كل أمة هو المحور الأصيل يقاس عليه كل ما سواه فيعرف الأصيل عن الدخيل، فلم ينزل كتاب الوحي ليمحو فوارق الاستعدادات والمواهب والطرائق و الوسائل، إنما جاء ليحتكم الناس إليه فيما هم فيه مختلفون.
فالإسلام يضع القرآن ليحكم بين الناس ـ كل الناس ـ فيما اختلفوا فيه قضية اختلاف الرغبات، ثم يحكم بين من أوتوا الكتاب فاختلفوا فيه ام اختلفوا عنه، ليحكم بينهم، فهو قاعدة البشرية جمعاء، فما قامت البشرية على القرآن فوحدة على الحق، وما أن خرجت عنها وقامت على قواعد اخرى فهذا هو الباطل على قدر انحرافه عن حق القرآن وانجرافه في البطلان، ولو ارتضاه الناس جميعاً في فترة من فترات التاريخ السوداء، فليس الناس هم أنفسهم الحكم في الحق والباطل، إنما هو إله الناس فيما ينزل على رسله إلى الناس، وسائر حملة الدين الحنيف تبييناً للقرآن وما وافق القرآن من السنة، دونما اي تدخل للآراء الفاضية عن برهان الحق وحق البرهان.
و من أعضل الداء بين جماعة ممن أوتوا الكتاب ان يختلفوا فيه من بعد ما جاءهم البينات بغيا بينهم، فهم في الحق ليسوا بمؤنين، إنما هم المرتكنون على حق الوحي في الكتاب ما وجدوا إليه سبيلاً، وهو الذي يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين، حيث البشارات الوفيرة في كتابات الوحي ترشد

---

[1]. الدر المنثور ١: ٢٤٢- اخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن أبي هريرة في الآية قال قال النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ...

المؤنين الحقيقين إلى ميزان الحق وقسطه وقسطاسه المطلق القرآن العظيم، كما يرشد حق الكتاب إلى كل حقّ لأمده.
لذلك «لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ أُولئِكَ مِنَ الصّالِحِينَ. وَ ما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَ اللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ»(۳: ۱۱۵).
ذلك! ولكن البغي فيمن بغى من أهل الكتاب ـ بغي الطمع والحرص وبغي الأهواء الطائشة ـ هو الذي يقود أصحابه بأصحابهم إلى المضي في الاختلاف على اصل التصور والمنهج، والمضي في التفرق واللجاج والعناد، ما يجعل أهليه أضل وأطغى من الضلّال الذين لا يعرفون شرعة من الحق.
ذلك! ثم «فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا» أيا كانوا: هوداً او نصارى او مسلمين «لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ» هداهم بما في نفوسهم من تجرد وصفاء ووفاء، وبما في قلوبهم من الرغبة الى الحق «وَ اللّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ».
و قد تنتهي هذه التوجيهات التي تستهدف إنشاء تصور إيماني صالح، بالتوجه إلى المؤنين الذين كانوا يعانون في واقعهم مشقة الاختلاف والشقاق بينهم وبين أعداءهم الألداد، فيطمئنهم أن ليس ذلك مزرئة في الإيمان، بل هو مزرعة لنمو الإيمان.
«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرّاءُ وَ زُلْزِلُوا حَتّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ»۲۱۴.
«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصّابِرِينَ»(۳: ۱۴۲) ـ (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَ لَمّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللّهِ وَ لا رَسُولِهِ وَ لَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَ اللّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ» (۹: ۱۶) «أَ حَسِبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ. وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ» (۲۹: ۳).
كلا! وانه حسبان قاحل باطل والدار دار الإمتحان، وعند الإمتحان يكرم المرء او يهان، فليس ـ فقط ـ الإيمان هو الكافل لهدي الصراط المستقيم، بل وصمود الإيمان عند كل ابتلاء وإمتحان، ولأن الأمة المرحومة هي آخر الأمم ورسالتها أكمل الرسالات، جامعة لها أجمع وزيادة، فلتحلّق عليها ابتلاءات الأمم كلها على ألوانها حيث النص «مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ» الشامل لكل الأمم الرسالية برسلهم، وكما ابتلي الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله بكل ما ابتلي به كل الرسل، كذلك أمته، فليأتها «مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا ..» ككلّ ودون إبقاء: ف «لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ» (۸۴: ۱۹) سنن من كان قبلكم، ولأنكم تحملون أعظم الرسالات الإلهية، وانما يقدّر الابتلاء بقدر الحمل والثقل.
و لقد أصاب النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله يوم الأحزاب وأصحابه بلاء وحصر[1] وكما قال اللّه:
«إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونَا. هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً، وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللّهُ وَ رَسُولُهُ إِلّا غُرُوراً» (۳۳: ۱۲).

[1]. الدر المنثور ۱: ۲۴۳- اخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة في الآية قال نزلت في يوم الأحزاب ...

و في مواقف أخرى لا نحصيها، قلنا يا رسول اللّه أ لا تستنصر لنا أ لا تدعو اللّه لنا؟ فقال: إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه، و يمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه، ثم قال صلى‌الله‌عليه‌وآله: «ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»[1]، وقال صلى‌الله‌عليه‌وآله: «ان اللّه ليجرب عليكم بالبلاء وهو اعلم به كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز فذلك الذي نجاه اللّه من السيئات ومنهم من يخرج كالذهب الأسود فذلك الذي قد أفتتن[2].

و هكذا يخاطب اللّه الجماعة المسلمة الأولى ـ والى البقية حتى الأخيرة ـ توجيهاً إلى تجارب الجماعات المؤنة التي خلت من قبل، وإلى سنته السنية في تربية عباده المختارين، الذين يكل إليهم راية الإيمان، وينوط بهم أمانة الإيمان، خطاباً مطرداً لكل من يختار لذلك الدور العظيم.

و إنها تجربة حلوة مرة مرت مع الزمن الرسالي على مدار الزمن، ان تمسهم البأساء والضراء: الشدة التي تصيب الإنسان خارج نفسه او داخلها[3] فيزلزلوا على صامد إيمانهم «حَتّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللّهِ» فيجابوا: «أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ»مهما بعدت مدته، فان كل آت قريب، ولا سيما لهؤآء الذين ينصرون اللّه فانه هو ناصرهم قريباً ام بعيداً وهو على أية حال قريب.

إن نصر اللّه مدخر لمن يستحقونه، موعود لهم حين يستحقونه، وهم الذين لا تزل بهم الزلازل، ولا تزعزعهم عن إيمانهم القلاقل، ولا يحنون رؤسهم للعواصف، ولا تكسر ظهورهم بالقواصف، حتى تبلغ البأساء والضراء والزلزال ذروتها، فملئت الأرض ظلماً وجوراً، فهنالك يبعث اللّه مهدي الأمم وصاحب الكلم صاحب العصر وإمام الدهر الحجة بن الحسن القائم عجل اللّه تعالى فرجه الشريف، الذي به يملأ اللّه والأرض قسطا وعدلاً كما ملئت ظلما وجورا.

ذلك نصر اللّه المطلق المطبق، ثم له نصر قبله قدر ما حاولوا وجاهدوا في اللّه: «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلّا ما سَعى».

فلقد وعد اللّه المرسلين والمؤنين النصر: «إِنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» (۴۰: ۵۱) ولكن البأساء والضراء قد تزلزلان المؤنين حتى يضطر الرسول ان يقول: متى نصر

---

[1]. المصدر اخرج احمد و البخاري و ابو داود و النسائي عن خباب بن الأرت قال قلنا يا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ...

[2]. المصدر اخرج الحاكم و صححه عن أبي مالك قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ...

[3]. قال ابن عباس: لما دخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المدينة اشتد الضرر عليهم لأنهم خرجوا بلا مال و تركوا ديارهم و أموالهم في ايدي المشركين و أظهرت اليهود العداوة لرسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فأنزل اللّه: ام حسبتم..»
و قال قتادة و السدي: نزلت في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد و الحزن و كان كما قال اللّه: و بلغت القلوب الحناجر و تظنون باللّه الظنونا.

اللّه «حَتّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا» (١٢: ١١٠). وذلك استيئاس من إيمان من كفر واطمئنان من آمن، فعند ذلك «جاءَهُمْ نَصْرُنا».

و هنا ضمير الجمع في «ظَنُّوا أَنَّهُمْ» راجعان الى المرسل إليهم الذين أيأسوا الرسول من إيمانهم إذ تسبقهما: «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَ فَلا تَعْقِلُونَ».

لذلك استيأس الرسل من المكذبين ومن تقدم دعوتهم فيهم «و» الحال انهم أولاء المكذبين «ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا» في هذه الرسالات، أن كذبهم الرسل فيما جاؤ به، وذلك تكذيب لرسالاتهم، والتعبير بالظن ـ وهو هنا الحسبان ـ لأنهم لا يملكون أية حجة تؤد لهم كذبهم، بل الحجج الصادقة تصدقهم، فإنما ظن هؤلآء الأوغاد المناكيد كما يظن الدهريون، ظناً هو أدنى من الوهم إذ لا يملك أية حجة حتى على الوهم، فضلاً عما فوقه أو راجح الإعتقاد.

و عند استيئاس الرسل وذلك الظن الكافر البائس «جاءَهُمْ نَصْرُنا» بخارقة ربانية تثبت حقهم وباطل مناوئيهم «فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ» رسلا ومصدقين لهم «وَ لا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ» بحق الرسل والرسالات.

و قد تعني «فَظَنُّوا أَنَّهُمْ» ـ فيما عنت ـ الرسل، أنهم لطول استيئاسهم عن المرسل إليهم، ـ كفراً من بعض ونفاقاً من آخرين، وزلزال الإيمان من جمع من المؤنين ـ «ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا» كذبهم كل هؤآء. فالكافرون كذبوهم صراحاً، والمنافقون نفاقاً، والمؤنون ضعفاً في الإيمان، وإنما جاء الظن ليشمل الكل، مهما كان ظنهم بالنسبة للكافرين يقينا وبالنسبة للمنافقين ظناً قوياً ضارباً إلى علم، وبالنسبة للمزلزلين من المؤنين ظناً خفيفاً طفيفاً، إذ إنهم إن كانوا صادقين في إيمانهم لما زلزلوا.

ذلك ـ كما وإن «مَتى نَصْرُ اللّهِ» بعد «وَ زُلْزِلُوا» قد تؤد ذلك الظن.

هذا! والجمع بين المحتملين أجمع وأجمل، ظنا من الرسل هكذا وظنا من غير المؤنين، بل والمؤنين الضعفاء، وهكذا يبتلى المؤنون بزلازل الإيمان تمحيصا لهم.

هذا! وكما يحتمل بجنبه أن يكون «أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ» من اللّه الى الرسول فأجاب بما قال اللّه، وقد نجد لذلك اللف والنشر نظائر في القرآن منها: «وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» (٢٨: ٧٣) حيث الأول للأول والثاني للثاني، وفي آيتنا عكس الأمر رعاية لحرمة الرسول «حَتّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ» ثم قدم مقالة المؤنين «مَتى نَصْرُ اللّهِ» لأنها سؤل يتقدم على الجواب، ثم الجواب «أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ» وقد يكفي هذا جواباً ويفي عن السؤل: كيف يقول الرسول: متى نصر اللّه؟ استبعاداً له واستعجاباً؟ حيث الرسول لا يقول قوله هذا إلّا رعاية للذين آمنوا معه خوفة على تزعزعهم، ولا يعدوا قوله هذا عن كونه دعاءً واستدعاءً وكما امر اللّه: ادعوني استجب لكم، ولو لا جانب المؤنين المتزلزلين لكانت حاله: علمه بحالي حسبي وكفاني، كما نعرفه من صبره العظيم أمام الرزايا الفادحة والبلايا القادحة وكما أمر «فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ» ولكنه مع ذلك يؤر للمؤنين: «وصل عليهم» استرحاماً لهم في زلازلهم.

و قد يكون «مَتى نَصْرُ اللّهِ» من الذين آمنوا معه، ثم «أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ» جواباً للرسول عن سؤلهم، ولو كان السؤل منه كما منهم لكان صحيح التعبير او أصحه «متى نصرك يا رب».

«مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَ ما كُنّا مُعَذِّبِينَ حَتّى نَبْعَثَ رَسُولًا» (١٥).

ضوابط ثلاث تضبطها هذه الآية لا محيد عنها ولا مناص:

١ ـ إن الاهتداء والضلالة تنحصران نفعا وضرا بأصحابهما وتنحسران عن سواهما، ف «كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ» (٧٤: ٣٨) دون رهانة بما لم تكسب او كسبت غيرها، فالعمل الطائر ـ رغم زعم الجاهلية ـ كما لا يطير عن عامله الى الفناء، كذلك لا يطير عنه بتبعته الى سواه، وإنما التبعة الفردية تربط كل انسان بنفسه: «قُلْ يا أَيُّهَا النّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ»(١٠: ١٠٨).

ترى إذا اختصت الضلالة والهدى بمن ضل واهتدى، فكيف يؤر المهتدون أن يهدوا، وينهى الضالون ان يضلوا؟

الجواب: أن الحصر هنا نسبي يعني ـ فقط ـ نفي انتقال الهدى والضلالة بآثارهما الى غير أصحابهما، كما تعنيه آية الطائر، ولا يعني عدم بث الهدى ام ماذا؟

٢ ـ (وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى» إن الهدى والضلالة هما لزام أصحابهما، ما من احد يحمل او يتحمل حمل احد ولا يحمله ولو كان ذا قربى: «وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى» (٣٥: ١٨) وإن وزرت كمثلها او تزيد إذا أضلت غيرها، ولكنها ليست لتخفف في حمله حمل التي ضلت بإضلالها: «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ. وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمّا كانُوا يَفْتَرُونَ» (٢٩: ١٣) فهؤلاء المضللون يحملون وزري ضلالهم وإضلالهم: أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم دون ان ينقص من أوزار من ضلوا بهم شيء: «لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ» (١٦:) ٢٥) (مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها وَ مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها ....» (٤: ٨٥)[1]

تعني هذه الضابطة فيما تعني أن أولاد الكفار ـ الصغار ـ لا يعذبون بكفر آباءهم[2] كما أن أولاد

---

[1]. حديثه متظافر و راجع تفسير آية الوزر في ج ٢٧ ص ٤٥٠- ٤٥٧ سورة النجم من الفرقان، ترى فيه حوارين حول آية السعي و الوزر جوابا عمار بما يسأل حولها.

[2]. الدر المنثور ٤: ١٦٨- اخرج قاسم بن اصبغ و ابن عبد البر عن انس رضي اللّه عنه قال: سألنا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) عن أولاد المشركين قال: هم خدام اهل الجنة.

أقول: لماذا خدامهم و ليسوا منهم كما هم؟ لأنهم لم يعملوا اعمالهم فليسوا في درجاتهم و خدمتهم لأهل الجنة لا تكلف فيها و هي رحمة لهم و أولاء.

وفيه و اخرج ابن سعد و احمد و قاسم بن اصبغ و ابن عبد البر عن خنساء بنت معاوية الضمرية عن عمها قال: سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) يقول: النبي في الجنة و الشهيد في الجنة و المولود في الجنة و الوئيد في الجنة.

المؤنين لا يثابون بإيمانهم، وان كانوا جميعاً من اهل الجنة، لطفاً بهم حيث لم يـذنبوا، وعطفـاً زائـداً بآباء مؤنين. حيث الاجتماع لهم بـأولادهم الصـغار حظـوة لهـم ورحمـة[1] ومختلـف الحـديث حـول العذاب[2] واللّاعذاب معروض على الآيات الناكرة لعذابهم، حيث «لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى» ثم وبـالموت ينقطع التكليف فلا يكلفون بشيء في الأخرى[3].

و ترى القاعدة الفقهية (الدية على العاقلة) هل تعرقل قطعية هذه الضابطة، وهي مـن العمومـات الآبية عن التخصيص؟.

الجواب ان لا ذنب للقاصر حتى يؤذ به عاقلته، ثم وغض النظـر عـن الديـة إجحـاف عـلى صـاحب الحق، والقاصر لا يملك الدية، وإن ملكها فالعاقلة أحرى بتأدية الديـة، إذ كـان عليـه تربيـة القـاصر والحفاظ عليه كيلا يجني جنايته، فإذا وقعت الجناية كان أقل ما يؤذ عليه العاقلة ـ الدية، فالعاقلة إذا وازرة وزر نفسها!.

أو أن الدية ليست وزر الجناية، إنما هي بحكم اللّه على العاقلة ـ كما عليه نفقة القاصر، حفاظاً عـلى حق المجني عليه، ولا أحق هنا من العاقلة ولاية له على القاصر.

او ان الدية جامعة الأمرين دون أن يكون هناك وزر على القاصر، اللهم إلا وزراً على العاقلـة بمـا لـه ولاية، وهذا الجمع أجمل.

ثم ترى ان مواصفة النفس بالوازرة حيث لا تزر وزر اخرى هلّا تخرج نفسا غير وازرة و هي العادلـة المعصومة عن الوزر؟ وإذا لا فلما ذا «وازرة» وإذا بلى فلتكن غير الوازرة وازرة وزر اخرى او آهلـة ان تتحمل حملها! علّ الوازرة هي التـي تحـاول ان تـزر وزر اخـرى وان لم تكـن وازرة لنفسـها، ثـم إنّ المعصومة كيف تزر ولماذا؟ فهل تزر وزرا اخرى تبرءة لها بتحمـل وزرهـا فتعصي بعصـيانها وتعـذّب بعذابها؟ وهذا خروج عن العصمة ثم وخروج عن حكم الآيات الناكرة لهذه النيابة النكـدة «يَوْمـاً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَ لا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ» (٢:) ٤٨).

ام تزر إبطالا لعقوبته عن الاخرى وعن نفسها، وهذا غفران دون سبب وليس الغفران بسببه ايضا إلا

---

[1]. راجع ج ٢٧ من الفرقان تفسير الآية الحقنا بهم ذريتهم تجد فيه بحثا فصلا حول الموضوع.

[2]. في الدر المنثور ٤: ١٦٨ باسناده الى الصعب بن جثامة رضي اللّه عنه قال قلت يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) اني قضيت في البنات من ذراري المشركين؟ قال: هم منهم- أقول تطرده آية الوزر و أمثالها، و لا يصلحه المروي عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فيما أخرجه ابن عبد البر في التمهيد بسند ضعيف عن عائشة قالت سألت خديجة (رضي اللّه عنها) رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) عن أولاد المشركين فقال: هم مع آبائهم ثم سألته بعد ذلك فقال: اللّه اعلم بما كانوا عاملين ثم سألته بعد ما استحكم الإسلام فنزلت «وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى» فقال: هم على الفطرة او قال: في الجنة.

أقول: و هذه فرية وقحة على الرسول انه حكم على خلاف العقل و العدل ان أولاد المشركين معهم، دون سناد الى وحي، و لم يكن الرسول يحكم الا بوحي، و لا حتى بعقله المنير الذي فاق العقول فكيف يحكم بما يخالف العقل و الوحي معا و حتى إذا كان السؤل قبل نزول آية الوزر فليصبر حتى يحكم اللّه، او يحكم بما نزلت قبل من آيات تنص بعدل اللّه و فضله ام على اقل تقدير يحكم بعقله!.

[3]. فالروآيات القائلة انهم يمتحنون بما يكلفون يوم القيامة مئولة او مضروبة عرض الحائط.

للّه «و هل يغفر الذنوب إلا الله» ثم وليس هذا حملا لحمل اخرى! ... وَ ما كُنّا مُعَـذِّبِينَ حَتّـى نَبْعَـثَ رَسُولًا.

ترى ما هو العذاب المنـوط ببعـث الرسـول؟ وهـل إن بعثـه دون وصـول بلاغـه كـاف في اسـتحقاق العذاب؟

هل يعني هذا العذاب مطلق العذاب، حتى المستحق بالتخلف عن وحـي الفطـرة والعقـل، او عـن وحي الشعور لغير ذوي العقول؟ وإن عذاب ربك لواقع في اي تخلف! ف «ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ» (۶: ۳۶) ولا يعني حشرهم الى ربهم إلا جمعهم اجمع الى ربوبية الجزاء الثواب او العقاب، لا سيما في العصيانات الظالمة الفاحشة، فالله أعدل من ان يترك الظالم ولا يأخذه لا في الدنيا ولا في الآخرة[1]: (وَ لا تَحْسَبَنَّ اللّهَ غافِلًا عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ ...»(۱۴: ۴۲) مهما كان الظلم يشعر بشعور، ام بفطرة او عقل، ام بوحي النبوة، وان كانت تختلف بمختلف مراتب الإدراك.

و القاعدة الاصولية العقلية «قبح العقاب بلا بيان» لا يصح أن تعني خصوص بيان وحي النبـوة، فـإن وحي الشعور بيان، ووحي الفطرة بيان، ووحي العقل بيان، وإن كـان بيـان الشرـع أشـمل، كـما وان تكليفه أعضل.

و الآيات التي تعذر العذاب لو لا بعث الرسل، لا تعني إلا العذاب الناتج عن عصيان هؤلآء الرسل، لا مطلق العذاب المستحق بعصيان سائر الرسل: شعورا وفطرة وعقلا! و إنما «رُسُلًا مُبَشِّرِـينَ وَ مُنْـذِرِينَ لِئَلّا يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ» (۴: ۱۶۵) حجة أننا كانت لنا هدى فوق ما تهـدينا إليهـا عقولنا بالرسل فلما ذا لم تبعث إلينا رسولا، ثم وحجة ألّا عقاب في عصيان الرسل ولم تبعـث الرسـل! بل ولا عصيان إذا في خلافهم قبل بعثهم، بل لا يحصل إذا خلاف.

او تعذر عذاب الاستيصال الناتج عن التخلف الفاحش المتهدم للرسالات.

«وَ لَوْ أَنّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزى» (۲۰: ۱۳۴).

علّه أو انه المقصود هنا فحسب، أو هو القدر المتيقن كما توحي له «ما كنا»ك «لَوْ أَنّا أَهْلَكْناهُمْ»حيث تعطف الى العذاب الماضي وهو الاستئصال في الدنيا، ايحاءً برحمـة رحيميـة في سـنة دائبـة إلهيـة ألا عذاب في الأولى حتى يبعث رسولاً ثم يعصى بما لا تتحملها رسالة ولا حياة انسانية، وكـما تـوحي لـه التالية المقررة لظرف هكذا عذاب: «وَ إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً ...»

---

[1]. نور الثقلين ۱: ۵۹۲ عن الفقيه ان النبي صلى الله عليه و آله و سلم ابصر ناقة معقولة و عليها جهازها فقال: اين صاحبها؟ مروه فليستعد للخصومة.

وفي المجمع عن أبي ذر قال: بينا انا عند رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) إذا انتطحت عنزان فقال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): أ تدرون فيما انتطحا، فقالوا: لا ندري قال: و لكن الله يدري و سيقضي بينهما.

وعن الكافي باسناده الى الكلبي النسابة قال قلت لجعفر بن محمد (عليه السلام) ما تقول في المسح على الخفين؟ فتبسم ثم قال: إذا كان يوم القيامة ورد الله كل شيء الى شيئه ورد الجلد الى الغنم فترى اصحاب المسح اين يذهب وضوءهم!

وَ كَمْ أَهْلَكْنا ....» ان إهلاك القرى لا يراد إلا في هكذا عصيانات.
إذاً ففي عصيان وحي الشعور ـ كما للطير والدواب ـ عذاب قدره يوم الحشر ـ قليلاً، دون الدنيا والبرزخ إلا قليلا، وفي عصيان وحي الفطرة والعقل كذلك واكثر قد يكفيه عذاب في البرزخ. وفي عصيان غير فاحش لوحي النبوة عذاب في البرزخ او في الحشر، ثم وفي عصيان فاحش لوحي النبوة حيث يهدم أركان بناية المجتمع عذاب الاستئصال في الدنيا ثم وفي البرزخ والحشر ـ عذاب دائب اليم، فالمعذب في الدنيا للعصيان الطغيان يعذب بالأحرى في البرزخ والأخرى، وليس كل معذب فيهما يعذب في الأولى.
و قد تشمل «ما كنا» عذابي الأولى والاخرى في نطاق التكاليف الرسالية، لا مطلق العذاب وإن في نطاق التكاليف الثلاثة الاخرى[1] ولا خصوص الأولى، فكما العذاب الأدنى في التخلف عن وحي الشعور ليس إلا في حاضر الشعور، ثم أعلى منه في الفطرة، فأعلى في العقل، كذلك الأعلى تخلفا عن وحي الشريعة في العصيانات العادية، ثم التخلف القمة في الأولى قبل الاخرى عذاب الاستئصال والتدمير، وليس الا في حاضر الرسالة. للقاعدة العقلية «قبح العقاب بلا بيان» الشاملة له ولما قبله.
فلا تعني «حَتّى نَبْعَثَ رَسُولًا» إلا بيان الرسالة ببلاغها، إن للمترفين الطاغين فعذاب الاستئصال هنا ام للناس أجمعين فعذاب في الاخرى، وإن كان القدر المتيقن هو الأولى وفي هامشه الاخرى، ثم العصيان في أية رسالة من الرسالات الخمس يخلف وجوب العقاب إذا كان ظلما وتعديا على الخلق أيا كان، أو جوازه إذا كان تقصيرا بحق الخالق دون خلقه، ولم يكن في تركه تسوية ظالمة بين المطيع والعاصي، فالسماح عن بعض المعاصي هو قضية الفضل والرحمة الواسعة كما في المستضعفين
«إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً» (۴: ۹۹) هذا السماح ليس ظلما وتسوية، واما السماح عن اي ظلم بالنسبة للخلق دونما أي مقابل فهو ظلم بعيد عن ساحة العدل الرباني.
و «حَتّى نَبْعَثَ رَسُولًا» تعني الرسالة البالغة الى المكلفين بأحد شطريها، ثم الثلاث الاخرى كذلك البالغة الى مكلفيها، ففي كل رسالة بالغة على حدها حجة، وفي التخلف عنها جواز او وجوب العذاب، من دنيوي بسيط الى برزخي بمراتبه، إلى أخروي كذلك، والى عذاب الاستئصال في الدنيا اضافة الى الاخرى.
ثم وبعث الرسول يحمل أمرين: بلوغ المرسل إليهم وبلاغ الرسالة، حيث الرسالة الى غير البالغ قاصرة المفعول، والرسالة غير البالغة الى البالغين ليست رسالة، وكما للبلوغ درجات كذلك للرسالة الى البالغين درجات، والثواب والعقاب يقدران على قدر الدرجات: «وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ» (۶: ۱۹): بلغ هو وبلغته الرسالة.
و البلاغ يتطلب أمرين: بلوغ المبلّغ إليه عقلا فتكليفا، ووصول الرسالة اليه واضحا وبليغا، لذلك فمن الناس من ليس عليه اي تكليف كالمجانين، ومنهم من يكلفون تكاليف حسية دنيوية كما يعقلون، كالصغار العقلاء، ومنهم من يكلفون كذلك وقسما من الأخروية دون إطلاق كالسفهاء وسائر

[1]. شعورا و فطرت و عقلا.

المستضعفين، والأخيران عسى الله ان يعفو عنهم إذا لم تكن السفاهة والاستضعاف بذات أيديهم وتقصير منهم، حيث التقصير أيا كان يتطلب جزاء على قدره ف «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِيراً. إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلا فَأُولئِكَ عَسَى اللّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُوراً» (۴: ۹۹).

فالرسالة غير البالغة الى المكلفين دون تقصير منهم، او البالغة الى غير البالغين كالمجانين ثم البلـه ثـم المستضعفين القاصرين، هذه الرسالة لا تحتم أي عذاب في نطاقها وكما لا تجوزه خلافا لما يروى[1].

كما وان البيان الرسالي كلما ازداد إزداد تحتم العقاب وقدره، كالحاضرين بلاغ الرسالة، والذين منحوا عقلا او علما زائدا «فإنما يداق الله العباد يوم القيامة على قدر عقولهم»[2]: وعيّهم للبلاغ ثم ويعاكسه كلما نقص البيان الرسالي او انتقصه المرسل إليهم قصورا، كالغائبين البعيدين عن بلاغ الرسالة، والذين لم يمنحوا عقلا راجحا او علما زائدا، فقضية العدل الرباني هو العقاب قدر التخلف وكيانه واثره، مع ما تقتضيه الرحمة الالهية لانتقاص العذاب او تركه ما لم يخالف العدل، فالثواب من آثار الفضل والرحمة والعقاب من آثار العدل والرحمة.

و الأحاديث المروية عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله أن المعذورين هنا يكلفون يوم القيامة فيثابون إن أطاعوا ويعذبون إن عصوا، إنها تخالف الضرورة الإسلامية القائلة: «إن اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل» المستفادة من آيات بينات وتواتر الروايات.

ثم لو اعطوا هنا لك عقولا كافية لم يكونوا ليعصوا الله تعالى وهو رسول نفسه دون حجاب الرسالات الاخرى. وهو يوم تكشّف الحقائق وهم يرون مع ما يرون ـ الجنة والنار!.

ثم ان «و ما كنا»[3] إنما تنفي عذاب الاستئصال «حَتّى نَبْعَثَ رَسُولًا» ان جواب هكذا عذاب ليس الا في

---

[1]. في الدر المنثور ٤: ١٦٨ باسناده عن الأسود بن سريع ان النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: اربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئا و رجل أحمق و رجل هرم و رجل مات في الفطرة، فأما الأصم فيقول: رب لقد جاء الإسلام و ما اسمع شيئا و اما الأحمق فيقول: رب جاء الإسلام و الصبيان يحذفونني بالبعر و اما الهرم فيقول: رب لقد جاء الإسلام و ما اعقل شيئا و اما الذي مات في الفطرة فيقول: رب ما اتاني لك رسول فيأخذ مواثيقهم ليطعنه و يرسل إليهم رسولا ان ادخلوا النار قال: فو الذي نفس محمد بيده لو دخلوها كانت عليهم بردا و سلاما و من لم يدخلها اسحب إليها.

وفيه عن انس قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) يؤى يوم القيامة باربعة بالمولود و المعتوه و من مات في الفطرة و الشيخ الهرم الفاني كلهم يتكلم بحجته فيقول الرب تبارك و تعالى لعتق من جهنم ابرزي و يقول لهم كنت ابعث عبادي رسلا من أنفسهم و اني رسول نفسي إليكم فيقول لهم: ادخلوا هذه، فيقول من كتب عليه الشقاء يا رب أ ندخلها و منها كنا نفر، قال: و اما من كتب له السعادة فيمضي فيقتحم فيها فيقول الرب قد عانيتموني فعصيتموني فأنتم لرسلي أشد تكذيبا و معصية فيدخل هؤاء الجنة و هؤاء النار.

[2]. الكافي باب العقل و الجهل عن الإمام الصادق عليه السلام.

[3]. قد تكون «كنا» هنا منسلخة عن اي زمان؟ و العذاب و اللاعذاب و بعث الرسل زماني! ... او انها منسلخة عن مضيها فتشمل مثلث الزمان، فهي إذا تنفي مربع العذاب في مثلث النشآت، الناتج عن عصيان الرسل؟ و هذا اشمل الاحتمالات و أجملها! ... او انها

ظرف بعث رسول، لا أن بعث رسول وعصيانه أيا كان يقتضي هكذا عذاب، وإنما إذا أمر المترفون ففسقوا، ف «إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ ...» بيان لنطرف عذاب الاستئصال «وَ إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً»(١٦).

هنا أسئلة عدة تطرح حول مواضيع من هذه الآية إذ كثرت الأقاويل حول الاجابة عنها:

١ ـ كيف تتقدم ارادة الإهلاك على موجبه «فَفَسَقُوا فِيها»

و موجب الإهلاك ليس إلا قبل إرادته، فإن كانت متعلقة بعذاب مستحق بغير هذا الفسق لم تكن لها صلة بهذا الفسق، وإن كانت به نفسه فكيف تتقدمه، او انها إرادة لإهلاك قرية دون صلة لها بأي فسق؟ ثم كيف يتخلف مراد اللّه عن ارادته ـ وهي نافذة ـ بما يقدّمه من تقدير للفسق؟

أقول: إنها إرادة للإهلاك بفسوق القرية عامة، حيث الآية السالفة بينت مورد استحقاق العذاب انه في ظرف بعث الرسول وعصيانه، فهنا استحقاق قاطع لعذاب الاخرى، واستحقاق جائز لعذاب الأولى لا يتطلب إلا ارادة الإهلاك دون إمضاءه فتحقيقه، ومما يوحي بذلك واو العطف في «وَ إِذا أَرَدْنا» حيث تعطف إرادة العذاب هذه الى بعث الرسول فعصيانه.

و ارادة اللّه منها حتم ومنها دون ذلك، فحتمها لا مردّ لها «وَ إِذا أَرادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ»(١٣: ١١) ودونه فيه مرد وبداء وهي التي لم تكمل بعد معداتها، ولا مرد في إرادة التكوين حيث هي حتم «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (٣٦: ٨٢) وقد يكون مرد منه او تصبر حتى يحصل منجزاتها فيما دون هكذا تكوين كإهلاك قرية فاسقة لم تتم منجزات استئصالها كفسوق مترفيها عما أمروا به فيها.

فهنا إرادة للإهلاك بعدها تقدير لتحقيقها: «أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها»

فقضاء: «فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ»

فإمضاء: «فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً»

كما وقبلها مشية وعلم، وقبل هذه المشية ايضا تقدير لها هو عصيان القرية للرسول حيث يتطلب عذابا محتوما في الأخرى وآخر غير محتوم في الأولى.

فقد علم اللّه ان اهل هذه القرية فسقت ومن ثم يفسق مترفوها إذا أمروا فيها، فشاء أن يهلكهم فأراده، فقدر ما أراد بما أمر مترفيها ففسقوا فيها، فقضى ما قدر بما حق عليها القول، فأمضى ما قضى ـ «فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً»[١].

و كما سئل الإمام الباقر عليه‌السلام كيف علم اللّه؟ قال: علم وشاء وأراد وقدر وقضى ـ وأمضى ـ فأمضى ـ ما

تعني خصوص الماضي دون نفي للمستقبل، ان السنة الإلهية مستقرة في اللاعذاب الاستئصال في ماضي الاولى او مستقبلها، ثم الاخيرة هي القدر المتيقن و المورد للآتين بعدها، الا ان بعث الرسل بمجرده و التخلف عنهم أيا كان لا يقتضي عذاب الاستئصال، اللهم الا ان يعنى ظرف الاستئصال انه بلاغ الرسل فعصيانهم المتهدم كما توحيه آية المترفين.

[١]. فلمشية العذاب و ارادته تقدير هو عصيان عامة القرية، و لتحقق كلمة العذاب.

تقدير هو ان يؤر مترفوها فيفسقوا فيها.

قضى وقضى ما قدر وقدر ما أراد، فبعلمه كانت المشية، وبمشيته كانت الإرادة وبإرادته كان التقدير، وبتقديره كان القضاء وبقضائه كان الإمضاء، فالعلم متقدم على المشية والمشية ثانية، والارادة ثالثة والتقدير واقع على القضاء بالإمضاء، فللّه تبارك وتعالى البداء فيما علم متى شاء وفيما أراد لتقدير الأشياء، فإذا وقع القضاء بالإمضاء فلا بداء[1].

إنّ مشيته تعالى هي همه بالشيء وهي ابتداء الفعل، وإرادته هي إتمامه على المشية و الثبوت عليها، وتقديره هو الهندسة من الطول والعرض والبقاء، وكما يروى عن أبي الحسن الرضا عليه‌السلام[2] فلكل ارادة تقدير حتى تنتهي إلى إرادة محتومة فقضاء وإمضاء والقضاء هو حق القول:

تحتم كلمة العذاب ولم تكن قبل هذا التقدير محتومة وإنما جائزة[3].

ثم الإرادة حتما ودونه هي صفة فعل حادثة وليست أزلية وكما في حوار الإمام الرضا عليه‌السلام مع سليمان المروزي

قال عليه‌السلام: الا تخبرني عن قول اللّه عز وجل: «وَ إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً ...»

يعني بذلك أنه يحدث ارادة؟ قال: نعم ـ قال: فإذا أحدث إرادة كان قولك:

إن الإرادة هي هو او شيء منه باطلا، لأنه لا يكون ان يحدث نفسه، ولا يتغير عن حاله تعالى اللّه عن ذلك! قال سليمان: إنه لم يكن عنى بذلك أنه يحدث إرادة قال عليه‌السلام: فما عنى به؟ قال: عنى فعل الشيء، قال عليه‌السلام: ويلك كم تردد في هذه المسألة وقد أخبرتك أن الارادة محدثة لأن فعل الشيء

---

[1]. التوحيد للصدوق رحمه اللّه.

[2]. محاسن البرقي عن أبي الحسن عليه السلام ليونس: لا تتكلم بالقدر، قال:
اني لا أتكلم بالقدر و لكن أقول: لا يكون الا ما أراد اللّه و شاء و قضى و قدر فقال:
ليس هكذا أقول و لكن أقول: لا يكون الا ما شاء اللّه و أراد و قدر و قضى ثم قال:
أ تدري ما المشيئة فقال: لا- فقال: همه بالشيء (ابتداء الفعل) او تدري ما أراد؟
قال: لا، قال: إتمامه على المشيئة (الثبوت عليه) فقال او تدري ما قدر؟ قال: لا، قال: هو الهندسة من الطول و العرض و البقاء ثم قال: ان اللّه إذا شاء شيئا اراده و إذا أراد قدره و إذا قدره قضاه و إذا قضاه أمضاه الحديث. و رواه مثله من «ان الله» في محاسن البرقي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام).
وفي اصول الكافي ١: ٤٨ ح ٣ عن صفوان بن يحيى قال: قلت لأبي الحسن (عليه‌السلام) اخبرني عن الارادة من اللّه و من الخلق؟ قال فقال: الارادة من الخلق الضمير و ما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل و اما من اللّه تعالى فإرادته احداثه لا غير ذلك لأنه لا يروي و لا يهم و لا يتفكر و هذه الصفات منفية عنه و هي صفات الخلق فارادة اللّه الفعل لا غير ذلك يقول له: كن فيكون بلا لفظ و لا نطق بلسان و لا همة و لا تفكر و لا كيف لذلك كما انه لا كيف له.
أقول: يعني عليه السلام كما انه لا كيف لذاته كذلك لا كيف لفاعليته و ان كان مفعوله مكيّفا بكيف فانه فعله، فإرادته من حيث هي لا كيف له كذاته و لكن مراده مكيّف فافهم.

[3]. ان كلمة العذاب هنا جائزة حين أراد اللّه إهلاك القرية و لكنها حقت حين فسق مترفوها.

محدث، قال: فليس لها معنى! قال عليه‌السلام: قد وصف نفسه عندكم حتى وصفها بالإرادة بما لا معنى له؟! فإذا لم يكن لها معنى قديم ولا حديث بطل قولكم: إن اللّه عز وجل لم يزل مريدا! قال: إنما عنيت انها فعل من اللّه تعالى لم يزل، قال عليه‌السلام: ألا تعلم ان ما لم يزل لا يكون مفعولا وقديما وحديثا في حالة واحدة؟ فلم يحر جوابا»[1].

٢ ـ وترى ما هو الأمر هنا؟ وبماذا؟ ولماذا يخص مترفيها؟: فان كان هناك شرع عم المترفين وسواهم وإلا فلا أمر شرعيا للمترفين؟! الأمر هنا كما في أضرابه تشريعي لا تكويني كما يهرفه من لا يعرف مواضيع الكلام[2] وهو أمر بالتقوى وترك الطغوى للمترفين «فَفَسَقُوا فِيها»: خرجوا عن الطاعة وخالفوا أمرنا، فالنص «أمرنا ففسقوا» لا «أمرناهم بالفسق ففسقوا» وفسق الأمر هو عصيانه والتخلف عنه، و«إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ وَ إِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَ يَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ ...»(١٦:٩٠) (وَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَ اللّٰهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللّٰهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَ تَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ ما لا تَعْلَمُونَ» (٧: ٢٩) فإنما ذلكم الشيطان «يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَ الْفَحْشاءِ وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللّٰهِ ما لا تَعْلَمُونَ» (٢:) ١٦٩) وما اقبحه واهرفه فرية على الرحمان بما يأمر به الشيطان[3]! وثم إذا كان أمرا بالفسق ـ عوذا باللّه ـ فليكن تطبيقه طاعة تستحق الثواب، فلما ذا «فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً»؟ إذا فليس إلا فسقا عن أمر هام يتطلب هكذا تدمير!.

و أما اختصاصه بالمترفين؟ فلان الأوامر تختلف حسب الظروف والقابليات والمتطلبات فردية وجماهيرية، والمترفون وهم المتوسعون في نعمة حيث يبدلونها نعمة ونقمة، في دَولة او دُولة، في مال او منال في أنفس أو أموال أو احوال، هؤلآء هم البغاة الطغاة في الأغلبية الساحقة، فالأوامر المتجهة إليهم هي غير ما يوجه إلى غيرهم، إذ لا يؤر بشيء إلا من عنده ذلك الشيء وليس لغير المترفين ترف حتى يؤروا في ترفهم سلبا لطغوى الترف وإيجابا لتقواه، ففي ائتمارهم اعتمار القرى وتعميرها، وفي فسقهم اضطرارها وتدميرها.

فالمترفون هم الذين وسع اللّه عليهم في نعم امتحانا وامتهانا إذ كذبوا بلقاء الآخرة: «الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ وَ أَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» (٢٣: ٣٣) فلا يترف في نعمة إلا من يتطرف في اللامبالات ثم يزداد عتوا ونفورا: «وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كانُوا مُجْرِمِينَ» (١١: ١١٦) كانوا

---

[1]. نور الثقلين ٣: ١٤٥ في عيون اخبار الرضا في باب مجلس الرضا (عليه السلام) مع سليمان المروزي بعد كلام طول قال الرضا (عليه السلام): ...

[2]. في امر التكوين تسييرا إجبار بالفسق و ما أظلمه إذا تعذيب المترفين بفسق اضطرهم اللّه فيه، و امره تخييرا و هو الاذن في حصول الفسق كجزء أخير للعلة التامة الحاصل بعد ما قدم المختار كل اختياراته في عملية الفسق، هذا و ان كان صحيحا في نفسه و لكنه هنا لا يصح حيث يعم الفساق مترفين و سواهم دون اختصاص بالمترفين.

[3]. و كيف يأمر اللّه بالفسق، و ثم إذا أطيع في امر الفسق يدمر، و ما ربك بظلام للعبيد.

قبل ان يترفوا مجرمين، مجتنين ثمرات الحياة الى الحيونات فاتبعوا ما أترفوا فيه فكانوا أظلم وأطغى، فهم الناكرون دوما للرسالات: «وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ»(٣٤: ٣٤) (... إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ»(٤٣: ٢٤) .... (حَتّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ» (٢٣: ٦٤) (فَلَمّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ. لا تَرْكُضُوا وَ ارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَ مَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ. قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ» (٢١: ١٥).

٣ ـ وترى هؤلآء المترفون يستحقون بفسقهم التدمير، فما ذنب سائر اهل القرية يشملهم عذاب التدمير، وهناك قرى يخص تدميرها بمترفيها:

«... وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كانُوا مُجْرِمِينَ» (١١: ١١٦)؟.

إن عذاب التدمير الاستئصال لا يشمل إلا الظالمين، فإن كانوا مترفين فحق لهم أصليا، وإن كانوا مستضعفين يفسحون مجالات لفسوق المترفين، متخاذلين أمامهم، لا يدافعون عن حقوقهم ولا يمسكون على أيديهم، وبذلك يعم الفسق، تحللا للقرية الظالمة بمترفيها وسائر من فيها، وترهلا لها فتأهلا لعذاب شامل، فليس المسؤل فيها هنا فقط المترفون، بل والمستضعفون المتخاذلون حيث فسحوا مجالات لهم وتسامحوا عما أترفوا وأفسدوا ... «ذلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ» (٨: ٥٣) وليس اللّه ليمنع المجرمين عما يجرمون والمستضعفون يسمحون لهم ويتسامحون: «وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَ كُنّا نَحْنُ الْوارِثِينَ. وَ ما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَ ما كُنّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلّا وَ أَهْلُها ظالِمُونَ» (٢٨: ٥٩) سواء أ كانوا من أصول الظلم الطواغيت والأكابر المجرمين، ام من فروعه المستضعفين، حيث يتقبلون فيستقبلون الظلم فهم إذا ظالموا أنفسهم وسواهم: «فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَ مَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ» (٤٣: ٨) (وَ كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ. فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلّا أَنْ قالُوا إِنّا كُنّا ظالِمِينَ» (٧: ٥) (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَ هِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها ...» (٢٢: ٤٥): (فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ» (٦: ٦) (وَ لَوْ أَنّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزى» (٢٠: ١٣٤).

و الرأس الرئيس في معارك الدمار هو فسق المترفين المبطرين: تكذيبا للرسل: «فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» (٢٦: ١٢٩) والإجرام الفاحش المتهدم: «أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ» (٤٤: ٣٧) ولا سيما المتمكنين المسرفين: «أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ...»(٦: ٦) (ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَ مَنْ نَشاءُ وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ» (٢١: ٩).

إذاً فعذاب الإستئصال إنما يخص المترفين المبطرين إذا لم يسايرهم المستضعفون حيث يتشاركون أصلا وهامشا في التخلف عن مواضيع من أوامر الرسالات الإلهية، ما تتهدم به بنايات المجتمع وتنفصم به عراه، فتدمر به قراه.

هذه سنة اللّه الدائبة السارية لسائر القرى أنها هالكة بما تهلك نفسها بالسبعة أبواب الجحيم التي يتفتحها المترفون: استكبارا واستعمارا واستثمارا واستحمارا واستبدادا و استخفافا واستضعافا! ثم المستضعفون المترذلون يدخلون هذه الأبواب تخاذلا وتكاسلا فيحنون ظهورهم لهم ليحتنكوهم

فيركبوهم والى جهنم وبئس المصير.
هكذا نتمشى في تفسير هذه الآية الغرة واضرابها كما تعنيها، دونما تحميل عليها ما لا تتحملها من احتمالات: معنويا او قراءة تختلف عن هذه المتواترة في كتب القرآن، كأن يبدل أمرها بتأميرها فرارا عن أمره تعالى ـ في زعمهم ـ بالفسق الى تأميره الفساق،ك«كَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِميها لِيَمْكُرُوا فِيها وَ ما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَ ما يَشْعُرُونَ» (۶: ۱۲۳).ام ان «أَمَرْنا مُتْرَفِيها» هي صفة القرية وصلتها، لا جوابا ل«إِذا أَرَدْنا» كما مضى، فتبقى «إذا» إذن بلا جواب حاضر، لأنه ظاهر بنفس الكلام: «فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً»[۲].
او ان «أمرنا» تكويني بحيث لا ينافي الاختيار، إذنا وإرادة من اللّه في فسق المترفين كجزء أخير للعلة التامة بعد توفر الإختيار لمعدات الفسق المختار[۳].
و هذه كلها من غثها وسمينها في نفسها ليست الآية لتعنيها، فالقرآن حمال ذو وجوه فاحملوها الى احسن الوجوه، وأحسنها ما يحملها دون تحميل كما أحسناه ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع، دون الأمر التكوين الذي يسيِّر المترفين الى الفسوق دونما اختيار، ولكن الأول هو الأول فانه احسن الوجوه لفظيا ومعنويا.
وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَ كَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (۱۷).
القرن زمنيا أجزاء من الزمان مقترنة ببعض اعتبارا كمائة سنة وحقيقة كسائر الزمن يوم الدنيا ثم البرزخ ثم الاخرة، ومن حيث الأنفس: القوم المقترنون في زمن واحد، وعل وحدة الزمن هنا تعني الوحدة النوعية، وقرن زمني هو الأكثر لبقاء نسل يخلفه آخرون.
و هنا قرون هالكة بما أهلكت حيويتها، وفسحت مجالات المترفين المترهلين فيها، هلكة عن هلكة طبقا عن طبق «وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً»! سنة مضت في الأولين من بعد نوح قرونا تترى، في ذنوب وتبعات لتخلفاتهم.

---

[۱]. كما في نور الثقلين ۳: ۱٤٥- العياشي عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام في الآية: أمرنا مترفيها مشددة منصوبة تفسيرها كثرنا و قال: لا قرأتها مخففة و في روآية اخرى عنه عليه السلام قال: تفسيرها أمرنا أكابرها، وفيه عن المجمع آمرنا بالمد عن علي (عليه السلام).
أقول: في تعارض الروايتين تساقطهما، و في إرجاعهما الى كتاب الله تصديق للثانية ثم و تكذيب للثالثة، اضافة الى ان التأمير جعل للأمير و ليس التكثير!.

[۲]. و المعنى إذا: إذا أردنا ان نهلك قرية من صفتها و حالتها انا أمرنا مترفيها ففسقوا فيها- فدمرناها تدميرا، و الجواب المدلول عليه هذه دون «فاء»: دمرناها تدميرا.

[۳]. حيث الأمر ظاهر في التشريعي و هكذا تكويني و ان كان في نفسه صحيحا و لكنه يعم عموم الأفعال خيرا و شرا دون خصوص الأشرار المترفين.

«إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ» (١٥٩):

«الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ» أيا كان، إشراكا أم توحيدا، فمهما كان تفريق الدين في الإشراك طبيعته، فالتفريق لدين التوحيد هو خلاف طبيعته بل وتخلف عن طريقته، بل هو نقض له ونقص في كيانه ف: «لا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ»(٣٠: ٣٢)

«وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ» (٣: ١٠٥) فقد «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ...»(٤٢: ١٣).

أجل و«إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ» مؤنين إلى مشركين ومشركين إلى مؤنين «وَ كانُوا شِيَعاً»متفرقين منذ كانوا أم منذ مديد من الزمن، فشرعة الشيع هي التي تنحو منحى تفريق الدين: تفرقا على تفرق «ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ»! «لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ»فإنك رسول التوحيد، فلا أمر لك معهم سلبا أو إيجابا حيث لا ينحون نحو الوحدة لا نصيب لك منهم إذ لست منهم في شيء من الحق، حيث لا نصيب من الحق في حقل تفرق الدين وتمزّق اليقين، فليس لك شيء من أمرهم المفرق لمكان المفاصلة التامة بين الدين الموحّد والدين المفرّق اللّهم إلّا أن يثوبوا إلى الدين الموحّد الحق.

ف «إِنَّما أَمْرُهُمْ» الإمر «إِلَى اللَّهِ» في يوم الله «ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ» من شيعهم وتفرقهم في دينهم، إنباء بحقيقة باطلهم حيث تظهر يوم تبلى السرائر، وإنباء بجزاءهم الذي هو في الحق تفرقهم عن الحق وتفرقهم في الحق.

و ترى الذين وحدوا دينهم لغير الله طاعة لطاغوت واحد فلم يفرقوه، أ ليسوا هم معهم من الموبّخين؟ «فَرَّقُوا دِينَهُمْ» تعم هؤلآء وإياهم حيث فرقوا طاعتهم عن طاعة الله، ف «دينهم» إن كانت طاعة الله فهي تفرقة في طاعة الله بسائر التفرقات ومنها «نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ»كما منها طاعة الله في بعض وطاعة أهواءهم في بعض، و إن كان طاعة غير الله فهي المفرقة عن بكرتها عن طاعة الله.

فإن دين الفطرة والعقلية السليمة هو حقا دين الحق، والتخلف عن ذلك الدين هو تفرق الدين عن قضية الفطرة والعقلية.

إذا ف «فَرَّقُوا دِينَهُمْ» تعم دينهم الطاعة الباطلة حيث فرقوها عن الدين الحق، ودينهم الفطري إذ فرقوا عنه قضيتها، ودينهم الطاعة الحق حين يفرقون فيها فيتفرقون بمختلف التفرقات والتفرّقات، حيث الزوايا الثلاث هي كلها فارغات عن الحق المرام، وكضابطة ثابتة ليس تفريق الدين محظورا إلّا ما نحي منحى الباطل تقصيرا في الدين الحق، فتفريق الحق عن الباطل فرض على أهل الحق مهما فرق بين أهل الحق المجاهيل، والتوحيد في الحق فرض مهما حاول المدعون الحق في الفرقة بين أهل الحق.

و لو أن التفريق ـ ككلّ ـ كان محظورا لكانت الدعوات المفرقة الرسالية بين المؤنين والكافرين محظورة، فانما التفريق القاصد الظالم هو المحظور المحظور.

و بصيغة واحدة التفرق في دين الله كما التفرق عن دين الله هو فراق فارغ عن دين الله ف «إِنَّ الدِّينَ

عِنْدَ اللّٰهِ الْإِسْلامُ وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللّٰهِ فَإِنَّ اللّٰهَ سَرِيعُ الْحِسابِ» (۳: ۱۹) (وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ»(۳: ۸۵).
فالمفرقون دينهم عن دين اللّٰه، والمفرقون بين دين اللّٰه، تفريقا بين اللّٰه وبين رسل اللّٰه «وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللّٰهِ وَ رُسُلِهِ» (۴: ۱۵۰).
أم تفريقا بين رسل اللّٰه، أم بين رسالات اللّٰه «وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ» (۴: ۱۵۲)، أم اي تفريق يناحر طبيعة دين اللّٰه الموحّد وهو الإسلام للّٰه، هؤلآء كلهم من «الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ» مهما كانوا دركات كما المسلمون للّٰه درجات.
هؤلآء المفرقون دينهم «لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ» من دينهم، لأنك داعية الوحدة والتوحيد، وكلّ شيء منك كرسول موحّد يختلف عن كلّ شيء منهم مفرقين «إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللّٰهِ» لا إليك حيث نفضت يديك عن بلاغهم المفروض وليس عليك إبلاغهم واقعيا إلى الحق ف «إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ»(۲۸: ۵۶) (ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ».
فاليهود والنصارى على تفرقهم إياي سبا في دينهم هم من الذين فرقوا دينهم عن دين الإسلام وكانوا قبل ذلك شيعا متفرقة في دينهم، ومنهم
«أهل البدع والأهواء من هذه الأمة لا»[1] والخوارج[2]، ومن هؤلآء هم الذين فارقوا باب مدينة علم النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله عليا عليه‌السلام وصاروا أحزابا[3] كما منهم الشيعة الذين لم يشايعوه كما يحق فأصبحوا عليه شينا وشنيعة، ولا سيما العلماء المتفرقون عن كتاب اللّٰه كأصل، فمفرّقون أتباعهم أيادي سبا إذ لم يرتكنوا إلى ركن وثيق، هو بالاتباع الطليق حقيق، تاركين للاعتصام بحبل اللّٰه، معتصمين بظنونات ومشكوكات، معتبرين إياها حججا وليست إلّا لججا غامرة هامرة.
فلو أن علماء الإسلام اتخذوا القرآن نبراسهم الوحيد ومتراسهم الوطيد لم يعيشوا ذلك الاختلاف العارم. ذلك، ولكن المحور الأصيل في ذلك التنديد المديد هم المشركون وأهل الكتاب الذين لا يؤنون فإنهم أولاء هم واجهة الخطاب العتاب من ذي قبل مهما شمل التنديد كلّ هؤلآء الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا.
فذلك مفرق الطريق بين الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ودينه كله وبين كلّ المفرقين دينهم، سواء أكانوا من

---

[1]. الدر المنثور ۳: ۶۳- اخرج الحكيم الترمذي و ابن جرير و الطبراني و الشيرازي في الألقاب و ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ص في قوله: «إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً» قال: هم اهل البدع و الأهواء من هذه الأمة.
المصدر عن أبي امامة عن رسول اللّه (ص) انهم الخوارج، و فيه عن عمر بن الخطاب ان رسول اللّه (ص) قال لعائشة يا عائش: «إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً» هم أصحاب البدع و أصحاب الأهواء و اصحاب الضلالة من هذه الأمة ليست لهم توبة يا عائشة إن لكلّ صاحب ذنب توبة غير اصحاب البدع و اصحاب الأهواء ليس لهم توبة أنا منهم بريء و هم مني براء.

[2]. نور الثقلين ۱: ۷۸۲ في تفسير القمي عن أبي جعفر عليهما السلام في الآية قال: فارقوا امير المؤنين ع و صاروا أحزابا.

[3]. نهج البلاغة الخطبة ۱۸: ۶۲ عن الامام امير المؤنين عليه السلام و بقية الجمل حسب ارقام الخطب كلها من نهج البلاغة عنه ع.

المشركين الذين تمزقهم أوهام الجاهلية شيعا، أو من اليهود والنصارى الذين مزقتهم المذهبيات الشاردة عن شرعة اللّه، فأصبحوا مللا ونحلا ومعسكرات و دولا، أو من غيرهم ما كان وما هو كائن وما سيكون من مذاهب مختلفة مختلقة بين المسلمين.

فالوقفة الأولى لأي مسلم أمام عقيدة غير إسلامية هي المفرقة الأولى عن الإسلام، كما الوقفة أمام أي حكم وسلطة غير إسلامية هي من أهم المفرقات، وبينهما متوسطات من المفرقات، فإنما الإسلام للجماهير المسلمة هو الالتقاء على محض الإسلام والإسلام المحض والسلام.

فيا ويلاه من أهل الرأي والهوى، فقد «ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه، ثم يجتمع القضاة عند الإمام الذي استقضاهم فيصوب آراءهم جميعا، وإلههم واحد ونبيهم واحد وكتابهم واحد، أ فأمرهم اللّه سبحانه بالاختلاف فأطاعوه، أم نهاهم عنه فعصوه، أم انزل اللّه سبحانه دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه، أم كانوا شركاء له فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضي؟ أن أنزل اللّه دينا تماما فقصر الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله عن تبليغه وأداءه و اللّه سبحانه يقول: «ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ» وقال «تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ» وذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضا وأنه لا اختلاف فيه فقال سبحانه: «وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً».

ذلك «و آخر قد تسمى عالما وليس به فاقتبس جهائل من جهال وأضاليل من ضلال و نصب للناس أشراكا من حبائل غرور وقول زور، قد حمل الكتاب على آراءه وعطف الحق على أهواءه .. يقول: أقف عند الشبهات وفيها وقع ويقول: أعتزل البدع وبينها اضطجع»(۸۵/ ۱۵۴).

ف «المعروف فيهم ما عرفوا والمنكر عندهم ما أنكروا مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم، وتعويلهم في المهمات على آرائهم، كأن كل امرئ منهم إمام نفسه قد أخذ منها فيما يرى بعرى ثقات وأسباب محكمات» (۸۶/ ۱۵۷).

فقد «خاضوا بحار الفتن وأخذوا بالبدع دون السنن» (۱۵۲/ ۲۷۰).

«فلما أفضت (الخلافة» إليّ نظرت إلى كتاب اللّه وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته، وما استن به النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله فاقتديته فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما ـ طلحة والزبير ـ ولا رأي غير كما، ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخواني من المسلمين، و لو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما، وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة ـ التسوية بين المسلمين في تقسيم الأموال ـ فإن ذلك أمر لم أحكم أنا فيه برأيي ولا وليته هوى مني، بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله قد فرغ منه، فلم أحتج إليكما فيما قد فرغ الله من قسمته وأمضى فيه حكمه، فليس لكما والله عندي و لا لغيركما في هذا عتبى، أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق وألهمنا وإياكم الصبر»(۲۰۳/ ۳۹۷).

لكل امة رسالية منسك والدين واحد وامة الرسل واحدة

«لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَ ادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ» ۶۷.

المنسك كما أسلفناه هو منسك الحج ومنه الذبح[1] ام هو كل عبادة حين إطلاقه كما هنا و«كل امة» تستغرق الأمم الخمس في الشرائع الخمس، وكل الشرائع هي ناشئة من الأمر «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ..» ـ «فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ» حيث الأمر كله للّه «وَ آتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ .... ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ» (۴۵: ۱۷ ـ ۱۸).

فبمجرد ان منسكا ـ في هذه الشرعة أم أية شرعة بعد اخرى ـ يختلف عما قبلها، لا يحق لأهل الشرعة السابقة ان يعترضوا على هذه اللاحقة رميا لها بالفرية إذ لا يجدونها في شرعتهم، كما ليس لأهل اللاحقة ان يعتبروا سابقتها ناقصة غير لائقة، فان الشرائع بمناسكها هي سلسلة متواصلة، موصولة بأصل الدين الطاعة ولا واضع لها الا اللّه، فكيف يعترض متشرع على اللّه «فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ» امر الدين ـ امر الرسالة ـ امر الشرعة او اي امر تحمّله من اللّه صاحب الأمر «وَ ادْعُ إِلى رَبِّكَ» بدل الاشتغال بمنازعتهم ف «إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ» دون اي عوج، فعليك يا حامل الرسالة الاخيرة بمواصلة الدعوة دون تلفت إلى من ينازعونك، ولا تفلت عنها «إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ».

وَ إِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ ۶۸.

انهم ـ أيا كانوا ـ كتابيين او مشركين، كانوا يمركزون ما يعملون ويقيسون عليه ـ كأصل ـ اعمال من سواهم، فكانوا يجادلون الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله في منسكه إذ كان غير منسكهم، فيؤر الرسول ـ اذن ـ ان يحوّل امر اللّه إلى اللّه: «فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ»

من عمل، جدالا في الأمر وسواه من امر، وما انا الا رسول ف «إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ».

و مما كان يجادل فيه المشركون قولهم اعتزاضا عليه «اما ما ذبح اللّه بيمينه فلا تأكلون واما ما ذبحتم بأيديكم فهو حلال»[2] وهم ليسوا من هذه الأمم المجعول لهم منسك هم ناسكوه!.

و كذلك سار الجدال معه بالنسبة لشرعته الخاصة الناسخة لما قبلها، من المشركين و من اهل الكتاب وكأنه بدع من الرسل، حيث المنسك مهما يستعمل في الاضحية، يعم مناسك الحج كلها، ثم ومناسك الشرعة كلها فتتجاوب الآية آية الشرعة: «لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً ... لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ ...».

و قد تكون العبادة والمنسك كالظرف والمجرور إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، فآية المنسك السابقة تذكره ردف عبادات وقرن الذبح، مما يدل على معنى خاص، وهنا «منسكا»وهو لكل امة دون

---

[1]. ۱. الدر المنثور ٤: ٣٦٩- اخرج احمد و الحاكم و صححه و البيهقي في شعب الايمان عن علي بن الحسين عليهما السلام: لكل امة جعلنا منسكا هم ناكسوه قال: ذبحا هم ذابحوه حدثني ابو رافع ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أملحين اقرنين فإذا خطب و صلى ذبح أحدهما ثم يقول: اللهم هذا عن امتي جميعا من شهد لك بالتوحيد ولي بالبلاغ ثم أتى بالآخر فذبحه و قال:

اللهم هذا عن محمد و آل محمد ثم يطعمها المساكين و يأكل هو و اهله منهما فمكثنا سنتين قد كفانا اللّه الغرم و المؤة ليس احد من بني هاشم يضحي.

[2]. الدر المنثور ٥: ١٠- اخرج ابن عساكر بسند ضعيف عن أبي امامة عن النبي صلى اللّه عليه و آله و سلم انه تلا هذه الآية قال: أ تدرون اين هي؟ قالوا: اللّه و رسوله اعلم، قال: هي بالشام بأرض يقال لها الغوطة مدينة يقال لها دمشق هي خير مدن الشام.

قرين، قد يشمل كافة الطقوس الشرعية.

رسالة واحدة وأمة واحدة

«يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ٥١ وَ إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ٥٢ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ»٥٣.
«إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ. وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ (٢١: ٩٣): نداء عام للرسل أولا في بعد البشرية «كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ» فليست محرمة عليهم مهما حرمها عليهم حارمون حراميون، فلا اصل الاكل ينافي الرسالة ولا أكل الطيبات: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ» (٧: ٣٢)
«فان الله طيب لا يقبل الا طيبا وانه امر المؤنين بما امر به المرسلين»[١].
ثم في بعد الايمان «وَ اعْمَلُوا صالِحاً» فلا تضمن لكم رسالتكم صالحا دون ان تعملوا صالحا، وليست الرسالة سياجا عن عقوبات التخلفات، بل والمسؤلية الرسالية تملي صالحا اكثر.
ثم البعد الثالث «ان هذه» الأمم بأسرها «أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً» في مسيرها ومصيرها لوحدة الرسالة فوحدة الائتمام «وَ أَنَا رَبُّكُمْ» لا سواي «فاعبدون» لا سواي.
فالحكم الحاكم عليهم في كل دور رسالي هو شريعة من الأمر تصدر عنه وتتجه اليه دون تقطّع، وليس عديد الشرائع من ذلك الأمر الدين تقطيعا لأصل الأمر فانه مصدرها بأمر الله «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ» «ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ»، ولكنهم:
«فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً» حيث جعلوا عديد الزبر للشرائع وسيلة للتقطع تحريفا لها و تهريفا بها، وتحزبوا أحزابا كتابية متناحرين بحربة شرعة ضد شرعة وكتاب ضد كتاب «كل حزب» من هؤلآء المتقطعين «بِما لَدَيْهِمْ» كأنه الحق وسواه باطل «فرحون»والله لا يرضى من عباده تقطعا في أمره «إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (٦: ١٥٩) (وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ» (١١: ١١٨) خلقهم لرحمة الوحدة ووحدة الرحمة على ضوء توحيد الكلمة على كلمة التوحيد في كل زمن كما يريد الله، فلا امنية في امر الله ودينه ولا رايات مختلف الكتابات السماوية، كلّ ضد الأخرى، محاربة شرعة إلهية لأخرى!.
ففي كل دور من الأدوار الخمسة الرسالية الاصيلة يجب على العالمين ككل اتباع رسولها، ثم إذا جاء دور التالي، فعلى الكل النقلة إلى التالي وللتالي إلى الشرعة القرآنية التي تحلّق منذ بزوغها على الطول التاريخي و العرض الجغرافي وإلى يوم الدين[٢].

---

[١]. نور الثقلين ٣: ٥٤٥ في المجمع. روي عن النبي صلى اللّه عليه و آله و سلم ان اللّه .. فقال: يا أَيُّهَا الرُّسُلُ. كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ ..» و قال: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ».

[٢]. راجع كتابنا «المقارنات العلمية و الكتابية بين الكتب السماوية» و راجع تفسير الآية الثانية في سورة الأنبياء تجد فيها تفصيلا اكثر مما هنا.

و من مصائب التحجر في ذلك التقطع ان كل قطاعة متحزبة ضد الاخرى ترى الحق معها كله والباطل مع من سواها كله، فتمضي- فرحا مرحا لا تفكر في شيء ولا يلتفت إلى شيء إلا إلى شيئه المتقطع، مغلقة على أنفسها جميع المنافذ التي تأتيه منها أية نسمة طليقة، او يدخل إليها منها اي شعاع مضيء، تعيش كلّ في تلك الغمرة الهامرة «فذرهم...»:

«فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتّى حِينٍ» ۵۴.

لقد غمرتهم واغرقتهم حيونة الجهالة وجهالة الحيونة، والغمرة هي إزالة اثر الشيء، و هي معظم الماء الساتر لمقرها، وهم أزالوا آثار الانسانية كلها، واختصوا أنفسهم بآثار الحيوانية كلها بل هم أضل سبيلا «فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتّى حِينٍ» يغمرهم العذاب في لجة او يأتيهم الموت قبلا، او حتى حين يؤن لك في حربهم حيث تغمرهم، او حين ينجوا منهم من ينحون منحى النجاة.

«أَ يَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِينَ ۵۵ نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لايَشْعُرُونَ» ۵۶.

ذلك الحسبان هو ظن الذين كفروا حيث يستمدون بمدّ اللّه لهم من اموال وبنين لتثبيت قاعدتهم وانهم - فقط - على خير، رغم ان ذلك المدّ مزلة ومضلة لكثير من المؤنين فضلا عن الكافرين «بَلْ لا يَشْعُرُونَ» شعورا في الأمور، ودقة تميزّ لهم المحبور عن المحظور.

وقد قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ان اللّه تعالى يقول:

يحزن عبدي المؤن إذا قترت عليه شيئا من الدنيا وذلك اقرب له مني، ويفرح إذا بسطت له الدنيا وذلك أبعد له مني ... ان ذلك فتنة لهم»[1].

وقال علي عليه‌السلام: «فلو رخص الله في الكبر لأحد لرخص لأنبيائه ورسله ولكنه سبحانه كره التكابر ورضي لهم التواضع، فألصقوا بالأرض خدودهم، وعفروا في التراب وجوههم، وخفضوا أجنحتهم للمؤنين، فكونوا قوما مستضعفين قد اختبرهم الله بالمخمصة، وابتلاهم بالمجهدة وامتحنهم بالمخاوف ومحصهم بالمكاره، فلا تعتبروا الرضا والسخط بالمال والولد جهلا بمواقع الفتنة والاختبار في موضع الغنا والإقتار فقد قال سبحانه: «أَ يَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِينَ نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ» فان اللّه سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم».

اجلّ هؤلآء الحماقى لا يشعرون أن مدّ الأموال والبنين ليس مسارعة في الخيرات، فهم يسارعون في ذلك البلاء المبين تلوُّماً يمد اللّه لهم فيه زعما انه مسارعة في الخيرات، وانما المسارع في الخيرات هم:

رسل من الجن والإنس

يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (۱۳۰):

---

[1]. نور الثقلين ۱: ۷۶۸ في عيون الأخبار في باب ما جاء عن الرضا ع من خبر الشامي و ما سأل عنه امير المؤنين (ع) في جامع الكوفة حديث طويل و فيه سألته هل بعث اللّه تعالى نبيا إلى الجن؟ فقال: نعم بعث إليهم نبيا يقال له يوسف فدعاهم إلى اللّه فقتلوه.

آية وحيدة في صراح التعبير عن كيان الرسالة بين معشر الجن والإنس، يتساءلون فيها يوم الحساب عن إتيان رسل منهم.

و لأن معشر الجن والإنس هما صفتان اثنتان فقضيته «لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ»

أن يكون رسلهم صنفين اثنين مهما كان أصل الرسالة في الإنس، اللهم إلّا عند اختتام الوحي بالرسول إلى العالمين أجمعين محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله حيث انقطع به الوحى[1] فرسل الجن عنده لا يحملون وحيا من اللّه، إنما هم ممثّلون للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله بين قبيلهم كما تدل عليه آيات الجن والأحقاف: «قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنّا بِهِ وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً. وَ أَنّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَ شُهُباً. وَ أَنّا كُنّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً» (٧٢: ٩) ـ (وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ. قالُوا يا قَوْمَنا إِنّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَ إِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ. يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللّهِ وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ. وَ مَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» (٤٦: ٣٢) ولقد تكفي العصمة في الداعية لكي يكون أسوة للمدعوين دون اشتراط عصمة الرسالة، مهما كان لدعاة الجن قبل الرسالة الأخيرة عصمة الرسالة، فالعصمة للداعية على أية حال هي قاطعة الأعذار.

ف «هو الذي أسكن الدنيا خلقه وبعث إلى الجن والإنس رسله ليكشفوا لهم عن غطاءها وليحذروهم من ضراءها، وليضربوا لهم أمثالها، وليبصروهم عيوبها، ولينهجوا عليهم بمعتبر من تصرف مصائبها وأسقامها وحلالها وحرامها وما أعد الله سبحانه للمطيعين منهم والعصاة من جنة ونار وكرامة هوان»[2].

---

[1]. المصدر عن أبي جعفر عليهما السلام قال في حديث طويل: ان اللّه عزّ و جلّ أرسل محمدا ص الى الجن و الأنس.

[2]. نور الثقلين ١: ٧٦٨ عن نهج البلاغة عن علي امير المؤنين ع، و فيه ... و اصطفى سبحانه من ولده (آدم) أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، و على تبليغ الرسالة أمانتهم، لمّا بدّل أكثر خلقه عهد اللّه إليهم، فجهلوا حقه و اتخذوا الأنداد معه، و اجتالتهم الشياطين عن معرفته، و اقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله، و واتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، و يذكّروهم منسيّ نعمته، و يحتجوا عليهم بالتبليغ، و يثيروا لهم دفائن العقول، و يروهم الآيات المقدّرة، من سقف فوقهم مرفوع، و مهاد تحتهم موضوع، و معايش تحييهم، و آجال تفنيهم، و أوصاب تهرمهم، و أحداث تتابع عليهم، و لم يخل سبحانه خلقه من نبي مرسل، أو كتاب منزل، او حجة لازمة، أو محجة قائمة، رسل لا تقصّر بهم قلة عددهم، و لا كثرة المكذبين لهم، من سابق سمي له من بعده، أو غابر عرّفه من قبله، على ذلك نسلت القرون، و مضت الدهور، و سلفت الآباء، و خلفت الأبناء» (الخطبة ١/ ٣١).

ذلك «و ليقيم الحجة به (آدم) على عباده، و لم يخلهم بعد ان قبضه، مما يؤد حجة ربوبيته، و يصل بينهم و بين معرفته، بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من أنبيائه، و متحملي ودائع رسالاته، قرنا فقرنا، حتى تمت بنبينا محمد (ص) حجته، و بلغ المقطع عذره و نذره» (الخطبة ٨٩/ ٣/ ١٧٤)

«فاستودعهم في أفضل مستودع، و أقرهم في خير مستقر تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهرات الأرحام، كلما مضى منهم سلف قام منهم بدين الله خلف، حتى أفضت كرامة الله سبحانه الى محمد (ص) .. أرسله على حين فترة من الرسل، و هفوة عن العمل، و غباوة من الأمم» (٩٢/ ١٨٥).

و هنا «عْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ» المندد بهم في الخطاب العتاب ليسوا هم كلهم، بل هم شياطين الجن والانس لمكان «هِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ»
و سابق الخطاب العتاب «يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ» وان المعشر هم كلّ جماعة أمرهم واحد عشرة واحدة في أمرهم كفارا أو مسلمين، فجوابا عما قاله «أولياءهم من الإنس»يخاطبون تساءلاَ «أَلَمْ يَأْتِكُمْ ..»
و الجواب «قالُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ» فلا عذر لهم في شيطناتهم بتمتعاتهم المتبادلة المحظورة ودعاياتهم الضالة المضلة.
هنا «منكم» تقتسم الرسالة بين معشر الجن والإنس إلى رسل من الجن ورسل من الإنس، إذ لو اختصت الرسالة برسل الإنس ف «منكم» في قبيل الجن مسلوبة، كما لواختصت برسل الجن كانت «منكم» في قبيل الإنس مسلوبة.
و القول إن «منكم» لا تدل على أزيد من كون الرسل من جنس المخاطبين وهم مجموع الجن والإنس لا من غيرهم كالملائكة حتى يستوحشوا منهم ولا يستأنسوا بهم ولا يفقهوا قولهم .. إنه غريب في موقفه، فإن مجانسة الرسول مع مجموع المخاطبين تتطلب إما كون الرسول إليهم من الجن كما هو من الإنس، رسولا ذا بعدين! أم إن لكلّ رسولا منهم.
كما وأن مجانسة الرسول مع المرسل إليهم من قواطع الأعذار استئصالا لها عن بكرتها حتى لا يقول جني لو أن رسولنا منا لكنا نعرف المسؤلية الكبرى فإنه أسوة لنا، وكذلك الإنس، فليكن لكلّ معشر- عشيره من جنسه اجتثاثا لجذور الأعذار.
ذلك، وقد تلمح لاختلاف الرسل بين مختلف الجن والانس آيات ك: «وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلّا خَلا فِيها نَذِيرٌ» (٣٥: ٢٤) (وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ ..» (١٠: ٤٧) ومن البيّن اختلاف أمتي الجن والإنس.
و كذلك «لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ» (٦: ٩) حيث المسانخة المؤسة القاطعة للعذر، هي مما يكمل بالغ الحجة الربانية.
و لا تدل آيات اصطفاء الرسل من الناس ك: «اللّٰهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النّاسِ» (٢٢: ٧٥) و«إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ»(٣: ٣٣) إنها لا تدل على اختصاص الاصطفاء الرسالي بالإنس والملائكة، فإنما تدل على أن الرسل الملائكي والإنساني أصفى من سائر الرسل، فرسل الجن هم على ضوء رسل الملائكة والإنس قضية هذه الآيات وآية المعشر هذه.
و لأن رسل الرسل رسل من اللّٰه تعالى كما في رسل المسيح عليه‌السلام فرسل الجن ـ ولا سيما قبل الرسالة الأخيرة ـ هم رسل اللّٰه بما يحملون رسالة اللّٰه مهما كانت فرعا لرسول البشر، وأما بعد ختم الرسالة فقد تعني رسالة الجن رسالة العصمة دون وحي مهما كان فرعا على وحي القرآن إلى محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله ثم لا عصمة حاضرة زمن الغيبة، إذا فرسالة الجن قبل ختم الرسالة هي رسالة فرعية بوحي على ضوء رسول الإنس وهي عند ختم الرسالة هيه دون وحي، فإنما هي عصمة كافلة لأداء أمانة الوحي، أم إن ربانيّي الجن في زمن الغيبة الكبرى هم النواب العامون للإمام الغائب كربانيي الإنس بين الإنس.

و هنا«شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا» في استجوابهم عن إتيان الرسل، شهادة على أنفسهم أنهم أتتهم رسل منهم بكامل القصّ لآيات اللّه وإنذارهم لقاء يومهم هذا.
ثمَ «شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ»
شهادة ثانية بعد معترضة الجملة: «غَرَّتْهُمُ ...»
انهم تركوا دعوة الرسل وغرتهم الحياة الدنيا فهم أولاء كافرون غير معذورين.
و لا تغر الحياة الدنيا إلّا من ينغرّ بها ويغترّ، فلأنهم اغتروا بها حسن أن يقال إنها غرتهم، كما و«غَرَّكُمْ بِاللّهِ الْغَرُورُ» (٥٧: ١٤).
و القول إن ضرورة المجانسة منقطعة في الرسول الملك إلى رسل الإنس والجن فلا ضرورة مطلقا؟ مردود بأن المجانسة مفروضة بين الرسول والمرسل إليهم، وليست الرسل هم من المرسل إليهم لملائكة الوحي بل هم حملة الوحي إليهم، رسالة منهم أولاء كوسطاء إلى سائر المرسل إليهم، ثم ولا عاذرة لهؤاء الرسل ولو كانوا مرسلاً إليهم في رسالة الملائكة إليهم.
ذلِكَ «أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها غافِلُونَ» (١٣١):
فالغفلة القاصرة هي العاذرة لأهليها دون المقصرة، وهي الغفلة التغافل في جوّ الرسالة الربانية، ف «ذلك» الإرسال المتواتر لرسل الجن والإنس يعنى فيما عناه أن يكون إهلاك القرى بظلمهم دون غفلة قاصرة، بل على تقصير منها بغفلة مقصرة، إذاً، ف«وَ أَهْلُها غافِلُونَ» تعني الغفلة القاصرة.
و قد تخرج «وَ أَهْلُها غافِلُونَ» غير الغافلين عما يتوجب عليهم أو يحرم عند اللّه وإن لم تصلهم دعوات الرسل، حيث الفطرة والعقلية الإنسانية مبصرة لأهليها، ولكن الغفلة المقصرة في غير ما دعوة رسالية لا تتطلب الإهلاك مهما تطلبت حسابا يوم الحساب كما في كلّ الأحياء.
ذلك، لأن الإهلاك يوم الدنيا ليس إلّا لعظيم العصيان حيث يعمّد في جو البلاغات الرسالية: «.. وَ ما كُنّا مُعَذِّبِينَ حَتّى نَبْعَثَ رَسُولًا. وَ إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً» (١٧: ١٦) (وَ ما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلّا لَها مُنْذِرُونَ» (٢٦: ٢٠٨) (وَ لَوْ أَنّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا» (٢٠: ١٣٤)، إذا فالغفلة المغفورة بالنسبة لذلك الإهلاك تجمع المقصرة إلى القاصرة عند عدم البلاغ الرسالي «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ»(٨: ٤٢).
ذلك، ولا يخص إهلاك القرى بتدميرها بأهليها، بل وبإضلاله إياها أن يجعل صدورهم ضيقا حرجا، اهلاكان في الأولى وآخران في الأخرى، في البرزخ والقيامة الكبرى، جزاء وفاقا.
ثم «بظلم» قد تعني إلى ظلمه سبحانه ظلمهم عن غفلة دون رسالة هادية، فإهلاكهم وهم غافلون بظلم ظلم في غير جو الرسالة الربانية، مهما كان لظلمهم جزاءً وفاقا، ولكنه ليس ذلك الإهلاك: «فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَ هِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها»(٢٢: ٤٥) «وَ ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ»(١١:١١٧).
وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمّا يَعْمَلُونَ (١٣٢):
«و لكلّ» من الصالحين والطالحين من الجن والإنس، «درجات» مهما كانت درجات الطالحين دركات: «أَ فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللّهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ. هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللّهِ وَ اللّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ» (١٦٣: ٣).

فكما الإيمان والعمل الصالح درجات، كذلك لأصحابهما درجات حسبها، وكما للكفر و العمل الطالح دركات فكذلك لأصحابها دركات تجمعها في صيغة واحدة درجات إما إلى الجنة وإما إلى النار.

وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣):

«و ربّك» أنت يا أفضل المربوبين وأول العارفين والعابدين «الغني» ـ فقط ـ دون من سواه، فلو كان غني سواه لكان النص «غني» قضية تنكير الخبر، ثم وهو على غناه «ذُو الرَّحْمَةِ» على عباده دون مقابل، لا رحيم سواه، وليست العبادة إلّا لصالح العابدين ف «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ» أنتم المتخلفين عن شرعته «وَ يَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ»إنسانا وغير إنسان «كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ» و«ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ» قد تعني من نطفة قوم آخرين أذهبهم ربّهم بموت أو إهلاك.

و هنا «ما يشاء» دون «من يشاء» لمحة إلى واسعة رحمته ومنطلقته في إنشاءه، فليس يختص خلقه بكم أنتم الناس، أو أنكم القمة التي لا بديل عنها ف «يا أَيُّهَا النّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللّهِ وَ اللّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَ ما ذلِكَ عَلَى اللّهِ بِعَزِيزٍ» (٣٥: ١٧) (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النّاسُ وَ يَأْتِ بِآخَرِينَ» (۴: ١٣٣).

هنا «رَبُّكَ الْغَنِيُّ»ك«يا أَيُّهَا النّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ» وتعريف «الغني» يعرفه انه هو فقط «الغني»حيث «غني» لا يحصر فيه الغنى، كما الناس محصورون في الفقر ليس لهم إلّا الفقر.

ف «رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ» تحصر الغني والرّحمة فيه، فكلّ غنى ورحمة لأي غني ذي رحمة إنما تنشأ من رحمته وغناه لا سواه.

فالغني الطليق في غناه لا يحتاج إلى عباده أم أية فاعلية ممن سواه، ولا يحتاج إلى ظلم من سواه، فإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف في غناه قدرة وعلما ورحمة أماهيه من قضايا غناه.

و لو كان بعض الأغنياء أغبياء يظلمون لا لحاجة وإنما لشقوة وقساوة، ف «رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ» فطليق الغنى والرّحمة يقتضيان كامل العدل والفضيلة، فلا يفعل أو يقول ما يفعله أو يقول إلّا عن غنى ورحمة، رحمة لا يطلب بها جزاء لغناه، وغنى يفيض بها لرحمته، فما هكذا الرّب بحاجة إلى مربوبيه أم بحاجة إلى ظلمهم، إلّا رحمة أو عذابا هو في الحق رحمة تأديبا للمتخلفين وتعديلا في العدل بين المخلوقين.

ذلك، ومن رحمته أن يكلف عباده بما يكلّفهم، ومن رحمته إثابة من أطاعه وعقاب من عصاه، كما من رحمته مزيد الثواب للمطيعين وأقل العذاب للعاصين وقبول التوبة وسائر التكفير للعصات ما هو عدل وفضل خارجا عن أية ظلامة بحقهم وبحق الآخرين.

رسالات في شيع الاولين

هنا تسليات تلو بعض لخاطر الرسول الأقدس صلى‌الله‌عليه‌وآله القريح الجريح عن تسفيههم إياه وتجنينه والاستهزاء به، انك لست في ذلك بدعا من الرسل:

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠).

«وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ» طول التاريخ الرسالي قبلك فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ العائشين تاريخ الرسالات قبلك،

فأنت وشيعتك من الآخرين، «لَقَدْ أَرْسَلْنا» كما أرسلناك رسلا مبشرين ومنذرين، بمختلف درجاتهم ودعواتهم.
و الشيع جمع الشيعة، جماعة مشايعة لآخرين، عائشين حياة التبعية والهامشية «مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» (٣٠: ٣٢) (ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا» (١٩: ٦٩).
و الشيعة بين خيّرة هم شيعة الحق على بصيرة كما كان ابراهيم «وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ» (٣٧: ٨٣) وشرّيرة هم شيعة الباطل في تقليد قاحل جاهل، و«شِيَعِ الْأَوَّلِينَ»تعني الآخرين، حيث شايعوا حملة مشاعل المتاهة والضلالة وكانوا هم من محطات الرسالات لتخليصهم عن تقليدهم الأعمى في مشايعتهم رءوس الضلالة، مهما حلقت الرسالات على سائر المكلفين من المتبوعين هنا، ومن سائر المستضعفين الذين يفتشون عن الحق، ام هم حائرون.
إلّا ان القصد هنا تنظير شيع الآخرين بشيع الأولين، انهم شرع سواء في تصلّدهم على الباطل وتصلبهم القاحل.
و لماذا «شيع» هنا وفي الروم، و«شيعة» في مريم، أطلقت على شيعة الشر؟ لان الشيعة في إطلاقها تعني المشايعة المطلقة دونما حدّ ولا برهان، وهذه باطلة وان كان في مشايعة الحق، فان حقها ان تكون على بصيرة وبرهنة، مهما كانت في استمراريتها مطلقة أمام المعصوم رسولا وإماما، فانها بالنسبة لغير المعصوم مبرهنة على طول الخط، وللمعصوم في بدايته، ومن استمراره على بينة العصمة.
فالشيعة في إطلاقها دون قرينة تعني المشايعة المطلقة الفوضى، وهي بقرينة صالحة تقيد بمشايعة صالحة كما في ابراهيم وسائر الشيعة الصالحين.
فحياة التبعية المطلقة هي حياة الشيعة الشريرة، وحياة التبعية المشروطة بالحق هي حياة الشيعة الخيّرة، ثم حياة أرقى هي اللاتبعية إلّا وحي الله أو إلهامه كالمرسلين وسائر المعصومين.
ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (١١).
و لقد كان من حالهم البئيسة التعيسة وجاه المرسلين «وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ» أيا كان «إِلّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» دونما استثناء، اللّهم إلّا المؤنين المتحرين عن إيمان، المستقلين في عقولهم، لا مستغلين ولا مستغَلين، الذين يشقون أمواج الفتن بسفن النجاة وليسوا اتباع كل ناعق، بل يستضيئون بنور العلم ويلجئون الى ركن وثيق.
ف «شِيَعِ الْأَوَّلِينَ» ام الآخرين في التقليد الأعمى هم شرع سواء في حياة التبعية، في تغافل العقول وتقافل القلوب وعمى البصائر وظلم السرائر، فهم بطبيعة الحال يتبعون ـ وجاه المرسلين ـ كبرائهم المجرمين، فهم الزاوية الوسطى من مثلث المحطات لهذه الرسالات، حيث يشايعون طواغيتهم الماكرين دونما بصيرة ام تبصّر، ثم الزاوية الثالثة هي المتقبلة لهذه الدعوات، وقليل من الوسطاء البسطاء.
كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢).
السلوك هو النفاذ في طريق وسواه، وسلكه أنفذه، مما يلمح بتعمّل في النفاذ، مهما لم يكن السالك متعملا، حيث المجال مجاله.
و ترى ماذا «نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ»؟ اهو الذكر المنزّل؟ وهو بعيد مرجعا لضميره، وليس سالكا

في قلوب المجرمين وهم لا يكادون ليسمعوه «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ» (۴۱: ۳۶) فكيف يسلك ـ إذا ـ في قلوبهم ولما يصل او يتجاوز آذانهم الى عقولهم فضلا عن قلوبهم، ولو انه سلك في قلوبهم لكانوا ـ إذا ـ مؤنين تسييرا من رب العالمين «وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها»(۳۲: ۱۳) فكيف يسلكه في قلوب المجرمين، اللهم إلّا سلكا في قلوب المؤنين «وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ» (۴۷: ۱۷) ازالة لسائر الحواجز آفاقية وانفسية عن ركيزة الايمان بعد الايمان، ثم «كَذلِكَ نَسْلُكُهُ» ليس لها مشار إليه إلّا «إِلّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» ف «كذلك»الذي نسلكه في شيع الأولين «نسلكه» نحن «فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ» ختما على قلوبهم بما أجرمت واختتمت عن تقبل الحق، ام هو الاستهزاء بالرسل الذي أصبح سنة في شيع الأولين ف «كذلك»الذي كان سالكا فيهم «نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ» في شيع الآخرين والى يوم الذين سنة سارية في المستهزئين.

و ترى كيف يسلكه في قلوبهم وهو من فعلهم؟ ام يسيّرهم عليه وهو ظلم بهم؟ إنه سلك من اللّه بعد انسلاكه فيهم بسوء اختيارهم، ثم اللّه ليس ليهديهم بعد عتوّهم القاصد المعاند، بل يذرهم في طغيانهم يعمهون، «فَلَمّا زاغُوا أَزاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ» (۶۱: ۵) سلكا إلهيا بعد سلك بشري جزاء وفاقا، فلأنهم كانوا مجرمين لذلك سلكنا الاجرام في قلوبهم «يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ» (۲: ۲۶).

فالمجرمون ـ ككل ـ الذين يعيشون حياة الإجرام، قطعا لثمرات الحياة الإنسانية، فطرية وعقلية أمّاهيه؟ هؤلآء هم الذين يسلك في قلوبهم المقلوبة الاستهزاء بالرسل، فانها خاوية عن نور الهدى بما افتعلوه، خالية عن بغية الحق، مليئة من ظلمات الهوى، فهي لا تحمل ـ إذا ـ إلا ما يناسبها من مناحرة أهل الحق، والاستهزاء برسل الحق ف «كَذلِكَ نَسْلُكُهُ» على مدار الزمن «فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ» في مثلث الزمان!.

و من مخلفات ذلك السلك في بعدية البعيدين: لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ(۱۳).

فلأنهم استهزؤ بالرسول، ثم سلكناه في قلوبهم، فهم «لا يُؤْمِنُونَ بِهِ»: اللّه والذكر والرسول[1] إذ ـ «خَتَمَ اللّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ ..» (۲: ۷)

«وَ قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ» سنتهم في الاستهزاء بالمرسلين، وسنة اللّه فيهم إذ سلكه في قلوبهم، جمعا بين الأولين والآخرين الى يوم الدين في سنة السلك وسلك السنة، جزاء جزئيا يوم الدنيا قبل يوم الدين.

و نموذجا من المكابرة المرذولة المتعنتة والعناد البغيض بعد ذلك السلك السالك فيهم:

وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (۱۴) لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (۱۵).

«باباً مِنَ السَّماءِ» كما في غيرها «أَبْوابُ السَّماءِ» تدل على ان للسماء أبوابا، و«فتحنا»دليل انها مغلقة علينا، و«لو» تحيل فتحها لنا، و«فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ»دليل على ان في باب السماء معارج يركبها العارج، كمراكب اتوماتيكية تعرج براكبيها في جو السماء، وكما تشير إليها آيات اخرى، فللسماء أبواب الى

---

[1]. فضمير الغائب في سلكناه راجع الى الاستهزاء و في به الى اللّه و الرسول المستهزء به إذ لا معنى ل «لا يؤنون بالاستهزاء» و هذه المراجع الثلاث كلها صالحة لرجوع الضمير إليها و الذكر المنزل عليه.

الجنة يعرج أهلها فيها دون الكافرين: «إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ»(۷: ۴۰) وأبواب الى مياهها المختزنة فيها تخصها: «فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ» (۵۴: ۱۱) وأبواب الى عذابها: «حَتّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ»(۲۳: ۷۷) وأبواب
و سلاليم يستمع فيها الى الملأ الأعلى: «أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ» (۵۲: ۳۸) (لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ»(۳۷:۸).
و أبواب يصّعّد منها الى مسارح الوحي ومصارحه في السماء، رؤة وسماعا «وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ..».
فلو انهم عرجوا في هكذا باب، ورأوا ما يرى من عالم الغيب شاهدا على حق الوحي ومنه الملائكة «لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا» من تسكير السّكر، او السّكر: الصّد، فهي على أية حال لا ترى الحقيقة كما هيه، لا فحسب أبصارنا «بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ» في العروج والدخول والخروج وإبصار العجائب كالملائكة، سفسطة امام الواقع المحسوس الملموس، حيث الكفر والنكران سالك في قلوبهم المقلوبة، فهي حالكة[1] هالكة لا تكاد تعرف الحقيقة كما هيه.
فإذا هم ينكرون ويكابرون في المحسوس الذي لا يكابر فيه اي حيوان، فبأحرى ان يكابروا في غير المحسوس، وقد يكفي تصورهم هكذا لتبدو مكابرتهم السمجة الهمجة ويتجلى عنادهم المزري المغري، ويتأكد ان لا جدوى في جدالهم، فما عذر «لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ» عذرا حيث لا يصدقونهم لو فتح عليهم باب من السماء فرأوا الملائكة، حيث يقولون «إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ».
و من ذلك المشهد المنكور ـ لو فتح عليهم باب من السماء ـ الى مشاهد ملموسة وسواها من السماء، يفتح علينا منها أبواب، ومن الأرض ومعايشها، ومن كل شيء خزائنها:

ردوا ابدى المرسلين في افواههم

«أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ وَ قالُوا إِنّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنّا لَفِي شَكٍّ مِمّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ» (۹).
متابعة لتذكير موسى قومه بأيام الله في بلائه السوء على الغابرين الذين خمدت نيرانهم وعفت آثارهم وأخبارهم، وهنا موسى راوية يتوارى أمام الرسل والرسالات ليستمر في عرضها بأزمانها الخالية وفي كل مكان، حيث يتلاشى فيها الزمان والمكان، مؤرا إلى أحداث الروايات الكبرى وكما النبأ هو خبر ذو فائدة عظيمة، ثم يفسح المجال للأبطال يحدثون في حوار بين الحق والباطل، حيث يتخطى أبعاد الزمان والمكان، ويتخلص إلى إبعاد الباطل عن الرسالات الإلهية وحملتها، وزجّ المعارضين إلى مكان سحيق

[1]. شديدة السواد، فهالكة عن كونها قلوبا انسانية.

محيق من باطلهم الزائف وكفرهم الحميق العميق.
هنالك نشهد مشاهد الرسل الكرام أمام الكفرة اللئام، يواجهونهم بكل جاهلياتهم، في تواري الأشخاص والشخصيات، بمظاهر الحجاجات
بين «قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ...».
و هنالك النبأ يعم نبأ الرسالات الموجّهة إليهم، ونبأ كفرهم بها، ومن ثم نبأ استئصالهم بالعذاب، تقديما لنبإ الحجاج في بعديها «جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ» آيات من اللّه بينات جليات لا خفاء فيها، فالرسل هم بأنفسهم بينات، يحملون آيات بينة على رسالاتهم، ومن ثم البيان الرسالي، فهم إذا في مثلث البينات، فلا نجد رسولا دون بينة كأوضح حجة على المرسل إليهم، ولكنهم:
فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ.
آية منقطعة النظير في حجاج الرسل مع المناوئين وسواهم، لا نجد لها مثيلا في سائر القرآن، حيث تجمع بين مختلف الحوار الرسالي بين الرسل والمرسل إليهم في كلمة واحدة تحتمل معاني عدة بين صالحة على درجاتها ادبيا ومعنويا، وبين سواها، والقرآن حمال ذو وجوه فاحملوه إلى احسن الوجوه.
فقد ترجع الضمائر الثلاثة هنا الى مرجع واحد: رسلا؟ ١ او ٢ مرسلا إليهم؟ ام ٣ الاوّل للأولين والآخران للآخرين، أم ۴ الاوّل للآخرين والآخران للأولين ۵ أم الأول و الآخر للأولين؟ ۶ ام هما دونه للآخرين.
ثم ١ الايدي قد تعني الجارحة الظاهرة ام الحجج الباهرة، و«في أفواههم» ظرفا مستقرا ل«ردوا» ام ٢ لغوا لمقدر، و«في» نفسها قد تعني معناها، ام (٣ الى او ۴ الباء،و هي ثمانية وأربعون احتمالا حسب متحملات لفظية ومعنوية.
و لأن الظاهر من «في» ظرفيتها دون تأويلها إلى الباء أو إلى، وأن الظاهر استقرار الظرف هنا دون لغويته، ف «في أفواههم» إذا ظرف ل«ردوا» لا سواه ولا سواها، مهما كان للغوه مستقر من معنى[١].
فهل الرسل هم الذين ردوا أيدي أنفسهم في أفواههم أيديا وأياديا، أن عضوا عليهم الأنامل من الغيظ كيف ينكرون بيناتهم، ام سكتوا عن بيناتهم بعد ما لم يجدوا لها تصديقا من الناكرين؟
ام هم المرسل إليهم أن ردوا أيديهم الجارحة في أفواههم إذ عضّوا أناملهم تغيظا على رسلهم وحنقا عليهم وحنقا كما يفعل المتوعّد لغيره، المبالغ في معاندته ومكايدته، وهذه عادة معروفة مألوفة في المغيظ المحنق عض الأنامل وفرك الأصابع!، او هزء بهم ـ كما يفعله المجانين والسفهاء ـ وضعة منهم وإزراء عليهم؟ أم ردوا حججهم الداحضة في أفواههم إذ لم يقدروا ردا على رسلهم؟ ام سائر المحتملات من الاثنى عشر؟.
و لكنما الحجج باهضة وداحضة لا تسمى أيديا بل هي أيادي تؤد حقا او باطلا، فالمحتملات إذا ستة! وهي الأول على كون الأيدي هي الجوارح.
فقد رد المرسل أيدي أنفسهم إلى أفواههم تحسرا عليهم وتغيظا، وكما رد المرسل إليهم هزءً منهم

---

[١]. فردوا أيديهم الكائنة في أفواههم الى ما كانت بطبيعة الحال، حيث قضت بيناتهم على عجابهم إذ جعلوا أصابعهم في أيديهم عضا عليها.

وضعة، وتاشيرا لهم أن اسكتوا مانعين لهم عن الكلام كما يفعل المسكت منا لصاحبه، الراد لقوله، وقد «جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً»إظهارا للتمنع من الاستماع والسماع، ومن الكلام إلا تكذيبا لهم وكما «قالُوا إِنّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ ..».

ام هم ردوا ايدي الرسل في أفواههم حيث صدوا عليهم منافذ الكلام، وردوا حججهم من حيث جاءت؟ وكما الرسل ردوا ايدي هؤلآء في أفواههم بما واصلوا في دعواتهم و دعاياتهم، فسكّتوهم عن حججهم الداحضة إلا ردهم «وَ قالُوا إِنّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ ....

فقد تعم الايدي هنا الايادي، فهي الجارحة أحيانا، والجانحة اخرى، وقد حصل كل ذلك في ذلك الحوار المحتدم طول التاريخ الرسالي، حجة باهضة من هؤلآء الأكارم، وداحضة من أولاء اللئام.

فهنالك أفواه الرسل التي تفوح منها كل بيّنة رسالية دامغة، وأيديهم وايادیهم الباهضة الناهضة بكل حجة، وهم يردون بأيديهم وأفواههم ايادي أئيمة في أفواه لئيمة دحضا لحججهم، وخوضا في لججهم، وهناك أفواه الناكرين التي تفوح منها كل نكرانة داحضة وأيديهم وايادیهم في فيهم استئصالا لبينات الرسالات، وكما هي في أفواه الرسل صدا عن أقوالهم، ولا يأتون بشيء مهما أرعدوا وعربدوا، وضجروا وزمجروا، إلا فعلتهم عضًا على أناملهم وهزءً برسلهم، وإلّا قولتهم «إِنّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ» دونما شطر من حجة إلا تنمردا وتمردا.

و هنالك الايدي التي في أفواه المرسل إليهم هزءً ترد الى ما كانت إذ لا يقدرون على شيء مما كسبوا، وقد كانوا إذا بدأ عليهم الرسل بكلام سدوا بأيديهم اسماعهم دفعة، و أفواههم دفعة، إظهارا منهم لقلة الرغبة في سماع كلامهم وجواب مقالهم ليدلوهم بفعلتهم على انهم لا يصغون لهم الى مقال ولا يجيبونهم عن سؤل ولا يعتنون بشأنهم على أية حال، إذ قد أبهموا طريقي السماع والجواب وهما الآذان والأفواه وكما عن قوم نوح «وَ إِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً» (٧١: ٧). والتي في أفواههم عجبا من بينات الرسل ترد الى ما كانت لحالة اعتيادية تصديقا لهم وتسليما.

و التي في أفواه الرسل من الناكرين ترد إليهم فالجة خارجة عما هي فيه فان الباطل كان زهوقا.

و التي في أفواه الرسل من أنفسهم لمّا ييأسوا ترد إلى استدرار الدعوة فان للحق دولة و للباطل جولة، «و غلب هنالك المبطلون».

فكل الايدي والايادي، وكافة الأفواه فاشلة عاطلة امام أفواه الرسالات وأيديها وايادیها مهما زمرَّ الباطل ودمّر، فانها سوف تزمجر وتدمّر، فان الحق يملك كافة البينات مهما أنكرها الناكرون، والباطل لا يملك الا دعايات زور وغرور «وَ قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً».

فردّ الأيدي قد يعني ردها إلى ما كانت، وأخرى ترديدها في الأفواه مرارا وتكرارا حيث كانوا يكثرون جعلها في أفواههم عند كلام الرسل.

«فَرَدُّوا ... وَ قالُوا إِنّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ» ويكأنهم يكفرون بمادة الرسالة مع التصديق بأصلها، فهنا «بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ» دون «بالرسالة» وذلك تناقض بين، ام وتشمل الرسالة باحتمال «ما»مصدريتها على هامش انها موصولة، وضمير الغائب «به»برجوعه الى «ما» توّل بموصوليتها نكران مادة الرسالة والجمع أجمل واشمل.

و من ثم «وَ إِنّا لَفِي شَكٍّ مِمّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ» شك مريب يورّط الشاك في ريبة حيث هناك في

مادة الدعوة ما يريب، رغم ان بينات الرسل لا تشكك فضلا عن ان تريب، حيث الريبة ليست إلّا بما يضل او كاد، والبينة ليست إلا لتهدي أو تكاد وعلّ الفصل بين الصفة «مريب»وموصوفها «شك» للتدليل على ان الريبة ليست إلّا من الدعوة، حيث لحقت «مريب» الدعوة بمادتها «مِمّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ». فما جاءوا ـ إذا ـ الا بكل دعاية زور وغرور ومدعي الباطل يتفلت في كلامه دون تلفت، فهو يبطل باطله بنفسه دون حاجة الى ابطال، خاسرا في حاله ومقاله على أية حال.

و الى جواب فالح كاسح عن اي شك وأية ريبة مما يدعو إليه الرسل، كاملا شاملا يجتث كل خالجة على ساحة الربوبية:

قالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِي اللّٰهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلّا بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمّا كانَ يَعْبُدُ آباؤنا فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (١٠).

ان دعوة الرسل تبدء بإثبات وجود اللّٰه وتتوسط كركيزة لها بتوحيد اللّٰه، وتختم بصفاته الحسنى وقضيتها ضرورة الرسالة والمعاد، والناكرون في اللّٰه بين ثلاث، إلحادا فيه واشراكا به ونكرانا لأصلي الرسالة والمعاد بعد توحيده ام قبله، فقيلة الناكرين من قبل «إِنّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ» تعم كل ما جاء به الرسل من هذه الثلاث، وقد أسرفوا في الكفر بما جاءوا به «وَ إِنّا لَفِي شَكٍّ مِمّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ» انهم هم الغرقى في شك مريب، ولكن «فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» يزيح كل شك وريبة عن ساحة الدعوة الرسالية ويسد كل ثغرة ونافذة الى اي شك واية ريبة.

فأصل انفطار السماوات والأرض دليل على اصل وجود الفاطر، والوحدة السائدة في المنفطرات في كل صغيرة وكبيرة، بما يرى وما لا يرى دليل على وحدة الفاطر، والرحمة السارية فيها لكل على حدها وحاجتها دليل على رحمته الخاصة بالخاصة منها والإنسان في هذا الميدان سابق على الكائنات بأسرها بسابغ الرحمة المتعالية في روحه وجسمه فانه في أحسن تقويم، فقضية الرحمة السائدة من فاطر السماوات و الأرض ان يختص نوع الإنسان وأضرابه بخاصة رحمته وخالصتها التي تخرجه من الظلمات الى النور، ألا وهي رحمة الوحي والرسالة.

و لان الفَطر هو الشقّ فالانفطار هو الإنشقاق إما في نفس الشيء وهو الإنشقاق عن كيانه «السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا» (٧٣: ١٨) ام انشقاقا في غيره واشتقاقا عنه كما في خلق السماوات والأرض واين انفطار من انفطار؟ إذا فالسماوات والأرض منفطرتان منشقتان عن اصل سابق هو المادة الاولية للكون وكما في آية هود: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّامٍ وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ ..»(١١: ٧) فقد فطر السماوات والأرض عما سماه ماء وهو المادة الاولى التي خلقها لا من شيءٍ.

فمما لا يريبه شك لدى الأحزاب الثلاثة: الملحدين ـ المشركين والموحدين ـ ان السماوات والأرض هما منفطرتان عن اي كان، والانفطار دليل الفاطر، وانتظامه بملايين القوانين دليل علمه وقدرته وحكمته البارعة، والوحدة السائدة فيه دليل وحدته، ولا يملك اي مدلول ما يملكه فاطر السماوات والأرض من براهين قاطعة ساطعة فطرية وعقلية وكونية: آفاقية وانفسية، وكل الى ذاك الجمال يشير! ليس في اللّٰه شك فضلا عن شك مريب، مهما شك فيه الشاكون وارتاب فيه المرتابون.

أ فليس العقل والعلم يقولان وكل فطرة وفكرة تقول: كل حادث بحاجة ضرورية الى محدث، وكل

منفطر لزامه فاطر، فعلى قدر الحكمة في الانفطار نستدل بحكمة الفاطر الجبار؟
أ ليس العقل يحيل حدوث شيء دون علة تعاصره وتناصره ما هو كائن كما كوّن؟
أ ليس العلم لا يزال يفتش عن علل الحوادث الخفية[1].
«أَ فِي اللّٰهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» فمجرد الاشارة إليهما والإحالة عليهما يكفي، حيث يرد الشارد المارد الى رشده سراعا، فلم يزد الرسل على الإشارة حيث العاقل تكفيه الإشارة.
إن الانفطار الإنشقاق واقع معلوم ملموس لا مردّ له في كل كائن سوى الاوّل: المادة الفردة الأولى، فإنها لم تنشقّ عن شيءٍ قبلها، وانما خلقت لا من شيء، ثم فطرت سائر الأشياء كلها من المادة الأم، بوسيط ام بوسائط ام دون وسيط، حسب مختلف التراكيب الذرية والجزئية والعنصرية اما هي فوق الذرية وبعد العنصرية، فانها كلها منفطرات، وقد عبر عنها كلها في القرآن كله ب«السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» تعبيرا عن الكون المنفطر دون المادة الأم.
ام انها ايضا تدخل ضمن الكل في نطاق الانفطار، انشقاقا لا عن شيء إلّا الارادة الإلهية ـ ان صح التعبير ـ والانفطار هنا هو انفطار التعمير، ومن ثم انفطار التدمير «إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ» (٨٢: ١) ولا نجد الانفطار في سائر القرآن إلّا تعميرا عن المادة الام ام تدميرا، ولكن الخلق قد يعم إيجاد المادة الام وولائدها ككل: «قُلِ اللّٰهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ»(١٣: ١٦) والمادة الأم شيء بل هي اصل كل شيء، مخلوقة قبل كل شيءٍ.
فليس الخلق هو التقدير فقط، إذ لا تقدير في الخلق الأول إلا بعد خلقه «وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً» (٢٥: ٢) (الَّذِي خَلَقَ فَسَوّى. وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدى» (٨٧: ٣) وان كان «كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ»(٥٤: ٤٩) فهناك قدر في العلم يسبق خلق كل شيء، ثم قدر بعد الخلق يلحقه، ولان الإنفطار ولادة وتبدل، فهو حركة في ماهيات الأشياء، دائبة في المادة والماديات على أية حال.
و الحركة لزامها التغير والزمان، وهذه الثلاث لزامها التركب في اصل المادة وفرعها، و قد يعم الانفطار هذه الأربع بحذافيرها، فآية الفاطر هي من البراهين القاطعة الشاملة لحدوث العالم.
ثم العلم المحيط والقدرة المطلقة والحكمة العالية بارزة في كل منفطر في الكون «فَارْجِعِ الْبَصَرَ- هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ»(٦٧: ٤).
ف «فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» دليل اوّل يزيح كل شك وريبة في اللّٰه، ثم «يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ» دعوة اولى بضمان الايمان ومن ثم دعوات أخرى على ضوء الايمان بشروطه غفرا لسائر الذنوب، دعوة مربحة مريحة، ليست لان الفاطر بحاجة في دعوته الى منفطر، بل غفرا عن ذنوب هي لزام البعد عن اللّٰه.
فمن غفر لا يخرج المغفور له الى توبة وسببه الايمان: «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ» (٨: ٣٨) وهذه دعوة اولى فيها غفر لبعض الذنوب وهي السابقة على الايمان وطبعا من غير حقوق الناس، و«ما قَدْ سَلَفَ»هي «مِنْ ذُنُوبِكُمْ» ثم السالف الخاص بحقوق اللّٰه، بعض من بعض.

[1]. راجع كتابنا «حوار بين الإلهيين و الماديين».

و من ثم الايمان قيد الفتك لاحقا بضمان الجهاد فغفرا لكافة الذنوب «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»(۶۱:۱۲).

فقد وعد المؤنون المجاهدون بغفر ذنوبهم كلها، والكافرون بغفر البعض إن آمنوا وهكذا نرى فيما خوطب به الكافرون كما هنا وفي سواها:

«يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ...»(۴۶: ۳۱) «أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ. يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ..» (۷۱: ۴).

و من ثم الذين آمنوا وأصلحوا وجاهدوا يغفر لهم ذنوبهم بتوبة او ترك كبائر السيآت او فعل كبائر الحسنات كما هنا، وبالشفاعة في الاخرى:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» (۸: ۲۹) (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيداً، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ...»(۳۳: ۷۱).

فالقول ان «من» هناك زائدة زائدة من القول، بل هي قاصدة ما قصدت من تبعيض.

و قد تعني «وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى» فيما تعني تأخيرا لأجل هم بالغوه تكملة للغفران بكمال الإيمان، كما تعني تأجيلا عن عاجل العذاب ان لم يؤنوا، فسحة لمجال التفكير حتى يؤنوا، فيغفر لهم ما قد سلف ومن ثم سائر الذنب على شرطه.

ترى وما هو «اجل مسمى»؟ انه المحتوم المسمّى في ام الكتاب وهو لا يؤر مهما قدّم معلقا وهو الأجل المعلق: «وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لايُؤَخَّرُ»(۷۱: ۴) فأصل الأجل هو المؤل لمسماه وقد يعجل قبل مسماه لسبب غير مسمى او مسمى كعذاب الاستئصال، فمن التأخير الى اجل مسمى الإمهال إليه دون عذاب، ولكن الذين كفروا وكذبوا بآيات اللّه وظلموا قد يستعجل لهم العذاب قبل الأجل المسمى.

فالآجال المعلقة قد تعلق بسيئات العقائد والأعمال فعذاب الاستئصال، او اللامبالات في الحفاظ على الحياة من صاحب الأجل او الآخرين، او التعمد في هدر الحياة منه او الآخرين، ثم الحسنات ـ بإذن اللّه ـ قد تحول دون تحقق الآجال المعلقة كما في نار ابراهيم الخليل، وقد لا تحول كما في سائر المضطهدين من اولياء اللّه، لطفا خفيا بهم، و كما يجلو أحيانا لآخرين.

او ما كان جواب الناكرين عن هذه الحجج البالغة؟ انه التعلق بمنعة المماثلة في البشرية عن اختصاصهم بالرسالة: «قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلّا بَشَرٌ مِثْلُنا ..» وهي تتضمن تصديق الحجة السابقة إلّا في مصداقها الرسالي، فالمماثلة في البشرية حاضرة ماثلة، فأنتم بشر كما نحن، فلنكن وإياكم على سواء فيما أنتم، فإذ لا نجد في أنفسنا وحيا ولا رسالة ـ ونحن أحرى بما نملك من اموال وبنين ـ فبأحرى ألّا تجدوا أنتم في أنفسكم وحيا ولا رسالة حتى بالنسبة لأنفسكم فضلا عمن سواكم، فليكن حامل رسالة الوحي غير بشر.

فما أنتم الّا صادين عن سبيلنا «تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمّا كانَ يَعْبُدُ آباؤنا» فهل نترك ما تعودناه وعهدناه من آباءنا القدامى بدعوى خاوية خالية عن سلطان، فما تزيدوننا غير تخسير حين تتفضلون

علينا بادعاء «ما هذا إِلّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ»(٢٣: ٢٤).
و لو انكم مفضّلون علينا بوحي، ام أنتم على حق مما تصدون «فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ»أنكم بحق وعلى وحي، وكيف نترك ما يعبد آباءنا دون سلطان مبين، ونحن في ذلك على سلطان الآباء.
و ترى أن السلطان المتقاضى هو آية الرسالة البنية؟ و«لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ...»(٥٧: ٢٦) فما من رسول إلا أرسل بآية لرسالته بينة منذ دعوته فكيف يتطلبون سلطان الآية على رسالاتهم؟!.
انهم كانوا يتطلبون منهم آيات كما يشتهون غضّا عما أتوا به من آيات فيها الحجة البينة، آيات هي سلطان على عقولهم كما يهوون، ام هي سلطان على نفوسهم لو انهم رسل اللّه «اللّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ ..»(٨: ٣٢).
فالسلطان ـ أيا كان ـ هو السلطة عقلية او نفسية على طالبه، غلبا على عقله حتى يصدّق، ام غلبا على حياته إذ ليس ليصدّق، وهو على أية حال آية غالبة، ولا سيما المبين حيث يبين الحق عن الباطل، ولذلك تمتاز عن سائر الآيات كما ويفرد بعدها بالذكر: «وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ» (١١: ٩٦) وهنا الجواب حازما حاسما بين تصديق لصادق الحجة وتكذيب لكاذب الدعوى:
قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ ما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلّا بِإِذْنِ اللّهِ وَ عَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١).
ف «إِنْ نَحْنُ إِلّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ» تصديق للماثلة، ثم «و لكن ..» إخراج عنها، فإنما المماثلة في البشرية الظاهرة بمتطلباتها ومشاركاتها، ثم الخروج عن قضيتها المتعودة بما «يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ».
فكما أن المماثلة في أصل البشرية في سائر البشر ـ لا تقتضي ـ المساواة في العلم والعقل من الأمور المعنوية، بل ولا في الجمال والمال والأولاد وسائر الميّزات الظاهرة من غير المعنوية، كذلك ـ وبأحرى ـ بالنسبة لخارقة معنوية كالوحي والرسالة.
و لئن رجعوا قائلين ان هذه الميزات من حصائل المساعي على قدر سعي الساعي، ولكنما الوحي ليس يحصل بالسعي، فالجواب «وَ لكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ».
فكما بالإمكان الواقع تفاضل البشر ـ على مماثلتهم ـ في بعض الفواضل والفضائل بما يعملون «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلّا ما سَعى» كذلك الإمكان في التفاضل بما قد يأملون على ضوء ما يعملون، قضية الضرورة القاطعة من هدى اللّه، دون فوضى جزاف فيمن يهدي به اللّه وحيا «وَ لكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ» ام ودون عمل كما في الجمال وأمثاله.
فهل من صاد يصد عن رحمة اللّه ومنّه على من يشاء من عباده ليشملهم كلهم برحمته؟ وكل الرحمات هي من اللّه لا سواه «أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» (٤٣: ٣٢).
فإذ يمن اللّه على بعض في بعض النعم بما سعى، فمنه على بعض ومنّه على العالمين اولى وأحرى، منة ضخمة لا على اشخاص الرسل وحدهم، ولكن على البشرية التي تشرف بانتخاب افراد منها لهذه المهنة العظمى، تلقيا بالقلب من الملاء الأعلى، وإلقاء على سائر المكلفين بكل سلطان مبين، رسالة واحدة هي ضرورية لهدى الحائرين الضالين، فسلبها كليا سلب لرحمة كتبها اللّه على نفسه، وإيجابها لكل احد هدر للوحي حين يلقى الى قلوب مقلوبة، وتسوية ظالمة بينها وبين قلوب طاهرة، وتسيير لغير الصالحين الى صلاح الوحي وصالحه، وسلب للامتحان، فليختص بمن صنع نفسه مؤنا كأعلى

القمم الممكنة، ثم يصنعه اللّه كما هيأه من ذي قبل، صناعة مثلثة الزوايا، والأخيرة منها هي رأسها حيث يسده اللّه تعالى عن كل خطأ، ولكنها ليست فوضى جزاف، وانما بما سعى وقدر ما سعى، وان كان اللّه يساعده في المبدء و المنتهى، فالمأثوم عمدا وسواه لا يصلح ان يصبح معصوما، وانما الذي يصنعه اللّه على عينه ويرعاه برعايته وهو يعمل بعين اللّه كما يجب وكما قال الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله: «ما أوذي نبي مثل ما أوذيت».

و لكن السلطان ـ أيا كان ـ ليس هو من فعلنا وتحت قدراتنا، ف «إِنْ نَحْنُ إِلّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ» كما نقول وتقولون «وَ ما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلّا بِإِذْنِ اللّهِ» لأنه ـ فقط ـ فعل اللّه دون تحويل لسواه او تخويل، «وَ عَلَى اللّهِ» لا سواه «فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ»فنحن نتوكل عليه في رسالاتنا ودعواتنا وعلى سائر المؤنين امن يفتش عن ايمان ان يتوكل عليه في سلطان وسواه، دون توكل على الرسل فإنهم بشر ـ كما أنتم «وَ لكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ..».

وَ ما لَنا أَلّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ وَ قَدْ هَدانا سُبُلَنا وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا وَ عَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢).

و هذه تتمة من صامدة الحجة الرسالية تقطع آمال الناكرين المعارضين حين يسمعون المرسلين مطمئنين الى مواقفهم، «وَ ما لَنا» في رسالتنا «أَلّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ»الذي أرسلنا «وَ قَدْ هَدانا سُبُلَنا» شخصيا ورساليا، فعلينا المضيّ في سبيلنا تصبرا على كل أذى من الأعداء وكل لظى: «وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا» صبر الصمود على الدعوة، وعدم التفلّت عنها ام تلفّت إليهم قيد شعرة «وَ عَلَى اللّهِ» لا سواه «فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ»حيث التوكل في صعاب الأمور مما لا بد منه، والتوكل على من سوى اللّه خسار وبوار، إذ لا يغني احد من اللّه شيئا، فكما علينا نحن المرسلين ان نتوكل على اللّه وقد هدانا سبلنا، كذلك على المؤنين إذ قد هداهم سبلهم.

فالقلب الذي يحس ندى الرحمة المتواصلة غير المحدودة من خالق الرحمة، وانها تقود خطاه ويسده عن خطاه وتهديه السبيل، إنه قلب موصول باللّه، فائض بخاصة اللّه، فاض عما سوى اللّه، فما لصاحبه ألا يتوكل على اللّه؟! أيا كانت العقبات في سبيل الرسالة الشائكة بالشبكات، المليئة بالأشلاء والدماء ... فتصبرا دونما زعزعة و زحزحة، ودون انفراط وانفلات وحتى النفس الأخير.

و لمّا يرى الطغيان ذلك الصمود السائد في وجوه حاملي رسالات اللّه وواجهاتهم، ولم تبق له أية باقية من حجة إلّا داحضة، هنالك يتوسل بجبروت القوة وكما هي السنة السائدة بين حماقى الطغيان:

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظّالِمِينَ (١٣) وَ لَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَ خافَ وَعِيدِ (١٤).

تهدّد من الذين كفروا لرسلهم بإخراجهم من أرضهم نفيا عن بلادهم، ام عودا في ملتهم، ثم توعّد من ربهم «لَنُهْلِكَنَّ الظّالِمِينَ».

ترى هذا إخراجهم من أرضهم فكيف عودهم في ملتهم ولم يكونوا فيها بدءً حتى يرجعوا فيها عودا؟.

أ لأن هذه مقالة الكفار ودعواهم أنهم كانوا قبل دعوى الرسالة في ملتهم ثم تحولوا عنها الى ملة التوحيد ودعوى الرسالة، وكيف يصدق الكافر في قولته على المرسلين؟ ولكنما الدعوة الكافرة الباطلة لا تظل في كتاب الدعوة الحقة دون إبطال و إجابة! ولا نراها هنا! أم خيّل إليهم انهم كانوا من قبل في ملتهم إذ لم يكونوا يتظاهرون بشيء من هذه وتلك، فليعودنّ فيما كانوا؟ فكذلك الأمر! ام ان

العودة هي الصيرورة فلا تستلزم بداية الشرك؟ ولو عنتها لجيء بلفظ الصيرورة دون العودة!.
ام وان كانوا على علم بما كانوا قبلئذ فليعودن في ملتهم كأحد منهم سكوتا عما يدعون ف «ملتنا»لا تعني الملة الروحية بل هي هنا الملة والسلطة الزمنية، فليست الملة لتخص الروحية منها، وهنا القرينة على الزمنية ان المرسلين ليسوا قبل الرسالة الا مؤنين وفي قمة الايمان نسبة الى سائر المؤنين، واحتمال الملة هنا الشرعة ليس يصنع حجة يمس ساحة الرسالة، او يناحر حجة الرسالة بسابقة الايمان وهي لزام الرسالة، كما ان آيات الاجتباء والاصطفاء ك«لا يَنالُ عَهْدِي الظّالِمِينَ»وأضرابها تصريحات بهذه السابقة السابغة، اضافة الى برهان إمكان الأشرف، فلتكن الملة ـ إذا ـ الملة الزمنية بسلطتها الجبارة. وقد تفي «في» دون «الى» دلالة على هذا المعنى، فقد كانوا فيهم كما هم في ظاهر الحال فليعودوا فيهم كما كانوا على تقية دون دعوة ظاهرة؟ وعله ـ فقط ـ ما يعنون، ام هم مختلفون فيما يختلقون، فالمعاني الثلاثة ـ إذاً ـ معنية، وكفى الثالث معنى أصيلا لا يحتاج إلى ابطال.
ثم الخطاب لا يخص المرسلين حيث يهدفون بما يتهددونهم حسم مادة الرسالة والدعوة لها، فبقاء المؤنين دون المرسلين بقية للدعوة، وتوطيد للداعية مهما خرجت عن محيط الدعوة، وكما صرحوا في شعيب «قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا ..» (٧: ٨٨) واما ذيل الآية «قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ» فلا يدل ـ ايضا ـ على الملة الروحية، حيث البقاء تحت السلطة الزمنية الكافرة دون دعوة جاهرة باهرة، وبعد انقضاء زمن التقية، ذلك افتراء على اللّه في هذه السلبية ان الرسالة لا تحمل دعوة جاهرة، وانما هي سرية خفية على تقية! فتقية الرسل في الوقت الذي تحرم فيه التقية، تحسب من شاكلة الرسالة، وهكذا رسالة خاملة خامدة فرية على اللّه كذبا «إِلّا أَنْ يَشاءَ اللّهُ» ان نعود الى التقية في تلك الملة المشركة.
و بعد ذلك التهديد اللهيب يطمئنهم الوحي الحبيب: «لَنُهْلِكَنَّ الظّالِمِينَ»باستئصالهم قبل ان يحققوا وعيدهم على المرسلين «وَ لَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ»وعدا لهم عليهم غير مكذوب، وأصدق المصاديق لهلاك الظالمين ـ ككل ـ وإسكان النبيين الأرض مكانهم، هو آخر الزمن حيث يقوم القائم المهدي عليه‌السلام بالحق و العدل المطلق «وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصّالِحُونَ. إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ» (٢١: ١٠٥ ـ ١٠٦).
ذلك مهما صدق هلاك هؤلآء وإسكان أولاء، خلال الزمن الرسالي أحيانا حيث تقوم دويلات الحق، ولكنها لا تدوم ولا يهلك الظالمون عن بكرتهم في هذه الدويلات.
إذا ف «لَنُهْلِكَنَّ الظّالِمِينَ» تعني ذلك الزمن حيث الهلاك الجماهيري للظالمين كونا وكيانا وسلطة، ثم «لَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ» بعد هلاكهم مهما كانوا موجودين، فإن في زوال سلطتهم اضمحلالهم.
و هكذا وعد المرسلون ـ ككل ـ ولم يحقق وعده تعالى طول حياتهم السابقة، فليكن في رجعتهم الخاصة زمن المهدي المظفر المنصور من آل محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله حيث يرجعون أنصارا لهذه الدولة المباركة، واصحاب الألوية، ثم من بعد موته عليه‌السلام يحكمون كما حكم.
و عل «الظالمين» هنا هم أئمة الظلم والضلالة حيث يرجعون مع أئمة الايمان والعدالة وكما في الخبر المستفيض «يرجع من محض الايمان محضا ومن محض الكفر محضا» وهذه رجعة بالاستعداد عامة، كمن قبلهم خاصة من النبيين وأئمة الدين المعصومين (عليهم السلام) ثم رجعة بالاستدعاء لمن التمس

من متوسطي الايمان ان يرجع مع من محض الايمان محضا.
و هكذا يجاب عن مشكلة «لنسكننكم» إذ لم يسكنوا أرضهم حيث الظلم وحملته الرؤ والهوامش احتلوا طول التأريخ حتى أراضي الدعوة للمرسلين، فكيف «لنسكننكم أرضهم»وبعد «لَنُهْلِكَنَّ الظّالِمِينَ» وترى ما هو مقام الرب وليس له قيام مصدرا ام زمنا او مكانا كما هي معاني المقام؟
اضافة المقام الى اللّه تجرّده عن كل مقام لمن سوى اللّه، وتستخلص له من المقام قيامه بذاته وبأمر الربوبية في الدنيا والآخرة، فهو القيوم في ذاته وصفاته وأفعاله، مقامات ثلاث، وهي دون الأولى بين جمال وجلال، ومقام جلاله جل جلاله هو موقف القدرة والجبروت ومكانة العزة «وَ أَمّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى»(٧٩: ٤٠) (وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ» (٥٥: ٤٦)[1].
فمن قيامه تعالى بالقسط جزاءه العدل يوم القيام حيث «يَقُومُ النّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ»والى سائر قيامه في سائر الحياة و«ذلك» الانتصار التام ليس لكل مدع للايمان، وانما «لِمَنْ خافَ مَقامِي وَ خافَ وَعِيدِ» والخائف مقام الرب ووعيده لا يخاف مقام مَن سواه في تحقيق مرضاة الرب وتطبيقها في المجتمع قدر المستطاع، وقد عبر عنهم في بشارة اخرى بالصالحين «أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصّالِحُونَ» وفي ثالثة«الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ» ومن أصلح الصالحات الإيمانية محاربة الظلم ومحاولة بسط العدل دون تساهل وخمول، والساكت عن الظلم شيطان أخرس.
و من الخائفين مقام ربهم ووعيده قوم يضحكون جهرا في سعة رحمة ربهم ويبكون سرا من خوف عذاب ربهم، يذكرون ربهم بالغداة والعشي في البيوت الطيبة والمساجد ويدعونه بألسنتهم رغبا ورهبا ويسألونه بأيديهم خفضا ورفعا ويقبلون بقلوبهم عودا وبدأً فمؤتهم على الناس خفيفة وعلى أنفسهم ثقيلة يدأبون في الليل حفاة على اقدامهم كدبيب النمل بلا مرح ولا بذخ يقرؤ القرآن ويقربون القربان ويلبسون الخلقان عليهم من اللّه تعالى شهود حاضرة وعين حافظة يتوسمون العباد ويتفكرون في البلاد أرواحهم في الدنيا وقلوبهم في الآخرة ليس لهم هم إلا أمامهم أعدوا الجوار لقبورهم والجواز لسبلهم والاستعداد لمقامهم «ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَ خافَ وَعِيدِ»[2].
وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خابَ كُلُّ جَبّارٍ عَنِيدٍ (١٥).
الاستفتاح هو طلب الفتح في معركة صاخبة دائبة بين الرسل والمرسل إليهم، وترى من هم المستفتحون هنا؟
هل هم الرسل؟ ف «إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ» (٨: ١٩) وكما في نوح: حيث «قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ. فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَأَنْجَيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ

[1]. راجع الفرقان ج ٣٠ ص ٩٦- ٩٧ و ٢٧: ٤٨- ٤٩.

[2]. الدر المنثور ٤: ٥٧٢ أخرجه الحاكم من طريق حماد بن أبي حميد عن مكحول عن عياض بن سليمان و كانت له صحبة قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم خيار امتي فيما انبأني الملأ الأعلى قوم ... لمقامهم ثم تلا (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «ذلك ..».

الْمَشْحُونِ. ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ» (۲۶: ۱۲۰) وفي محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله «إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً» (۴۸: ۱) وهكذا من بينهما من النبيين قائلين: «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ» (۷: ۸۹). ام وهم المرسل إليهم الكافرون، استفتاحا بدعاياتهم الزور الغرور وما هددوا به المرسلين وفعلوا ما افتعلوا «وَ خابَ كُلُّ جَبّارٍ عَنِيدٍ» واستفتاحا ليوم الدين: «وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ، قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ»(۳۲: ۲۹) (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَ هُوَ الْفَتّاحُ الْعَلِيمُ»(۳۴: ۲۶) ولقد كانوا باستفتاحهم يوم الدين يستعجلون العذاب الأليم «اللّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ» (۸: ۳۲)[1] (ائْتِنا بِعَذابِ اللّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ» (۳۹:) ۳۹).

و لكن فتاح الأمر هو وعد اللّه «لَنُهْلِكَنَّ الظّالِمِينَ» وختامه تحقيقه «وَ خابَ كُلُّ جَبّارٍ عَنِيدٍ»وبينهما استفتاح من أولاء ومن هؤلآء وأين استفتاح من استفتاح؟.

.. كُلُّ جَبّارٍ عَنِيدٍ. مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ (۱۶) يَتَجَرَّعُهُ وَ لا يَكادُ يُسِيغُهُ وَ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ما هُوَ بِمَيِّتٍ وَ مِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ (۱۷).

«كُلُّ جَبّارٍ عَنِيدٍ. مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ» إذا مات جبارا عنيدا، ولماذا «مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ»و«عَذابٌ غَلِيظٌ» وهما أمام كل جبار عنيد حيث يستقبلونهما في مسيرة الحياة ومصيرتها؟

علّه لأنهم يستدبرونهما ايمانا إذ هم بهما كافرون، مهما يستقبلونهما كواقع، فجاء التعبير بالواقع المختار كما يزعمون دون الواقع على أية حال.

ثم «من وراءه» لا تخص وراء الأخرى، بل والأولى، فإن جهنم الحياة هنا هي من وراء ما يعتقدون وما يعملون خلفيّة لا حول عنها إلا بحول اللّه وقوته، فالجبار العنيد يعيش جهنم الحياة ويعيّش من تحت وطأته إياها في الحياتين: «وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى ..» ف «من وراءه» هنا وهناك، تعني مخلفات وراء تخلفاتهم، سواء أ كان لهم في مثلث الحياة، ام والآخرين حيث العمليات الكافرة تظلم الجو على عائشيه: «إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَ يَذَرُونَ

---

[1]. نور الثقلين ۲: ۵۲۰: ح ۲۶ في روضة الكافي عدة من أصحابنا عن سهل بن زياد عن محمد بن سليمان عن أبيه عن أبي بصير قال: بينا رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم جالسا إذ اقبل امير المؤنين (عليه السلام) فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ان فيك شبها من عيسى بن مريم لو لا ان يقولوا فيك طوائف من امتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم لقلت فيك قولا لا تمر بملاء من الناس الا أخذوا التراب من تحت قدميك يلتمسون البركة قال: فغضب الأعرابيان فانزل اللّه على نبيه «وَ لَمّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ» ... فغضب الحارث بن عمرو الفهري فقال: «اللّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا ..» ان بني هاشم يتوارثون هرقلا بعد هرقل «فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ» فانزل اللّه عليه مقالة الحارث و نزلت هذه الآية: «وَ ما كانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ ما كانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» ثم قال له: يا عمرو اما تبت و اما رحلت؟ فقال: يا محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم)! بل تجعل لسائر قريش شيئا مما في يديك فقد ذهبت بنو هاشم بمكرمة العرب و العجم، فقال له النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ليس ذلك الي ذلك الى اللّه تبارك و تعالى فقال يا محمد! قلبي ما يتابعني على التوبة و لكن ارحل عنك فدعا براحلته فركبها فلما صار بظهر المدينة أتته جندلة فرضت هامته ثم أتى الوحي الى النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقال: سأل سائل بعذاب واقع، للكافرين ليس له دافع، من اللّه ذي المعارج فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لمن حوله من المنافقين: انطلقوا الى صاحبكم فقد أتاه ما استفتح به قال اللّه عز و جل «وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خابَ كُلُّ جَبّارٍ عَنِيدٍ».

وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلًا»(٧۶: ٢٧) (وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» (٢٣: ١٠٠) (مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ وَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً» (۴۵: ١٠).

فلان الناكرين للقيامة يجعلونها وراءهم نكرانا، وهم مقبلون الى الدنيا وشهواتها، فجاعلون الأخرى وراءهم يوما ثقيلا، لذلك نرى القيامة لهم ـ لا للمؤنين ـ وراءً، فهم في دنيا الحياة في وراء وعراء.

فالوراء ـ إذاً ـ قد تكون الواقع الذي لا حِوَل عنه ولا حول في إيجابه او سلبه، والحياة الحساب ليست وراءً بل هي أمام، وقد تكون حياة الحساب حسب العقيدة والعمل الصالح لها، فهي وراء لمن لا يعتقدها ولا يعمل لها ف «يَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلًا»وهو أمامهم في الواقع، ونرى الوراء في الحياة الحساب تختص في آياتها بناكريها دون المؤنين فإنها لهم أمام.

و عل الوراء الأول هو البرزخ والثاني هو القيامة، وقد يلمح له «عَذابٌ غَلِيظٌ»حيث البرزخ أمامه غير غليظ، وهو وراء جهنم.

و «ماءٍ صَدِيدٍ» هو القيح السائل من الجرح[1] وهذه مرة يتيمة يعبر فيها عن ماء الجحيم بصديد، وعلّه صدّ الحياة كحياة وإن كان ليس بميت.

«يتجرعه» جرعة جرعة، حيث لا يتجرأ على ابتلاعه دفعة، ولا يستغني عنه حتى لا يتجرع، ضرورة العطش الهالك الحالك، «وَ لا يَكادُ يُسِيغُهُ» ويروّيه، بل ويزداده عطشا على عطش، فقد يشرب الشارب ماءً ولا يسيغه لمرض العطاش، فقد يسيغه لولا العطاش، ولكنه ماء «لا يَكادُ يُسِيغُهُ» لأنه لا يروي، بل ويزيده عطشا! ثم «وَ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ» في الجحيم «يَأْتِيهِ ... وَ ما هُوَ بِمَيِّتٍ» فهو ذائق طعم الموت بكل بواعثه وكوارثه من كل مكان خارج وجوده، ومن كل مكان من جسمه، وحتى من مكان حياته وهو فمه الآكل الشارب، فإنهما مميتان كسائر بواعثه، وعلّه من أتعسه حيث يختص بالذكر بينها، فأصبح باعث الحياة باعث الموت وكارثه! ولكنه لا يموت، فهو ـ إذا ـ أموت من الموت ببأسه، وأحيى من الحياة ببؤها، جمعا بين كوارث الموت والحياة، حياة خالدة مارجة بموت خالد، لا حظوة في تلك ولا خلاص عن ذلك «وَ مِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ».

اجل! وان غواشي الكروب، وحوازب الأمور تطرقه من كل مطرق، وتطلع عليه من كل مطلع، حيث «لا تُبْقِي وَ لا تَذَرُ. لَوّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ....»! وقد يوصف المغموم بالكرب، والمضغوط بالخطب بأنه في غمرات الموت، مبالغة في عظيم ما يغشاه، وأليم ما يلقاه.

و ترى إذا «ما هُوَ بِمَيِّتٍ» فأين موت النار بمن في النار صيانة على العدالة الربانية؟ ان «كل مكان» هنا

---

[1]. الدر المنثور ٤: ٧٣- اخرج احمد و الترمذي و النسائي و ابن أبي الدنيا في صفة النار و ابو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابو نعيم في الحلية و ابن مردويه و البيهقي في البعث و النشور عن أبي امامة عن النبي صلى اللّه عليه و آله و سلم في الآية قال: يقرب اليه فيتكرهه فإذا دنا منه شوى وجهه و وقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع امعائه حتى يخرج من دبره يقول اللّه تعالى: و سقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم و قال: و ان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه.

و في نور الثقلين ٢: ٥٣٢ عن تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده (عليه السلام) قال قال امير المؤنين (عليه السلام) ان اهل النار لما غلى الزقوم و الضريع في بطونهم كغلي الحميم سألوا الشراب فأتوا بشراب غساق و صديد «يَتَجَرَّعُهُ وَ لا يَكادُ يُسِيغُهُ وَ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ما هُوَ بِمَيِّتٍ وَ مِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ» و حميم يغلي به جهنم منذ خلقت، «كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَ ساءَتْ مُرْتَفَقاً».

هي مكانات الجحيم، فما دام الجحيم «يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ»منها، فإذا زال الجحيم فلا مكان ـ إذا ـ يأتيه الموت منه، ولا هو كائن حتى يأتيه الموت!.
ثم الموت الآتي من قبل اللّه حين ختام العذاب العدل، ليس هو من أي مكان فضلا عن كل مكان، وانما هو من خالق الزمان والمكان ولذلك يؤر أثره، دون سائر عوامل الموت حين لا يريد اللّه تأثيراتها في الموت.
و من ثم فالظاهر من «كُلِّ مَكانٍ» هنا مكانات الجحيم البرزخية، ثم «مِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ»في الجحيم الأخروية.
إذا فلا دلالة ولا إشارة في «وَ ما هُوَ بِمَيِّتٍ» الى فرية معروفة على اللّه ان اهل النار مؤدون فيها الى غير النهاية! مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٨).
«الَّذِينَ كَفَرُوا» باللّه وآياته قلبا وقالبا «أعمالهم» قالبا وقلبا «كرماد ..» فطالحات أعمالهم هباء دونما حاجة الى إهباء وإحباط، وصالحات اعمالهم حابطة لأنها خابطة دون رباط بإيمان.
و لماذا «مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ ..» إبدالا، دون «مثل أعمال الذين كفروا»؟ علّه تعبير عن احتصار كيانهم الكافر في اعمالهم الكافرة، باطنة وظاهرة، علما وعقيدة وطوية ونية، ثم بروزا لما في الجوانح في الجوارح، فقد استأصل ذلك المثل كيانهم ـ ككل ـ في اعمالهم الهباء الخواء، حيث اللّه منها براء: «وَ قَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً» (٢٥: ٢٣). إذاً «فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً»(١٨: ١٠٥) إذ خفت موازينهم! فمثل هذه الأعمال الخاوية عن الإيمان، كرماد مركوم، متصلة الظواهر، منفصلة بعضها عن بعض وعن مكانها، يخيّل إلى الناظر الغافل أنه شيء، ثم إذا اشتدت به الريح في يوم عاصف، تراه هباءً منثورا «لا يَقْدِرُونَ مِمّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ»! .. وهكذا تكون الريح العاصفة يوم الحساب، تعصف بأعمالهم فتجعلها هباءً منثورا.
و لان «اعمالهم» جمع مضاف، فقد تستغرق كل اعمالهم صالحات وطالحات، ولكنما الطالحة حابطة في ذاتها دون حاجة الى ريح تشتد بها، فقد تعني ـ فقط ـ صالحاتهم، إلّا انها كطالحاتهم حابطة دون إحباط لفقدها شريطة الايمان، وهذا المثل بيان لواقع اعمالهم في حساب اللّه، وانهم يحسبون طالحاتهم ـ كما الصالحات ـ صالحات، واللّه ينبئهم انها كلها حابطات، إن في بعد كصالحاتهم، ام في بعدين كالطالحات، ف «أعمالهم» ـ إذا ـ تعني كل اعمالهم، كما ان «ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ»تؤد العموم: «وَ قَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً» بخلاف الصالحين حيث يعاكس أمرهم: «فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ» (٣٥: ٧٠).
و هنا تبرز حقيقة ناصعة ناصعة أن ليس العمل هو ـ فقط ـ المعوّل، وانما هو باعث العمل، إن ايمانا فصالح، وان كفرا فطالح.

مسئوليات الرسل والمرسلين اليهم

فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦).
فالرسل والمرسل إليهم هناك مسئولون في موقف الاستجواب، ولكن الرسل يسألون سؤل تقرير

وتغرير وتعزير، والمرسل إليهم يسألون سؤل تأنيب وتبكيت وتنكير، اللهم إلّا من وفي لرعاية الحق منهم:

«فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمّا كانُوا يَعْمَلُونَ» (١٥: ٩٣) وهو سؤل استفحام دون استفهام.

فقد يسأل المرسلون ـ من الجنة والناس والملائكة ـ ماذا أجبتم:

«يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلّامُ الْغُيُوبِ»(٥:١٠٩) وكما يسألون عن تأدية رسالاتهم[1]، ويسأل المرسل إليهم ـ وهم كافة المكلفين من الجنة والناس وسواهما ـ عما أجابوا الرسل، لا جهلا عما كانوا يعملون، و إنما استحصالا لما في الصدور حتى يقروا بأنفسهم بما كانوا يعملون.

هنا سؤل المرسلين يجمع إلى تغرير لهم وتعزير تقريرا في ذلك المشهد أنهم بلّغوا رسالات ربهم دونما قصور أو تقصير، فهو لهم احترام زائد ولمن تخلفوا عنهم اختزام بائد.

ثم وفي وجه شمول «المرسلين» كافة الدعاة المسؤلين، تنديد بمن قصّر منهم في بلاغ الدعوة الربانية، ثم الله هو الذي يقص كلما حصل:

فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَ ما كُنّا غائِبِينَ (٧).

قصّ رباني لأعمالهم وأحوالهم «بعلم» سابق سابغ إذ «ما كُنّا غائِبِينَ» ف: إِنّا كُنّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٥: ٢٩).

و ذلك القص هو مربعة الجهات والجنبات، هي ١: قص رباني دون وسيط، ٢ وبوسيط الأعضاء ٣ والأرض ٤ وسائر الشهداء من النبيين والملائكة الكرام الكاتبين، ولكي تكمل الشهادة ويغرق المشهود عليهم في غمراتها فلا يجدوا سبيلا لنكران.

و هنا «عليهم» تعم المرسل إليهم إلى المرسلين، قصا بعلم لما فعل الرسل وما فعل المرسل إليهم، قصّ غامر هامر لا يبقي ولا يذر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها: «وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً» (١٨: ٤٩).

و لماذا هنا «قصّ» بديلا عن «إنباء ـ أو ـ إخبار»؟ لأن أخبار الرسل والمرسل إليهم ليست كلها تنبأ، إنما هي مواضع المسؤلية حيث تقص قصا عن كل ما حصل، وكما يقص القرآن أنباء ما قد سلف دون عرض لكل ما حصل.

---

[1]. الدر المنثور ٣: ٦٨- أخرج أحمد عن معاوية بن حيدة أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم قال: إن ربي داعيّ و انه سائلي هل بلغت عبادي و إني قائل: رب إني-- بلغتهم فليبلغ الشاهد الغائب، ثم انكم تدعون مفدمة أفواهكم بالفدام إنّ أوّل ما يبين عن أحدكم لفخذه و كفه، وفيه أخرج البخاري و مسلم و الترمذي و ابن مردويه عن ابن عمر قال قال النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): كلكم راع و كلم مسئول عن رعيته فالإمام يسأل عن الناس و الرجل يسأل عن أهله و المرأة تسأل عن بيت زوجها و العبد يسأل عن مال سيده، وفيه أخرج ابن حبان و أبو نعيم عن أنس أن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ان اللّه سائل كل راع عما استرعاه أحفظ ذلك أم ضيعه حتى يسأل الرجل عن أهل بيته،وفيه أخرج الطبراني في الأوسط بسند صحيح عن أنس قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كلكم راع و كلكم مسئول عن رعيته فأعدوا للمسائل جوابا قالوا:

و ما جوابها؟ قال: اعمال البر، و فيه أخرج الطبراني في الكبير عن المقدام سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: لا يكون رجل على قوم إلا جاء يقدمهم يوم القيامة بين يديه راية يحملها و هم يتبعونه فيسأل عنهم و يسألون عنه.

و هنا موازاة بين المسؤل عنه وبين المقصوص، فكل ما يسأل عنه يقص، وكلما يقص فهو مسئول عنه، وقد يشمل السؤل والقص كافة المسؤليات الفردية والجماعية وكما في حديث الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[1].

ف «الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ» يشمل كافة المكلفين، معروفين لدينا ومجهولين، من الجنة والناس ومن سواهم من المسؤلين أجمعين، كما «المرسلين» تشمل إلى رسل الإنس الرسل الملائكية والجنية، ومن ثم كل المكلفين بالدعوة الرسالية من علماء ربانيين وآمرين وناهين، وأية داعية راعية، فقد تشملهم كلهم «المرسلين»، فلا تجد مكلفا يوم الدنيا إلّا وهو مسئول يوم الدين دون إبقاء ولا إبطاء: «وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ»(٣٧:٢٤).

ذلك، ولأن الحشر يعم كافة ذوات الحياة وكما في آية الأنعام:

«وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ» (٦: ٣٨) فمثنى المسؤلية تشملهم يوم الدين، مهما اختلفت درجاتها.

و هنا السؤل العام لا يناحر هناك عدم السؤل: «فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ» (٥٥: ٣٩) حيث السلب يعني سؤل الاستفهام إذ «يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ» ثم الإيجاب بين سؤل استجهال أو استفحام أو استعظام، تقديرا لطالح ما كان، وتقريرا لصالحه في ذلك الحشد الحشر العام.

يا رسل الله ماذا أجبتم

«يَوْمَ يَجْمَعُ اللّٰهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلّامُ الْغُيُوبِ»(١٠٩):

هنا يسأل المرسلون «ما ذا أُجِبْتُمْ» وفي أخرى يسأل المرسل إليهم ماذا أجبتم المرسلين: «وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ. فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ. فَأَمّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ»(٢٨: ٦٧) وفي ثالثة يجمع بينهما في السؤل: «فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ. فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَ ما كُنّا غائِبِينَ»(٧: ٧).

فسؤل المرسل إليهم سؤل استفهام استفحام عمن خالف الرسل، واستعظام لمن اتبعهم، وسؤل المرسلين هو سؤل إعلام وتعظيم، فهنا «لا عِلْمَ لَنا» لهم جواب، ولأنهم لم يقصروا في رسالاتهم فليس لهم تباب وعتاب.

و هنا في استجواب الرسل نجد الجواب «لا عِلْمَ لَنا» وهم عارفون الجواب حيث واجهوا مصدقين ومكذبين؟ ثم اللّٰه أشهدهم على ما هم غائبون ليشهدوا يوم يقوم الأشهاد، فقد يعنون تخضعا أمام اللّٰه حيث لا يسألهم استعلاما ف «إِنَّكَ أَنْتَ عَلّامُ الْغُيُوبِ»أم ويعنون «لا عِلْمَ لَنا»كما يحق حيطة على كل ما أجبنا، فقد أجبنا أمام من واجهناهم كما «وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمّا تَوَفَّيْتَنِي

[1]. راجع الى ص ٢٦

كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» (١١٧) فالمنفي من العلم هو علم الغيوب «إِنَّكَ أَنْتَ عَلّامُ الْغُيُوبِ».

و لأن العلم بالإجابة كأصل، الغائبة عنهم أحياء وأمواتا، ذلك مسلوب عنهم مهما علموا أقوالهم واعمالهم بما عرفهم اللّه كما تدل آيات شهادة الرسل على الأعمال، ف «لا عِلْمَ لَنا»صادقة أولا وأخيرا، فأولا وقبل أن يعرّفهم اللّه لا علم لهم إلّا ما واجهوه، وأخيرا بعد ما عرفهم اللّه لا علم لهم محيطا كما يعلم اللّه، ثم وقضية الأدب الرسالي، هي الاعتراف بالجهل أمام الرب تبارك وتعالى.

و من جهة ثالثة بما أن العلم بغيب النيات والطويات خاص باللّه ف «إِنَّكَ أَنْتَ عَلّامُ الْغُيُوبِ»وليس العلم بالمظاهر ـ مهما حلق على كلها بإذن اللّه ـ ليس علما أمام العلم بالغيوب، إذا «لا عِلْمَ لَنا» كما يكفي «إِنَّكَ أَنْتَ عَلّامُ الْغُيُوبِ».

فشهداء الأعمال لا يشهدون إلّا بمظاهرها الحاضرة لديهم أو المحضرة بإذن اللّه عندهم، وأما النيات وسائر الطويات فهي المختصة بعلام الغيوب، وقد يكون ذلك التعليم يوم القيامة بعد ذلك التساءل، حيث العلم الطليق يوم الدنيا لهؤاء الشهداء هو مما يصد عنهم كل ضرّ وشرّ كما يجلب كل خير، وذلك العلم مسلوب عن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌فضلاً عمن سواه كما قال اللّه عنه: «وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ» (٧: ١٨٨) فمن الغيب المستكثر للخير والصاد عن مسّ السوء هو العلم بأعمال المكلفين ككل، وبنياتهم وطويّاتهم ما تشمله الشهادة يوم يقوم الأشهاد.

إذا فالجامع بين واقع الشهادة من الأشهاد يوم يقوم الأشهاد، وعدم علمهم بمادة الشهادة، هو ان ذلك العلم يختص بما بعد الموت وبعد ذلك التساءل، ومما يشهد له قول المسيح «وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ..»(٥: ١١٧).

ثم وهنا في «عَلّامُ الْغُيُوبِ» لمحة إلى أن علمنا بغيب الأعمال الظاهرة حين نغيب عنها هنا أم بعد الموت، هو علم قليل بغيب مّا كما علمتنا، ولكن العلم الحق وحق العلم بكل الغيوب، إنه يختص بك.

إذا ف «لا عِلْمَ لَنا» يعني علما وافيا بما أجبنا، فالإجابات بالنيات والطويات وهي محاور الإجابات غائبة عنا لا علم لنا بها، ثم إجابات الأقوال والأعمال وهي مظاهر الإجابات، إنها ليست بالتي تحلّق على كل المسؤل عنهم هنا «ما ذا أُجِبْتُمْ»؟.

ذلك، ومن جهة رابعة قد يكون موقف المسائلة أذهلهم عما كانوا يشهدون حياتهم وما أشهدهم اللّه حياتهم ومماتهم، وفي الحق إنه موقف مذهل مزلزل كل الخليقة مهما كانوا من الرسل.

ذلك، ومن جهة رابعة قد يكون موقف المسائلة أذهلهم عما كانوا يشهدون حياتهم وما أشهدهم اللّه حياتهم ومماتهم، وفي الحق إنه موقف مذهل مزلزل كل الخليقة مهما كانوا من الرسل.

فحين ينسى الإنسان ذاته أمام ربه فقد ينسى متعلقاته بأحرى، وما علم الرسل بما أجيبوا وسواه علما لهم ذاتيا، ولو كان لكان منسيا كما الذوات، وقد تجمع هذه الثلاث:

«لا علم لنا سواك»[1] فلولاك لما كان لنا علم، ثم ولا علم لنا أمامك، فنحن صغار صغار أمامك يا ربّ

---

[1]. ژنور الثقلين ١: ٦٨٨ في معاني الأخبار بسند متصل عن موسى بن جعفر قال: قال الصادق عليهما السلام في هذه الآية: «يقولون لا علم لنا سواك».

فيما أنت أعلم به منا، وأما حين تستشهدنا بما أشهدتنا من أعمال عبادك فنقيم شهادتك بإذنك «وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤلاءِ..»(١٦: ٨٩)، أجل فعند ذلك «طاشت الأحلام وذهلت العقول فإذا رجعت القلوب إلى أماكنها «نَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلّهِ»(٢٨: ٧٥)[1].

فيا للهول من ذلك الاستجواب الرهيب العجيب الذي يذهل الرسل ما كانوا يعلمون بما عُلّموا، فإنه يوم الحشر العظيم والحشر العميم من الملإ الأعلى والأدنى والمتوسطين من الملائكة والجنة والناس أجمعين، الاستجواب الذي يراد به المواجهة، مواجهة المرسل إليهم أجمعين برسلهم أجمعين، مواجهة المصدقين منهم و المكذبين ليعلن في موقف الإعلان أن هؤلآء الرسل الكرام إنما جاءوا من عند اللّه العزيز الحكيم، وها هم أولاء مسئولون بين يدي رب العالمين في ذلك اليوم العظيم.

فالرسل ـ إذا ـ يعلنون أن العلم الحق وحق العلم هو للّه وحده لا شريك له، وان ما لديهم من علم لا ينبغي أن يدلّوا به بحضرة صاحب العلم المحيط، بل وهم عما عندهم ذاهلون، تحويلا للشهادة بأسرها إلى رب العالمين، وحين يأتي موقفها فهو الآمر لإقامة الشهادة «يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ»حين «يَقُومُ النّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ» وهكذا يكون أدب المتعلم أمام المعلم أن يكل العلم إليه مهما علم ما علّمه.

فكما أنه هو الذي يفتح مغاليق الشهادة الأرضية بأجواءها، وشهادة الأبدان بأعضائها، كذلك هو الذي يفتح مغاليق ألسنة سائر الشاهدين من المرسلين والكرام الكاتبين فيغرق المكلفون في خضمّ الشهادات أمام رب العالمين.

ذلك، ولأن المسيح بن مريم عليهم‌السلام هو الذي فتن قومه فيه، وهو الذي غام الجو حوله بمختلف الشبهات ومختلقها فخاض أناس في أوهام وأساطير حول كونه وكيانه، لذلك هنا يختصه الخطاب كنموذج من ذلك الاستجواب على ملأ الحشر ممن ألّهوه وعبدوه من دون اللّه، ومن ألهوه وألغوه من درجات الصالحين، ومن هم عوان حيث آمنوا به رسولا، وأمام سائر المرسلين والمكلفين.

---

[1]. في الدر المنثور ٢: ٢٤٢- اخرج الخطيب في تاريخه عن عطاء بن أبي رباح قال جاء نافع بن الأزرق الى ابن عباس فقال: و الذي نفسي بيده لتفسرن لي آيا من كتاب اللّه عزّ و جلّ أو لأكفرن به فقال ابن عباس ويحك أنا لها اليوم أيّ اي؟ قال: اخبرني عن قوله عزّ و جل: يوم يجمع اللّه الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا، و قال في آية اخرى: و نزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق للّه، فكيف علموا و قد قالوا: لا علم لنا- الى قوله-: فقال ابن عباس ثكلتك أمك يا ابن الأزرق ان للقيامة أحوالا و أهوالا و فظائع و زلازل فإذا تشققت السماوات و تناثرت النجوم و ذهب ضوء الشمس و القمر و ذهلت الأمهات عن الأولاد و قذفت الحوامل ما في البطون و سبحرت البحار و دكدكت الجبال و لم يلتفت والد إلى ولد و لا ولد الى والد جيء بالجنة تلوح فيها قباب الدر و الياقوت حتى تنصب على يمين العرش ثم جيء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام من حديد ممسك بكل زمام سبعون الف ملك لها عينان زرقاوان تجر الشفة السفلى أربعين عاما تخطر كما يخطر الفحل و لو تركت لأتت على كل مؤن و كافر ثم يؤى بها حتى تنصب عن يسار العرش فتستأذن ربها في السجود فيأذن لها فتحمده بمحامد لم يسمع الخلائق بمثلها تقول لك الحمد يا إلهي إذ جعلتني انتقم من أعدائك - الى قوله- و يعلو سواد العيون بياضها ينادي كل آدمي يومئذ يا رب نفسي نفسي لا أسألك غيرها حتى ان ابراهيم ليتعلق بساق العرش ينادي يا رب نفسي نفسي لا أسألك غيرها و نبيكم ص يقول: يا رب امتي امتي لا همة له غيركم فعند ذلك يدعى بالأنبياء و الرسل فيقال لهم: ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا طاشت ...

و حصالة البحث حول الآية أن ضرورة تلقي شهود الأعمال أعمال المكلفين ليست إلّا قبل إلقاءها، دون ما قبله برزخا فضلا عما قبله في حياة التكليف.
إذا ف «لا عِلْمَ لَنا» بغيب الأعمال التي ما شهدناها «إِنَّكَ أَنْتَ عَلّامُ الْغُيُوبِ» قد تعني ـ فيما عنت ـ أننا لا نعلم غيب أعمال المرسل إليهم، التي ما شهدناها، إلّا أن تُعلمنا إياها و لمّا، ثم اللّه أعلمهم فاستشهدهم حيث «نَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلّهِ» (٢٨: ٧٥).
و لو أن شهداء الأعمال كانوا يعلمونها ككل يوم الدنيا لاستكثروا من الخير وما مسهم السوء كما يقول اللّه تعالى عن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله: «لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ»(٧: ١٨٨).
و كيف يعلم كل الأعمال وهو لا يعرف المنافقين إلّا فيما قد يعرّفهم اللّه إياه: «وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ» (٩: ١٠١).
فكما قد تبرّر «لا عِلْمَ لَنا» بهول الموقف المذهل، وأدب الحضور، كذلك يبرر أنهم لمّا يعلموا غيب الأعمال ثم أعلمهم اللّه ليشهدوا.
و لماذا ذلك السؤل العضال؟ لكي نعلم أنهم على محتدتهم الرسالي ليسوا على شيءٍ أمام اللّه، وأن هول الموقف يذهلهم كما يذهل الآخرين:
ف «إِنَّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَى النّاسَ سُكارى وَ ما هُمْ بِسُكارى وَ لكِنَّ عَذابَ اللّهِ شَدِيدٌ» (٢٢: ١).
«إِذْ قالَ اللّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلى والِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَ تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى بِإِذْنِي وَ إِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلّا سِحْرٌ مُبِينٌ» (١١٠):
هنا «إِذْ قالَ اللّهُ» بصيغة المضي دليل أن ذلك السؤل كان في حياته أو بعد رفعه وإن كان قد تشمل بعد موته ويوم القيامة مضيا للمستقبل قضية تحقق الوقوع كأنه مضى ـ وقد مضى ـ فقد يصدق المروي عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: «إذا كان يوم القيامة دعي بالأنبياء وأممها ثم يدعى بعيسى ـ فيذكره الله نعمته عليه فيقر بها ..»[1]
ثم «فَلَمّا تَوَفَّيْتَنِي ..» في استجواب آخر تؤد أن هذه الاستجوابات كلها بعد رفعه، ثم بعد موته، ومن ثم يوم القيامة، مواقف ثلاثة قد تعنيها كلها «إِذْ قالَ اللّهُ» بمرّيتها، ف «إن الله إذا علم أن شيئا كائن أخبر عنه خبر ما قد كان»[2]

---

[1]. الدر المنثور ٢: ٣٤٦- اخرج ابن أبي حاتم و ابن عساكر و ابن مردويه عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول اللّه ص: ... يقول يا عيسى ابن مريم: اذكر نعمتي..
ثم يقول: أ أنت قلت للناس .. فينكر ان يكون قال ذلك فيؤي بالنصارى فيسألون فيقولون نعم هو أمرنا بذلك ... فيجاثيهم بين يدي اللّه الف عام حتى يوقع عليهم الحجة و يرفع لهم الصليب و ينطلق بهم الى النار.

[2]. نور الثقلين ١: ٦٩٢ في تفسير العياشي عن أبي جعفر عليهما السلام ...

و هنا وفي آيات بعدها يعدّ اللّه تعالى على المسيح ابن مريم عليهم‌السلام خمسا أصيلة من نعمه، عليها أم عليه، تذكيرا بعظيم مننه تعالى عليه في هذه الإذاعة القرآنية وليذكر أولوا الألباب فلا يقولوا: إنه اللّه أو ابن اللّه.

استهزاآت بالرسل في حجج اللجاج

«ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» (١١).
و لقد كان من حالهم البئيسة التعيسة وجاه المرسلين «وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ» أيا كان «إِلّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» دونما استثناء، اللّهم إلّا المؤنين المتحرين عن إيمان، المستقلين في عقولهم، لا مستغلين ولا مستغلين، الذين يشقون أمواج الفتن بسفن النجاة وليسوا اتباع كل ناعق، بل يستضيئون بنور العلم ويلجئون الى ركن وثيق.
ف «شِيَعِ الْأَوَّلِينَ» ام الآخرين في التقليد الأعمى هم شرع سواء في حياة التبعية، في تغافل العقول وتقافل القلوب وعمى البصائر وظلم السرائر، فهم بطبيعة الحال يتبعون ـ وجاه المرسلين ـ كبرائهم المجرمين، فهم الزاوية الوسطى من مثلث المحطات لهذه الرسالات، حيث يشايعون طواغيتهم الماكرين دونما بصيرة ام تبصّر، ثم الزاوية الثالثة هي المتقبلة لهذه الدعوات، وقليل من الوسطاء البسطاء.
كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢).
السلوك هو النفاذ في طريق وسواه، وسلكه أنفذه، مما يلمح بتعمّل في النفاذ، مهما لم يكن السالك متعملا، حيث المجال مجاله.
و ترى ماذا «نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ»؟ اهو الذكر المنزّل؟ وهو بعيد مرجعا لضميره، وليس سالكا في قلوب المجرمين وهم لا يكادون ليسمعوه «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ» (٤١: ٣٦) فكيف يسلك ـ إذاً ـ في قلوبهم ولما يصل او يتجاوز آذانهم الى عقولهم فضلا عن قلوبهم، ولو انه سلك في قلوبهم لكانوا ـ إذا ـ مؤنين تسييرا من رب العالمين «وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها» (٣٢: ١٣) فكيف يسلكه في قلوب المجرمين، اللهم إلّا سلكا في قلوب المؤنين «وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ» (٤٧: ١٧) ازالة لسائر الحواجز آفاقية وانفسية عن ركيزة الايمان بعد ظاهر الايمان، ثم «كَذلِكَ نَسْلُكُهُ» ليس لها مشار إليه إلّا «إِلّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» ف «كذلك» الذي نسلكه في شيع الأولين «نسلكه» نحن «فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ» ختما على قلوبهم بما أجرمت واختتمت عن تقبل الحق، ام هو الاستهزاء بالرسل الذي أصبح سنة في شيع الأولين ف «كذلك» الذي كان سالكا فيهم «نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ» في شيع الآخرين والى يوم الدين سنة سارية في المستهزئين.
و ترى كيف يسلكه في قلوبهم وهو من فعلهم؟ ام يسيّرهم عليه وهو ظلم بهم؟ إنه سلك من اللّه

بعد انسلاكه فيهم بسوء اختيارهم، ثم اللّه ليس ليهديهم بعد عتوّهم القاصد المعاند، بل يذرهم في طغيانهم يعمهون، «فَلَمّا زاغُوا أَزاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ» (۶۱: ۵) سلكا إلهيا بعد سلك بشري جزاء وفاقا، فلأنهم كانوا مجرمين لذلك سلكنا الاجرام في قلوبهم «يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ» (۲: ۲۶).

فالمجرمون ـ ككل ـ الذين يعيشون حياة الإجرام، قطعا لثمرات الحياة الإنسانية، فطرية وعقلية أمّاهيه؟ هؤلآء هم الذين يسلك في قلوبهم المقلوبة الاستهزاء بالرسل، فانها خاوية عن نور الهدى بما افتعلوه، خالية عن بغية الحق، مليئة من ظلمات الهوى، فهي لا تحمل ـ إذا ـ إلا ما يناسبها من مناحرة أهل الحق، والاستهزاء برسل الحق ف «كَذلِكَ نَسْلُكُهُ» على مدار الزمن «فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ» في مثلث الزمان!.

و من مخلفات ذلك السلك في بعدية البعيدين:

لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (۱۳).

فلأنهم استهزؤ بالرسول، ثم سلكناه في قلوبهم، فهم «لا يُؤْمِنُونَ بِهِ»: اللّه والذكر والرسول[1] إذ ـ «خَتَمَ اللّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ ..» (۲: ۷)

«وَ قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ» سنتهم في الاستهزاء بالمرسلين، وسنة اللّه فيهم إذ سلكه في قلوبهم، جمعا بين الأولين والآخرين الى يوم الدين في سنة السلك وسلك السنة، جزاءً جزئيا يوم الدنيا قبل يوم الدين.

و نموذجا من المكابرة المرذولة المتعنتة والعناد البغيض بعد ذلك السلك السالك فيهم: وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (۱۴) لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (۱۵).

«باباً مِنَ السَّماءِ» كما في غيرها «أَبْوابُ السَّماءِ» تدل على ان للسماء أبوابا، و«فتحنا» دليل انها مغلقة علينا، و«لو» تحيل فتحها لنا، و«فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ» دليل على ان في باب السماء معارج يركبها العارج، كمراكب اتوماتيكية تعرج براكبيها في جو السماء، وكما تشير إليها آيات اخرى، فللسماء أبواب الى الجنة يعرج أهلها فيها دون الكافرين: «إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ» (۷: ۴۰) وأبواب الى مياهها المختزنة فيها تخصها: «فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ» (۵۴: ۱۱) وأبواب الى عذابها: «حَتّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ» (۲۳: ۷۷) وأبواب وسلاليم يستمع فيها الى الملأ الأعلى: «أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ» (۵۲: ۳۸) (لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ» (۳۷: ۸).

و أبواب يصّعّد منها الى مسارح الوحي ومصارحه في السماء، رؤة وسماعا «وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ..».

فلو انهم عرجوا في هكذا باب، ورأوا ما يرى من عالم الغيب شاهدا على حق الوحي ومنه الملائكة

---

[1]. فضمير الغائب في سلكناه راجع الى الاستهزاء و في به الى اللّه و الرسول المستهزء به إذ لا معنى ل «لا يؤنون بالاستهزاء» و هذه المراجع الثلاث كلها صالحة لرجوع الضمير إليها و الذكر المنزل عليه.

«لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا» من تسكير السّكر، او السّكر: الصّد، فهي على أية حال لا ترى الحقيقة كما هيه، لا فحسب أبصارنا «بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ» في العروج والدخول والخروج وإبصار العجائب كالملائكة، سفسطة امام الواقع المحسوس الملموس، حيث الكفر والنكران سالك في قلوبهم المقلوبة، فهي حالكة[1] هالكة لا تكاد تعرف الحقيقة كما هيه.

فإذا هم ينكرون ويكابرون في المحسوس الذي لا يكابر فيه اي حيوان، فبأحرى ان يكابروا في غير المحسوس، وقد يكفي تصورهم هكذا لتبدوا مكابرتهم السمجة الهمجة ويتجلى عنادهم المزري المغري، ويتأكد ان لا جدوى في جدالهم، فما عذر «لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ» عذرا حيث لا يصدقونهم لو فتح عليهم باب من السماء فرأوا الملائكة، حيث يقولون «إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ».

و من ذلك المشهد المنكور ـ لو فتح عليهم باب من السماء ـ الى مشاهد ملموسة وسواها من السماء، يفتح علينا منها أبواب، ومن الأرض ومعايشها، ومن كل شيء خزائنها:

وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَ زَيَّنّاها لِلنّاظِرِينَ (١٦).

أ ترى «بروجا» في السماء هي كواكبها كلها؟ وهي القصور المرتفعة، وليست الكواكب كلها قصورا! إنما هي أبنية عالية في مدن من السماء[2] وقد زينت للناظرين، الساكنين فيها، والقريبين منها، والبعيدين عنها، حيث ينظرون إليها بعيون مسلحة أمّاهيه، ام يسافرون إليها في مستقبل مجهول، وهنالك باب في السماء يعرج فيه الى هذه البروج وسواها من مغيبات السماء، ولكن شياطين الجن والإنس محرومون عنها كما لمحت «لو» وكذلك صرحت:

وَ حَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (١٧) من إنس وجان أن يصّعّدوا إليها، حيث يرجمون عنها، فلا هم قادرون على الصعود إليها ولا الاستماع الى الملاء الأعلى فيها[3] وذلك الحفظ منه الحفظ عن التسمّع الى الملإ الأعلى، الكائنين في بروجها، فلانهم هم المحفوظ عنهم، إذا فالجن المؤنون هم غير محفوظ عنهم ذلك التسمع، ولا الانس المؤنون أن يصّعدوا الى الملإ الأعلى، ولكنهم ايضا منعوا عن ذلك التسمع منذ الوحي المحمدي «وَ أَنّا كُنّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً»(٧٢: ٨) فان محادثات الملإ الأعلى وحي أو إلهام لا يصلحان غير المؤنين، ولا المؤنين الرسل حيث ختم الوحي فضلا عن غير المرسل! إِلّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ (١٨) فإنهم «يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ. دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ»(٣٧:٩).

«وَ قالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللّٰهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لا آباؤنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ»٣٥.

---

[1]. شديدة السواد، فهالكة عن كونها قلوبا انسانية.

[2]. راجع تفسير سورة البروج- الفرقان ٣٠- ٢٥٨ تجد تفصيل هذه البروج.

[3]. راجع نظيرة الآية في سورة الملك و الجن و الصافات.

هؤلآء «الَّذِينَ أَشْرَكُوا» هم الذين خولطوا فخالطوا بين المشيئة التكوينية والتشريعية، فلانهم يرونهم مشركين، فلو شاء اللّه ألّا يشركوا ما كانوا مشركين، إذا فقد شاء اللّه شركهم فأشركوا كما شاء ايمان الموحدين فوحّدوا.

ف «لو» هنا ـ على حد تعبيرهم الخالط الغالط ـ تحيل مشيئة التوحيد لهم، استدلالا بواقع شركهم، وأن مشيئة اللّه لا تغلب، إذا فقد شاء واقع الشرك منا فأشركنا، ام لم يشأ منا شيئا لا شركا ولا سلبه فلما ذا تدعوننا إلى رفضه، ام شاء التوحيد فتغلبت مشيئتنا على مشيئة اللّه وذلك كفر باللّه، فهكذا يتبرر شركنا باللّه، حفاظا على كرامة اللّه!.

و منهم الجبرية الناكرة للاختيار في الأفعال، يقولون مثل قولهم، و«كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» من المشركين، استصوابا لفعلهم بذلك البرهان الماكر الحاكر، ولكن:

«فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ» أنه ما شاء ولن يشأ شركهم في شرعته، ودعاهم ببلاغ رسالي مبين في الآفاق وفي أنفسهم إلى توحيده، وخيّرهم بين الايمان والكفر، و رغّبهم في الايمان ونددهم بالكفر «فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ»؟!.

فقد شاء اللّه ألا تعبدوا إلّا إياه امرا مخيرا، ولم يشاء اللّه ان تعبدوا سواه أمرا مسيّرا:

وَ لَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ٣۶.

و «لَقَدْ بَعَثْنا ـ إلى ـ الطَّاغُوتَ» يحمل امره التشريعي، ثم «فَمِنْهُمْ ... الضَّلالَةُ»يحمل التكويني، وانه لا يهدي إلّا من اهتدى: «الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً» ولا يضل إلّا من ضل: «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» تشريع يحبذ الإيمان، وتكوين بعد الكفر أو الإيمان، فليست بداية الكفر او الايمان ـ إذا ـ تسييرا دون اختيار، وانما مزيد الكفر والايمان جزاء وفاقا.

و هؤلآء الذين ضلوا باختيارهم وعلى علم، معاندين للحق ومحايدين للباطل، ليس اللّه ليهديهم تسييرا بعد ما اختاروا الضلالة فأضلهم كما ضلوا، وان كنتم في ريب من بعث الرسل حاملين مشيئة اللّه التشريعية في التوحيد والمعاد والشرعة الموصلة بين المبدء والمعاد، ام في ريب من عاقبة المكذبين لهذه الرسالات «فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ»تأريخيا وجغرافيا، سيرا بأنفسكم في أكناف الأرض؟ وذلك غير ميسور لاكثر اهل الأرض! ام سيرا في التأريخ الجغرافي والجغرافيا التاريخي نظرا في السير؟ وفيها حق وباطل! ام نظرا في القرآن؟ وهو اضمن سير وأسلمه، وفي مثلث السير ذكرى مهما اختلفت الدرجات.

إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ ٣٧.

«لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ» به. بما ضل، ولا «من يضل» سواه بما أضل، فمن ضل وأضل ليس اللّه ليهديه سواء السبيل، اللهم بإكراه وهو خلاف سنة اللّه «وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً» (١٠: ٩٩)، ثم «وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ» يهدونهم بعد ما أضلهم اللّه وما هدى، ولا من ناصرين ينجونهم من عذاب اللّه الموعود لهم، ولماذا «من ناصرين»وهي لا تنفي سوى الجمع فعلّ لهم ناصرا ان لم يكن ناصرون؟.

«من» هنا تجتث جذور النصرة أيا كانت ومن اي ناصر، والجمع هنا ابلغ لاستغراق النفي، ف «من ناصر» قد يعنى به ناصر يزعمونه.

ثورات الانبياء في سورة الأنبياء

سورة الأنبياء تحمل صورة وضاءة عن ثورة الأنبياء وسيرتهم طول التاريخ الرسالي و ما لا قوه في سبيل الدعوة من اذيات وعرقلات وحرمانات، سردا لاكثر من النصف المذكورين في الذكر الحكيم بأسمائهم ورسولنا العظيم بسماته وبصماته، فهم ـ إذا ـ ثمانية عشر ـ كادريس ونوح وابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى ومن بينهم كلوط وهارون وداود وسليمان وأيوب وذي الكفل وذاالنون وزكريا ويحيى، وفي ذلك المسرح الفصيح الفسيح تلميحات وتصريحات ان لخاتم المرسلين ما لهم أجمعين وزيادة حتى في صعوبات الدعوة، ولم يبق من المذكورة اسمائهم في القرآن في السورة إلا ثمانية منهم[1] فحقّ لمن قرءها حبّا لها بشروطها ان يرافقهم في جنات النعيم[2] ويسلم عليه كل نبي ذكر اسمه في القرآن[3].

فقد حملت هذه السورة ذكريات عن اولي العزم الذين دارت عليهم الرحى، وعمّن ساندوهم في دعواتهم الرسالية، فحق لها وأحرى ان تسمى سورة الأنبياء.

و ميادين البحث فيها هي الأصول الثلاثة: التوحيد والرسالة والمعاد بمختلف صنوف البراهين كما هي دأب القرآن في دعوته العالمية المحلّقة على كافة المكلفين بدرجاتهم المعرفية.

و من أهم ما جاء فيها في التوحيد «لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللّهُ لَفَسَدَتا» كأعمق برهان فلسفي عريق، وما جاء في الوسط الرسالي من وحدة الرسالة والأمم طول التاريخ الرسالي: «إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ» (٩٢) ووحدة الدولة الاسلامية «وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصّالِحُونَ»(١٠٥) واشارة الى الرجعة زمن قائد هذه الدولة: «وَ حَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ حَتّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ» (٩٦) ومن بين ذلك استعراض لفتق الكون بعد رتقه، الى جانب فتق الشرعة الإلهية بعد رتقها!.

اقْتَرَبَ لِلنّاسِ حِسابُهُمْ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ١.

مطلع قوية الضربات حيث تهز القلوب هزا، وتعض أصحابها عضا، إلفاتا لهم الى قريب الخطر، موقف جاد من الحساب ينتظرهم «وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ».

«اقترب» حيث الناس منذ نزول القرآن هم اقرب الى يوم الحساب منهم الى بدء الخلق، فقد مضى اكبر شطري الزمان، ولان كل آت قريب، و«ان الدنيا قد ولت حذاء و لم يبق منها الا صبابة كصبابة الإناء». فمن الناس من هم في اوّل الزمان، ومنهم من هم في وسطه، ولكن الناس منذ الرسالة الاخيرة هم في

---

[1]. كآدم و شعيب و هود و صالح و يوسف و الياس.

[2]. نور الثقلين ٣: ٤١٢ ثواب الأعمال باسناده الى أبي عبد اللّه عليه السلام قال: من قرء سورة الأنبياء حبا لها كان كمن رافق النبيين أجمعين في جنات النعيم و كان مهيبا في أعين الناس حياة الدنيا.

[3]. وفي المجمع أبي بن كعب عن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلم قال: من قرء سورة الأنبياء حاسبه اللّه حسابا يسيرا و صافحه و سلم عليه كل نبي ذكر اسمه في القرآن.

آخر الزمان، ولذلك فنبينا نبي آخر الزمان، واقتراب الحساب مما ينبه الإنسان عن غفلته، ويوقظه عن غفوته «وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ».

و على الوجهين الأخيرين لاقتراب الحساب فالناس هم كل الناس منذ خلقوا الى يوم الحساب وكذلك على الوجه الأول في وجه[1].

و «حسابهم» قد يعم البرزخ الى جانب القيامة فانه بداية الحساب وهي نهايته، فلان الدنيا مولية حذاء وكل آت قريب، فالحساب ـ إذا ـ يعم البداية والنهاية «وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ»، فالناس ـ إذا ـ بين اقترابين لحسابهم، اقتراب دائب هو لكل الناس، و اقتراب جاد هو لمن يعيش آخر الزمان وهو منذ ابتعاث نبي آخر الزمان، «وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ»ككل إلا من يستثنى.

و ترى الغفلة وهي عدم الانتباه، كيف تجامع الإعراض ولزامه الانتباه؟ علها لأنها غفلة عامدة مقصرة لا قاصرة، والغفلة المقصرة تنهي صاحبها الى الاعراض بل هي بنفسها إعراض.

فقد يغفل الإنسان ولا يعرض لأنها غفلة وقتية يسيرة قصيرة قد ينتبه عنها، ولكنه إذا عاش الغفلة وتورط فيها وغرق ـ كما تلمح له الظرف «وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ» غارقون فيها ـ فهم ـ إذا ـ «معرضون» إذ لا منفذ لهم الى الانتباه حيث هم غارقون، ومن اعراضهم عن اللّه وعن يوم اللّه وعما يتوجب عليهم امام اللّه فإعراضا عن حسابهم:

ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ ٢.

«وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ» (٢۶: ۵).

و «ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ» هو كل ما يذكرهم ربهم من رجالات السماء وكتاباتها، و«محدث»تحلق على الكل دون إبقاء، فكلام اللّه وهو من فعل اللّه، محدث أيا كان وأيان، سواء أ كان ذكر القرآن ورسول القرآن ام اي ذكر في اي زمان ومكان، وما خرافة قدم كلام اللّه لفظيا ام نفسيا الا هرطقة هراء وسقاطة بالعراء واللّه منها براء، اللهم إلا علم اللّه فانه عين ذاته كقدرته وحياته، ولكنه ليس ذكرا لسواه، وانما يحدث ذكرا لسواه لعلهم يذكرون.

ف «التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وكل كتاب انزل كان كلام اللّه أنزله للعالمين نورا وهدى وهي كلها محدثة وهي غير اللّه حيث يقول «أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً» وقال «ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ» واللّه أحدث الكتب كلها ....»[2].

---

[1]. إذا أخذ مبدء الزمان زمن الإنسان الاول قبل هذا النسل و سائر الانسال الانسانية، فقد يصبح هذا النسل عن بكرته في آخر الزمان على احتمال مضي الشطر الأكبر من الزمان قبله.

[2]. نور الثقلين ٣: ٤١٢ في كتاب الاحتجاج للطبرسي و روى عن صفوان بن يحيى قال قال ابو الحسن الرضا عليه السلام لأبي قرة صاحب شبرمة: التوراة ... فقال ابو قرة: فهل يفنى؟ فقال ابو الحسن (عليه السلام) اجمع المسلمون على ان ما سوى اللّه فعل اللّه و التوراة و الإنجيل و الزبور و الفرقان فعل اللّه الم تسمع الناس يقولون: رب القرآن، و ان القرآن يقول يوم القيامة: يا رب هذا فلان و هو اعرف به منه قد اظمأت نهاره أسهرت ليله فشفعني فيه، و كذلك التوراة و الإنجيل و الزبور كلها محدثة مربوبة أحدثها من ليس كمثله شيء هدى لقوم يعقلون، فمن زعم انهن لم يزلن فقد اظهر ان اللّه ليس باوّل قديم و لا واحد و ان الكلام لم يزل معه و ليس له بدو و ليس بإله.

ثم «مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ» كما تعني ذكريات آي الذكر الحكيم، النازلة المحدثة تلو بعض و لِصق بعض نجوما متقاطرة متتالية، والناس هنا هم ناس الدور القرآني، كذلك تعني ذكريات كافة كتابات السماء، والناس هم ـ إذا ـ ناس الأدوار الرسالية كلها دون إبقاء.

و «ذكر من بهم» هو الذكر الذي يربّيهم، كما «ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ» هو الذي يذكرهم الرحمن، وليس المحدث وصفا لذكر خاص، حتى يفهم منه ان هناك ذكر غير محدث هو القرآن، وقد استمعوه وهم يلعبون اكثر من كل ذكر سبق، و«أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً» تختص كل ذكر بالمحدث دونما استثناء.

«إِلَّا اسْتَمَعُوهُ» نبيا وكتابا «وَ هُمْ يَلْعَبُونَ» يتخذونه لعبة كما يلعبون بسائر اللعب فهم عنه معرضون، فما استماعهم لذكر ربهم إلا اعراضا ولعبا دون تفهّم، وانما هو خوض و تقحّم: «فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ» (۴۳: ۸۳) إذ «قُلِ اللّٰهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ» (۶: ۹۱).

و إنها صورة بئيسة تعيسة لنفوس فارغة عن الهدى، مليئة بالهوى، لا تعرف جدا في حق الحياة فتلهو في اخطر المواقف استهتارا بالقدسيات، فتغدوا حياتهم عاطلة باطلة، هينة رخيصة قالحة!:

لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هذا إِلّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَ فَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ۳.

استمعوه «لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ» وهم يلعبون «لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ» فليس استماع الوحي ينفع والقلب لاه، حيث البصر والسمع هما من وسائل بصيرة القلب وسماعه.

«و» هؤلآء المناكيد «أَسَرُّوا النَّجْوَى» ف «الَّذِينَ ظَلَمُوا» بدل وصفي عنهم، والنجوى هي الإسرار في القول بحيث لا يتفهمه غير المتناجين فكيف اسروها؟ إنها في إسرارها سر في سر، سر في مادة النجوى، وسر في أصلها كيلا يعلمها المتناجى عليهم، ولكن اللّٰه فضحهم فيها بما أذاعها في هذه الاذاعة القرآنية.

و انما اسروها تخوفا من نقصها او نقضها فيفشلوا، فقد كانت شورى بينهم في ترداد القيلات، لتصبح طبخة ناضجة ناتجة عنها فيبرزوها وقد برزت قبل إبرازها:

«هل هذا» الذي نراه ونعيشه ردحا من العمر «إلا بشر» دون ميزة عن سائر البشر بل هو «مثلكم» في البشرية فلما ذا يتفضل عليكم، أ تفضلونه على أنفسكم دون مرجح «أَ فَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» سحره؟ دعاية خاوية وحجة داحضة، فلو كانوا يبصرون لكانوا مؤنين، حيث الآيات الالهية مبصرة بصرا وبصيرة: «فَلَمّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ. وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ» (۲۷: ۱۴).

قالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۴.

«قال» الرسول جوابا عن نجواهم سرا «ربي» الذي رباني هكذا فلا أساوى او أسامى بمن سواي على أية حال «يَعْلَمُ الْقَوْلَ» أيا كان وكيفما كان «فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ» ـ «وَ إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى» (۲۰: ۷) (و هو» لا سواه «السميع» كل قول «العليم» كل حال.

فالأقوال كلها والأحوال كلها حاضرة لديه، وهو يعلم ألّا قول كقوله في القرآن دليلا حاضرا ـ في كل عصر ومصر ما طلعت الشمس وغربت ـ على انه قول اللّٰه لا سواه، فهل بالإمكان لبشر ساحر، ام وملك ماهر باهر ان يأتي بفعل اللّٰه دون اذن ورسالة من اللّٰه، إذا فهو إله من دون اللّٰه فكيف ينسب فعله الى اللّٰه؟!.

إذاً ف «قالَ رَبِّي يَعْلَمُ ..» في هذا الوجه كقوله في الفرقان: «قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَ

الْأَرْضِ» (٢٥: ٦) توجيها لهم الى الأسرار التي يحملها الذكر الحكيم ولا يعلمها الا اللّه، إذا فهو دون ريب كتاب اللّه! وقد كفت هذه الملحمة الغيبية الكاشفة عن اسرار نجواهم، حجة عليهم، دون حاجة الى اجابة عن شبهتهم هذه، فهل ان علم الغيب هكذا سحر؟ فأين الآية المعجزة!.

فلقد احتاروا بشأن هذا القرآن متلكئين متلبكين لا يدرون من اي الى اين، دون ثبات على رأي ولا على صفة له خاصة، فهم يتمحلون في محاولة دائبة ان يعلوا اثره المزلزل لنفوسهم، المزمجر لكيانهم، في تنقلات وتطفلات:

بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ٥.

لا فحسب انه ساحر «بل» وادنى منه إذ «قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ» تخاليط من روٍّ غير منتظمة، فلا واقع له إلا أحلام وتخيلات، ولا نظم له الا أضغاث مختلطات من هنا وهناك دون اي رباط بينها، فهو ـ اذن ـ باطل في بعدية، بعيد عن الحق ببعديه.

لا فحسب «بَلِ افْتَراهُ» على اللّه عامدا دون التباس عليه كأضغاث أحلام، مترويا في فريته، محاولا لتحويله محول كلام اللّه.

و لا فحسب «بَلْ هُوَ شاعِرٌ» حيث استفاد من موسيقا التعبير منفذا الى قلوب البسطاء الهائمين الى الشعر، فالى هنا هو لا يليق بمنصب الرسالة لقاعدة المماثلة في البشرية أولا، ثم الاعمدة الاربعة: السحر ـ أضغاث أحلام ـ افتراء ـ شعر، وإذا لم يكن كما نقول بل هو رسول كسائر الرسل:

«فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ» فالآية الإلهية من لزامات الرسالة وقد زوّد بها الرسل الأولون، وليست عنده إلا الكلام، فان كان آية وليس، فهو ـ إذاً ـ بدع من الرسل، وان لم يكن آية كما ليس فليس إذا من الرسل.

فهؤلاء لم يتطلبوا منه اية، وانما «آية كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ» حيث تعودوا عبر الرسالات الاولى آيات بصرية «وَ إِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللّٰهِ اللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ ...»(٦: ١٢٤) (أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ ...»(٢٩: ٥١) آية عقلية علمية عبر القرون، بديلة عن آيات بصرية عابرة غابرة دفينة مع أصحابها؟!.

و من الإجابات الناقضة لهذه المتطلبات الزور والغرور، تدليلا على مدى حمقهم في عمقهم: ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَ فَهُمْ يُؤْمِنُونَ ٦.

فحتى لو اتبع الحق أهوائهم وأرسلت بآية كما أرسل الأولون ما كانوا ليؤنوا بك، إذ «ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها» بتكذيبها آيات اللّه وصدها عن سبيل اللّه وبمرآهم آيات اللّه ترى «أَ فَهُمْ يُؤْمِنُونَ» وهم عارفون تلك الآيات العابرة الغابرة.

فلقد تحولت تلكم الآيات في تلك الرسالات الى آية أقوى وأبقى قضية خلودها، ولأنها تأخذ بأزمة العقول والقلوب في كل الحقول فهي ـ إذاً ـ أحرى بالتصديق والايمان وهم لا يؤنون، فهل إذا أوتوا بآية كما أرسل الأولون «أَ فَهُمْ يُؤْمِنُونَ»؟.

و لان سنة اللّه جارية على إهلاك من يكذّبون بعد ما طبّقت اقتراحاتهم، «وَ ما كانَ اللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ ...» إذا فهو السبب الأخير في عدم استجابتهم.

و اما قاعدة الشبهة المكرورة على السنة الناكرين «هَلْ هذا إِلّا بَشَرٌ»؟

فهي منسوفة بكرور هذه الرسالات كلها في بشر وبشر:

وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ٧.
لقد سبقت نظيرتها في النحل وفصلنا فيها ما استطعنا فلا نعيد، وهذه تحسم حسما ساحقا ركيزة المشكلة الشائكة لهم، بأنه ليس بدعا من الرسل لا في كونه: بشرا «وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ» ولا في كيانه الرسالي آية رسالية، إلا انها أقوى وأبقى، فكما ان الرسالات واحدة في جذورها، كذلك آيات الرسالات التي تثبتها، ولكنها درجات كما هم درجات و«اللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ» «فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ» بهذه السنة الرسالية، وهم الذين عاشوا الرسل وآيات الرسالات، فاسألوهم «إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ» انهم كلهم بشر أمثالكم «وَ لكِنَّ اللّٰهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ»(١٤: ١١).
ف «رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ» حجتان تستأصلان جذور الشبهة، ثانيتهما ان الوحي ليس لزام البشرية من حيث هيه، بل هو فضل من اللّٰه ورحمة خاصة لخصوص عباده ليهدوهم السبيل.
و هذه كرامة الهية ان يرسل اللّٰه الى البشر بشرا، فكيف تتخذ البشرية ذريعة لتكذيبها، بدل أن يتذرع بها الى تهذيبها؟.
اجل «رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ» فهم كسائر البشر في كل حاجيات البشرية، إلا أنه «يوحى إليهم» فهم بعيدون بسناد الوحي عن أخطاء البشرية:
وَ ما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَ ما كانُوا خالِدِينَ ٨.
ذلك! رغم قولهم «ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْواقِ»(٢٥:٧) وليس هذا الرسول بدعا في بشريته ولزاماتها المادية، «وَ ما جَعَلْناهُمْ» هؤلآء الرجال الرسل «جسدا» لا روح له ف «لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ» ثم «وَ ما كانُوا خالِدِينَ» لا يموتون، او لا تموت رسالاتهم وتنسخ شرائعهم «وَ ما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَ فَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ. كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ...» (٣٥) فهم بشر كسائر البشر يأكلون مما يأكلون ويموتون كما هم يموتون، وانما يمتازون عنهم ويفضّلون عليهم بما يوحى إليهم.
فلقد كانت الرسل الى البشر بشرا قضية الحكمة البالغة الإلهية لتكون حياتهم الواقعية الملموسة نبراسا لسائر البشر، تحقيقا لشرعتهم في أنفسهم لتتحقق في انفس الآخرين، فالكلمة الحية الواقعية هي المؤرة في قلوب الناس، حيث تترجمها حياة صاحبها، وشيجة دائبة بينهم وبين المرسل إليهم.
فأي داعية لا يحس مشاعر المدعوين ولا يحسون مشاعره، انه يبقى دون تجاوب في دعوته، مهما تسمّعوا الى أقواله، حيث الأفعال ادعى لهم واولى بالاتباع من الأقوال و كما يقال «مروا الناس بالمعروف وانهوهم عن المنكر بغير ألسنتكم».
فالقولة التي لا تصدقها فعلة، قاصرة ام مقصرة، إنها تبقى على أبواب الآذان ومشارف القلوب دون مزاج معها الا شذرا وسطرا في قلة قليلة، وهذه تناحر الدعوة العالمية.
و هكذا يجب ان يكون كل قائد، ان يتكون من نفس الوسط الذي يقوده، عائشا معايشهم، ذائقا مذائقهم، وضائقا بمضايقهم، وليقودهم عارفا متطلباتهم وحالاتهم.
لذلك كله، وتكريما لقبيل الإنسان يبعث اللّٰه رسلهم من أنفسهم فيجري عليهم كل ما يجري على أنفسهم من ولادة وحياة وموت، ومن عواطف ونزعات وانفعالات، ومن آلام وآمال ومن كل ما هو آت من الطبيعة البشرية، اللهم إلا أخطاء هي لزام عدم العصمة حيث يعصمها علمية وأخلاقية وعملية ودعائية لتتم حجة اللّٰه على الناس، ولا يكون للناس على اللّٰه حجة بعد الرسل.
هكذا أرسلنا رسلا تترى، حاملين الحجج البالغة الإلهية، واعديهم إنجاحا في الدنيا والآخرة: ثُمَّ

صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَ مَنْ نَشاءُ وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ٩.
صدق الوعد هو وفقه للواقع حاليا واستقباليا، فمن الحال: «وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ...» (٣: ١٥٢) ومن الاستقبال:«وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ ...»(٣٩: ٧٤).
و قد يجمعها ككل «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ»(٤٠: ٥١).
و قد تعني هنا «ثم» المراخية لصدق الوعد ـ فيما عنت ـ الصدق اللائح في عواقب الرسالات هنا، ومن ثم في البرزخ والأخرى.
و هنا «فَأَنْجَيْناهُمْ وَ مَنْ نَشاءُ» بيان لصدق الوعد في خاتمة الاولى، ثم الاخرى هي أحق بالصدق وأحرى: «فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ. ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ»(١٠:١٠٣).
و هنا العوان بين المؤنين الناجين والمسرفين الهالكين، هم غير مذكورين، وقد تعنيهم «من نشاء» مع المؤنين، متعة الحياة الدنيا، ثم لا نجاة لهم كالمؤنين في الاخرى.
ام ان «من نشاء» هم المؤنون، و«المسرفين» يعم غير المؤنين ككل، المختلفين في دركات الهلالك كاختلاف إسرافهم، ومن أسفلها العذاب المستأصل لهم يوم الدنيا، و من سواهم من المسرفين هالكون في دركات اخرى هنا، غبّ ما تصلهم دركات الاخرى بالاوفى.
لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ ١٠.
«إليكم» في وجه خاص تعني العرب فإنهم المحطة الاولى لنزول القرآن،«ذكركم»كما تعني هنا تذكّرهم عن غفلتهم، كذلك تعني ذكرهم بين الأمم حيث نزل القرآن منذ البدء فيهم وبلغتهم، فالقرآن أينما حلّق يذكرهم لمن به تعلّق وتحلّق، فلم يكن قبله لهم ذكر وشرف به يذكرون، إلّا عارات وغارات وسرقات وقتلات ودعارات وافتخارات بنكبات!.
فما تملك العرب طول تاريخهم من زاد يقدمونه للبشرية والعالمين أجمعين سوى ذلك الزاد العظيم المكين، فلو تقدموا بعروبتهم فحسب، لا تتقدم عند احد بل وتتهدم، فما قيمة العروبة دون القرآن، فلا كلمة لها ولا مدلول في تاريخ الإنسان إلا بما يحملون القرآن، الذي يتبناه حضارة الإنسان كإنسان!.
فالعروبة فيما سوى القرآن لا تحسب بشيء في تاريخ الحضارات بل هي في دار البوار، وغير العروبة قد تحسب بشيء فيما سوى القرآن في حضارات زمنية، مهما كانت خلواً من الروحية، ثم ومن يحمل القرآن عربيا كان ام أعجميا يملك الحضارتين، دون تقدم لقبيل على آخر إلا قدر ما يتقدم في حمل القرآن، وقد سبق العرب طول التاريخ الاسلامي سباقون كثير من غير العرب ومنذ بزوغ الوحي حتى الآن، ولا شرف هنا وهناك الا على ضوء شرف القرآن تفهما وتعلما وتخلقا وتطبيقا ونشرا.
و من ثم «إليكم» في وجه عام وكما هو طبيعة الحال في الدعوة القرآنية العالمية، فيه «تعني ذكركم» التذكر بالقرآن على طول خط الزمان والمكان «وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ»(٤٣: ٤٤) وقوم الرسول كرسول هم العالمون أجمعون: «فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ»(٥٠: ٤٥) (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ» (١٥: ٩).
ثم القرآن هو ذكر الشرف والمنزلة لمن به تذكر، وببصائره تبصّر واعتبر وتشرّف.
فلو نزلت عليهم آية كما أرسل الأولون بديل هذا القرآن، لم يكن فيها ذكر شرفا وذكرى، بل كان لهم في تكذيبها الهلاك كما أهلك الأولون:

وَ كَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَ أَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ ١١.
القصم هو كسر الشيء الصلب، والمترفون الجبارون في هذه القرى كانوا أصلب شيء عيدانا وأمنعه أركانا!.
و هكذا يتهدد المسرفين الظالمين قصما وهي أشد حركات القطع، و«من قرية» هي بعض القرى الظالم أهلها المترفون: «وَ إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً»(١٧: ١٦).
ثم «قرية» هي الدّيار، وهم الأصل في الدمار والقصم يشملهما، كما الإنشاء هي انشاءهما ابتداء بالديّار ثم الدّيار، وبالتالي نشهد مشهد حراكهم في القرى المقصومة ببأس اللّه وهم كالفئران في المصائد:
فَلَمّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ ١٢.
«يركضون» وأنى لهم ركضة بغير ركزة؟ «يركضون» «سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ» وقد تبين لهم باس اللّه بما أحسّوه، ولكن ركضة الياس اركض واركز من ركضتهم فاني يركضون؟.
«لا تَرْكُضُوا وَ ارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَ مَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ»١٣.
و هذه مهزئة لهم ومهزلة في تهكم مرير، سلبا لركضهم حيث لا ينفعهم، وإيجابا لرجعهم الى ما أترفوا فيه حيث يسألون تساءل التبكيت من قبل اللّه، ام سؤل الحاجة من قبل المستضعفين حيث كانوا يتهاجمون عليكم بالسؤل فتستكبرون عليهم وتختالون، ام ليتساءلوكم عما جنيتم عليهم، ومثلث السؤل تأنيب لهم وتعذيب، وتعجيز لهم بموقفهم الكئيب.
و لكن اين المجال لجواب وسؤل حين لا مهرب من بأس اللّه ولات حين مناص؟ فيلجئون ـ إذا ـ إلى الاعتراف بما ظلموا:
قالُوا يا وَيْلَنا إِنّا كُنّا ظالِمِينَ ١٤ فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ١٥.
«قالوا» ولكن الأوان فائت، والبأس ماقت، والأمان منه ساقط، حيث الرب عليهم ساخط «فَما زالَتْ تِلْكَ» المظلمة التي بها يعترفون «دعواهم» في تلك الزمجرة المدمرة ما لهم حراك ونفس «حَتّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً» حصادا فيه كل كساد «خامدين»عن نيرانهم التي أجّجوها مضطرمة على المستضعفين.
و يا له من حصيد انساني ليس له رصيد إلا محق وخمود لهم دون إبقاء إلّا خامد الحصيد ومن وراءهم عذاب شديد!
«و ايم الله ان هذه عظة لكم وتخويف إن اتعظتم وخفتم»[1].

---

[1]. نور الثقلين ٣: ٤١٤ في روضة الكافي كلام لعلي بن الحسين عليهما السلام في الوعظ و الزهد في الدنيا يقول فيه: و لقد أسمعكم اللّه في كتابه ما قد فعل بالقوم الظالمين من اهل القرى قبلكم حيث قال: وَ كَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً» و انما عنى بالقرية أهلها حيث يقول: و انشأنا من بعدها قوما آخرين فقال عز و جل: فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون يعني يهربون- قال: لا تَرْكُضُوا وَ ارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَ مَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ- فلما أتاهم العذاب قالُوا يا وَيْلَنا إِنّا كُنّا ظالِمِينَ فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ» و ايم اللّه ...

و ما الطفه تشبيها ان شبّه همود أجسامهم بعد حراكها بخمود النار بعد اشتعالها، او النبات الحصيد المحرق بالنار، الخامد بعد الاشتعال، وهو ابلغ في وصفهم بالهلاك والبوار وامحاء المعالم والآثار لاجتماع وصفي الحصد والإحراق، و«خامدين»وصف لهم دون الحصيد، فهم ـ إذا ـ حصيد وهم خامدون!.

فكما تختلى الزروع بالمنجل، ثم تحرق بعد اليبوسة، «جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ».

و صحيح ان «كم قصمنا» ـ «فَلَمّا أَحَسُّوا» تعطفان الى ما مضى ـ إلا ان لهما مصاديق مستقبلة من أصدقها زمن الدولة الاسلامية العالمية بقيادة الإمام القائم المهدي عجل اللّه تعالى فرجه الشريف.

و ذلك من قبيل الجري والتطبيق على المشابه وبأحرى الأشبه.

وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ ١٦.

ان اللعب هو من الباطل للحكيم العليم، اللهم للجاهل الغافل كالطفولة وسائر المجاهيل، فانه ما لا حكمة ولا غاية صالحة فيه: «وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النّارِ. أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجّارِ» (٣٨: ٢٨).

فلو انه لم يبعث رسلا مبشرين ومنذرين لكان الخلق لعبا وباطلا، ولو انه لم يستأصل الظالمين المستأصلين صالح الحياة الدنيوية لكان الشرع باطلا، حيث هم يُظلمون الجو بما يَظلمون، فلا يفسحون مجالا للذين يهتدون او يهدون، نقضا مستأصلا لدعوة الداعية، وإبطالا لفاعلية حجج اللّه البالغة.

فتطبيق توحيد اللّه بشرعة اللّه في واقع الرسالة الفعالة، والجزاء العدل يوم الاخرى ـ وشذر منها هنا ـ يبقيّ مجال الدعوة في الأولى، كل ذلك من مخلّفات «ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ».

فالجدّ الجادّ أصيل في خلق الكون وفي تدبير الكون وفي سنّ القوانين كونية وشرعية، وفي الحساب الدقيق الذي يؤذون به هنا أحيانا وبعد الموت تماما، دون اية مسامحة ولا لعب باطل.

«لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنّا إِنْ كُنّا فاعِلِينَ» ١٧.

فالقصد من اللعب ـ وهو امر منتظم لفائدة خيالية لا واقع لها ـ القصد منه هو اللهو وهو الالتهاء عما يحق وله واقع صالح، وهو الاستيناس عما يزعج، وذلك حرام في الشرعة الإلهية ككل[1].

ف «لو» على فرض المحال «أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً» لعبا وباطلا، لم نحتج ان نتخذه في الخلق، حيث الخلق محتاجون إلينا، ولسنا بحاجة الى الخلق في لهو وسواه، ف «لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنّا» في نفس الذات، لا من لدن خلقنا، اكتفاء بالأقل باطلا «إِنْ كُنّا فاعِلِينَ» لهوا وباطلا.

فالقائد اللاهي ان امكنه اتخاذه من لدنه، لا يتخذه من شعبه مخافة العار والدمار، بل يتخذه من لدنه، فضلا عن اللّه الحكيم الغني العليم، غير المحتاج ان يلعب او يتخذ لهوا من لدنه فضلا عن

---

[1]. نور الثقلين ٣: ٤١٥ في الكافي بسند عن عبد الأعلى قال سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن الغنا و قلت: انهم يزعمون ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) رخص في ان يقال: جئناكم جئناكم حيئونا جيئونا فقال: كذبوا ان اللّه عز و جل يقول: و ما خلقنا السماء و الأرض ...

خلقه، «ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النّارِ»فإنهم بنكرانهم يوم الجزاء يبطلون الشرعة الإلهية ابطالا لخلق الكون اجمع، وان اللّه اتخذ لهوا من خلقه فلسنا نعمل باطلا من لعب ولهوايا كان وأيان:

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَ لَكُمُ الْوَيْلُ مِمّا تَصِفُونَ ١٨.

«قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلّامُ الْغُيُوبِ» (٣٤: ٤٨) قذفا مطلقا و منه «عَلَى الْباطِلِ»فالمحور للقذف الرباني قذف بالحق تكوينا وتشريعا وجزاءً بالعدل وفاقا، فإذا عارضه باطل قذف به على الباطل، دمغا له «فَإِذا هُوَ زاهِقٌ»ودمجا لمنظومة الحق «و لكم»الناكرين ليوم الدين «الويل» كل الويل «مما تصفون» اللّه خلاف وصفه، ام شرعة اللّه خلاف وصفها.

و لان حقيقة القذف هي للأشياء الثقيلة التي يرجم بها على الخفيفة، والحق ثقيل في ميزان اللّه والواقع، فقذفه على الباطل يرضّ ما صكّه ويدمغ ما مسّه، إصابة دماغ الباطل فإهلاكا عن بكرته، حيث الدماغ هو أهلك مقتل.

فالحق ـ إذا ـ قذيفة في يد القدرة الإلهية ـ على طول الخط ـ يقذف بها على الباطل فيشق دماغه، وهكذا مجيء الحق وزهوق الباطل، هنا حجة بالغة في صراع، وفي الأخرى تماما دون إبقاء ف «ليس من باطل يقوم بإزاء حق إلا غلب الحق الباطل»[1]

و «ما من أحد الا وقد يرد عليه الحق حتى يصدع قلبه قبله ام تركه»[2]، فان للّه الحجة البالغة، ذلك! طالما يبدو الباطل أحيانا منتفشا فاشيا فاحشا كأنه غالب، ويبدوا فيها الحق منزويا خاويا كأنه مغلوب، ولكنها ما هي إلا أياما قلائل إملاء لأهله. واملالا، ليزداد وإثما ولهم العذاب اليم.

فإذا وصل الباطل حينا الى قمة الزهو والإضلال فهنالك دمغ بالحق دون إمهال«كَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً ..» والى ان تؤس الدولة الاسلامية الكبرى بقيام القائم بالعدل المهدي من آل محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله وخسر هنا لك المبطلون: «إنا للنصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد» «وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصّالِحُونَ» (٢١: ١٠٥).

وَ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ لا يَسْتَحْسِرُونَ١٩.

و إذا كان له من فيهما فباحرى له ما فيهما، و«له» تعني انحصار المُلك والمِلك الحقين الدائبين فيه، وانحسارهما عمن سواه.

«وَ مَنْ عِنْدَهُ» هم المقربون إليه معرفيا وعباديا دون قرب زماني ولا مكاني «لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ» بل يستحصرون فيها «وَ لا يَسْتَحْسِرُونَ» عيّا وكلالا.

«إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ» وهذه العندية لا تختص بالملائكة، فأحرى منهم فيها الرسل الكرام ولا سيما اولوا العزم منهم، وامامهم العظيم اقرب المقربين

---

[1]. نور الثقلين ٣: ٤١٦ في محاسن البرقي بسند عن أبي عبد اللّه عليه السلام:

.... و ذلك قول اللّه: بل نقذف ...

[2]. المصدر عنه عليه السلام يا أيوب ما من احد .... و ذلك ان اللّه يقول في كتابه: «بل نقذف ...».

عند اللّه وأسبق السابقين واوّل العابدين محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله
ثم المحمديون من عترته الطاهرين سلام اللّه عليهم أجمعين.
و تلك السلطة المطلقة المستغرقة لكل كائن، تحيل اي تفلُّت عن ارادته، واي تلُّفت عن مشيئتة في أية نشأة من النشآت، «فَلِلّهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولى» (٥٣: ٢٥).
و لماذا المقربون هنا يختصون بالذكر؟ لأنهم نبراس العبودية والخنوع لمن سواهم، حيث ينيرون الدرب عليهم، فهم الأدلاء الى اللّه، المكرمون عند اللّه.
ثم وطبيعة الحال فيمن عند سائر الملوك ان يسمح له في بعض التخلفات خوفة منهم او إكراما لهم حيث التقرب فيهم تقارب وتجارة بين الملوك وإياهم.
و لكن «من عنده» يزدادون له طوعا كلما تقربوا، وتزداد مسئولياتهم عنده، دون تسامح عنهم في صغيرة او كبيرة، حيث الحاجة هنا هي من ناحية واحدة، وليست مزدوجة تجارية.
فكل عبد من العبيد يستحسر لوقت ما عن الخدمة، منقطعا بالإعياء، وعباد اللّه الذين هم عنده انما يستحسرون عن ترك العبادة، ولا يستحسرون على أية حال عن عبوديته تعالى، حيث الشغف البالغ والهيمان الحالق حصراهم طول الحياة في العبودية دون تكلف فيها ولا تخلف عنها:
يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لا يَفْتُرُونَ ٢٠.
فهم مستيقظون لتسبيحه وان كانوا نوّما فضلا عن يقظتهم، ف «لا يفترون» فتورا وإن لفترة قصيرة ما داموا هم احياء، ثم في البرزخ والاخرى تقوى تسبيحاتهم وتزداد حيث الموانع زائلة والدوافع كاملة فهم «مسبحون لا يسأمون ولا يغشاهم نوم العيون و لا سهو العقول ولا فترة الأبدان ولا غفلة النسيان»[1].
و ترى كيف «لا يفترون» عن تسبيحهم ولهم اقوال واعمال دون ذلك، فإنهم رسل «جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا» برسالات تكوينية وتشريعية عدة؟.
علّه لان لهم مقام جمع الجمع كما لسائر الرسل بما جمع اللّه لهم الشتات، وان رسالاتهم كلها تسبيحات للّه قالا وحالا وافعالا، فليس «يسبحون» تختص بالقول فقط، بل هو ادنى درجاته، حاكيا عن حالهم وفعالهم، فالمسبّح بهما دون قال مسبح للّه، والمسبح بالقال دونهما غير مسبح للّه، والجمع بين الثلاث أجمل وأكمل، أن يحلّق تسبيح اللّه كل كيان الكائن فيصبح بكله تسبيحا للّه.
و ليس فقط «يسبحون» اللّه تنزيها في لفظة قول وحال وعمل، بل ويسبحونه عن ان تليق تسبيحاتهم لساحة قدسه معرفة وعبودية وكما يروى عن أفضلهم وأعلاهم الرسول محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله: «ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك» معترفين بالتقصير القاصر عن بلوغ تسبيحه!.
اتخذوا آلهة هم يخلقون ويدبرون أمورهم فيعبدون؟:
أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ٢١.

---

[1]. نهج البلاغة السيد الشريف الرضي عن الإمام علي عليه السلام وفي نور الثقلين ٣: ٤١٧ عن كتاب إكمال الدين و تمام النعمة عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) انه سئل عن الملائكة أ ينامون؟ فقال: ما من حي الا و هو ينام خلا اللّه وحده و الملائكة ينامون فقلت: يقول اللّه عز و جل: يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لا يَفْتُرُونَ»؟ قال:أنفاسهم تسبيح.

الإنشاء هو الإحياء بعد الموت، كما هو إحياء بدائي لا عن موت، و«من الأرض» كما تتعلق ب«ينشرون» احياء منها كما خلقوا منها، كذلك تتعلق بمقدّر ككائن: آلهة كائنة من الأرض، هم أنفسهم منها ومنها ينشرون الأموات، وتعلق ثالث ب«اتخذوا» و «آلهة» في هذا التعلق هي الأصنام والأوثان، فمن ذا الذي ينشرهم أنفسهم، وحين لا يقدرون على نشر أنفسهم فكيف ينشرون سواهم.

فكما الله إله الإنشاء، كذلك إله للإنشار وبأحرى، فلتقطع آمال المشركين الذين يحسبون لهم آلهة من الأرض هم ينشرون، فيسامحونهم فيما يعلمون، ف «إِنّا لِلّهِ وَ إِنّا إِلَيْهِ راجِعُونَ».

و لئن سئلنا: كيف ينكر عليهم إنشارا هم ناكروه قائلين «مَنْ يُحْيِي الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ» مستبعدين ان يحيها الله وهو الخالق لها، فكيف يعتقدونه في أصنام ما هي الا جمادات بلا أرواح؟.

و الجواب: علها حجة إلزامية عليهم بما التزموا من عبادتهم لهذه الأوثان، ولزامها الثواب عليها فعلا والعقاب تركا، وليس شيء منهما في هذه الحياة الدنيا، فلتكن حياة اخرى فيها الجزاء، فهل ان آلهة من الأرض هم ينشرونهم فيجزون بما ينشرون؟.

و كيف «هم ينشرون» وهم يعجزون عن إنشار أنفسهم فأنّى تؤكون؟.

ام كيف «هم ينشرون» والله خلقهم ومن يعبدون، أ ليس الذي بدء الخلق باحرى ان يعيده: «كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ»؟! ومن الدليل ـ القاطع القاصع القامع، المستمد من جوهرة الكون وواقعه ـ على وحدة الالوهية في كافة الحقول إنشاء وإنشارا:

لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمّا يَصِفُونَ ٢٢.

آية منقطعة النظير في برهنتها الكاملة الشاملة، الماحقة كل فروضات تعدد الآلهة، نقدّم تفسيرا لمفردات لها، ثم نخوض في البحث عن مدلولها.

ف «لو» تحيل مدخولها وبأحرى في المسائل العقلية، إحالة جوهرية.

حجة داحضة في اختصاص آية الرسالة بما يهوون
وامتصامها عما لايهدون

«الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنا أَلّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتّى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النّارُ قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّناتِ وَ بِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» (١٨٣).

أتراهم صادقين في ذلك العهد؟ فكيف يؤنون بمحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله و أضرابه من رسل لم‌يأتوا بقربان تأكله النار! أم كاذبين؟ فما هو ـ إذا ـ دور «بِالَّذِي قُلْتُمْ» وما قولهم هنا إلّا «إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنا أَلّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتّى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النّارُ»!.

«بِالَّذِي قُلْتُمْ» ينقسم إلى طليق العهد وأصله، فطليقه مكذوب لمكان «إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» وان كثيرا من الرسل المزودين بسائر الآيات لم يأتوا بهذه الآية، وأصله بالنسبة لبعض النبيين صادق لمكان «بِالَّذِي قُلْتُمْ» لا كأصل تتبناه الرسالة، فلولاه لما تثبت رسالة أبدا، فإنما كان «بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النّارُ» من عديد الآيات الرسالية دون أن تحصرها بنفسها، وإلا فما هي الحاجة إلى سائر الآيات الرسالية، وكثير من المرسلين لم يأتوا بقربان تأكله النار.

فانما القصد من الآية الرسالية دلالتها على الرسالة المدّعاة، سواء أ كانت قربانا تأكله النار ام أية آية من آياتها كيفما كانت وأينما حصلت.
ثم لو كانت «قربان تَأْكُلُهُ النّارُ» هي الآية الوحيدة المثبتة للرسالات وسائر الآيات وهيدة، فلا يصدّق محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله إذ لم يأت بها، فلم كذبتم وقتلتم رسلا جاءتكم بالبينات وبالذي قتلتم «إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» في ذلك العهد المدعى.
و تراهم هؤلآء الحضور المخاطبين زمن نزول أمثال هذه الآيات، هم أنفسهم شاركوا سابقيهم القتلة في قتل النبيين؟ ولمّا يولدوا وقتئذ إلّا بعد آلاف من السنين!.
انهم برضاهم قتلهم وعدم براءتهم من قتلتهم يحسبون في عدادهم ويحاسبون بحسابهم اللهم إلا في حكم القود وما أشبه[1].
ثم ترى «قربان تَأْكُلُهُ النّارُ» تسمح لقرابين الأضحى في منى ان تأكلها النار أو الأرض اتّباعا للسنة الرسالية السابقة وإن لم تحلق على كل الرسالات؟.
كلّا، حيث النار التي كانت تأكل قربان الرسالة كانت ربانية تدليلا على صدق الرسالة، فلم يكن يسمح وقتذاك ان تحرق القرابين فضلا عن شرعة القرآن المصرحة ب«فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير» (٢٢: ٢٨) ف «قد جعلت قربان أمتك في بطون فقرائها ومساكينها»[2].
ثم ان «قربانا تأكله النار» لم يأت في القرآن إلا مرة يتيمة هي هذه، ثم لا ثانية لها إلا قربان ابني آدم «إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ» (٥: ٢٧).

---

[1]. نور الثقلين ١: ٤١٦ في اصول الكافي عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: لعن اللّه القدرية لعن اللّه الخوارج لعن اللّه المرجئة لعن اللّه المرجئة قال قلت: لعنت هؤاء مرة مرة و لعنت هؤاء مرتين؟ قال: ان هؤاء يقولون: ان قتلنا مؤنون فدمائنا متلطخة بثيابهم الى يوم القيامة ان اللّه حكى عن قوم في كتابه «أَلّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتّى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النّارُ ..» قال: كان بين القاتلين و القائلين خمسمائة عام فألزمهم اللّه القتل برضاهم ما فعلوا و في تفسير العياشي مثله إلا ان بعد «إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» قال: فكان بين الذين خوطبوا بهذا القول و بين القاتلين خمسمائة عام فسماهم اللّه قاتلين برضاهم بما صنع أولئك.
و فيه عن محمد بن هاشم عمن حدثه عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية .. و قد علم ان قالوا: و اللّه ما قتلنا و لا شهدنا؟ قال: و انما قيل لهم ابرؤ من قتلتهم فأبوا.
وفيه عن محمد بن الأرقط عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال لي تنزل الكوفة؟ قلت: نعم، قال: فترون قتلة الحسين (عليه السلام) بين أظهركم؟ قال قلت جعلت فداك ما بقي منهم احد، قال: فإذن أنت لا ترى القاتل الا من قتل او من ولى القتل؟ الم تسمع الى قول اللّه «قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ ... فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ» فأي رسول قبل الذي كان محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بين أظهركم و لم يكن بينه و بين عيسى رسول، انما رضوا قتل أولئك فسموا قاتلين.

[2]. نور الثقلين ١: ٤١٧ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن موسى بن جعفر عليهما السلام عن آبائه عن الحسين بن علي عن امير المؤنين (عليهم السلام) حديث طويل و فيه: قال اللّه عز و جل لنبيه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لما أسري به و كانت الأمم السالفة تحمل قرابينها على أعناقها الى بيت المقدس فمن قبلت ذلك منه أرسلت اليه نارا فأكلته فرجع مسرورا و من لم اقبل ذلك منه رجع مثبورا و قد جعلت قربان أمتك في بطون فقراءها و مساكينها فمن قبلت ذلك منه أضعفت ذلك أضعافا مضاعفة و من لم اقبل ذلك منه رفعت عنه عقوبات الدنيا و قد رفعت ذلك عن أمتك و هي من الإصار التي كانت على الأمم قبلك.

ذلك مع إتيان الكثير الوفير من سائر الآيات البينات، مما يدل على أصالتها دون القربان، فهو ـ إذا ـ آية هامشية جانبية لبعض المرسلين، دون أن يحتل القمة او يساوي ام يسامي سائر الآيات الرسالية، وقد تلمح له مقابلة «بِالَّذِي قُلْتُمْ» «البينات» وكأنه ليس من البينات ام هي بيّنة هامشية مقترحة، فلم تكن آية أصيلة، وانما هي آية أحيانية مقترحة على سبيل التعنّت دون الاسترشاد، فكما لم يؤنوا بمن أتى بها من الرسل السابقين كذلك لم يؤنوا بهذا الرسول حيث لم يأت بها ـ على سواء ـ.

كما ومن العجاب أننا لا نجد «قربانا تأكله النار» في التورات ـ على تحرّفها ـ كآية رسالية لرسول فضلا عن كونها عهدا مستمرا مع الرسالات كلها، فأين ذلك العهد المدعى، الحاجب بينهم وبين تصديق هذه الرسالة السامية؟!.

ذلك! ومن ثم فهذه الدعوى في نفسها باطلة، فان دلالة سائر الآيات المعجزات هي لأقل تقدير كدلالة قربان تأكله النار، فكيف يعهد الله الى بني إسرائيل ألا يؤنوا لرسول إلّا أن يأتيهم ـ فقط ـ بهذه الآية، وقد أرسل رسلا بغير هذه الآية، أم وأرسلهم بهما، والآية الرسالية ذات دلالة ذاتية على رسالة الآتي بها، فكيف يبعث الله بها ثم يعهد إلى قوم ألّا يؤنوا لرسول أتى بها، وذلك جمع بين متناقضين!.

فيا لها من مجابهة قوية تكشف عن اتجاهة غوية لهم، وعن كذب وافتراء منهم على الله وإصرارهم على كفرهم، وهنالك تأتي تسلية حنونة لخاطر الرسول الأقدس صلى‌الله‌عليه‌وآله ان تكذيب الرسل يحلق على كل الأدوار الرسالية فليس هو بدعا من الرسل ان يكذَّب:

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جاؤا بِالْبَيِّناتِ وَ الزُّبُرِ وَ الْكِتابِ الْمُنِيرِ(١٨٤).

فالمصيبة إذا عمت طابت وخفت كما إذا خصت هابت وثقلت، و«كذبوك» هنا تعم اصل الرسالة المحمدية، وأن جمعا من الرسل لم يأتوا بتلك الآية المقترحة، وأنهم كذبوا جمعا منهم أتوا بها، فقد تشمل «كذبوك» ذلك الثالوث كله مهما كان أصل النبوة رأس الزاوية.

ثم «البينات» المزوّد بها كل الرسل هي الآيات البينات الرسالية التي أتت بها الرسل، و الزبر جمع الزبور من الزبر وهو الزجر بحكمة وموعظة وتخويف وتحذيركما نراها في زبور داود عليه‌السلام.

و اما «الْكِتابِ الْمُنِيرِ» فقد يعني كتاب الشرعة الأصيلة المنيرة على البينات وعلى الزبر ككتاب نوح وإبراهيم وموسى وعيسى (عليهم السلام) وفوق الكل القرآن العظيم، ولكن «من قبلك» يخرجه عن هذا المجال.

و قد تلمح وحدة «الكتاب» أمام جمعية «بِالْبَيِّناتِ وَ الزُّبُرِ» انه أصل الزبور والبينات، و كما أتى مفردا في (٢٣٠) موضعا ولم يأت جمعا إلا في ثلاث.

ثم الفصل بين البينات والزبر والكتاب المنير مما يدل على فصل الآيات المعجزات لسائر المرسلين عن زبرهم وكتاباتهم، والقرآن بما يجمع هذه الثلاث يمتاز عن كل كتب السماء بهذه الجمعية البارعة، لحد أصبح آية رسالية قبل كونه كتاب الرسول، حيث يثبت رسالة من جاء به، ومن ثم هو تبيان لكل شيء تحتاج إليه الامة إلى يوم القيامة!: «أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ ..».

كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَ إِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلّا مَتاعُ الْغُرُورِ (١٨٥).

«كل نفس» مهما شملت كل النفوس ـ الانسانية والجنية والملكية وسواها من الأحياء، رسولا وسواه

وملك الموت بمن سواه[1] ـ ولكنها ليست لتشمل الذات القدسية الإلهية مهما يطلق عليها «نفس» حيث لم تأت له سبحانه إلّا مضافة «نفسك ـ نفسي»تعنيان ذاته تعالى وتقدس، واما النفس دون اضافة فلا تطلق عليه ابدا، كما «هو الحي الذي لا يموت»وسائر البراهين عقلية ونقلية هي مجندة لاستحالة موته تعالى[2].

و ذوق الموت يختلف عن الموت الفوت، فانه ذوق لانفصال الروح عن البدن وهي حية في بدن آخر في البرزخ، ولولا حياة النفس الإنسانية حين الموت لما كان لذوقها الموت من معنى فانما النفس ـ وهي الروح ـ تذوق موت البدن وموتها عن البدن انفصالا عنه دون فوت.

«وَ إِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ» تحصر توفية الأجور بيوم القيامة، فطليق الأجر يرى في الأولى بسيطا وفي البرزخ وسيطا: «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلّا ما سَعى. وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى، ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى».

«فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النّارِ» إزالة عن معرة فيها إذا «إِنْ مِنْكُمْ إِلّا واردُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا. ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا» (١٩: ٦٨) (وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ»بعد زحزحته عن النار، «فَقَدْ فازَ وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا» حياتاً «إِلّا مَتاعُ الْغُرُورِ»حيث يزينها لأهليها الغَرور كأنها أصل الحياة لحد يشترى بها الحياة الأخرى معاكسة ظالمة وقسمة ضيزى، أم ولان الغَرور لا متاع له على الحقيقة، وإنما يراد به ان ما يستمتع به الإنسان المغرور من حطام الدنيا ظل زائل وخضاب ناضل، زيّنه له الغَرور

---

[1]. و هذا خلافا لزعم الخليفة عمر حيث كان يهدد القائل ان الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلم مات و قد مات. وفي الدر المنثور اخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: لما توفي النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و جاءت التعزية جاءهم آت يسمعون حسّه و لا يرون شخصه فقال: السلام عليكم يا اهل البيت و رحمة اللّه و بركاته «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَ إِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ» ان في اللّه عزاء من كل مصيبة و خلفا من كل هالك و درکا من كل ما فات فباللّه فثقوا و إياه فارجوا فان المصاب من حرم الثواب فقال علي (عليه السلام): هذا الخضر، أقول و في نور الثقلين مثله عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) بألفاظ عدة حفاظا على اصل المعنى.

وفي نور الثقلين ١: ٤١٩ عن الكافي محمد بن يحيى عن احمد بن محمد بن عيسى عن الحسين بن سعيد عن فضالة بن أيوب عن أبي المعزا قال حدثني يعقوب الأحمر قال دخلنا على أبي عبد اللّه (عليه السلام) نعزيه بإسماعيل فترحم عليه ثم قال: ان اللّه عز و جل نعى الى نبيه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) نفسه فقال: انك ميت و انهم ميتون، و قال «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ» ثم انشأ يحدث فقال: انه يموت اهل الأرض حتى لا يبقى أحد ثم يموت اهل السماء حتى لا يبقى أحد الا ملك الموت و حملة العرش و جبرئيل و ميكائيل (عليهم السلام) قال: فيجيء ملك الموت حتى يقوم بين يدي اللّه عز و جل فيقال له: من بقي؟ و هو اعلم- فيقول: يا رب لم يبق إلا ملك الموت و حملة العرش و جبرئيل و ميكائيل فيقال له: قل لجبرئيل و ميكائيل فليموتا، فيقول الملائكة عند ذلك يا رب رسوليك و أمينيك؟ فيقول: اني قد قضيت على كل نفس فيها روح الموت ثم يجيء ملك الموت حتى يقف بين يدي اللّه عز و جل فيقال له: من بقي؟- و هو اعلم- فيقول: لم يبق الا ملك الموت و حملة العرش فيقول: قل لحملة العرش فليموتوا، قال: ثم يجيء كئيبا حزينا لا يرفع طرفه فيقال: من بقي؟- و هو اعلم- فيقول: يا رب لم يبق الا ملك الموت فيقال له مت يا ملك الموت فيموت ثم يأخذ الأرض بيمينه و السماوات بيمينه و يقول: اين الذين كانوا يدعون معي شريكا؟ اين الذين كانوا يجعلون معي إلها آخر؟.

[2]. لنا قول فصل على ضوء نظيرة الآية في الأنبياء ٣٥ فراجع.

كأنه متاع يقصد وحياة تعتمد، وهو متاع يشرى به الحياة الآخرة لمن أبصر بها فبصرته ولم يبصر إليها فأعمته.

و قد يدل التحليق العام في ذوق الموت لكل نفس ان القتيل ميت مهما كان شهيدا او سواه، فبين الموت والقتل عموم مطلق.

ثم والزحزحة عن نار البرزخ والاخرى تبدأ من نيران الشهوات في الدنيا وكما يروى عن رسول الهدى صلى‌الله‌عليه‌وآله ان موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرأ «وإن شئتم فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة ..»[1] و«من أحب أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس ما يحب ان يؤى إليه»[2].

و يقول حفيده الصادق عليه‌السلام «خياركم سمحاءكم وشراركم بخلاءكم ومن خالص الايمان البر بالإخوان والسعي في حوائجهم وان البار بالإخوان ليحبه الرحمن و في ذلك مرغمة للشيطان وتزحزح عن النيران ودخول الجنان»[3].

و الزحزحة عن النار تصور لنا جاذبية لتلك النار، جاذبية منهومة تجذب إليها ناهمة الأخفّاء، أ فليست لأصل النار ـ وهي الشهوة والمعصية ـ جاذبية، أ فليست النفس بحاجة الى ما يزحزحها عن نار الشهوة، فكذلك نار البرزخ والقيامة طبقا عن طبق فإنهما من خلفيات نار الدنيا، فكل زحزحة عن نار هي إدخال في جنة على قدرها «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلّا ما سَعى».

و قد تكون قضية الصبر والتقوى السكوت أمام الأمور الهاجمة، فالسكوت، كما قال علي بن الحسين عليهم‌السلام «لوددت أنه اذن لي فكلمت الناس ثلاثا ثم صنع الله بي ما أحب ـ قال بيده على صدره ـ ثم قال: ولكنها عزمة من الله أن نصبر ثم تلا هذه الآية[4].

و أخرى تكون قضيتها الكلام ردا على شطحات وشبهات جدالا بالتي هي أحسن إن أمكن، وثالثه قتالا بكل صمود حفاظا على هالة الايمان وحالته فرديا او جماهيريا.

و لقد أتى عزم الأمور في حقل الدفاع عن الدين، امرا بالمعروف ونهيا عن المنكر: «يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ اصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» (٣١: ١٧)، ام ـ

---

[1]. الدر المنثور ٢: ١٠٧ اخرج جماعة عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم: ... و اخرج ابن مردويه مثله عن سهل بن سعد عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) واخرج عبد بن حميد عن انس قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لغدوة أو روحة في سبيل اللّه خير من الدنيا بما عليها و لقاب قوس أحدكم في الجنة خير من الدنيا بما عليها.

[2]. المصدر اخرج احمد عن ابن عمر قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم: ...

[3]. نور الثقلين ١: ٤٢٠ في الكافي سهل بن زياد عمن حدثه عن جميل بن دراج قال سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: خياركم ..

[4]. نور الثقلين ١: ٤٢١ في تفسير العياشي عن أبي خالد الكابلي قال قال علي بن الحسين عليهما السلام: ..

بالنهاية ـ قتالا في سبيل اللّه.
إذا فالصبر في حقل المواجهة لأذى الأعداء هو عدم التفلّت عما أنت عليه من إيمان، و عدم التلفت عما يتوجب عليك في المواجهة سلبا وإيجابا من قضايا الايمان، فليس هو صبر الفشل والبتل والكسل!، فانما هو صبر البطل كما تقتضيه بطولته الايمانية.
لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ وَ لَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨۶).
هذا توطين لخاطر النبي الأقدس، القريح الجريح ـ والذين معه ـ من أذى الكافرين، أنه لا يختص بانهزام أحد وقيلات المنافقين والذين في قلوبهم مرض وويلات ضعفاء الايمان، بل هو مستمر على مدار الزمن.
فالبلاء النازل فجأة فجيعة لا تحمل، ولكن النازل على علم به وترقب له ليست بتلك الصعوبة الفاجعة، وهكذا يوطن اللّه قلوب المؤنين على النوازل، لكي يستعدوا لها، حين تتناوشهم الذئاب بالأذى، وتعوي حولهم بالدعايات المضللة، وحين يصيبهم الابتلاء منهم والفتنة.
ف «لتبلون» أيها المؤنون حسب قابلياتكم وفاعلياتكم ودرجاتكم «فِي أَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ» ـ «أموالكم» التي حصلتم عليها في تحصيلها وصرفها وإنفاقها، و«أموالكم»التي تجاولون في تحصيلها «أنفسكم» في ذواتكم ثم «و أنفسكم»فيمن يتصلون بكم بقرابة او نسبة او اتصال أخوي ايماني «وَ لَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ»كاليهود والنصارى «و من الذين أشركوا ـ لتسمعن .. ـ أذى كثيرا»من لغو القول الزور والغرور، ومن ألوان التهم والشبهات المفتّتة لعضد الايمان والدعايات الهارفة الخارفة الخواء الهادفة القضاء على الإسلام، وكما نراها ونسمعها من المبشرين المسيحيين ومن الصهاينة المجرمين، سلسلة موصولة مع الزمن لكي ينالوا من شرعة القرآن والمتشرعين بها كل نيل ويميلوا بهم كل ميل.
تلك الدعايات الواسعة من كتاباتهم وابواقهم الجهنمية ضد الإسلام ومعهم استعمار الشرق والغرب، ولهم طائلة الأموال والعدة والعدة المديدة، ولكن:
«وَ إِنْ تَصْبِرُوا» على أذاهم صبرا جميلا فلا تتفلتوا عن صامد الإيمان ولا تظنوا باللّه ظن الجاهلية، صبرا فيه الحفاظ على صالح الإيمان والجدال على طالح الكفر، لا صبر التخاذل والتحمل وأنتم قادرون على الدفاع، بل هو صبر أمام التعاضل «و تتقوا»في صبركم محاظيره، وتتقوا اللّه في ذلك الموقف الحرج المرج «فان ذلك»الصبر والتقوى «مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ»: عزم في الأمور الخطرة وعزم لها وعزم إليها، فالعزم على آية حال هو للموطن نفسه على الأمور العازمة، أن يتغلب الإنسان على كل حادثة وكارثة دون ان تتغلبه، أم هما ككفتي الميزان تتجاوبان، فالأمور التي تقصد الإنسان لتنال منه صالح الايمان عقيدة وعملا، لا بد من العزم والصمود أمامها لكي لا تتغلب عليه لأقل تقدير، أو يتغلب عليها لاكثر تقدير، لا أن يغلب متفلتا عن الصبر أمامها والتقوى في خضمها.

«وَ ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَ مَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِما غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ ثُمَّ تُوَفّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ» ۱۶۱.

«وَ ما كانَ» هنا كأضرابها في ساير القرآن تضرب هذه السلبية إلى اعماق الماضي سلبا عن مثلث الزمان، حيث تسلب الغلول عن الكينونة الرسالية ككل وبأحرى هذه الرسالة السامية، فليس ـ إذا ـ سلبا للجواز وتثبيتا للحرمة فحسب، بل هو سلب لإمكانية الغلول للنبيين.

و الغلول هو تدرع الخيانة كما الغل: العداوة، والغل هو الاغتيال: القتل، فما كان لنبي أن يَغل ولا أن يُغل وله ان يُغل ويقتل في سبيل اللّه من يَغل او يغل إذ كان يستحق الغل.

فالخيانة بأية صورة من صورها وأية سيرة من سيرها مسلوبة عن النبيين، سواءً أكانت خيانة في النفس أو النفيس، خيانة بحق اللّه في شرعته أم بحق عباد اللّه في حقوقهم، فإن الأمانة هي من اللزامات الأولية الرئيسية للرسالة الإلهية على أية حال في قال وحال وفعال، «وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ. لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ» (۶۹: ۴۷).

و كيف يخون اللّه شرعته وخلقه أن يأتمن الخائن، وما هو إلّا جهلا او تجاهلا او عجزا تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا.

فالآية لها دور طليق بالنسبة لمطلق الخيانة عن ساحة النبوة على مدار الزمن الرسالي، فتشمل كافة الشؤن لنزولها وسواها مما لم تحصل، اجتثاثا للغلول عن هذه الساحة السامية عن بكرته وبكرتها، سواء أ كانت خيانة في الرسالة، أم في الغنائم الحربية اختصاصا بنفسه[۱] ام في تقسيمها[۲] ام قبولها[۳] ام في السكوت عنها[۴] ومن قوله صلى‌الله‌عليه‌وآله: «اجتنبوا الغلول فانه عار وشنار ونار»[۵].

---

[۱]. الدر المنثور ۲: ۹۱- اخرج عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية في قطيفة حمراء افتقدت يوم بدر فقال بعض الناس لعل رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم أخذها فأنزل اللّه: و ما كان لنبي ان يغل ...

[۲]. المصدر اخرج ابن أبي شيبة و ابن جرير من طريق سلمة بن نبيط عن الضحاك قال بعث النبي صلى اللّه عليه و آله و سلم طلائع فغنم رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقسم بين الناس و لم يقسم بين الطلائع شيئا فقالوا: قسم الفيء و لم يقسم لنا فأنزل اللّه الآية.

[۳]. المصدر اخرج الطبراني بسند جيد عن ابن عباس قال بعث النبي صلى اللّه عليه و آله و سلم جيشا فردت رابته ثم بعث فردت بغلول رأس غزالة من ذهب فنزلت: و ما كان لنبي أن يغل.

[۴]. (. المصدر اخرج ابن أبي شيبة عن انس بن مالك قال قيل يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) استشهد مولاك فلان قال كلا إني رأيت عليه عباءة قد غلّها، و في نقل آخر، بل هو الآن يجر إلى النار في عباءة غلها اللّه و رسوله. وفيه اخرج الترمذي و حسنه عن معاذ بن جبل قال بعثني رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إلى اليمن فلما سرت أرسل في أثري فرددت فقال أ تدري لم بعثت إليك لا تصيبن شيئا بغير إذني فانه غلول و من يغلل يأت بما غل يوم القيامة لهذا دعوتك فامض لذلك.)

[۵]. المصدر ذكر لنا ان نبي اللّه كان يقول: ...

و ان رضا الناس لا تملك وألسنتهم لا تضبط ألم ينسبوه يوم بدر إلى أنه أخذ لنفسه من المغنم قطيفة حمراء حتى أظهره الله على القطيفة وبرأ نبيه من الخيانة وأنزل في كتابه «وَ ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ..»[1].
و ان تهمة الغلول ـ الوقحة ـ كانت من العوامل التي جعلت الرماة يزايلون مكانهم من الجبل خوفة ألا يقسم لهم الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله من الغنائم كما سبقت يوم بدر بالنسبة للقطيفة الحمراء وساحة النبوة منها براء، فهنا يأتي النص بحكم عام ينفي عن الأنبياء إمكانية الغلول فضلا عن خاتم الأنبياء.
و لقد تقولوا عليه قولة الغلول حتى أنه كان يقول: «لو كان لكم مثل أحد ذهبا ما حبست عنكم منه درهما أ تحسبون أني اغلكم مغنمكم»
ويقول «لا إسلال ولا غلول»[2]
و لم يضمن الإغاثة لمن يغل يوم القيامة[3] وهو الشفيع فيه.
و لقد اثرت آية الغلول وأضرابها في نفوس الجماعة المؤنة أثرا عميقا حتى أتت بالعجاب، فكانوا يجتنبون الخيط والمخيط[4] وكما يروى عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله: «أدوا الخيط والمخيط فانه عار وشنار يوم القيامة»[5].
ذلك «وَ مَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِما غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ» وهذه هي عينية التبعة أن يؤى من غل بما غل، سواء أ كان قولا او فعلا ام شيئا غل فيه، حيث المحشر يحشر فيه الإنسان بكل أعماله قالة وحالة وفعالة

---

[1]. نور الثقلين ١: ٤٠٤ في امالي الصدوق باسناده الى الصادق عليه السلام حديث طويل يقول فيه يا علقمة ...

[2]. الدر المنثور ٢: ٩٢- اخرج الطبراني عن كثير بن عبد اللّه عن أبيه عن جده ان النبي صلى اللّه عليه و آله و سلم قال: ... و من يغلل يأت بما غل يوم القيامة.

[3]. المصدر اخرج ابن أبي شيبة و احمد و البخاري و مسلم و ابن جرير و البيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال قام بينا رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم يوما فذكر الغلول فعظمه و عظم أمره ثم قال: لا ألفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء فيقول يا رسول اللّه اغثني فأقول لا املك لك من اللّه شيئا قد أبلغتك، لا ألفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس لها حمحمة فيقول يا رسول اللّه اغثني فأقول لا أملك لك من اللّه شيئا قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفف فيقول يا رسول اللّه اغثني فأقول لا املك من اللّه شيئا قد أبلغتك.

[4]. تفسير الفخر الرازي ٩: ٧٠ روى انه صلى اللّه عليه و آله و سلم جعل سلمان على الغنيمة فجاءه رجل و قال يا سليمان كان في ثوبي خرق فأخذت خيطا من هذا المتاع فخطه به فهل علي جناح؟ فقال سلمان: كل شيء بقدره فسل الخيط من ثوبه ثم ألقاه في المتاع، و روي ان رجلا جاء النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بشراك او شراكين من المغنم فقال أصبت هذا يوم خيبر فقال النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) شراك او شراكان من نار، و رمي رجل بسهم في خيبر فقال القوم لما مات، هنيئا له الشهادة فقال (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كلّا و الذي نفس محمد بيده ان الشملة التي أخذها من الغنائم قبل قسمتها لتلتهب عليه نارا.

[5]. المصدر و قال عليه الصلاة و السلام.

«ثُمَّ تُوَفّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ» وهنا «ما كَسَبَتْ» في التوفية دون «بما كسبت» مما يدل على ان المكاسب يوم الدنيا هي بنفسها الجزاء يوم الآخرة، أن تظهر بملكوتها تحولا لها إلى الجزاء بنفسها.
أَ فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللّٰهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللّٰهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ ١٦٢.
فكيف يساوى بين ضفتي الرضوان والسخط من اللّٰه، أن يبعث اللّٰه الساخط عليه كما يبعث الراضي عنه، أم كيف يبتعث الذي مأواه جهنم وبئس المصير.

تحريفات في الوحى وخاتمة الوحى خليصة عن كل تحريف

«وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ وَ ما هُوَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَ ما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ»٧٨.
اللّي هو عطف الشيء ورده عن الاستقامة إلى الإعوجاج، ولواه به عطفه بما سواه ليحسب مما سواه.
طرف آخر من مكائد البعض من اهل الكتاب هو تحريف بألسنتهم إقحاما لما ليس من الكتاب في الكتاب ام تحريفا بزيادة او نقيصة في آي الكتاب او إعرابه، وليّ الألسنة بكتاب يشملهما ولا سيما الثاني خلطا بما ليس منه فيه بنفس العبارة الكتابية لغة وجملة ولحنا وكما في «راعِنا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَ طَعْناً فِي الدِّينِ» «لتحسبوه» أنتم المسلمين غير العارفين بلغة الكتاب «من الكتاب» ويقولون «هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَ ما هُوَ» فيها يلوون «من عند اللّٰه»«وَ يَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» كذبهم، وذلك ايضا «بِأَنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ» فلكي يصدوا كل سبيل للحجة على أنفسهم يستحلون الفرية على اللّٰه حيث الغاية ـ بزعمهم ـ تبرّر الوسيلة.
كما ولهم ليّ في كَتب الكتاب وثالث في تفسير الكتاب تحريفا عن جهات أشراعه، ورابع في تخلفهم عمليا عن الكتاب، قواعد اربع يتبنّون عليها عرش السلطة الروحية الكتابية!.
و اللّي الأول يعم ما حرفوه من الكتاب كَتبا وسواه، ومثلث الكتاب يعني كتاب الوحي توراة وإنجيلا، ولأن الملوي باللسان لتحسبوه من الكتاب قد يكون من عند اللّٰه في وحي السنة فقد نفى كونه من عند اللّٰه، تكذيبا ثانيا لما يلوون، وثالث يؤدها و يسمهم بسمة الكذب على أية حال «وَ يَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ».
و ذلك اللّي والاشتراء والخيانة في أمانة الوحي وسواه من تجديفات ـ هي بطبيعة الحال ـ من رجال الدين، والعلماء العملاء لتشويه سمعة الدين.
فآفة رجال الدين وعاهتهم على الدين والدينين حين يفسدون هي ان يصبحوا أداة لتشويه الدين باسم الدين، ليّا بالكتاب ضدّه وبألسنة ضدها.
هؤلآء الذين يحرفون الدين فيهرفون فيما يحرّفون ضد الدين تلبية لأهوائهم وأهواء آخرين ممن يستفيدون من أموالهم ومالهم من رغبات وشهوات، فيحملون نصوصا من الكتاب ويلهثون بها وراء تلك الأهواء الجهنمية، ليّا لأعناق هذه النصوص لتوافق أهوائهم السائدة المايدة، فإنهم ـ لكي تتحقق أهوائهم من وراء الكتاب ـ يبذلون جهودا لاهثة باحثة عن كل تمحّل وكل تصيّد لأدنى ملابسة لفظية أماهيه، ليلبسوها من أهوائهم ما يبغون.

و الله يحذر المسلمين من هذا المزلق الوبيء الذي انتهى بانتزاع أمانة القيادة الروحية من بين إسرائيل. و لقد نرى ليّا وبيئا في الآيات الانجيلية المؤلة الى ثالوثهم وان المسيح ابـن الله، وهـم فاضـحون فـيما يفتعلون[1].

---

[1]. يصرح الإنجيل في ثمانين موضعا أن المسيح ع عبد اللّه و رسوله كما يقول: إن الحياة الأبدية معرفة اللّه بالوحدانية و أن المسيح رسوله (يوحنا ١٧: ٣) و «أول الأحكام أن نعرف أن إلهنا واحد» (مرقس ١٢: ٢٩) و هو يتحاشي عن أن يخاطب بالرب كما يندد ببطرس لما قال له:

حاشاك يا رب، فالتفت إليه و قال اذهب عني يا شيطان أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما للّه و لكن بما للناس (متى ١٦: ٢٢- ٢٣) و يعتبر أيضا من يظنه إلها أو ابنه من المجانين: «.. فلما عرفوه أخذوا يصرخون: مرحبا بك يا إلهنا و أخذوا يسجدون له كما يسجدون لله فتنفس الصعداء و قال:

انصرفوا عني أيها المجانين لأني أخشى أن تفتح الأرض فاها و تبتلعني و إياكم لكلامكم الممقوت، لذلك ارتاع الشعب و طفقوا يبكون» (برنابا ٩٢: ١٩- ٢٠).

و حقا انه لا يوجد في الأناجيل ما يدل صراحا على النبوة و الألوهية و الثالوث المسيحية اللّهم إلّا اختلاقات ليّا بألسنتهم و طعنا في الدين.

فمثل «أنا و الآب واحد» (لوقا ١٠: ٣٠) من المتشابهات التي تفسرها محكمات كالتي سلفت فالوحدة هنا توحد العبد مع ربه في الدعوة إليه، فلو دعا إلى نفسه لم يكن معه واحدا.

و كذلك: «في البدء كان الكلمة و الكلمة كان عند الله و كان الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله. كل شيء به كان و بغيره لم يكن شيء مما كان. فيه كانت الحياة و الحياة كانت نور الناس.

و النور يضيء في الظلمة و الظلمة لم تدركه» (يوحنا: ٥).

فإن لم تكن هذه الحاقية ليست لتعني الكلمة فيها المسيح بل هي كلمة «كن» التكوينية التي كانت عند اللّه فإنها القدرة الفعلية، ثم كان الكلمة اللّه من حيث القدرة الذاتية و هي من صفات الذات.

فللقدرة كما العلم واجهتان ذاتيتان هما من صفات اللّه التي هي عين الذات، فعليتهما عند اللّه لأنهما من صفات الفعل.

ثم لا نجد في الإنجيل ما يوهم التثليث إلّا كلمة الآب و الابن و الآب تعني الخالق و الابن هو ابن الإنسان كما في ثمانين موضعا.

و أما في الرسالة الأولى ليوحنا ٥: ٦- ٨: ١١: هذا هو الذي أتى بماء و دم المسيح. لا بالماء فقط بل بالماء و الدم. و الروح هو الذي يشهد لأن الروح هو الحق. فإن الذين يشهدون (في السماء) هم ثلاثة (الأب و الكلمة و الروح القدس و هؤلاء الثلاثة هم واحد. و الذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة) الروح و الماء و الدم و الثلاثة هم واحد! فما بين الهلالين منها: الآب ..- إلى- هم ثلاثة- مما كتبت أيديهم كذبا و زورا و لا توجد في أقدم النسخ و كما لا تصرح به الترجمة العربية من الأصل اليوناني المطبوعة في المطبعة الأمريكية في بيروت ١٩٠٦ و هي مدار النقل عندنا في كتبنا الثلاثة: عقائدنا- المقارنات- رسول الإسلام في الكتب السماوية- فالتنبيه الموجود في أوّل هذه النسخة: و الهلالان يدلان على أن الكلمات التي بينهما ليس لها وجود في أقدم النسخ و أصحها هذا التنبيه دليل أن التثليث المذكور فيه مقحم و كما يقول به كبار المحققين من علماء الإنجيل مثل كريسباج و شولز و هورن المفسر الشهير الإنجيلي، رغم تعصبه في الحفاظ على الأناجيل حيث يقول: هذه الجملة- يعني ما بين القوسين- الحاقية يجب حذفها عن الإنجيل، و تبعه جامعوا تفسير هنيري و إسكات و آدم كلارك، ثم إكستائن و هو من أعلم علماء التثليث و مرجعهم لا ينقل هذه العبارة في رسالاته العشر التي كتبها حول هذه الرسالة الإنجيلية، رغم أنه ممن أسس أساس التثليث، فلم تكن- إذا- هذه العبارة في الإنجيل حتى القرن الرابع زمن إكستائن و إلّا لكانت من أوضح أدلته على التثليث! و قد تكلف في مناظرته مع فرقة إيرين المنكرين للتثليث في الآية ٨ فكتب أن المعني من الماء هو الأب و الدم هو الابن و الروح هو الروح القدس!.

فلو كانت عبارة التثليث: الآب و الكلمة و الروح القدس- موجودة في زمنه و أن في نسخة مجهولة ساقطة لكان يتثبت بها و لم يسقط في هوة هذا التأويل البارد.

من ذلك لي «الآب» وهو لغة يونانية بمعنى الخالق، الى «الأب» مع الحفاظ على مده في اصل الكتاب، يلوون ألسنتهم بالآب أبا لتحسبوه من الكتاب نصا على ابوة اللّه للمسيح عليه‌السلام وليس الأب من الكتاب وإنما هو الآب فالابن معه ام سواه هو ابن الإنسان، فقوله عليه‌السلام لمريم المجدلية: امضي ـ الى اخوتي وقولي لهم: إني صاعد الى آبي الذي هو آبوكم وإلهي الذي هو إلهكم (يوحنا: ٢٠) لا يعني من «الأب» إلّا الخالق مهما اسقطوا مدها ام أثبتوها وكما يؤّده ثانيا «إلهي وإلهكم».

ذلك! وكما يلوون ألسنتهم ب«بريكليطوس» التي تعني غاية الحمد:

أحمد ومحمد ـ فيلفظونها «باراكليطوس»: المسلي، ليحرفوها عن محمد النبي الى المسلي الروح القدس، و«بريكليطوس» هي المسجلة في الأناجيل قبل الإسلام ثم حرفت الى «باراكليطوس» بعد الإسلام.

و من ليّهم في تراجم الكتاب إسقاط «مقرب» في بشارة سفر التثنية بنبي اسماعيلي حيث تقول: «نابيء آقيم لاهم مقرب إحيحم كموشه ..»: نبيّ أقيم لهم من أقرباء أخيهم كموسى، ثم نرى سائر التراجم كالمتفقة على إسقاط «مقرب» حيث تقول «من وسط بني إسرائيل من إخوتهم مثلك ـ من إخوتك مثلي» ترجمة مرتجفة مريبة رغم وحدة الأصل في «مقرب» تنحية لهذه البشارة عن النبي الإسماعيلي الذي بعث من أقرباء أخيهم، ف «أخيهم» هو بنو عيص كما في «تث ٢٨: ٨) وأمر القوم وقل لهم إنكم لحد إخوانكم بني عيص» وأقرباء بني عيص هم بنوا إسماعيل، فإن عيص نفسه كان صهرا لإسماعيل[١].

و من ليّهم ترجمة «بمئد مئد شنيم عاسار نسيئيم يولد ..»: بمحمد واثنى عشر اماما يلدهم ـ حيث ترجموها ب«الكثير جدا واثنى عشر رئيسا»[٢].

هذه وأشباهها كما تجد قسما منها في كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية».

ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللّهِ وَ لكِنْ كُونُوا رَبّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَ بِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ٧٩.

لقد نزلت هذه الآية في خضم الحوار مع نصارى نجران حين سئل:

«أ تريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم، فقال رجل من اهل نجران نصراني: أو ذاك تريده هنا يا محمد فقال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: معاذ الله ان نعبد غير الله او نأمر بعبادة غيره ما

و ممن يصرح بذلك الإلحاق الدكتور فندر الألماني مؤف ميزان الحق في رده- بزعمه- على الإسلام، و يكتب المفسر الشهير هورن ١٢ صفحة في التفتيش عن هذه الجملة و قد لخصها جامعوا تفسير هنري و الإسكات كالتالي: الأدلة المثبتة لكونها الحاقية ما يلي:

(١) لا توجد هذه العبارة في النسخ اليونانية قبل القرن ١٦ فهي- إذا- ملحقة في هذا القرن.

(٢) لا توجد في المطبوعات الأولى ثم نراها بعدها.

٣- لا توجد في شيء من التراجم إلّا اللاتينية قليلا.

٤- لم يستدل بها أحد من القدماء و المؤخين الكنسيين.

٥- زعماء بروتستانت الروحيون بين مسقط لهذه العبارة و مبق لها بضميمة علامة الريب و التزييف ض.

[١]. راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) ٣٣- ٣٩.

[٢]. المصدر ٤٠- ٤٣.

بذلك بعثني ولا بذلك امرني»[1].
و كما قال له رجل «يا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أ فلا نسجد لك؟ قال: لا ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله فانه لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله فأنزل الله هذه الآية[2] و قال صلى‌الله‌عليه‌وآله: لا ترفعوني فوق حقي فان الله تعالى اتخذني عبدا قبل ان يتخذني نبيا»[3].
و هنا «ما كان» تنفي عن اعماق الزمان بمثلثه الدعوة المعاكسة لتوحيد اللّه لرسل اللّه وأنبياءه، أن يرتقوا زورا وغرورا عن الرسالة الإلهية الى الإلهية نفسها، نفيا في استحالة ذات بعدين، ان يبعث اللّه من يحاده في ألوهيته، وأن يتبدل المألوه إلها.
و ليست «لبشر» هنا تختص النفي ببشر، وانما لأن المدّعى ألوهيته هنا بشر، وان البشر ـ وهو في أحسن تقويم ـ إذا لم يصلح له ان يكون معبودا من دون اللّه فبأحرى من دونه من سائر الخلق، ثم الآية التالية لها تنفي بوجه عام الألوهية عما سوى اللّه.
و هنا «أَنْ يُؤْتِيَهُ اللّٰهُ ... ثُمَّ يَقُولَ» دون «ان آتاه الله ثم قال» مما يؤد الاستحالة في بعديها، ان ليس اللّه يبعث من يتخلف هكذا عن رسالة، «وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ» (۶۹: ۴۵) وليست تتبدل الرسالة الى المرسل نفسه.
و «الكتاب» هنا هو كتاب الوحي «و الحكم» هو الحكم الرسالي بالكتاب، فقد أوتي المرسل إليهم الكتاب ولم يؤوا الحكم الرسالي بالكتاب، ومن ثم «النبوة» هي الرفعة بين المرسلين بالكتاب، فهي المرحلة القمة الرسالية مهما كانت درجات.
و لقد بلغت دركة الدعاية الثالوثية لحد يستجوب اللّه فيها المسيح عليه‌السلام البريء فيجيب: «وَ إِذْ قالَ اللّٰهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ... ما قُلْتُ لَهُمْ إِلّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ ..» (۵: ۱۱۷) ولَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلّٰهِ وَ لَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً ...»(۴: ۱۷۲).
ان المعرفة البسيطة باللّه تمنع العارف عن دعوى الألوهية، فضلا عمن يؤى الكتاب و الحكمة والنبوة، فإنها تحكّم عرى العبودية، إذ ليست واردة إلا مورد العبودية القمة.

---

[1]. الدر المنثور ۱: ٤٦- أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و البيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود و النصارى من أهل نجران عند رسول اللّه ص و دعاهم إلى الإسلام: أ تريد ...

[2]. المصدر أخرج عبد بن حميد عن الحسن قال بلغني أن رجلا قال يا رسول اللّه ص: ..

[3]. نور الثقلين ۱: ۳۵۷ في عيون الأخبار في حديث سلسلة الذهب قال المأمون يا أبا الحسن ع بلغني أن قوما يغلون فيكم و يتجاوزون فيكم الحد فقال الرضا (ع) حدثني أبي- إلى- قال قال رسول اللّه (ص): ... قال اللّه تعالى «ما كانَ لِبَشَرٍ ...» و قال علي (ع) يهلك في اثنان و لا ذنب لي مفرط و مبغض مفرط و أنا لبراء إلى اللّه تعالى ممن يغلو فينا فرفعنا فوق حدنا كبراءة عيسى بن مريم عليهما السلام من النصارى.

«ما كانَ ... ثُمَّ يَقُولَ لِلنّاسِ» «كُونُوا رَبّانِيِّينَ»: منتسبين الى الرب بمعرفة غالية وعبودية عالية كما نحن المرسلين، نحن ب«الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ»
ثم أنتم «بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَ بِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ» فعلم الكتاب الرسالي وتعليمه يجعلكم ربانيين بعيدين عن الدعاوي الخاوية الشركية.
فالربانيون هم القادة الروحيون، الحاملون لدعوات الرسل بين المرسل إليهم، وهم هنا «الناس»المعنيون ببازغ الدعوة ومنطلقها، حيث يتربون في حجر الوحي الرسالي، معرفيا وعمليا ثم يربّون الناس كما تربوا.
وَ لا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَ النَّبِيِّينَ أَرْباباً أَ يَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ٨٠.
«يأمركم» منصوب عطفا على «أَنْ يُؤْتِيَهُ اللّٰهُ»: ما كان لبشر ... «و لا ان يأمركم»ذلك البشر «أ يأمركم» النبي «بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» او «يأمركم» اللّه بالكفر بتلك الرسالة المضادة «بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».
فكلما تبلغ النبوة ذروة عليا يبلغ النبي الى عبودية أسمى، ولئن استحق المسيح عليه‌السلام ان يدعو لنفسه لكرامته على اللّه، فليبلغ إمامه وامام المرسلين: محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله الى الامامة على اللّه!.
وَ إِذْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشّاهِدِينَ ٨١.
آية غرة ترفع من شأن خاتم النبيين صلى‌الله‌عليه‌وآله الى أعلى القمم التي لا تساوى او تسامى حيث تحمّله ـ وهو آخر النبيين ـ المجيء إليهم كلهم برسالته القدسية.
هنا زوايا أربع لذلك الميثاق، آخذه وهو اللّه، والمأخوذ منهم وهم النبيون فلا ذكر لأممهم حتى يكونوا هم المعنيين، والمأخوذ له: «رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ»
و اصل الميثاق: «لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ» وفي اخرى ميثاق آخر غليظ على النبيين ومعهم خاتمهم: «وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً لِيَسْئَلَ الصّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً» (٣٣: ٨) فالميثاقان إذا مختلفان كل ينصبّ في مصبّ غير الآخر.
صحيح ان «مِيثاقَ النَّبِيِّينَ» ادبيا كما يتحمل كونه من اضافة المصدر الى المفعول كما ذكرناه كذلك اضافة الى الفاعل ليكون ذلك الميثاق للنبيين على أممهم، ولكنه معنويا هنا لا يناسب إلّا الأول لمكان «لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ» حيث المخاطبون فيهما هم النبيون إذ لا خبر هنا عن أممهم، فقد أخذ اللّه الميثاق من النبيين عليهم لرسول جاءهم بعدهم مصدق لما معهم.
فذلك ـ إذاً ـ ميثاق رسالي لصالح الرسالة الأخيرة المحمدية إيمانا به سلفا ونصرة له ولمّا يولد ويبعث في ظاهر حاله.
و ترى «إذ» تعني زمنا واحدا جمع فيه النبيون لمجمع واحد لأخذ ذلك الميثاق منهم عليهم؟ قد يجوز

فيما لا نحيط به علما[1] لكن المفهوم لدينا المعلوم عندنا أن زمن ذلك الميثاق موزع على زمن النبيين كلّ لحده.
ثم وذلك الزمن الموزّع لذلك الميثاق هو «لَما آتَيْتُكُمْ ....» ميثاقا عشيرا لإتيانهم كتابا وحكمة.
و قد يحتمل أن «إذ» تعني زمن خلق كلّ من النبيين أن فطرهم اللّه على ذلك الميثاق، و لكن «النبيين» موضوعا لأخذ الميثاق يبعد ميثاق الفطرة المأخوذ منذ خلقهم لا منذ نبواتهم، ثم «أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي» يبعده ثانيا حيث الفطري رساليا أم خلقيا لا يتخلف.
و قد يقال إن مصير الإقرار هنا هو مصير الإقرار بالتوحيد في آية الذر حيث تعني ميثاق الفطرة على التوحيد، ثم «مِيثاقَ النَّبِيِّينَ» غير صريحة ان ذلك الميثاق أخذ عليهم منذ النبوة، فقد يجوز انه مأخوذ عليهم منذ خلقهم.
و لكن تلك الفطرة الخاصة بالنبيين لا يعبر عنها بأخذ الميثاق، لكنه لا بأس بكونه ضمن المعني من أخذ الميثاق عليهم حين نبواتهم تأكيدا لما أخذ عليهم حين خلقهم.
إذا فكما اللّه فطر الناس على توحيده منذ خلقهم، كذلك فطر النبيين على الايمان بمحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله ونصرته.
أم تعني «إذ» مربع الزمان، قبل خلقهم في أرواحهم حيث كانوا أنوارا روحية، وعند خلقهم وقبل نبواتهم وعندها، ميثاق وثيق رفيق عريق مأخوذ عليهم في هذه المواطن الأربع!.
أ ترى «ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ» تعني كل رسول يتلو نبيا منهم، فهم ـ إذا ـ كل الرسل، أخذ الميثاق على كل نبي سبقه أن يؤن به وينصره؟.
و «رسول» بإفراده أمام جمعية النبيين لا يناسب جمعية الرسل! ثم وكيف يؤذ ميثاق الايمان من كل نبي لكلّ رسول والنبوة أعلى محتدا من الرسالة، إلا ان يكون الرسول مرسلا الى النبيين فهم كأمته مهما كانوا قبله، ومن ثم ليس قضية الرسالة ان يأتي كل رسول تلو سابقه، بل وكذلك النبيون اللّهم إلّا أولي العزم منهم.
ثم التعبير الواضح الفاصح عن تتالي الرسل «ثم جاء كلا منكم رسول مصدق له» دون «ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ» بل «فجاء» دون «ثم» حيث الرسل كانوا تترى دون فصل، كل هذه وأشباهها مما تبعد جمعية الأبدال في «رسول» بل وتحيلها.
هنا مادة الميثاق «لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ» هي منقطع النظير عن كل بشير ونذير، إلا من يكون رسولا الى الرسل وإماما في جموع النبيين.
نجد «آمَنَ مَعَهُ» «فَآمَنَ لَهُ» من نبي لنبي، ثم ولا نجد «لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ» إلا هنا «ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ» وبذلك التأكد الأكيد.
صحيح ان على كل رسول سابق تصديق اللاحق، وعلى كل لاحق تصديق السابق، واما الايمان به فلا يصح إلّا لمن هو إمام النبيين ورسول إلى المرسلين كما هنا.

---

[1]. البحار ١٥: ٢٢- ٣٦ السرائر عن أبي الحسن الأول ع يقول: خلق اللّه الأنبياء و الأوصياء يوم الجمعة و هو اليوم الذي أخذ اللّه ميثاقهم، و قال: خلقنا نحن و شيعتنا من طينة مخزونة لا يشذ عنا شاذ إلى يوم القيامة.

و هنا «النبيين» جمعا محلى باللام تعني مستغرق النبوات، فلا تعني بعضا دون بعض، و لا كل الرسل إلا بطريقة أولى، فانما «النبيين» وهم أولو النَّبوة والرفعة بين المرسلين ومن نبوتهم «لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ»[1] وليس كل رسول يأتيه كتاب مهما أتته حكمة، فكما أن أولي العزم من الرسل خمسة، كذلك النبيون منهم وهم اصحاب كتب الوحي ليسوا إلا قسما من المرسلين، فهم الأخصاء المتميزون بين المرسلين.

و هنا «ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ» لها دور العناية بختم الرسالة الإلهية ـ العظمى ـ وانها موجهة الى النبيين سلفا كما وجهت الى أمة الإسلام الأخيرة خلفا.

و في «رسول» هنا رغم نبوته العليا، عناية خاصة الى رسالته الروحية الواسعة إلى كافة النبيين قبله، والرسول الى النبيين هو ـ بطبيعة الحال ـ يفوقهم رسالة ونبوة.

ف «جاءكم نبي» لا تعني رسالته إليهم، وانما مجيء نبي قد يعني التزاور بينهم ولكن «جاءَكُمْ رَسُولٌ» هو مجيئه بالرسالة الإلهية إليهم.

فموقف الرسالة هو حمل الوحي ببلاغ الدعوة الرسالية كما هنا الى النبيين وفي غيرها الى سائر الأمم الرساليين.

و موقف النبوة هو بيان محتد الرسول النبي في نفسه او بين المرسلين.

و «جاءَكُمْ رَسُولٌ» تضم الموقفين، أصالة في رسالته إليهم، ولمحة بمحتد هذه الرسالة السامية انها الى النبيين، فهو فائق على كافة الرسالات والنبوات.

و نرى القرآن يعبر ب«الرسول ـ الرسل» في موقف البلاغ الى المرسل إليهم، وقد يعبر ب «النبي ـ النبيين» في موقفهم الذاتي شخصيا ام بين المرسلين.

و الرسالة قد تكون الى مرسل إليهم عاديين فرسالة عادية، ام والى رسل غير نبيين فأنبى وأعلى، أم والى نبيين غير اولي العزم وهي الرسالة العليا مختصة باولي العزم من الرسل، ام والى اولي العزم وهي فوق العليا وهي التي تعنيها «ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ».

ف «جاءكم نبي» تثبت فقط نبوته مهما كانت فوق رسالة، ولكنها لا تثبت رسالة إليهم، وهي تثبت إمامته الرسالية على النبيين أجمعين.

فالروح الرسالية المحمدية محلقة على كل الأرواح الرسالية قبل خلقها في الجسد، وهي محلقة عليها بعد خلقها في الجسد وبعثها لرسالتها الختمية.

و من ميزات هذه الرسالة الى النبيين واجب الايمان به ونصرته كشرط أصيل لإيتائهم كتبهم، وكما منها رسالته لبلاغ الدين ككل مهما اختلفت شرائعهم مع بعض البعض ومع شريعته، ومنها زرق الروح البلاغي استقامة لهم كما أمر، وتضحية في الدعوة كما له وعلى أضواءه القدسية.

و «مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ» تعني تصديق رسالاتهم بكتاباتهم، فلولا تصديقه لما معهم لما صدقت رسالاتهم، كما ان «ثُمَّ جاءَكُمْ» دليل خاتمية الرسالية العليا، وآية «خاتَمَ النَّبِيِّينَ»دليل خاتمية النبوة له، فهو ـ إذا ـ

---

[1]. اللام في «لما» للتأكيد و «ما» بمعنى الذي و صلته «آتَيْتُكُمْ ..» و الجملة ظرف تحمل الحكمة الحكيمة ل «لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ..» و قد يحتمل أن اللام للقسم توطئة لبيان حكمة مادة الميثاق، و اللام في «لتؤمنن» جواب القسم.

خاتم النبيين والمرسلين على الإطلاق.
و إن خاتميته هي لزام نبوته الرسالية، فنكرانها ـ إذا ـ نكران لرسالته.
ترى ومتى «جاءكم» هذا الرسول الأخير وهو الجاني بعد ما مضوا وقضوا برسالاتهم.
«جاءكم» هنا تطوي الطول التاريخي الرسالي وعرضه الجغرافي، تعاضيا عن فواصل الزمان والمكان، بيانا لمحتد الرسالة الاخيرة انها لا تحض الأمة الأخيرة، بل و تشمل بروحيتها العالية كافة النبيين، ولأنهم بكتبهم وحكمهم تقدمات لقرآن محمد و محمد القرآن حيث يهيمنان على النبيين بكتاباتهم،
«اما علمت ان الله تبارك وتعالى بعث رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وهو روح إلى الأنبياء عليه‌السلام وهم أرواح قبل خلق الخلق ...»[1]

---

[1]. البحار ١٥: ١٤ ح ١٧ بسند متصل عن المفضل قال قال لي أبو عبد اللّه ع يا مفضل أما علمت ... بألفي عام؟ قلت: بلى، قال: أما علمت أنه دعاهم إلى توحيد اللّه و طاعته و اتباع أمره و وعدهم الجنة على ذلك و أوعد من خالف ما أجا بوا إليه و أنكره النار؟ فقلت: بلى- الخبر ..

وفيه ١٥ ح ١٩ بسند متصل عن ابن نباتة قال قال أمير المؤنين (ع) ألا إني عبد اللّه و أخو رسوله و صديقه الأول قد صدقته و آدم بين الروح و الجسد ثم إني صديقه الأول في أمتكم حقا فنحن الأولون و نحن الآخرون الخبر.

وفيه ح ٢٠ عن ابن سنان قال قال أبو عبد اللّه (ع) أوّل من سبق من الرسل إلى «بلى» رسول اللّه (ص) و ذلك انه كان أقرب الخلق إلى اللّه تبارك و تعالى.

وفيه ح ٢١ عن أبي عبد اللّه (ع) قال: إن بعض قريش قال لرسول (ص) بأي شيء سبقت الأنبياء و فضلت عليهم و أنت بعثت آخرهم و خاتمهم؟ قال: إني كنت أوّل من أقر بربي جل جلاله و أوّل من أجاب حيث أخذ اللّه ميثاق النبيين و أشهدهم على أنفسهم أ لست بربكم؟ قالوا: بلى فكنت أوّل نبي قال «بلى» فسبقتهم إلى الإقرار باللّه عز و جل.

وفيه ص ١٨- ح ٢٨ عن مرازم عن أبي عبد اللّه (ع) قال قال اللّه تبارك و تعالى يا محمد إني خلقتك و عليا نورا- يعني روحا- بلا بدن قبل أن أخلق سماواتي و أرضي و عرشي و بحري فلم تزل تهللني و تمجدني ثم جمعت روحيكما فجعلتهما واحدة فكانت تمجدني و تقدسني و تهللني ثم قسمتها ثنتين و قسمت الثنتين ثنتين فصارت أربعة محمد واحد و علي واحد و الحسن و الحسين ثنتان ثم خلق اللّه فاطمة من نور ابتدأها روحا بلا بدن ثم مسحنا بيمينه فأفضى نوره فينا.

وفيه ٢١: ٣٤ كتاب فضائل الشيعة بإسناده إلى أبي سعيد الخدري قال: كنا جلوسا مع رسول اللّه (ص) إذ أقبل إليه رجل فقال يا رسول اللّه (ص) أخبرني عن قول اللّه عز و جل لإبليس «أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ» فمن هم يا رسول اللّه (ص) الذين هم أعلى من الملائكة؟ فقال رسول اللّه (ص): أنا و علي و فاطمة و الحسن و الحسين كنا في سرادق العرش نسبح اللّه و تسبح الملائكة بتسبيحنا قبل أن يخلق اللّه عز و جل آدم بألفي عام فلما خلق اللّه عز و جل آدم أمر الملائكة أن يسجدوا له و لم يأمرنا بالسجود فسجدت الملائكة كلهم إلّا إبليس فإنه أبي أن يسجد فقال اللّه تبارك و تعالى: استكبرت أم كنت من العالين، أي من هؤاء الخمس المكتوب أسماءهم في سرادق العرش.

ومحمدا (ص) و عليا و الأئمة الأحد عشر عليهم السلام من نور عظمته أرواحا في ضياء نوره يعبدونه قبل خلق الخلق يسبحون اللّه عز و جل و يقدسونه و هم الأئمة الهادية من آل محمد صلوات اللّه عليهم أجمعين.

وفيه ٢٣- ٤٠ عن الصادق (ع) إن اللّه تبارك و تعالى خلق أربعة عشر نورا قبل خلق الخلق بأربعة عشر ألف عام فهي أرواحنا فقيل له: يا ابن رسول اللّه (ص) و من الأربعة عشر؟ فقال: محمد و علي و فاطمة و الحسن و الحسين و الأئمة من ولد الحسين آخرهم القائم الذي يقوم بعد غيبته فيقتل الدجال و يطهر الأرض من كل جور و ظلم.

وفيه ٣٢- ٤١ عن أبي جعفر عليهما السلام قال: يا جابر كان اللّه و لا شيء غيره لا معلوم و لا مجهول فأول ما ابتدأ من خلقه أن خلق محمدا (ص) و خلقنا أهل البيت معه من نور عظمته فأوقفنا أظلة خضراء بين يديه حيث لا سماء و لا أرض و لا مكان و لا ليل و لا نهار

مهما جاءهم برسالته إليهم بعدهم مبعثا، فهو على حد قوله صلى‌الله‌عليه‌وآله اوّل النبيين ميثاقا وآخرهم مبعثا.

ذلك، ولكن الآية ليست لتعني الإيمان به والنصرة له قبل خلقهم في الجسد، إذ لم تكن لهم حينذاك كتب ولا نبوات ولا أنه إذا جاء بعدهم، فإنه خلق قبلهم.

إنما تعني الإيمان والنصرة «ثُمَّ جاءَكُمْ» طيا لطول الزمان فعليهم أن يؤنوا كلّ في زمنه بهذا الرسول وينصروه، كما عليهم ذلك الإصر عند الرجعة.

ففي مربع فرض الإيمان والنصرة كمحتملات، لا تدخل في نطاق الآية إلّا ما بعد خلقهم في الجسد.

و تلك الهيمنة الكبرى من قضيتها الإيمان السابق والنصر من كافة النبيين لصاحب هذه الرسالة السامية.

و لقد لمحت او صرحت آيات عدة بهذه الهيمنة لذلك الرسول كآية الشورى: «شرع لكم من الدين وما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى- ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ...» (١٣).

حيث اعتبر الوحي إلى الاربعة الآخرين من أولي العزم وصية أمام الوحي إلى إمامهم محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله لان كتاباتهم تحمل ـ كأصل ـ توصيات لهذه الرسالة الأخيرة، مهما حملت شرائع موقّتة لأمم مضت قبلها.

ذلك وكما نرى «رسولنا» في آياتها الأربع و«رسوله» في الأربع والثمانين، تعنيان هذا الرسول وكأنه هو الرسول لا سواه، مهما شملت جمعية الصيغة الرسالية كل الرسل.

و كما نرى ـ وبأحرى ـ «النبي» معرفا تختص في عديدها الواحد والأربعين بهذا النبي لا سواه.

و ليس ذلك الافراد في الرسول والنبي لهذا الرسول النبي صدفة غير مقصودة، بل هو مقصود لبيان محتده الفريد بين كافة الرسل والنبيين.

و لا شمس و لا قمر الخبر.

وفيه ح ٤٣ عن جابر بن عبد اللّه قال قلت لرسول اللّه (ص) أول شيء خلق اللّه تعالى ما هو؟

فقال: نور نبيك يا جابر خلقه اللّه ثم خلق منه كل خير، و عن جابر أيضا قال قال رسول اللّه (ص) أول ما خلق اللّه نوري ابتدعه من نوره و اشتقه من جلال عظمته.

وفيه ح ٤٥ عن المفضل قال قلت لأبي عبد اللّه ع كيف كنتم حيث كنتم في الأظلة؟ فقال: يا مفضل كنا عند ربنا ليس أحد غيرنا في ظلة خضراء نسبحه و نقدسه و نهلله و نمجده و ما من ملك مقرب و لا ذي روح غيرنا حتى بدا له في خلق الأشياء فخلق ما شاء كيف شاء من الملائكة و غيرهم ثم أنهى علم ذلك إلينا.

وفيه ح ٤٦ عن أبي عبد اللّه (ع) قال: إن اللّه كان إذ لا كان فخلق الكان و المكان و خلق نور الأنوار الذي نورت منه الأنوار و أجرى فيه من نوره الذي نورت منه الأنوار و هو النور الذي خلق منه محمدا و عليا فلم يزالا نورين أولين إذ لا شيء كوّن قبلهما فلم يزالا يجريان طاهرين مطهرين في الأصلاب الطاهرة حتى افترقا في أطهر طاهرين في عبد اللّه و أبي طالب عليهما السلام.

وفيه ح ٤٧ عن جابر بن يزيد قال قال لي أبو جعفر عليهما السلام يا جابر إن اللّه أوّل ما خلق خلق محمدا و عترته الهداة المهتدين فكانوا أشباح نور بين يدي اللّه، قلت: و ما الأشباح؟ قال: ظل النور، أبدان نورانية بلا أرواح و كان مؤدا بروح واحد هي روح القدس كان يعبد اللّه ....

ففي مثلث الوحي والرسالة والنبوة محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله هو الأصل والكل فروعه، وكأن الوحي إليه هو الوحي فقط إذا قورن بسواه كما في آية الشورى، و ان الرسالة والنبوة تخصانه كما في كل الآيات التي أتت بهما بإفراد.

و لقد خصت الرسالة المحمدية بميّزات بين كافة الرسل وعلى حد قوله صلى‌الله‌عليه‌وآله: «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» فكينونات الرسالة المحمدية أربع لا يشترك سائر الرسل إلّا في أولاها وهي الكينونة الرسالية في علم اللّه، دون الثلاثة الأخرى وهي كيان الإيمان به ونصرته بالتبشير به قبل خلقه وبعثه، وكيان رسالته في الأرواح الرسالية كرأس الزاوية، وكيان الإيمان به ونصرته في رجعته.

و قد نحتمل أن روحه الرسالية كانت مخلوقة قبل الرسل كلهم، انبعاثا إليهم فقط دون سائر المكلفين، وقد يعنيه المروي عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله في جواب السؤل: متى نبئت؟ نبئت وآدم بين الماء والطين ـ وآدم مجندل في التراب و....

فقد كانت الروح الرسالية المحمدية مشرفة في واقعها ـ كما يعلم اللّه ـ على أرواح النبيين اجمع، هيمنة عليهم وسياجا لهم عن أية تبعثرات في رسالاتهم.

و آية الميثاق هذه تذكر من ميزات هذا الرسول النبي انه خاتمهم ومصدقهم والرسول إليهم فعليهم «لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ... لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ» ـ ثم

يأخذ منهم الإقرار بما أخذ عليهم ميثاقه: «قالَ: أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي»إقرارا بهذه الرسالة الختمية والايمان به ونصرته، وأخذا بكامل القوات «عَلى ذلِكُمْ»العظيم العظيم، الثقيل الثقيل «إصرى» إصرا في مثلث التصديق والايمان والنصرة «قالُوا أَقْرَرْنا»إقرارا ـ بطبيعة الحال ـ شاملا لأخذ الإصر «قالَ فَاشْهَدُوا»على ما أقررتم «وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشّاهِدِينَ».

و الإصر ـ ككل ـ هو الحمل الثقيل على الآصر وكما «رَبَّنا وَ لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا» (٢: ٢٨٦) (وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ»(٧: ١٥٧).

و ترى لو أن الإصر موضوع عن الأمة المرحومة رحمة عليهم كما في آيته فكيف يحمّله النبيون أجمعون وهم أحرى بوضع الإصر عنهم، ثم كيف يصبح واضع الإصر عن أمته إصرا على زملائه النبيين؟!.

الإصر لغويا هو عقد الشيء وحبسه بقهره كمأصر السفينة الذي يحبسها بقهر عن تفلّتها، ولكنه قد يكون عقدا وحبسا بشرّ أو ما لا طاقة به كما في آيتيه، وأخرى بخير وهو يطاق، وهكذا يكون إصر الإقرار بالتصديق والايمان بمحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله لهم ونصرته، فانه يحلّق على كل حياتهم الرسالية أن يكرّسوها ـ فيما يكرّس ـ للتعريف والبشارة بهذه الرسالة السامية، فذلك ـ إذاً ـ إصر في حمله على النبيين، وإصر في حمل أممهم على التصديق به!.

فالإصر والإصار هما الطنب والأوتاد التي يعمد بها البيت، والرسالة المحمدية هي عماد كل بيوتات الرسالات، لولاها لما قام لها عمود، ولولا زندها لما كان لها وقود.

و قد يصعب ـ بطبيعة الحال ـ لكل نبي أن يعرف نفسه بين أمته انه ـ كما هم ـ من أمة رسول ياتي بعدهم كلهم، وكما يصعب على الأمم ان يسمعوا منهم ويصغوا كأن رسلهم ليسوا أصلاء في رسالاتهم، بل هم مبشرون بهذه الرسالة.

و يصعب في الأجواء المتعنتة التي لا تقبل الرسالات التي تعيشها، ان تبشر بالرسالة الأخيرة.

ثم ويصعب الإيمان به ونصرته على طول الخط، قبل ان يجيئهم بما يبشرون ويوطئون لمجيئه، وبعد مجيئه ان يحشروا لحاضر الايمان به ونصرته.

تلك صعوبات وصعوبات يعبر عنها هنا ب«إصري» الحمل الرباني على كواهل النبيين في مثلث تصديقه والإيمان به ونصرته.

و هنا تنحل مشكلة «ثم جاءكم ـ لتؤنن به ـ ولتنصرنه» كيف جاءهم ثم كيف ينصرونه وقد قضوا نحبهم قبله؟.

فإنه «جاءهم» في الروح الرسالي تاما وطاما، ما ينير عليهم دروب الرسالات بما عرفهم ربهم به في الشبح الروحي والقمة الرسالية، كما «جاءهم» يوم الرجعة فقد يرجع بعدهم كلهم، رسولا إليهم، فهم ـ إذا ـ من أمته الرسميين.

و «جاءهم» فيما بشروا به كأنه الحاضر أمامهم وهو إمامهم، فليبشروا به أممهم وانهم من أمته[1].

و «جاءهم» وقد قضوا نحبهم إلّا مسيحهم، فليؤنوا به بعد موتهم كما آمنوا به قبله ولينصروه.

و «جاءهم» في الرجعة المهدوية حيث يرجع الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وعترته المعصومون والنبيون كلهم راجعون اعضادا لدولة الحق الأخيرة[2].

و من ثمّ «ثُمَّ جاءَكُمْ» لها بعد الجمعية والإفراد: ثم جاء كل واحد منكم حين يتنبّأ فردا فردا، ومن ثم جاءكم ككل بعد انقضاء النبوات بأسرها، وتقيد مجيئه إياهم فيما يروى ب «لئن بعث وهو حي» تفسير بمصداق له مختلف فيه وهو زمن الرجعة[3].

فذلك ـ إذا ـ إيمان متواصل به ونصرته في هذه المسارح كلها، لم يسبق له نظير ولن، لكل بشير ونذير.

و لقد نرى بشارات له تترى في كتابات الوحي على تحرّفها ولا سيما في تلك البشارات! نراها بعشرات وعشرات هي عشيرات للوحي الرسالي على طول الخط، فيها نبرات الايمان والنصرة من النبيين لهذا

---

[1]. نور الثقلين ١: ٣٥٩ عن المجمع و روي عن علي ع أن اللّه تعالى أخذ الميثاق على الأنبياء قبل نبينا (ص) أن يخبروا أممهم بمبعثه و نعته يبشروهم به و يأمروهم بتصديقه.

[2]. المصدر العياشي عن فيض بن أبي شيبة قال سمعت أبا عبد اللّه ع يقول- و تلا هذه الآية-: قال و لتؤنن برسول اللّه و لتنصرن أمير المؤنين، قلت: و لتنصرن أمير المؤنين؟ قال: نعم من آدم فهلم جرا و لا يبعث اللّه نبيا و لا رسولا إلّا رد إلى الدنيا حتى يقاتل بين يدي أمير المؤنين ع.

وفيه عن سلام المستنير عن أبي عبد اللّه (ع) قال: لقد تسموا باسم ما سمى اللّه به أحدا إلّا علي بن أبي طالب (ع) و ما جاء تأويله، قلت جعلت فداك متى يجيء تأويله؟ قال: إذا جاءت جمع اللّه إمامة النبيين و المؤنين حتى ينصرونه و هو قول اللّه «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ ...» فيومئذ يدفع رأية رسول اللّه (ص) اللواء إلى علي بن أبي طالب (ع) فيكون أمير الخلائق كلهم أجمعين، يكون الخلائق كلهم تحت لواءه و يكون هو أميرهم فهذا تأويله.

أقول: و ذلك من الجري و التأويل كما في نفس الحديث، فعلي (ع) هو ممثل الرسول (ص) في الرجعة كما هو قبلها.

[3]. الدر المنثور ١: ٤٧- أخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب ع قال: لم يبعث اللّه نبيا آدم فمن بعده إلّا أخذ عليه العهد في محمد لئن بعث و هو حي ليؤنن به و لينصرنه و يأمره فيأخذ العهد على قومه ثم تلا هذه الآية.

النبي العظيم، نذكر قسما منها بطيّات آيات تناسبها، وقد جمعناها في كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية».

فلقد أخذ اللّه تعالى ميثاقا رهيبا عجيبا شهده هو وأشهد عليه أنبياءه، طيّا لكل الفواصل زمانيا ومكانيا بين النبيين المتتابعين في مختلف الأزمنة والأمكنة، يجمعهم في ذلك المسرح الصارخ الصارخ وهو يخاطبهم «أ أقررتم قالوا أقررنا ..».

ذلك المشهد الهائل الجليل يرسمه ذلك التعبير العبير، فيجف له القلب، وليتذكر السامعون.

و هنالك «إصري» لمكان العصبية الذاتية، لشخص الرسول رساليا ولقومه قوميا وعنصريا، والاتباع ككل نحلة لهم، أماذا من عصبيات، تراها كلها تنحني وتنمحي أمام «رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ» تناكرا لكل الآصار:

«قالَ فَاشْهَدُوا» لدي ولدي أممكم[1] (وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشّاهِدِينَ» لدى الكل.

فذلك المجيء هو غير متعود المجيء بين المرسلين، فانه المجيء في كل حقوله، رساليا ورسوليا: إيمانا به في الروح قبل مجيئه في الجسم، وهذا ما يعنيه الجائي نفسه في قوله:«كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» فلا يعني نبوته في علم اللّه إذ تعم سائر النبيين، بل نبوته في قسم عظيم من لزاماتها وأهمها الإيمان به، والميثاق للايمان والنصرة له وكما يروى عنه «انا أول النبيين ميثاقا وآخرهم مبعثا»[2].

فَمَنْ تَوَلّى بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (٨٢).

«فَمَنْ تَوَلّى» عن خاتميته في رسالته ونبوته «بَعْدَ ذلِكَ» الميثاق المؤد الجمعي «فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ» لو كانوا من هؤلآء النبيين ولن ـ وليس هنا «منهم» حتى يختصهم التولي ـ او كانوا ممن يدعون نبوة قبله او بعده، ام كانوا من الأمم المبشّرة بتلك الرسالة الختمية.

ذلك، فحتى ولو كانوا من النبيين، فكما لا تصدق نبواتهم إلا بختم وتوقيع من خاتم النبيين، كذلك لا يؤون كتابا وحكمة إلا شريطة الإيمان به ونصرته.

ذلك! فضلا عن المرسل إليهم، فقد انضم النبيون كلهم باممهم الى موكب هذه الرسالة السامية رسالة واحدة الى امة واحدة، كما وان الرسالات واحدة الى امة واحدة: «وَ إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ. فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» (٢٣: ٥٣).

و لو ان ميثاق الايمان والنصر كان ـ فقط ـ بين النبيين أنفسهم، كلّ لاحق لسابقة، لم يكن لذلك التهديد دور، فانما تهدد هنا الأمم الناكرة لخاتم الرسل صلى‌الله‌عليه‌وآله.

و لو ان «مِيثاقَ النَّبِيِّينَ» كان ميثاقا لهم على أممهم لكان صحيح التعبير «ميثاقا للنبيين على أممهم» أم لو عني من الخطاب في «ثُمَّ جاءَكُمْ» الأمم، لأتى بذكرهم وإن مرة يتيمة!.

---

[1]. الدر المنثور ٢: ٤٨- أخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب ع في قوله تعالى: فاشهدوا يقول: فاشهدوا على أممكم بذلك و أنا معكم من الشاهدين عليكم و عليهم فمن تولى عنك يا محمد بعد هذا العهد من جميع الأمم فأولئك هم الفاسقون هم العاصون في الكفر.

[2]. راجع لتفصيل هذه الروايات إلى آية «خاتَمَ النَّبِيِّينَ» في الأحزاب.

فالرواية الهارفة الخارفة ان اقرءوها: «و إذ أخذ الله ميثاق أمم النبيين»[1] هي صادرة من مصدر الجهالة والحماقة، ممن لا يعرف معاني كلام اللّه ومغازيه فيتورط في ورطة التحريف والتجديف!.
ذلك الدين الشرعة الذي يحمله خاتم النبيين هو الدين كله وليس ما سبقته من شرعة إلّا شرعة من ذلك الدين:
أَ فَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ(٨٣).
«دِينِ اللَّهِ» هو طاعته بمختلف شكليات الشرائع الخمس، وفي كل بأشكال مختلفة الظاهر، والكل تتوحد في أنها «دِينِ اللَّهِ» وطاعته، فالذي يبغى دين اللّه عليه ان يبغى شرعته المتشرعة منه كما يشاء، دون إخلاد إلى شرعة الفها، وتصلب عليها نكرانا لشرعة تلحقها.
و المكلف هو بطبيعة الحال يبتغي دينا وطاعة إمّا للرحمن أو الشيطان.

رسالة واحدة لأمة واحدة وربٌّ واحد

«إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ٩٢ وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ»٩٣.
«ان هذه» الأمم بأسرها وعن بكرتها «أمتكم» ايها الرسل بأسركم وعن بكرتكم «أُمَّةً واحِدَةً»في مغزاها ومرماها، كما الرسالة واحدة مهما حملها مرسلون عدة، وهما تتلاقيان في «وَ أَنَا رَبُّكُمْ» دون سواي، إذا «فاعبدون» دون سواي: «يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ. وَ إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ. فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ. فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتّى حِينٍ» (٢٣: ٥۴).
آيتان كريمتان في الذكر الحكيم تؤدان على وحدة الرسالة ووحدة الأمم في عبادة اللّه الواحد وتقواه والرجوع اليه ف «إِنّا لِلَّهِ وَ إِنّا إِلَيْهِ راجِعُونَ».
و يا له من اله واحد ورب واحد مبدءً ومرجعا، ويا لهم من امة واحدة على ضوء رسالة واحدة تلتقيان على عبادة واحدة وتقوى واحدة «وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ...»! خطابا شاملا للرسل باممهم، هم يحملون «كيف يعبد الله ويتقى» الى كل الأمم، فمهما اختلفت الطقوس والصور فالأصل والاتجاه واحد هو عبادة اللّه وتقواه.

---

[1]. نور الثقلين ١: ٣٥٨ في تفسير العياشي عن حبيب السجستاني قال سألت أبا جعفر عليهما السلام عن قول اللّه «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ ..» فكيف يؤن موسى بعيسى و ينصره و لم يدركه و كيف يؤن عيسى بمحمد ص و ينصره و لم يدركه؟ فقال: يا حبيب إن القرآن قد طرح منه آي كثيرة و لم يزد فيه إلّا حروف أخطأت بها الكتبة و توهمتها الرجال و هذا و هم فاقرأوها «و إذا أخذ الله ميثاق أمم النبيين ..» هكذا أنزلها اللّه يا حبيب فو اللّه ما وفت أمة من الأمم التي كانت قبل موسى بما أخذه اللّه عليها من الميثاق لكل نبي بعثه اللّه بعد نبيها.
أقول: لقد أخطأ الراوي في فهم «ثُمَّ جاءَكُمْ» زعما منه أن «رسول» هو كل رسول بعد رسول، ثم أخطأ في الفرية على باقر العلوم في «قد طرح منه آي كثيرة» و هو خلاف العصمة الربانية للقرآن «إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنّا لَهُ لَحافِظُونَ»، ثم لم يزد في «لم يزد فيه إلا حروف» إلّا أن القرآن الموجود كله حروف أخطأت بها الكتبة و توهمتها الرجال، فبعدا للقوم الظالمين المختلقين هذه الروايات الزور و الغرور!.

و لان الرسالة تعم العالمين ككل من الجنة والناس ومن سواهما أجمعين، فالكل هم «أمتكم»كما و«كم» تعم رسل الجن الى جانب رسل الانس مهما كانت الرسالة الاولى على هامش الثانية.
فالرسالات كلها هي باتجاه واحد من آله واحد والى آله واحد، وكل رسول يحمل شرعة خاصة من الخمس، يجمع العالمين على رسالته، وكل لاحق هو على خط سابقه، وعلى كل امة لاحقة اتباع شرعتها اللاحقة، تركا للسابقة صورة، وتمسكا بها سيرة، فلم يكن القصد من شرعة بعد شرعة ـ وهي كلها عن دين واحد ـ ان تختلق امم متصارعة طول تاريخ الرسالات، حيث الاختلافات على اية حال مرفوضة، والوحدة في كل حال ملحوظة مفروضة «وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ» (١١: ١١٨)!:
«لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً وَ لَوْ شاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللّٰهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ»(٥: ۴٨) (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ...» (۴٢: ١٣).
فقد أمروا بالتوحد في دين اللّٰه بشرعته ولكنهم «تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ..» تقطعا الى امم، وتقطعا في كل امة الى مذاهب، وتقطعا في كل مذهب ايضا الى مذاهب ... «تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ» وهو دينهم بشرعتهم، رغم ان «كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ» في الاولى تكوينا و دينا، وفي الاخرى خلقا جديدا وجزاء على دين! امر واحد للّٰه هو أمرهم، «ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها ..» (۴٥: ١٨) ولكنهم بديل ان يظلوا تحت ظله متوحدين، جعلوا أمرهم فرقة وإمرا، تفرقا في الأهواء، واختلافاً في الآراء، وتقسّما في المذاهب، وتشعبا في الولائج.
فقد كانوا حسب وحدة التكوين ووحدة الدين امة واحدة، بينهم وسائل متناسجة، وعلائق متشابكة، ثم تباعدوا تباعد قطع لتلك العلائق، وشذب لتلك الوسائل، فصاروا أخيافا مختلفين، واوزاعا مفترقين، واوضاعا مختلقين.
و هل من منجى في ذلك البين البائن، والاختلاف الشائن، ام كل في شأنهم شائنون؟.
فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَ إِنّا لَهُ كاتِبُونَ ٩۴.
انما الأصل المنجي في هذا البين والبينونة هو عمل من الصالحات على ركيزة الايمان، جناحان لاي مؤن يعمل من الصالحات، يجنحان به عن كل مصيدة ومكيدة الى سماء الرحمة والرضوان، فأيا كان الايمان وعمل من الصالحات، ومن اي كان وأيان «فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ»لصالح العمل بصالح الايمان «و انا» بجمعية الصفات رحمانية ورحيمية «له» لسعيه ايمانا وعملا صالحا «كاتبون» في مختلف الكتابات الأربع: أعضاء واجواء وملائكة وأنبياءهم شهداء على الأعمال يوم يقوم الأشهاد، وهي كتابة الاستنساخ لمثلث الأحوال والأعمال والأقوال في سجلاتها كما هيه.
وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللّٰهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ٣۴.
منسك واحد في الجذور وآله واحد في كل العصور، فأمة واحدة ذات رسالة واحدة مهما اختلفت القشور: «لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَ ادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ» (٢٢: ۶٧).

و المنسك هو مصدر ميمي واسم زمان ومكان، فهو نسك في زمان ومكان خاص، و هو عبادة خاصة في زمانها ومكانها الخاص بها، فهو هنا مناسك الحج كلها، ومما يلمح له هنا «لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللّٰهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ» ثم قرنه بعبادات أخرى: «فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ» (٢: ١٩٦) ـ «إِنَّ صَلاتِي وَ نُسُكِي ...»(٦: ١٦٣) ثم التماسه في موقف الحج كما في ابراهيم «وَ أَرِنا مَناسِكَنا» (٢: ١٢٨) ثم ذكره بعد سرد من مناسك الحج: «فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللّٰهَ» (٢: ٢٠١).

و لو كان المنسك هو العبادة ككل لكان صحيح التعبير عنه النسك دون المنسك، فهو ـ إذا ـ مناسك الحج لا سواها.

و هذه الآية مما تدل على اممية المناسك عبر الرسالات والأمم منذ آدم إلى الخاتم صلى‌الله‌عليه‌وآله، وقد وردت روايات في مناسكهم رسلا واممما.

و قد تمتاز المناسك الاسلامية بمميّزات، كما هي طبيعة الحال فيها قضية الخلود والكمال القمة المغنية، ومنها «لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ» فانها مزيد على ما لكل امة «لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللّٰهِ ..»! مهما كانت لهم منافع اخرى فيها من واجهات اخرى، ولكنها ليست لتبلغ مبلغ تلك المنافع الاخرى للشرعة الأخرى.

«فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ» وبيت عتيق واحد، ودين واحد، مهما اختلفت مناسك عن مناسك، كما شرعة عن شرعة في مظاهر، حيث الأصل صادر عن مصدر واحد ولغاية واحدة.

إذا «فَلَهُ أَسْلِمُوا» لا سواه، من عادات مهما كانت لشرعة سابقة، فالإسلام له، يجعل من الأمم امة واحدة مسلمة للّٰه، دون تنازع في الأمر «فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ» وهو الدين الحق التي تشرعت منه وتصدرت منه الشرائع.

«فَلَهُ أَسْلِمُوا» حيث الإسلام للّٰه يوحد المشاعر والشعائر وكل الاتجاهات فيهما وسواهما.

«وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ» الإخبات مفسّرة بالآية التالية وهي لغويا من الخبت:

المتّسع المطمئن من الأرض، والإفعال منه هو النزول إلى ذلك المتسع خروجا عن كل ترفع وارتفاع، فالمخبت هو اللاصق بأرض العبودية اللازق بالخرور والخضوع والخشوع.

و هنا المعني منها الإخبات إلى ربهم، في تلك الساحة المتسعة من العبودية بكل صورها، في كل شرعة شرعة، دون إخلاد إلى ارض واحدة وساحة خاصة من شرعة: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ»(١١: ٢٣).

فمهما كان أصلها الإخبات إلى الأرض، ولكنه ليس إلا له تعالى، فمن مخبت إلى الأرض للحياة الارضية «لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً»(٧:١٧٦) «وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ» (٢٢: ٥٤)

فبشر المخبتين[1] إلى ساحة متسعة من ارض العبودية «له» لا سواه:

الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ وَ الْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَ مِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ ٣٥.

---

[1]. تعليقات احقاق الحق في آية المخبتين «علي منهم» نقله و صححه القرطبي في عداد من نزلت هذه الآية في حقهم الجامع لأحكام القرآن ١٢: ٥٩ و ابن مردويه في المناقب قال: علي منهم و سلمان.

فللإخبات إلى الرب وللرب قوائم اربع من مظاهر العبودية وسرائرها، وفاقا بين السر و العلن دون نفاق:
١ (الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ» والوجل هو استشعار الخوف، من نفسه لمعاصيه ومآسيه، ومن اللّه رهبة وهيبة، فهو أحض من الخوف، ووجل القلب يحلّق على كل كيان الإنسان بمشاعره وشعائره، بأقواله وأفعاله وأحواله.
٢ (وَ الصّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ» في جنب اللّه، فيحتسبون عند اللّه عنائهم، دون ان يعييهم او يخفف عن وطأتهم في عبادته، وتنمّرهم في ذاته.
٣ (وَ الْمُقِيمِي الصَّلاةِ» اقامة لائقة بجنب اللّه، فائقة كل قيام آخر وإقامة، ولا فحسب هذه الثلاث من العلاقات الشخصية باللّه، بل وعلاقة جماهيرية خلقية كما امر اللّه:
٤ (وَ مِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ» في سبيل اللّه، من كل نفس ونفيس ممكن الإنفاق في اللّه، و من ذلك ما علّمهم اللّه حيث منه يبثّون.

قالوا ما أنزل الله على بشر من شيً

«وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَ هُدىً لِلنّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَ تُخْفُونَ كَثِيراً وَ عُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لا آباؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ»(٩١):
هنا «ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» في ربوبيته برحيميته المقتضية لزاما بعث رسله، وفي الحج (٧۴) والزمر (۶٧) (ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» في توحيده وألّا شريك له في ألوهيته، وهذه الآية بما بعدها مربوطة النياط بما قبلها من آيات الحجاج على المشركين الناكرين لرسالة البشر، وأهل الكتاب الناكرين لهذه الرسالة الأخيرة، وينكر ثالث أن النبوة وحي من اللّه على بشر سواء أ كان النازل به ملكا أو بشرا!.
إذا ف «ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ» تحمل ثالوثا من النكران.
فمن الناس ـ وهم ثالث ثلاثة ـ من يخيل إليهم أن الوحي ارتقاء عقلي للإنسان، دون إيحاء إلهي خاص، فالنابغ من الإنسان نابع من عقليته البارعة ما يتسمى وحيا، فما هو إلّا وحي العقل بنضوجه وارتقائه إلى مرقى الكمال الطليق لحد المعرفة الطليقة حيث لا يبقى له حاجب وستار عن الحقائق.
و لكنهم غفلوا عن أن ذلك خاص بنطاق الكليات العقلية، فليس للعقل مهما نضج وعرج معارج الكمال أن يعرف جزئيات الموضوعات والأحكام الموحيات إلى الرسل، ثم الأحكام لا تتبع كلها المصالح الواقعية فان قسما منها ابتلائية، إضافة إلى سائر البراهين القاطعة إلى واقع الوحي الرسالي إلى الرسل.
و كما أن قدر اللّه حق قدره درجات، كذلك عدم قدره حق قدره دركات، تعم كافة التقصيرات بجنب اللّه عقيديا وعمليا وفي لفظ القول.
فقدر الشيء أو الشخص هو منزلته المتميز بها عن غيره، والمنزلة الربوبية قضيتها ألا يسوى به سواه في أيّ من الأقدار، فليوحّد في ألوهيته وكافة شؤن ربوبيته المقتضية إرسال رسله وابتعاث خلقه يوم

الحساب لتحقيق كامل عدله بينهم.
فحق قدره ليس إلّا كما عرّف نفسه وبين في شرعته، دون أن يوصف بقدر «فلا يوصف بقدر إلا كان أعظم من ذلك»[1].
إذا ف «إن الله عز وجل لا يقدر أحد قدره»[2]
في ذاته وصفاته وأفعاله، والواجب على عباده أن يقدروا قدره فيما عرف به نفسه وفيما فرضه أو حرمه.
فحق قدره هو حق وصفه بما حققه تعالى من أوصافه دون انتقاص منها ولا مساس من كرامته، وصفا معرفيا ووصفا لفظيا ووصفا عمليا، وفي هذا المثلث يقدر اللّه حق قدره أم لا يقدر، فلا نكلف بمعرفته كما هو، ولاوصفه كما هو، بل وعبادته كما يستحقه، وذلك حق قدره بكماله وتمامه وما دونه عوان بين «قدروا» و«ما قدروا»ومن حق قدره فيما أنزل أن يحتل الموقع الأعلى من الدراسة فيه دون أن يجعل درسا جانبيا كما فعلته الحوزات الاسلامية، فقد مركزوا كلّ كتاب وما قدروا كتاب اللّه حتّى هامشيا يفكر فيه ويتدبر.
فهم «إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ» مسّوا من كرامة ربانيته كأنه يجهل حاجة المكلفين إلى وحيه، أو يبخل على علمه، أو يعجز على علمه وسماحته، أو يظلم على قدرته وسماحته وعلمه، والقائلون «ما أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ» التاركون له، هم أتباع لهم بل هم أضل منهم وأنكى.
هنا «ما قَدَرُوا اللّٰهَ» تعم كلّ القائلين «ما أَنْزَلَ اللّٰهُ» ثم برهان ثان يخص أهل الكتاب منهم «قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَ هُدىً لِلنّاسِ ...»[3] وغير بعيد عن هؤلآء الأنكاد أن يتقولوا هذه القولة تعصبا ضد الإسلام وهم المفضّلون المشركين على المسلمين بنفس العصبية:
«أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطّاغُوتِ وَ يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا» (۴: ۵۱)، وهذه هي طبيعة الحال المتخلفة الشرسة للعصبية الجهلاء الحمقاء على حاضر الحال، قومية أو طائفية أو إقليمية أمّاهيه، أنها إذا أصبحت حجة على أصحابها، ذريعة لتقبل أشباهها أنكروها عن بكرتها نكرانا للزاماتها.
فقد ينكر الكتابي كتابه إذا كان حجة لتصديق كتاب آخر، كما قد ينكر حسه أو فطرته أو عقليته أو علمه إذا كانت ذريعة لما يتنكره من جديد.
ذلك وقد يدعون ـ كما اليهود ـ أن الرسول السابق على رسولهم كان منهم في شرعتهم، ردا على النصارى وتثبيتا لأصالتهم طول التاريخ الرسالي، حتى نزل التنديد الشديد بهم: «يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ

---

[1]. نور الثقلين ۱: ۷۴۴ عن اصول الكافي عن الفضيل بن يسار قال سمعت أبا عبد اللّه ع يقول: ان اللّه لا يوصف و كيف يوصف و قد قال في كتابه «وَ ما قَدَرُوا اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» فلا يوصف .. و فيه عن أبي جعفر عليهما السلام مثله.

[2]. المصدر عن إسحاق بن عمار قال قال ابو عبد اللّه ع ان اللّه ..

[3]. المصدر عن تفسير القمي في الآية قال: لم يبلغوا من عظمة اللّه ان يصفوه بصفة «إِذْ قالُوا...».

تُحَاجُّونَ فِي إِبْراهِيمَ وَ ما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَ الْإِنْجِيلُ إِلّا مِنْ بَعْدِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ ... ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لا نَصْرانِيًّا وَ لكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (٣: ٦٧).

ذلك، فغير بعيد عن هؤلآء الأنكاد ـ في سلبياتهم وإيجابياتهم الحمقاء ـ أن ينكروا نزول الوحي على بشر بأسره ذريعة إلى نكران أفضل الوحي على محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله، فهنا تبرز الحجة البالغة الإلهية تكذيبا لقولتهم:

«قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى ....»؟!.

و مكية الآية لا تنافي التعرض لأهل الكتاب إذا انتشرت دعوة الإسلام في الجزيرة وفيها أهل الكتاب، كما وكانوا يبثون دعايات ويدسون بين المشركين المختلطين بهم سفرا وحضرا، ثم الدعوة القرآنية عالمية تقتضي عامة الخطابات إن في مكة أو في المدينة.

لقد قال الأولون «ما أَنْتُمْ إِلّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ» (٣۶: ١۵) استبعادا لرسالة البشر وأنكر الآخرون نزول كتاب بعد موسى وعيسى عليهم‌السلام كأن اللّه عاجز عنه بعدهما ف «قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَ هُدىً»[1] وقد تركتم نوره وهداه وراء ظهوركم «تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ» فاضية عن الوحي وهي فائضة بالوحي «قَراطِيسَ تُبْدُونَها» حيث لا يظهر فيها وحي إذ حرفتموه «وَ تُخْفُونَ كَثِيراً» منها، الذي لم تقدروا على إمحاءه وتحريفه، «وَ عُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لا آباؤُكُمْ» في ذلك الوحي النور والهدى، وسائر الوحي قبل التورات.

و هنا الخطاب في «تجعلونه» هو قضية الخطاب في «قل» ف «تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ» غيابا لا تناسب الخطاب ولا سيما العتاب الذي هو قضية الخطاب!.

ف «علمتم ..» برهان قاطع آخر على إنزال كتاب الوحي، فإن من العلم ما ليس يكتسب بأية وسيلة متعوّدة وقد علّمتموه، وهو الفاصل بينكم وبين المشركين الذين لا يعلمون ما علّمتم، فالصيغة الحاكية عن المشركين في القرآن هي: «الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ» والحاكية عمن سواهم «أهل الكتاب» فلا سبيل لهؤاء إلى نكران الوحي، بحجة أولى «من أنزل ...» ولا ثانية «و علمتم»، ف: من أنزل ومن علم؟:

«قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ»، «قل اللّه» عنهم إذ يعتقدون ولا يلفظون به ذريعة لنكران ما ينكرون.

«قل اللّه» ثم لا تحفل جدالهم ولجاجهم ومراءهم واهتراءهم، «ثم ذرهم» إلى نقمة اللّه «فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ».

و هكذا يواجه من يعاند الحق في حجاجه اللجاج أن يترك في خوضه الغامر دون أن يؤسف عليه

---

[1]. الدر المنثور ٣: ٢٩- اخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف فخاصم النبي ص فقال له النبي (ص) أنشدك بالذي انزل التوراة على موسى هل تجد في التوراة ان اللّه يبغض الحبر السمين و كان حبرا سمينا فغضب و قال: ما أنزل اللّه على بشر من شيء فقال له أصحابه ويحك و لا على موسى؟ قال: ما انزل اللّه على بشر من شيء فأنزل اللّه «وَ ما قَدَرُوا اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...».

وفيه اخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: جاء ناس من يهود الى النبي ص و هو محتسب فقالوا يا أبا القاسم ألا تأتينا بكتاب من السماء كما جاء به موسى ألواحا؟ فأنزل اللّه تعالى: «يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ ..» فجئا رجل من اليهود فقال: ما أنزل اللّه عليك و لا على موسى و لا على عيسى و لا على احد شيئا فأنزل اللّه «وَ ما قَدَرُوا اللّهَ ...».

ويؤى له، حيث «جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا»، وذلك لا يقتضي ترك محاربتهم، فإن «ثم ذرهم» هي فقط امر بتركهم في حقل الحجاج.

ذلك، وكلّ جملة من هذه مستقلة في حقولها، ف «قل اللّه» تستقل في كافة الحقول، توحيدية وشركية وإلحادية، وفي حقل التوحيد توكلا على اللّه لا سواه، واستعانة باللّه لا سواه، أن يعيش الموحد «قل اللّه» قولا بالقال والحال والأعمال «ثم ذرهم» تركا لما سوى اللّه.

و في حقل الإلحاد والإشراك «قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ».

فحين لا ينفع قول الحق لا تترك أنت قول الحق بل «قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ»، وعلى أية حال أثّر القول الحق أمّا أثر ف «قل اللّه» قولا في نفسك وقولا في حقل الدعاية، فعلى الداعية أن يعيش «قل اللّه» دون أن يتركه على أية حال.

ذلك، فقد نرى أن ل«ما أَنْزَلَ اللَّهُ» أعداء جاهرين ظاهرين وآخرين يتقبلونه ولا يقبلون إليه.

فالقائل «ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ» ينكره أولا، يتقلّص ليتخلص منه على طول الخط، ثم يوجه نكرانه بأن اللّه جلّ قدره هو فوق أن ينزل شيئا لهذا الخلق الضئيل.

ثم القائل «أَنْزَلَ اللَّهُ» قد يحرفه كما يحب واقعيا أم دعائيا كما فعله المحرفون الكلم عن مواضعه في كتاب موسى والمسيح عليهم‌السلام، وفعل معهم القائلون أن القرآن محرّف!.

ثم القائل «أَنْزَلَ اللَّهُ» دون تحريف، القائل بأن القرآن هو الدليل الأوّل يتركه قائلا: أين نحن وتفهّم كلام اللّه، إن له أهلا خصوصا لا يحل تفسيره إلّا لهم.

ثم القائل «أَنْزَلَ اللَّهُ» مع التصديق أنه «بَيانٌ لِلنّاسِ» يحمل عليه الآراء تقديسا للأجلاء المفتين بخلافه، فليعن ما عنوه منه!.

و هكذا نرى «ما أَنْزَلَ اللَّهُ» ظليما أسيرا بأيدي الناس النسناس على مدار الزمن الرسالي، فلو أن «ما أَنْزَلَ اللَّهُ» كان هو المحور الأصيل لمدراء شرعة اللّه والمتشرعين بها، دونما حِوَل عنه لم تحصل هذه الخلافات العارمة والاختلاقات المتشتتة.

وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (٩٢):

«وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ» (٤٢: ٧)[1].

.. تلك كتب للماضين، ماضين على مناهجها وغير ماضين «و هذا» القرآن العظيم «كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ» وكلّ كتب اللّه مباركة ولكن أين مبارك من مبارك؟.

فهذا المبارك تتم بركته، وتطم كافة المكلفين في كلّ حقول العلم والمعرفة والعمل الصالح إلى يوم الدين، ثم وليس بدعا من الكتب بل هو «مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ» من كتب الوحي، تصديقا لصادق وحيها وتكذيبا للكاذب من تحريف أو تجديف.

و قد تلمح «بين يديه» إضافة إلى وحدة السلسلة الكتابية للرسل، أن هذا الكتاب ناظر إليها مهيمن

---

[1]. راجع الفرقان ٢٥: ١١٥ تجد تفصيل البحث حول اممية الدعوة القرآنية.

عليها، تصديقا لصادقها وتكميلا، وتكذيبا لكاذبها «مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ» (۵: ۴۸)، ثم: «وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها» فمكة أم القرى في أصل التكوين اعتبارا بالكعبة المباركة حيث دحيت الأرض من تحتها ومكّت، فكلّ القرى طارئة عليها وهي أمها ومخها، فقد اشتقت «مكة» من تمككت العظم أخرجت مخه، فهي مخ الأرض وأصلها ومنشؤا، كما وأنها أوّل بيت وضع للناس: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ».

ذلك وكما أن الأرض هي أم الكرات كلها بمعنى سبقها عليها في خلقها فصبغها بسابغ المكان والمكانة لأصول المكلفين بين العالمين كما فصلت هذه السابقة السابغة في فصلت.

فهي أم القرى الرسالية في الكون كله، أعم مما هي أم القرى الأرضية، تحليقا لواجهتها الروحية الرسالية على مكانات الرسالات كلها أرضية وسماوية.

فلأن «القرى» في حقل الإنذار في القرى الرسالية، وانها جمع محلي باللام وهو يفيد الاستغراق، إذا فمستغرق القرى الرسالية ارضية وسماوية كلها تظل في ظل هذه الرسالة العالمية الكبرى دون إبقاء.

فلئن كان النص «مكة ومن حولها» لكان ظاهرا في الجزيرة العربية، ولكنه «أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها» ف «القرى» الشاملة لكافة المجتمعات المكلفة بالرسالات في الكون كله، تفسّر «من حولها» بمن حول هذه العاصمة الرسالية العالمية.

فسعة «القرى» هي فسحة هذه الدعوة، ولأن «القرى» لا تختص بما حول مكة حيث تشمل ما تسمى قرية في أرض أو في سماء، ف «حولها» تعني نفس «القرى»حيث تشمل ما تسمى قرية في أرض أو في سماء، ف حولها تعنى نفس القرى ومكة أمها كلها، دون مثل الطائف.[1]

بل ان ما حولها طائف على العالمين أجمعين، دون «طائف» ولا طائفة خاصة من العالمين.

فكما يعنى مما حول عاصمة الجمهورية الاسلامية كافة البلاد فيها، ويعنى مما حول عاصمة الدولة المهدوية كافة من في الأرض وسائر المكلفين في أرجاء الكون، كذلك ـ وبأحرى ـ «أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها» في هذه الرسالة السامية، فإن «القرى»التي هي حول «الأم»: العاصمة ـ هي مستغرق المجتمعات من كافة المكلفين من كلّ العالمين من أهل السماوات والأرضين.

هنا وفي الشورى (۷) (لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها» وفي أخرى «لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ»تشملان في ذلك الإنذار كافة البالغين من القرى المكلفة بشرائع الله، وليس الإنذار إلّا بالقرآن كما التذكير «فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ» فلا تختص الدعوة القرآنية بالعرب، أم عرب الجزيرة، ام القرى المجاورة لأم القرى في الجزيرة، بل هي للناس كافة: «وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلّا كَافَّةً لِلنّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً» (۳۴: ۲۸) (قُلْ يا أَيُّهَا النّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً»(۷: ۱۵۸) بل ولكلّ العالمين: «وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ»(۲۱: ۱۰۷).

فقد تصيّد أعداء للإسلام من المستشرقين أن تقصر الدعوة على أهل مكة ومن حولها، مقتطعين آية أم

---

[1]. في تفسير العياشي عن علي بن أسباط قال قلت لأبي جعفر عليهما السلام لم سمي النبي الأمي؟ قال: نسب إلى مكة و ذلك من قول اللّه «لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها» و ام القرى مكة و من حولها الطائف» أقول: هذا تفسير بأقرب المصاديق فلا تضيق به الآية الطليقة الشاملة لكلّ القرى في الكون كله.

القرى من القرآن كله ليخيّلوا إلى البسطاء أن هذه الدعوة كانت في بـدايتها محصـورة بهـؤاء الأميـين ومجاوريهم، ثم توسعت في الجزيرة كلها ثم همّ محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌أن تتخطاها إلى النـاس كافـة وذلـك بعد هجرته إلى المدينة وقيام دولته بها.

و لكنهم تغافلوا عن المعني من القرى في أم القرى، كما تغافلوا ان آيات الأنبياء وسبأ و الأعراف مـن أوليات المكيات بداية الدعوة.

و حين تكون الدعوة الإسلامية للناس وللعالمين كافة، فالمتخلف عنها زعم اختصاصها بغيره خارج عـن الناس وعن العالمين أجمعين، فهو ـ إذا ـ في زمرة النسناس.

و هنا نقول لمثل «الحداد» يا حداد قف على حدك وخفف عن جزرك ومدك فما كتاب اللّه لعبة تلعب بها أنت وأمثالك[1].

فالقرآن هو وسيلة الدعوة الخالدة إلى يوم الدين، دعوة بأهله الرساليين، رسولا وأئمة معصومين، ومن ثم علماء ربانيين دارسين في مدرسة القرآن العظيم، محصورة الدعوة والدعاية في هذا المثلث، إضـافة إلى السنة الشارحة، وكلّ ذلك لمكان «و لتنذر» دون «لينذر» هنا و«فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ» ومـا أشـبه في غيرهـا، فكامل الإنذار هو أن يكون بكتاب معصوم بمنـذر معصـوم أمـن يتلـو تلـوه ويحـذو محـذاه ويرمـي مرماه.

ذلك! فلا تعني «ما حولها» الحول المجاور لها، ولا ـ فقط ـ مشارق الأرض ومغاربها، لأن أم القرى هي العاصمة الكبرى للمملكة الرسالية، ف «ما حولها» تعم كلّ قراها في الكون كله.

و هنا براهين اربعة تثبت وحي القرآن، أولاها «مبارك» حيث يحمل كافة البركات المرجوة من عند اللّه تعالى، فلا تجد بركة ربانية صالحة صادقة إلّا ويحويها ذلك الكتاب المبين والبرهان المتين.

فهو مبارك في صيغة التعبير بلاغة وفصاحة في القمة العليا، مبارك في الدلالة والتدليل، مبارك في وفق الفطرة والعقلية السلمية وقضية الواقع المعاش السليم دون أي دغل أو دخل أو دجل، فلا مزرءة فيه في أي حقل من الحقول، ولا ممسك عليه علميا أو عقليا أو واقعيا أم في أي سؤل أو سؤل للمكلفـين، وفي جملة واحدة «وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّٰهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً».

و ثانيتها: «مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ» فالكتاب غير الإلهي ليس ليصدق الوحي ـ كما لا يصدقه الـوحي ـ ولا يصادقه لاختلاف الصادر والمصدر، فلا يصدّق الوحي إلّا الوحي لتطابق المغزى، وتوافق المعنى.

فسلسلة الوحي الرباني مرتبطة بحلقات متماثلة مهما تفاصلت في طقوس أو تفاضلت، فانها تتفاضل حسب المصالح ولا تتعاضل، وسائر السلسلة غـير متماثلـة وهـي متفاصـلة متعاضـلة، قضـية وحـدة المصدر وطليق العلم هناك، وعديد المصدر وحدّ العلم هنا.

ذلك، كما وأن تصديق الذي بين يديه حجة على أهل الكتاب تحرضهم على الإيمـان بـه، ولا سـيما في الزمن القاحل الجاهل الذي سيطر فيه الجهل، وحرفت كتب الوحي عن جهات أشراعها.

لا سيما وأن القرآن يذكّرهم بما في تلك الكتابات من بشارات في تصريحات وإشارات إلى هذه الرسالة

---

[1]. الأستاذ الحداد البيروتي رئيس مطارنة بيروت هو الذي ألف على إشرافه أربعة عشر كتابا ردا- بزعمه- على القرآن و منها «الكتاب و القرآن» حيث ذكر فيه شطحات مثل أن القرآن دعوة عربية و ليست عالمية.

الأخيرة.
كما وأن بلاغة التعبير وتلائم المعبر عنه دون تصادم ـ حال ان كتبهم أدنى تعبيرا وهي محرفة ـ يدلهم على أنه بأحرى منها في صبغة الوحي وصيغته وصياغته.
و ثالثتها «لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى» حيث إن مسئولية إنذار أم القرى وفيها ألدّ الأقوام في التأريخ الرسالي، هذه بواقعية تأثيره كما حصلت، مما يبرهن على بارع وحيه وقارع وقعته.
و رابعتها «وَ مَنْ حَوْلَها» حيث الرسالة العالمية تتطلب معدات أقوى مما سواها، والنظر الصائب الثاقب يفيدنا أن قابلية هذه الرسالة وفاعليتها تناسب الإنذار الطليق في العالمين أجمعين[1].
ذلك، «وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ» حيث الايمان بالآخرة ايمان بالحساب، فالثواب والعقاب، ولزامه الرسالة الإلهية الحاملة لتكاليف الشرعة الحافلة لسؤ المتشرعين، فلولاها لكانت الآخرة عاطلة، إذا فالإيمان بذلك البعث يوم الأخرى إيمان بالبعث يوم الأولى، ومن ثم إنه هو الداعي إلى أمن شامل في الآخرة بما يبين من شروطات الأمن الواجب تحقيقها يوم الدنيا.
فالمؤن بالآخرة حسابا وثوابا وعقابا يفتش عن أصلح المعدات لحياة سعيدة فيها، وقضية ذلك التحري الصالح هي الوصول إلى كامل الإيمان بالقرآن ورسوله، وكلما كان الإيمان بالآخرة أقوى فذلك التحري أكثر وأقوى، وكلما كان أضعف كان صاحبه أفشل وأغوى.
صحيح أن من قضايا الإيمان بالآخرة هو الإيمان بشرعة سماوية تعم كلّ كتب السماء، إلّا أن صالح الإيمان بعد تحرّف الكتب السالفة ونزول كتاب جديد مهيمن عليها، غير محرف عن جهات أشراعها، إن ذلك يقتضي ـ فقط ـ الإيمان بالقرآن تطبيقا له في كافة ميادين الحياة، مهما كان التصديق بكلّ كتب السماء أيضا من قضاياه، تصديقا لأصل الوحي فيها، وتصديقا لانقضاء دورها، فتصديقا بهذا القرآن كآخر منشور من ولاية اللّه.
فلأن إيمان الكثير من أهل الكتاب بالآخرة قليل ضئيل قصورا منهم وقصورا في كتبهم لتحرفها عن الآخرة، الصالحة للإيمان، لذلك فهم لا يؤنون بالقرآن تصلّبا على شرعتهم القومية، مصلحية الحفاظ عليها بالمنظر الأدنى إخلادا على هذه الأدنى.
أجل وليس الإسلام هو الشرعة الوحيدة التي يؤن بها من يؤن بالآخرة لأنها فقط شرعة التوحيد الصالح والرسالة الصالحة وما أشبه كما يقوله قوالون، إنما هو المهيمن على ما بين يديه من كتاب ومصدق لصادق الوحي فيها، ولا يندد القرآن إلّا بالمحرّف المجدف فيها، فليحذر الكتّاب والقارئون ذلك المزلق الخطير الذي يخيل إلى البسطاء أنه خدمة للإسلام.
«وَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ» لأنها أفضل الصلات إلى مرضات اللّه وأحوط الحياط على حرمات اللّه.
فإفراد الصلاة بالذكر بعد التوحيد والمعاد صراحا والإيمان بالقرآن بينهما، ذلك دليل الأهمية البالغة للصلاة بين كافة الصلات ولكن شرط المحافظة عليها بكلّ المتطلبات المعرفية والعملية فيها، فإنها ـ إذا ـ عمود الدين، وقد اعتبرت إيمانا بين سائر العبادات: «وَ ما كانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ» (٢: ١٤٣) فإنها واردة في حقل الصلاة عند غيار القبلة، كما ولم يعبر عن سائر المعاصي بالكفر وقد عبر به لترك

[1]. لتكملة البحث حول «أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها» راجع تفسير آيتها الثانية ٢٥: ١١٥- ١٢٥.

الصلاة«من ترك الصلاة متعمدا فقد كفر».
هنا تختم هذه الجولة المتلاحقة الأشواط بمشهد شاخص حي مكروب رعيب ـ مشهد الظالمين ـ والله من ورائهم رقيب:
وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللّٰهِ كَذِباً أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَ مَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللّٰهُ وَ لَوْ تَرى إِذِ الظّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ وَ الْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَ كُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣):
هنا عرض لثالوث منحوس من مظالم الافتراء في حقل الوحي، وأنها أظلم الظلم بحق الوحي:
١ ـ (مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللّٰهِ كَذِباً» أنه ما أنزل على بشر من كتاب وما أرسل بشرا رسولا و لا يحيي الموتى ليوم الحساب، وما أشبه من سلبيات وإيجابيات كافرة مفترية على الله، ومن أكفرها اتخاذ الشركاء لله وعبادتها كما الله، وهو مفتاح كلّ فرية على الله.
٢ ـ (أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه بشيء» كسائر المدّعين الوحي بكلّ إدغال وإضلال ودون أي برهان ودليل.
٣ ـ (وَ مَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللّٰهُ» ترفيعا لرتبته إلى مرتبة الربوبية، أو تخفيفا له تعالى إلى خافض منزلة العبيد، وكما قاله مشركون: «لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ» (٨: ٣١).
و هنا الرواية القائلة أن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله كان يمضي ما يغيره بعض كتاب الوحي[1] إنها فرية قاحلة

---

[1]. نور الثقلين ١: ٧٤٥ في اصول الكافي ابو علي الأشعري عن محمد بن عبد الجبار عن صفوان بن يحيى عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أحدهما قال: سألته عن قول اللّه عزّ و جلّ: «وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللّٰهِ كَذِباً ..» قال: نزلت في ابن أبي سرح الذي كان عثمان استعمله على مصر و هو ممن كان رسول اللّه ص يوم فتح مكة هدر دمه و كان يكتب لرسول اللّه (ص) فإذا انزل اللّه «أَنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» كتب «إِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» فيقول له رسول اللّه (ص) دعها فان اللّه عليم حكيم و كان ابن أبي سرح يقول للمنافقين: اني لأقول من نفسي مثل ما يجيء به فما يغير علي فانزل اللّه تبارك و تعالى فيه الذي انزل.
وفيه عن تفسير القمي حدثني أبي عن صفوان عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه (ع) قال: ان عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح كان أخا عثمان من الرضاعة اسلم و قدم المدينة و كان له خط حسن و كان إذا نزل الوحي على رسول اللّه (ص) دعي فكتب ما يمليه عليه رسول اللّه (ص) فكان إذا قال له رسول اللّه (ص): «سَمِيعٌ بَصِيرٌ» يكتب «سَمِيعٌ عَلِيمٌ» و إذا قال: «وَ اللّٰهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» يكتب «بصير» و يفرق بين التاء و الياء و كان رسول اللّه (ص) يقول: هو واحد فارتد كافرا و رجع إلى مكة و قال لقريش: و اللّه ما يدري محمد ما يقول: أنا أقول مثل ما يقول فلا ينكر عليّ فأنا انزل مثل ما ينزل فانزل اللّه على نبيه في ذلك «وَ مَنْ أَظْلَمُ ...» فلما فتح رسول اللّه (ص) مكة امر بقتله فجاء به عثمان قد أخذ بيده و رسول اللّه (ص) في المسجد فقال يا رسول اللّه (ص) اعف عنه فسكت رسول اللّه (ص) ثم أعاد فسكت ثم أعاد فقال (ص) هو لك فلما مر قال رسول اللّه (ص) لأصحابه: ألم أقل من رآه فليقتله فقال رجل كان عيني إليك يا رسول اللّه (ص) ان تشير لي فأقتله فقال رسول اللّه (ص) ان الأنبياء لا يقتلون بالاشارة فكان من الطلقاء».
وفي رواية ابن عباس انه ابن سعد ابن أبي سرح و كان اسلم و كتب الوحي لرسول اللّه (ص) و انه لما نزلت الآية في «المؤنون» «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ» دعاه النبي (ص) فأملاها عليه فلما انتهى الى قوله «ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ» عجب عبد اللّه في تفصيل خلق الإنسان فقال: فَتَبارَكَ اللّٰهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ» فقال رسول اللّه (ص): هكذا نزلت علي ... فشك عبد اللّه حينئذ و قال: لئن كان محمد صادقا لقد اوحي إليّ كما اوحي إليه و لئن كان كاذبا لقد قلت كما قال فارتد عن الإسلام و لحق بالمشركين رواه الكلبي عن ابن عباس.
أقول: في هذه الروايات مس من كرامة الرسالة و امانتها و كرامة الوحي و محتدة فهي من المختلقات الزور أعاذنا اللّه منها.

عليه صلى‌الله‌عليه‌وآله تجهيلا لساحته، ونسبة الخيانة في الوحي إلى سماحته!.
و مما يحير العقول نقل أمثال هذه الأحاديث في كتب التفسير وسواها تصديقا لمحتوياتها دون رعاية لحرمة القرآن ورسوله أو دراية لما يروى!.
و هكذا ابتلي الإسلام بروايات مختلقة تروى وتقع موقع القبول، مناقضة صريحة لكتاب اللّه الناطق بالحق!.
و هذه الآية تندد ـ فيمن تندد ـ بهؤاء المجاهيل الأغبياء، الراوين لأمثال هذه المختلقات الزور، ثم البسطاء الذين يتقبلونها آخذين لها بعين الإعتبار، لا لشيء إلّا لأن فلانا روى وفلانا هوى.
ذلك! وابن أبي سرح المختلق فيه ـ في هذا المسرح ـ ما اختلق، كان ـ لو كان ـ يكتب الوحي في المدينة وآية التنديد مكية، ثم وكيف يستأمن النبي الصادق الأمين مثل هذا الخائن اللعين المصرح بخيانته ثم يقره عليها، ثم هو يرتد بتلك المجاراة الخائنة!.
و هنا نعرف الضرورة القاطعة في عدم الوثوق إلى الروايات شيعية أو سنية ما لم يصدقها القرآن، أم ولأقل تقدير لم يكذبها[1].
ثم «أو» العاطفة بين الأولين دليل اختلافهما، فالمفتري على اللّه الكذب هنا لا يشمل «من قال أوحي إلى ...» مهما كان من المفترين، فالأولون هم المشركون وأضرابهم الذين يفترون على اللّه الكذب، والآخرون هم المدّعون الوحي، فكما أنهم أولاء يفترون الكذب فهم من أظلم الظالمين، كذلك مدعي الوحي ولا يوحى إليه بشيء، فلو أنني: محمد الرسول ـ لم يوح إلي وادّعيه لكنت من أمثالكم في أظلم الظلم.
ثم هنا فرقة ثالثة يدعي مستقبل الوحي وعدا مكذوبا، وهم أنحس من مدعي الوحي كاذبا لمكان «سأنزل» الدالة على إمكانية إنزال مثل ذلك من عند اللّه أم سواه، ويكأنه إله من دون اللّه ينزل وحيا كما هو، أم هو مسيطر على اللّه يستنزله الوحي، أم و يستنزله ممّن سواه، وذلك فرق الوحي المنزل على الرسل حيث ينزل عليهم ولا ينزلون، فإنما المنزل الوحي المنزل على الرسول ليس إلّا منزله، والوسيط فيه هو النازل به، ف «سأنزل» هي دعوى فوق الرسالة ألوهة وسواها.
و قد تلمح «مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللّٰهُ» أنه ينزله ممن سواه، نفسه أم سواه، وذلك من دعوى المماثلة مع اللّه، أن ينزل من الوحي على رسول كما أنزل اللّه على رسوله.
ثم «سأنزل» في وعد الاستقبال لا مستقبل له منذ وعده كما لم يحصل حتى الآن، فقد حاول كثير أن يعارضوا وحي القرآن بما سواه وحتى بسائر وحي اللّه ولن يقدروا: «وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ

---

[1]. فما لم تتقن في دلالة قرآنية لشيء ليس لك نقل حديث فيه او تصديقه، و إذا استفاض أو تواتر حديث عن الرسول ص أو الأئمة المعصومين من ذريته فالموافق للقرآن مصدق مفروض، و المخالف للقرآن مكذب مرفوض، و ما لم تجد له أصلا في كتاب اللّه فالى سنة رسول اللّه (ص) و ما لم تجده فيها مما لا يخالف قاطع العقل و العلم و الحس تصدقه، و حين يخالف واحدا منها لا تصدقه، و غير المخالف و لا الموافق للكتاب و السنة و غيرهما من المقطوع حجيته نتردد فيه و نحمّله على راويه.
إذا فلا يجوز الاستناد الى حديث بمجرد ان ناقله فلان و مصدقه فلتان، حيث الرسول (ص) يحذرنا عن ذلك في خطبته الشهيرة الغرّاء في منى: «لقد كثرت علي الكذابة و ستكثر فمن كذب علي متعمدا فليتبوء مقعده من النار فما جاءكم عني من حديث يوافق كتاب الله و سنتي فانا قلته و ما جاءكم من حديث يخالف كتاب الله أو سنتي فلم أقله».

تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ» (٢: ٢٤).
ذلك، والذين يختلقون ضوابط دون سناد إلى كتاب أو سنة، ثم يرتكنون عليها في إصدار أحكام ينسبونها إلى اللّه، هم كذلك من المفترين على اللّه الكذب، أو القائلين «أُوحِيَ إِلَيَّ ..» أو «سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللّهُ» ومن أشبه ..
«وَ لَوْ تَرى إِذِ الظّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ» «مشهد مفزع مرعب حيث غمرات الموت تغمرهم، وكما كانوا في غمرات الضلالات جزاء وفاقا ونكالا حسابا.
و هنا استعارة لطيفة بارعة حيث شبه الظالمون الذين يعتورهم كرب الموت وغصصه بالذين تتقاذفهم غمرات الماء ولججه، وقد سميت الكربة غمرة لأنها تغمر قلب الإنسان آخذة بكظمه وخاتمة على متنفسه، والأصل في ذلك كله غمرة الماء.
«وَ لَوْ تَرى ... وَ الْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ» لتوفّيهم وهم ماسكون أرواحهم في زعمهم فيقولون لهم: «أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ» عن الحياة الدنيا وعن أبدانكم، أمرا قاطعا لا مرد عنه، فهم الباسطون أيديهم يتوفونهم رغم أنوفهم قائلين: «الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ» كما أهنتم الحق «بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَ كُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ».
ذلك، وإن نفس المؤن تنشط للخروج للقاء ربه، ونفس الكافر تكره الخروج بما قدمت يداه على حد قول الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله: «من أراد لقاء الله أراد الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»[1].
و ل«أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ» إخراجات، منها «أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ» من غامرات العذاب إن كنتم فاعلين، هزءً بهم كما هزءوا بآيات ربهم، أو «أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ» المخلدة إلى هذه الحياة الشرسة المحرجة لعباد اللّه، فاعلين بهم فعلة الغريم الملازم الملحّ، باسطا يديه إلى من عليه الحق.
و على أية حال فالأمر هنا بين تعجيز هازئ وبين تكليف واقع لا يستطيعون أن يتخلفوا عن أمره على إمره.
و مما تدل عليه «أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ» دون «أخرجوا» أن الأنفس هي غير الأبدان مهما كانت وليدة منها وكما قال اللّه تعالى: «ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ» فالروح ـ إذا ـ خلق آخر أنشئ من البدن بعد اكتماله جنينا.
كما تدل «الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ» على الحياة البرزخية ابتداء بالموت حيث اليوم هو يوم خروج الأنفس.
و «الظالمون» هنا هم رؤس الظلم ومنهم المختلقون هذه الأحاديث الزور تشويشا على وحي القرآن، ثم الناقلون لها دونما رد عليها تلقيا بالقبول! مهما كان الأصل هم المشركون، فان واجهة الخطاب من قبل هم المشركون ومن بعدهم أنفسهم: «وَ ما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ ...» (٩۴) ولكن أشباههم يصطلون بصلاءهم في الجحيم.
فكما «الظالمون» شرعة الوحي أدخلوا السذج العوام في غمرات الارتياب، كذلك اليوم يجزون عذاب الهون بما كانوا يقولون على اللّه غير الحق ..
هنا «عَذابَ الْهُونِ» عذاب مع الهوان قضية الافتراء على اللّه كذبا، وتكذيب لآيات اللّه إهانة بها ومهانة

---

[1]. تفسير الفخر الرازي

واستكبارا، فعذاب الهون جزاء وفاق للافتراء الهون والاستكبار فيخلد فيه مهانا.
و هكذا يتوفى الذين كفروا بكلّ إيعاد وهوان: «وَ لَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ. ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ» (٨: ٥١) يضربون وجوههم لمواجهة العذاب، وأدبارهم حين لا يحنّون لخروج أنفسهم، وهذه أولى حرقة لعذاب الهون: «وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ».
وَ لَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ تَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ وَ ما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩۴):
هل الخطاب في «جئتمونا» هو من اللّه؟ والكفار «لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ» (٣: ٧٧)! فليكن من الملائكة نقلا عن اللّه؟ وصالح التعبير ـ إذا ـ «لَقَدْ جِئْتُمُونا ... كَما خَلَقْناكُمْ»!.
«لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ» (٣: ٧٧) إضافة إلى اختصاص السلب بيوم القيامة، لا تعني إلّا كلام العطفة الرحمة، وأما كلام التنديد والزحمة فهم مستحقوها على أية حال، اللّهم إلّا يوم الدنيا حيث لا يواجهون بخطاب إلّا بوسيط الوحي.
«وَ لَقَدْ جِئْتُمُونا» لعالم الحساب والجزاء، فكلنا جاءون إلى اللّه، إلى ربوبيته في عالم التكليف يوم الدنيا، وإلى ربوبية الجزاء في عالم الجزاء، وهنا زيادة أن المكلفين لا خيرة لهم في أعمال، إلّا الجزاء الموعود لهم ثوابا وعقابا.
«جِئْتُمُونا فُرادى» بالخلق الثاني يوم القيامة، فردا عريان وأجرد غلبان، لقد ندّ عنكم كلّ شيء وتفرق عنكم كلّ أحد وما عدتم تقدرون على شيء ممّا خولكم اللّه إياه، فأصبحتم دون أي جمع أو قوة إلّا كلّ بنفسه «كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ» حيث لا جمع ولا قوة، بفارقين اثنين: أن المحافظين من الوالدين وسواهما هنا ليسوا هناك، وأنكم تحملون معكم مستحق الثواب أو العقاب، ف «تَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ ...» تقضي على الأوّل، و كونه يوم الجزاء يحكم بالثاني، وكافة الوسائط المزعومة والشفعاء المتخيلة مقضي عليها ب«تركتم ـ إلى ـ تزعمون».
«تَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ» من قوات ذاتية، وأخرى منفصلة من أموال وبنين وما شأبه، إنها كلها متروكة وراء ظهوركم، حيث ظلت في الحياة الدنيا وضلت عنكم في الأخرى، فما يحولنا اللّه إياه من طاقات وإمكانيات متصلة أو منفصلة هي متروكة لساعينا، أن نتركها وراء ظهورنا إذ لم نستفد منها ولم نفد في مرضات اللّه، أو نقدمها لأنفسنا «وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ» فليس «جئتمونا فرادى وتركتم» إلّا على الأولين، ثم الآخرون يجيئون اللّه بجمعهم الخيّر وعملهم النيّر مما قدموه لأنفسهم.
ثم «وَ ما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ» للّه، أو شركاء في حيوياتكم الدنيوية، وفي عبارة مختصرة محتصرة «لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ» ما بينكم وبين مزاعمكم «وَ ضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ» من شركاءكم وكلّ من يناصركم في غمراتكم.
فالكافرون ـ إذا ـ هم فرادى عن جمعهم وما كانوا يكسبون حيث لا تنفعهم، والمؤنون ليسوا فرادى حيث جمعوا إلى أنفسهم مرضات اللّه ف «يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» (٢۶: ٨٩) وهو أجمع جمع ينفع يوم لا ينفع أي جمع.
و علّ «فرادى» هي جمع «فردان» كسكارى جمع سكران، أو جمع «فريد»كردافى جمع رديف.

ثم الفردان والفريد تعنيان التفرد عن غير أنفسهم، فاضية خاوية عما كانوا يزعمون من جمع وناصرين، فما لهم من جمع هناك ولا ناصرين «لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ...».

و لأنه لا فصائل هناك على الحقيقة فتوصف بالتقطع، فالمراد ـ إذا ـ لقد زال ما كان بينكم من شبكة المودة وعلاقة الألفة، التي تشبه لاستحكامها بالحبال المحصرة والقرائن المؤدة.

فمهما كانت تلك الوصالات هنا أكيدة بكلّ مكر ومكيدة، فهي تبدل إلى انفصالات أكيدة، تقطعا بعد التوصل، وتشتتا بعد التحصّل.

و هنا «بينكم» منصوبا ذات وجهين، نصبا بالمفعولية والفاعل هو اللّه المضمر في «تقطع» أي تقطع اللّه بينكم، أو تقديرا ل«ما» فهي ظرف لها، لقد تقطع ما بينكم.

ثم «ما نَرى مَعَكُمْ» سلب لشفاعتها لهم، لا لكونها معهم في الأخرى ف «إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ. لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَ كُلٌّ فِيها خالِدُونَ» (٢١: ٩٩) فالمعية المنفية هي المناصرة بصفة الشركاء كما كانوا يزعمون، فلا تعني سلب وجود الشركاء معهم هناك خارجة عن معية الإشراك، إلى معية الخلود في النار.

و قد تلمح «كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ» أنه «إذا كان يوم القيامة حشر الناس حفاة عراة عزلا»[1]، وحين يسأل رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله على المحكي: «وا سوأتاه إن الرجال والنساء سيحشرون جميعا ينظر بعضهم إلى سوأة بعض؟ يجيب: «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ» لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال شغل بعضهم عن بعض»[2].

و قد تعني «كَما خَلَقْناكُمْ ..» في خصوص «جِئْتُمُونا فُرادى» فيحشر الناس ـ إذا ـ بأكفانهمأو ما يسترهم من غيرها[3] فان «ما نرى ..»

---

[1]. الدر المنثور ٣: ٣٢- اخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد اللّه سمعت رسول اللّه ص يقول: ...

[2]. المصدر اخرج ابن أبي حاتم و الحاكم و صححه عن عائشة أنها قرأت قول اللّه «لَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ» فقالت عائشة يا رسول اللّه ص: ...

وفيه عن الخرائج و الجرائح عن النبي (ص) حديث طويل يذكر فيه فاطمة بنت اسد و فيه قرأت عليها يوما «وَ لَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ» فقالت: وا سوأتاه باللّه فسألت اللّه أن لا يبدي عوراتها ثم سألتني عن منكر و نكير فأخبرتها بحالهما قالت وا غوثاه باللّه فسألت اللّه ان لا يريهما إياها و ان يفسح لها في قبرها و ان يحشرها في أكفانها».

وفيه عن اصول الكافي عن أبي عبد اللّه (ع) حديث طويل يحكي فيه ما صنع رسول اللّه (ص) بفاطمة ام امير المؤنين (ع) لما توفيت يقول فيه (ع) قال (ص): و اني ذكرت يوم القيامة و ان الناس يحشرون عراة كما ولدوا فقالت وا سوأتاه فضمنت لها ان يبعثها اللّه كاسية و ذكرت ضغطة القبر فقالت: وا ضعفاه فضمنت لها ان يكفيها اللّه ذلك فكفنتها بقميصي و اضطجعت في قبرها لذلك.

[3]. المصدر في الكافي بسند متصل عن أبي عبد اللّه ع قال: توقوا في الأكفان فانكم تبعثون بها، وفيه في الفقيه قال (ع) جيدوا أكفان موتاكم فانها زينتهم، وفيه عن الاحتجاج عن امير المؤنين (ع) حديث طويل و فيه قال السائل: اخبرني عن الناس يحشرون يوم القيامة عراة؟ قال: بل يحشرون في أكفانهم، قال: أنّى لهم بالأكفان و قد بليت؟ قال: ان الذي أحيى أبدانهم جدد أكفانهم، قال: فمن مات بلا كفن؟

قال: ستر اللّه عورته بما يشاء من عنده، قال: فيعرضون صفوفا؟ قال: نعم هم يومئذ عشرون و مائة الف صف في عرض الأرض.

تسلب ما ينفع يوم لا ينفع مال ولا بنون، أم إن المؤنين يحشرون بأكفانهم احتراما وغيرهم عراة اختراما، وهذا قول فصل بين مطلق السلب والإيجاب يؤده اختصاص الخطاب بالكافرين.
ذلك المشهد الذي يهز القلب هزا عنيفا وهو يشخص ويتحرك ويلقي ظلاله على النفس ويسكب إيحاءاته في القلب .. إنه منشور ولاية اللّه، إنه القرآن العظيم الذي هم عنه معرضون، فأين تذهبون وأنى تؤكون؟ أ إفكا آلهة دون اللّه تريدون.
إِنَّ اللّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذلِكُمُ اللّهُ فَأَنّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فالِقُ الْإِصْباحِ وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْديرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِباً وَ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ وَ جَنّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمّانَ مُشْتَبِهاً وَ غَيْرَ مُتَشابِهٍ انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَ يَنْعِهِ إِنَّ فِي ذلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) وَ جَعَلُوا لِلّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ وَ خَلَقَهُمْ وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَنّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ(١٠٤) وَ كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ وَ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَ لِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَ لَوْ شاءَ اللّهُ ما أَشْرَكُوا وَ ما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧) وَ لا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّوا اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذلِكَ زَيَّنّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨)

درجات الوحى إلى اولى العزم بوحدة الرسالة

«شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ» (١٣).
هذه الآية توحّد الدين الحق وتخمّس الشرائع إليه، وفي الحق إنها تحقق حقائق عدة عديمة النظير أو قليلته في الذكر الحكيم.
منها أن دين اللّه واحد والشرائع إليه خمس، وقد توحيه «.. لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ[1] شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً. وَ لَوْ

---

[1]. «منكم» هنا كافة المكلفين طوال تاريخ الرسالات لا الأمة الإسلامية إذ ليست لها إلا شرعة واحدة هي الإسلام.

شاءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» (۵: ۴۸)[۱] وقد يعبر عن الدين بالأمر حيث الدين هو الطاعة وهي ائتمار الأمر: «وَ آتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ. ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ»(۴۵: ۱۸) كما وفيما يهدد ويندّد بالمشركين يربط أيّة شرعة من الدين بإذن اللّه: «أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللّهُ ..» (۴۲: ۲۱). وفي آية الشرعة تشريف لهؤاء الخمسة من الرسل الذين دارت عليهم الرحى و كما في آية الميثاق: «وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً. لِيَسْئَلَ الصّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً (۳۳: ۸) وهؤلآء هم أولوا العزم من الرسل: «فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ»۴۶: ۳۵)[۲].

و قد سبقت إلى هذه الوحدة الجذرية الإشارة في مطلع السورة:

«كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» إذ كانت إيحاء إجماليا إلى وحدة المصدر والصادر ووحدة المنهج والناهج والاتجاه في الدين كل الدين، وهنا يفصل ما أجمله من قبل.

«شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصّى ..» توحي فيما توحي أن هذه الشرائع الخمس مثل بعض مصدرا، وكذلك صادرا، في الجذور وكثير من الفروع، فالشرعة الإسلامية هي شرعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى مهما اختلفت في ظواهر طقوس أم ماذا؟. حقيقة الأصل الواحد والنشأة الضاربة في أعماق الزمان وأصوله، فكلّ من حملة الشرائع الخمس امتداد رسالي لما سلفه، وكما أن الكل لهم شرائع من دين واحد، إذا ففيم يتقاتل ويتضارب أتباع كل شرعة مع الأخرى أو ومع شركائها في نفس الشرعة، ولماذا لا يتضامّ الجميع ليقفوا تحت الراية الواحدة التي تحملها رسالة واحدة إلى إله واحد، وأخيرا لماذا لا يجتمع الكل تحت الراية المحمدية التي تشمل الدين كله والشرائع كلها؟ وهي هي الراية التي قدم لها ولرفعها الأربعة الأوّلون؟!.

فهنالك دين وأمر واحد، وهنا وهناك شرعة وشرعة إلى خمس من الدين الأمر، فلأن اللّه واحد فدينه وأمره واحد ورسالته كذلك واحدة والمكلفون كذلك أمة واحدة لهذه الرسالة الواحدة مهما اختلفت قشور وصور من شرعة وجاه شرعة: «يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ. وَ إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ. فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما

---

[۱]. ان الدنيا دار بلاء و ابتلاء و الدين ابتلاء، و اختلاف الشرعة ابتلاء، و على المسلم للّه في هذا البين ان يستسلم لشرعة اللّه دون ان يثّاقل الى ما تعوّد عليه من شرعة عنصرية أو إقليمية أم ماذا!«اسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ» و هي شرعة اللّه الجديدة بعد التي مضت، استبقوا في الحصول عليها تسابقا في تصديقها دون تباطئ، كما و هي داخل الشرعة ان تتسابقوا في تعلم خيراتها و التأدب بها و التخلق و التطبيق و نشرها، «إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً» فاللّه واحد و دينه واحد و الرسالة لهذا الدين الواحد واحدة و أنتم امة واحدة مهما اختلفت الشرائع الى هذا الدين الواحد.

[۲]. راجع ج ۲۶ من الفرقان ص ۷۳ تفسير آية اولي العزم.

لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ. فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتّى حِينٍ» (٢٣:) ٥٧).
إن الشرعة هي الطريقة الواضحة البينة حيث توصل متشرعها إلى غايته القصوى وهي دين اللّه وأمره، أمره والائتمار به، وكما الدين هو للّه ومن اللّه كذلك المشرع الشرعة إليه هو اللّه، وكما اختلاف العبادات أم ماذا صوريا في شرعة واحدة ينحو منحى هذه الشرعة، كذلك الاختلاف بين شرعة وأخرى لا ينحو إلّا منحى دين واحد هو الأمّ للشرائع كلها، فمهما اختلفت الصور ضرورة أو ابتلاء فالجذور واحدة هي الطاعة لأمر اللّه.
و ترى من هم المخاطبون في «شَرَعَ لَكُمْ» أهم الحاضرون زمن الوحي؟ وهم شرذمة قليلة من المكلفين طوال الزمن! وليست الشرعة منهم إلى سواهم! فإنما هي للعالمين، إذا ف «كم» هم أم القرى ومن حولها دون اختصاص بالحاضرين، وإنما الخطاب صادر من مصدر رب العالمين، فوارد ـ كقضية حقيقية ـ مورد العالمين أجمعين، ضاربا إلى اعماق الزمان والمكان أيا كان منذ بزوغه إلى يوم الدين.
ثم ولماذا «شرع» المفرد الغائب ـ للّه ـ و«لكم» الحاضر للعالمين؟
علّه لان وحي الشرع غائب عن العالمين، وأما العالمون فعليهم الحضور علميا وعقائديا وأخلاقيا وتطبيقيا للوحي الشرع، فهو غائب الصدور وحاضر الورود، ثم ولأن في خطابهم دون الآخرين تشريفا للأمة المحمدية على الأمم بما أن شرعتهم برسولهم أشرف من سواها وسواه.
و إذ توحي غيبة الفعل «شرع» بغياب الوحي، فهل توحي «وَصّى بِهِ نُوحاً» أن وحي الشرعة إلى نوح كان وحيا غائبا عنه؟ فكيف إذا هو نبي!.
إن الغيبة هنا غير الغيبة هناك، ففي «شَرَعَ لَكُمْ» غيبة الوحي حقيقة إذ لم يوح القرآن إلى العالمين دونما وسيط، وأما في «ما وَصّى بِهِ نُوحاً» فوحي حاضر إلى قلب نوح عليه‌السلام ولكنه لبساطته أمام سائر الوحي إلى الاربعة الآخرين، وعلوّه لهم دونه، كأنه من غائب الوحي، كما وأن سائر الوحي وجاه الوحي إلى محمد كأنه ليس وحيا، وإنما هو وصية حال أن الكل وحي حيث الكل أنبياء عظام عليهم دارت الرحى.
هنا نستوحي من مثلث التعبير: «ما وصى ـ والذي أوحينا إليك ـ وما وصينا» درجات ثلاث لوحي الشرعة إلى اولى العزم الخمسة، فأوسطها أعلاها وأولاها أدناها[1] وآخرها أوسطها.
في سائر القرآن حيث يذكر الوحي إلى أصحابه الخصوص إنما يؤى بصيغة الوحي حيث المقصود أصله دون درجاته بالقياس إلى بعض: «إِنّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَيْنا إِلى

---

[1]. تمتاز صيغة التعبير عن الوحي الى محمد صلى اللّه عليه و آله و سلم على نوح بميزات اربع:
١- (الذي» بدلا عن «ما» دلالة على ضخامة الوحي على محمد دونه على نوح.
٢- حضور الوحي في «إليك» و غيابه في «وصي».
٣- جمعه في «أوحينا» و إفراده في «وصى».
٤- لفظة الوحي في «أوحينا» و الوصية في «وصى».
كما تمتاز صيغة الوحي على الثلاثة الآخرين عن نوح بالجمع و الحضور في «أوحينا» و ان كان حضور «نا» أوفى من حضور «إليك» فيمتاز إذا وحي محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) على الثلاثة ب «الذي» «أوحينا» «إليك» حضوران في أوحينا إليك إضافة إلى الوحي و الذي.

إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ عِيسى وَ أَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هارُونَ وَ سُلَيْمانَ وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً. وَ رُسُلًا قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً» (۴: ۱۶۳) حيث جمع بين سائر الوحي إلى سائر المرسلين لأن المقام مقام استعراض أصل الوحي إلى أصحابه لا التفاضل فيه.

و أما آية الشرعة حيث تبين الشرائع الخمس إلى أولي العزم الخمسة فهي تستعرض في إشارات مراتب الوحي، فتعبّر عن وحي القرآن بالوحي، ثم عن سائر الوحي إلى الأربعة الآخرين بالوصية.

فالوصية هي التقدم إلى الغير بما يعمل مقترنا بوعظ، وهي لم تستعمل في سائر القرآن في الوحي اللهم إلّا بدائيا كما أوحي إلى المسيح في المهد صبيا: «وَ أَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا» (۱۹: ۳۱) حيث المسيح لم يكن حينذاك نبيا وإنما نبئ بهذا ذودا عن أمه الطاهرة وبشارة بنبوته الآتية، إذا فهذه الوصية كانت وحيا قبل الرسالة، وعلّها كما أوحي إلى أم موسى أم ماذا؟.

هذا! ثم اللهم إلّا آيتنا هذه حيث قارنت بين الوحي على محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله ـ وهو في أعلى القمم ـ وبين الوحي إلى سائر أولي العزم من الرسل، فعبرت عن الأول بالوحي «الَّذِي أَوْحَيْنا» وعن الثاني بالوصية «وصى ـ وصينا» إيحاء بمدى البون بين الوحين، وكما عبر عن الوحي على أولهم «نوح» عليه‌السلام بالمفرد الغائب وعن الآخرين بالجمع الحاضر إيحاء بالبون بين هذين أيضا كما بينهما و بين الأول.

«شَرَعَ لَكُمْ .. أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» إنه ما شرع هذه الخمس حتى تتشجروا متفرقين، وإنما «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ» بكل شرعة في دورها «وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» ف «لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً .. لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ ..» (۵: ۴۸) فلكل شرعة دور يجب على المكلفين كافة إتّباع الشرعة الحاضرة، لا متابعة الغابرة تعّودا عليها أو تعصبا عنصريا أم ماذا؟ فإن إقامة الدين في كل دور هي إقامة طاعة اللّه في أمره الحاضر، في شرعته الحاضرة، فالتصلّب على الغابرة عصيان للأمر وتضييع للدين.

فالتفرق في الدين: إلى هود ونصارى ومسلمين راحة للمشركين، حيث يروننا أمثالهم في تفرق الدين، متضادين متفرقين أيادي سبا كما هم، و«كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ» من وحدة الدين! وترى المخاطبون في «أَقِيمُوا الدِّينَ» هم المسلمون؟ و هم مسلمون لا يتفرقون! ام هم عامة المكلفين؟ فإقامتهم للدين أن يقيموه في شرعته، أن يتبع الكل في كل دور شرعته الواحدة، فالترسب على شرعة سابقة نكرانا للّاحقة تضييع للدين الأمر والطاعة، فإنهما الآن في الشرعة الحاضرة دون الغابرة ف «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ» (۳: ۱۹) وقضية التسليم لأمر اللّه وطاعته السليمة هي الاجتماع على شرعة حاضرة للدين دون اختلاف.

فليس إقامة الدين في إقامة أصوله، والفروع متشجرة، حيث الدين يعم الأصول والفروع، فعلى المكلفين عامة أن يقيموا الدين كله في الشرعة الحاضرة: أن يتضامّ الجميع تحت راية واحدة: نوح ثم ابراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمد صلوات اللّه عليهم أجمعين، ولا يتفرقوا في الدين، حيث التفرق في الشرائع تفرق في الدين الطاعة الى المعصية.

«كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ» يا محمد! من وحدة الدين ودينك الموحد بين صفوف المكلفين، سواء أ كانوا مشركين وثنيين أم كتابيين متحزبين: «.. وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» (۳۰: ۳۲).

كبر على المشركين الأولين أن ينزل عليك القرآن ولا ينزل على رجل من القريتين عظيم! كبر عليهم ان ينتهي سلطان الشرك المفرّق الى سلطان الإسلام الموحّد!: «أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب» (٨٨: ٥).

كبر عليهم القول: إن آباءهم ماتوا على ضلالة الجاهلية فأخذتهم العزة بالإثم! ثم كبر على المشركين الآخرين، على المتعصبين المتعنتين من أهل الكتاب، أن ينزل هذا الدين على رجل إسماعيلي، لا إسرائيلي، فتضمحل السلطات الإسرائيلية العنصرية، و السلطات المسيحية القومية أم ماذا.

و لكن رغم أولاء وهؤلآء وأضرابهم «اللّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ» وقد اجتبى محمدا صلى‌الله‌عليه‌وآله واصطفاه لهذه الرسالة السامية، وليفتح الطريق الأخيرة والشرعة الأبدية الى الدين المتين، ويهدي به اللّه من ينيب.

وَ ما تَفَرَّقُوا إِلّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١۴).

«وَ ما تَفَرَّقُوا» في الدين: ابراهيمين ـ هودا ـ نصارى أم من ذا ـ رغم وحدة الدين: الأمر و الطاعة «إِلّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ» بوحي الكتاب أن كل شرعة بعد أخرى هي شرعة من ذلك الدين، تتفق مع بعض في جذور واحدة، والشارع لا يرتضي في كل دور من الخمس إلّا شرعة واحدة.

فما تفرق الذين أوتوا شرعة من الدين إلّا بغيا بينهم، اللّهم إلا القاصرين الأتباع منهم: «وَ ما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ» (٩٨: ۴) (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ.(۶:۱۵۹).

إن التفرق في الدين شرك وتمزّق من سنة المشركين، والواجب الجماهيري لعامة المكلفين إقامة الوجه للدين فطرة وشرعة «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ. مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» (٣٠: ٣٢).

إن دين الفطرة ودين الوحى الشرعة متجاوبان في تلائم تامّ، فالتحزب في شرعة الدين تخلّف عن دين الفطرة ودين اللّه.

صبغة الوحى الى انبياء الله

و لكي يعلم أن الوحي سلسلة موصولة واحدة من إله واحد مهما اختلفت فيه بعض المظاهر ينبهنا ربنا:

إِنّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ عِيسى وَ أَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هارُونَ وَ سُلَيْمانَ وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً (١۶٣).

فالوحي الرسالي في أصله واحد مهما تكثر في فصله ونسله قضية مختلف الحاجات و الظروف، وهنا «النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ» يعم إلى سائر اولي العزم وهم إبراهيم وموسى وعيسى، من دونهم من أصحاب السمو الرسالي كإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وأيوب ويونس وهارون وسليمان وداود، فهؤلاء

التسعة هم في الدرجة الثانية من الوحي، ومن ثم من «لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ» ومن ثانية الدرجة الثانية اثني عشر نبيا ذكروا في سائر القرآن، ويعرف محتد كلّ في رسالته ونبوته من الآيات التي تحمل ذكراهم بهداهم.

و ذكر نبينا محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله أولا وهو آخرهم مبعثا لأن القصد ذكر النبوة الأصيلة التي يرأسها نبينا، ومن ثم نوح وهو أوّل النبيين من أولي العزم مهما سبقه نبي كادريس، والمشابهة بين الوحي إلى اوّل النبيين الأصلاء وآخرهم تعني أنهم سلسلة موصولة واحدة من منبع واحد، موكب واحد يترائى على طريق التاريخ الرسالي المتواصل المتآصل، يضم هذه الصفوة المختارة من شتى الأقوام وشتى البقاع في شتى الأمصار والأعصار.

ذلك وفي هذا التشبيه الجماعي: «أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ»حيث الممثل به كل وحي رسالي قبل الوحي إلى نبينا، فيه دليل أنه «جمع له كل وحي»[1] بلا إبقاء، فقد أوحى إليه صلى‌الله‌عليه‌وآله كل ما أوحى الى كل أنبياءه ورسله وله زيادة تحمل خلود رسالته.

ذلك لأن أقل ما يحمله هذا التشبيه كمّ الوحي وكيفه، ومن ثم كم وكيف هما رمز الخلود في هذه الرسالة الأخيرة.

و ترى كم عديد «رُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ»؟ المستفاد من آيات النبوة والرسالة؟ ان عديد الرسل أكثر بكثير من النبيين، مهما اختلفت الروايات في عدد كلّ منهم.

و «الأنبياء» في بعضها تعمها بتأويل كونها جمعا لكلا النبىء والنبيّ لا سيما وأن الرسل فيها أقل ذكرا بينهم، فالمعني منهم أصحاب الرسالات العظيمة أنبياء وسواهم[2].

وَ رُسُلًا قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً (۱۶۴).

«من قبل» هنا تعني قبل هذه الآية، ثم «لَمْ نَقْصُصْهُمْ» تعم من قصهم اللّه عليه من بعد و من لم يقصصهم لا قبل ولا بعد، حيث القرآن ليس كتاب القصة كأصل، وإنما يقص من تأريخ الصالحين والطالحين ما يصلح عبرة لهذه الأمة.

و قد يلمح تخصيص موسى عليه‌السلام بالذكر هنا بأنه يحمل أهم النبوات بعد نبينا، وقد أدرج إبراهيم

---

[1]. نور الثقلين ۱: ۵۷۳ في تفسير العياشي عن زرارة و حمران عن أبي جعفر و أبي عبد اللّه عليهما السّلام قال: «إِنّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ» فجمع له كل وحي.

[2]. الدر المنثور ۲: ۳٤٦- أخرج بعدة طرق عن أبي ذر قال قلت يا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله سلّم كما الأنبياء؟

قال: مائة ألف نبي و أربعة و عشرون ألفا قلت يا رسول اللّه كم الرسل منهم؟ قال ثلاثمائة و ثلاثة عشر جم غفير ثم قال يا أبا ذر أربعة سريانيون آدم و شيت و نوح و خنوخ و هو إدريس و هو أول من خط بقلم و أربعة من العرب هود و صالح و شعيب و نبيك و أول نبي من أنبياء بني إسرائيل موسى و آخرهم عيسى و أول النبيين آدم و آخرهم نبيك.

أقول: و فيه في حديث أبي أمامة عنه (صلى الله عليه و آله سلم) «و خمسة عشر» بدلا عن ثلاثة عشر.

وفيه عن أنس قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله سلم) كان فيمن خلا من إخواني من الأنبياء ثمانية آلاف نبي ثم كان عيسى ابن مريم ثم كنت أنا بعده».

أقول: لعله يعني أكابر من أوحى إليهم لا كلهم.

وعيسى وقبلها نوح درج سائر النبيين المذكورين.
«كلم اللّه موسى تكليما» بلا جوارح وأدوات ولا شفه ولا هوات سبحانه وتعالى عن الصفات.
رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلّا يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَ كانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١۶۵).
قصصنا أم لم نقصص «رسلا» هم سواء في كونهم «مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ» كما حمّلوا، وذلك التبشير والإنذار الرسالي «لِئَلّا يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ»
إذ كانوا يحتجون على اللّه لو لا الرسل: «وَ لَوْ أَنّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزى» (٢٠: ١٣۴) ـ (وَ لَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (٢٨: ۴٧) (وَ ما كُنّا مُعَذِّبِينَ حَتّى نَبْعَثَ رَسُولًا» (١٧: ١۵)[1].
صحيح أن العقل رسول في الأنفس كما الشعور في أنفس الحيوان مهما اختلفت الدرجات، ولكنما المسؤلية التي تحملها رسالة الوحي الآفاقية لا يحملها رسول العقل، فلا يهلك بعذاب الاستئصال من لم يأتهم رسول مهما كانوا مسئولين بما يحمله رسول العقل ويحمّلهم إياه.
و من ثم فنفس الضلال لولا رسالة الوحي خزي وذل لمثل الإنسان الذي خلق في أحسن تقويم، فمع الغض عن سلب المسؤلية لولا الرسالة، هنا حجة لهم على اللّه لماذا لم يرسل رسلا «فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»
«و لا أحد أحب إليه العذر من الله ولذلك بعث الرسل مبشرين ومنذرين»[2].
«وَ كانَ اللّهُ عَزِيزاً» قادرا على إرسال الرسل فلما ذا لا يرسل «حكيما» في مادة الإرسال ونوعيته فلما ذا لا يرسل، فعزته تعالى وحكمته حجة عليه من الناس لو لم يرسل رسلا مبشرين ومنذرين، ولذلك كله:
«فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبيائه ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسيّ نعمته ويحتج عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويروهم آيات القدرة، من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تحييهم، وآجال تفنيهم، وأوصاب تهرمهم، وأحداث تتابع عليهم، ولم يخل اللّه سبحانه خلقه من نبي مرسل، أو كتاب منزل أو حجة لازمة، أو محجة قائمة، رسل لا تقصر بهم قلة عددهم، ولا كثرة المكذبين لهم، من سابق سمى له من بعده، أو غابر عرفه من قبله، على ذلك نسلت القرون ومضت الدهور وسلفت الآباء وخلفت الأبناء إلى أن بعث اللّه نبيّه محمدا صلى‌الله‌عليه‌وآله[3].
و صحيح أن للّه الحجة البالغة في الآفاق والأنفس بما منحهم من الفطر والعقول، ولكنه سبحانه رحمة

---

[1]. لتفصيل البحث حول حجة الرسالة راجع تفسير هذه الآية في سورة الأسرى ج ١۵ الفرقان.

[2]. الدر المنثور ٢: ٣۴٨- أخرج أحمد و البخاري و الترمذي و النسائي و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن مسعود قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله سلّم لا احد أغير من اللّه من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها و ما بطن و لا أحد أحب إليه المدح من اللّه من أجل ذلك مدح نفسه و لا أحد أحب إليه العذر ...

[3]. نور الثقلين ١: ۵٧۶ في نهج البلاغة قال عليه السّلام: فبعث ..

لعباده، وتقديرا لكون خلقه في أحسن تقويم، ولغلبة الشهوات على ذلك الحسن القويم، اقتضت رحمته التي كتبها على نفسه أن يرسل إليهم «رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ» يذكرونهم ويبصّرون محاولة استنقاذ فطرهم وتحرير عقولهم من ركام الشهوات التي هي حجابات عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الآفاق والأنفس.

و دور العقل بين رسالات الوحي الآفاقية والأنفسية هو دور الوسيط بين الفطرة والشرعة الربانية، وكما أمرنا بإقامة وجوهنا للدين حنفاء «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها» (٣٠: ٣٠).

فبالفطرة والعقل تعرف شرعة اللّه، ثم في تجاوب صالح بينهما يتعرف إلى مرماها ومغزاها، دون استقلالية بجنبها ولا استغلالية بها، فإنما هو التسليم السليم أمام وحي الشرعة الربانية، المكملة لوحي الفطرة والعقلية الإنسانية.

تعدد شرايع الدين للإبتلاء

وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً وَ لَوْ شاءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨).

... بعد إنزال الكتاب إلى الرسولين العظيمين موسى والمسيح عليهم‌السلام «وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ»بجمعية الصفات المفيضة عليك يا خاتم النبيين ذلك «الكتاب» القرآن الناطق بالحق المطلق المطبق والتعبير عن القرآن ١٠.

ب«الكتاب» كأنه يستغرق كل كتابات الوحي فإنه مستغرق كلما أراد اللّه أن يقوله للمكلفين إلى يوم الدين، دون «القرآن» أو «هذا الكتاب ـ و ـ هذا القرآن»، ذلك ليدل على أنه هو الكتاب الجامع لكل كتاب، كما أن رسوله يجمع في نفسه ميزات الرسل كلهم وزيادة.

«أنزلنا» حال كونه «مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ» النازل على الرسولين ومن قبلهما من الرسل «وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ» فالتصديق لكتب السماء لا يحمل إلّا تصديقا لنزولها بالوحي، ثم الهيمنة عليه ـ التي لا تحملها إلّا هذه الآية، اللّهم إلا آية الحشر للّه «المهيمن» (٢٣) هي الحيطة الحفيظة الرقيبة الشهيدة الكتابية، فكما اللّه مهيمن على خلقه كلهم، كذلك كتابه الأخير مهيمن على كتبه كلها حيطة وشهادة ورقابة أمّاهيه من أبعاد الهيمنة.

فمن هيمنته عليها الحفاظ على أصولها الثابتة التي لا تتغير في أية شرعة، ومنها نسخ ما يجب نسخه حكما يناسب كل الأجيال إلى يوم القيامة فإنه نسخ للأحكام المؤتة، أو نسخ إلى مثل المنسوخ أو خير منه «ليبلوكم»: «ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها» (٢: ١٠٦)[١] .. وكما منها تبيين ما

[١]. نور الثقلين ١: ٦٣٨ في كتاب الاحتجاج عن معمر بن راشد قال سمعت أبا عبد الله ع يقول: قال رسول الله (ص) و قد ذكر الأنبياء صلوات الله عليهم، «و ان الله عز و جل جعل كتابي المهيمن على كتبهم الناسخ لها ..» و فيه في روضة الكافي بسند متصل عن علي

حرف منها: «قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ...» (۵: ۱۵) ـ
«إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ. وَ إِنَّهُ لَهُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» (۲۷:) ۷۶).
و في جملة مختصرة «إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ...» (۱۷: ۹)
فمهما كانت كتب السماء كلها قيّمة، ولكنها ليست إلّا لردح خاص من الزمن وأهليه، لا تصلح لإقامة المكلفين إلى يوم الدين، لكلّ قوامة معينة لهم من رب العالمين.
و ترى حين يكون كيان القران ـ العام ـ الهيمنة الطليقة على كل كتابات السماء، أفلا يكون مهيمنا على نفسه بيانا وتبيانا، أم لا يكون مهيمنا على ما يروى عن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله والأئمة المعصومين من آله عليهم السلام.
أجل، وكما اللّه مهيمن على الكائنات كلها دون شريك ولا معين، كذلك قرآنه العظيم له الهيمنة الطليقة المطبقة العميقة على الوحي كله دونما ندّ ولا شريك، وما السنة المحمدية صلى‌الله‌عليه‌وآله إلّا شرحا هامشيا له دونما استقلال له ولا استغلال، فضلا عما سواها من شهرة أو عقلية أو إجماع، فضلا عن قياس أو استحسان أو استصلاح فإنها كلها بجنب القرآن هباء منثور، فلا حجة قيّمة معصومة إلّا القرآن، أو ما وافقه من المروي عن معصوم.
أجل، فالهيمنة القرآنية هي الوحيدة غير الوهيدة بين كتب السماء، كما أن هيمنة اللّه هي الوحيدة بين كل الكائنات، لا توازى ولا تسامى.
ذلك، ومن لزامات الهيمنة القرآنية عدم تحرّفه بجنب خاتميته، وعدم غموضه في ظواهره ورموزه، فإنه بيان للناس ونور مبين، فلا هيمنة طليقة على الوحي كله إلّا للوحي الأخير، الثابت كما أنزل بلا تحوير أو تغيير، حيث المحرّف بحاجة إلى هيمنة فلا يكون ـ إذا ـ مهيمنا لما سواه.
و قضيته الهيمنة الطليقة القرآنية فالحاكم بالقرآن مهيمن على الحكم كله وعلى الحكام كلهم: «فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ» المطلق المهيمن المطبق «فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ» وهم كل الملل الكتابية والمسؤلون أمام كتب السماء «بِما أَنْزَلَ اللّهُ» في هذا القرآن، فإنه يحمل كل ما أنزله من قبل وما يحتاجه المكلفون إلى يوم الدين.
«وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ»: تجاوزا عما جاءك من الحق إلى أهواءهم، و تراه بالإمكان أن يتبع أهواءهم عما جاءه من الحق؟
كلّا ولكن لتستأصل أهواءهم فيه بمحاولة استهوائه بما وعدوه.
و هنا «عَمّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ» تحقق له أن يحكم لهم بما أنزل اللّه في شرعته ومنهاجه، فلئن اختلف حكم التوراة عما فيها لم يحكم إلّا بما أنزل اللّه فيها دون التوراة، وإذا توافقا فالحكم متوافق بين الشرعتين والمنهاجين.

بن عيسى رفعه قال: «ان موسى (ع) ناجاه ربه تبارك و تعالى فقال في مناجاته أوصيك يا موسى وصية الشقيق المشفق بابن البتول عيسى ابن مريم و من بعده بصاحب الجمل الأحمر الطيب الطاهر المطهر فمثله في كتابك إنه مؤن مهيمن على الكتب كلها...».

ذلك، ف «فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ» يحلّق حكمه الرسالي على الملل الخمس أن يحكم بينهم «بِما أَنْزَلَ اللّٰهُ» من شرعته ومنهاجه، فلم يخير من ذي قبل بين الحكم وتركه: «فَإِنْ جاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ» إلّا تخيّرا بين الحكم بما أنزل اللّٰه عليه أو تركه إطلاقا حين لا يصدقونه، ثم «وَ إِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ» وليس القسط هناك إلّا «ما أنزل الله»هنا، لا سيما وأن حكم الرجم أم سواه كان متحدا بين التوراة وشرعة القرآن.

فليس للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله أن يحكم في التحاكم إليه بين غير المسلمين بحكم يخالف شرعته ومنهاجه لمكان النسخ.

فأنت أنت الحاكم المطلق بين الكتابيين أجمعين، فان شرعتك هي الدين كله: «لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً» «لكلّ» من المذكورين وهم اهل الملل الثلاث اليهود والنصارى والمسلمين، ومن غير المذكورين وهم أمة نوح وإبراهيم عليهم‌السلام، فالمخاطبون هنا هم كافة المكلفين على مدار الزمن الرسالي كله في مثلث الزمان، ان تحكم على كل ملة رسالية شرعة واحدة في مجالتها.

اجل ليس المخاطبون الفرق الكتابية في زمان واحد، فإن كل شرعة من الخمس تحلق على كافة المكلفين في زمنها، دون أن تعدوا شرعة إلى زمن أخرى اختلاقا للاختلاف المرفوض في دين اللّٰه حيث «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ...»(۴۲: ۱۳).

و مهما كان الدين في أصله واحدا ولكن شرائع الدين تختلف في بعض الطقوس والشكليات، فلو أن شرائع الدين كانت متحكمة في كل زمان لكان الاختلاف لزاما للديّنين، رغم أن الوحدة هي المقصودة دون خلاف: «وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ ...» (۱۱: ۱۱۹).

و لو صح تقارن الشرائع لبطلت الدعوة القرآنية الموجهة إلى أهل الكتاب بل وسواهم لو كانوا مؤّرين بشرعة الدين المحكّمة عليهم من ذي قبل، وبطلت الدعوة الإنجيلية الموجهة إلى اليهود وسواهم، وبطلت الدعوة التوراتية.

فالشرائع الخمس على مدار الزمن الرسالي في ولاية العزم الرسولي، كلّ متحكم لردح من الزمن دون أي تقارن.

لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً ...

و هل ان ضمير الجمع المكرر مرات تسع يعني كل واحد من المكلفين؟ «وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها» (۳۲: ۱۳) تحيله!.

أم يعني الأمم الكتابية الحاضرة زمن الخطاب؟ ولا أممية كتابية في زمان واحد، وليس الجعل الرباني لكل شرعة ومنهاج إلّا لردح خاص من الزمن إلّا الشرعة الأخيرة!.

أم يعنيهم على مدار الزمن الرسالي خطابا على وجه القضايا الحقيقية؟

و خطاب الماضين من الأمم لا طائل تحته!.

و الصحيح أن الخطاب موجه إلى الأمم الحاضرة وإلى يوم الدين، نبهة على أن شرعة كلّ تختص بردح خاص من الزمن، فليؤنوا كلهم بهذه الشرعة القرآنية المهيمنة على السالفة، دون جمود على شرائعهم المجعولة كلّ منها لردح خاص من الزمن.

فالأمم الكتابية الخمس، وهم كافة المكلفين في الأدوار لخمسة الرسالية، لكلّ جعل اللّه شرعة ومنهاجا، ولو شاء اللّه لجعلهم كلهم منذ آدم إلى يوم الدين أمة واحدة لهذه الشرعة القرآنية الجامعة لها كلها، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم من الشرائع.

هذا وليست صدفة غير قاصدة توافق عديد النص في مختلف صيغ:

«الناس» ال ٢٤١ مرة و«الإنسان» ٦٥ و«الإنس» ١٨ و«أناس» ٥ و«أناسي»١ و«انسيّا» ١ و«بشر» ٢٦ و«بشرا» ١٠ و«بشرين» ١ ـ والجمع (٣٦٨) مرة، مع مختلف النصوص في الرسل فانها ايضا (٣٦٨) مرة!.

و الشرعة هي الأحكام الأصيلة الشارعة إلى الدين الواحد، تحملها كتاب الوحي لولي العزم الرسولي، والمنهاج يحمل السنة المنهجية الهامشية الشارحة للشرعة، فلكل صاحب شرعة بيان رسالي بما أراه اللّه على ضوء كتاب وحيه الأصيل فالشرعة و المنهاج سبيل وسنة[1].

فالسبيل هي أصل الشرعة وهي كتاب الوحي الأصيل، والمنهاج هو الرسول بسنته، و ذلك المثلث يشكل هندسة الشرعة، فمادة الدعوة الأصيلة الشرعة هي رأس الزاوية، والداعية الرسولية بسنته الشارحة هما الزاويتان الأخريان.

فليس في ميادين الدين الخمسة إلّا شرعة ومنهاج، وأما الطريقة المختلقة ادعاء أنها باطن الشرعة والمنهاج، فهي خارجة عن الشرعة والمنهاج، فإنهما هما الكافلان لبيان الدين المتين دون حاجة إلى اختلاق طريقة أو شرعة أو منهاج مختلقة، ويكأن اللّه قصر أو قصّر في تبين الدين فاحتاج إلى اختلاق طريقة هي أعمق من شرعة الدين ومنهاجه! ولا سيما الطريقة التي تجتاح الشريعة زعم انها قشور غير محتاج إليها لأهل الطريقة!.

أجل وليست كل شرعة ربانية إلّا شرعة من الدين: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ» وشريعة من الأمر: «ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ»(٤٥:١٨).

إذاً فالدين: الطاعة، والدين: الأمر، واحد لا اختلاف فيه أصليا، فإنما الشرائع إلى الدين قد تختلف شكليا وابتلائيا، فالواجبات الأصلية كما المحرمات الأصلية وأصول الدين كلها ثابتة كضابطة في شرايع الدين كلها، فإنما الاختلاف في الشكليات ابتلاءً وامتحانا:

«وَ لَوْ شاءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً» في الشرعة والمنهاج كما أنتم امة واحدة في أصل الدين، فقد كان من الممكن أن يشرع اللّه شرعة واحدة للدين ويفرضها على كل المكلفين منذ البداية إلى يوم الدين، ولكي لا يختلفوا ويحتاروا: «وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ ...»(١١: ١١٨) فالاختلاف في الدين تخلّف عنه في حقل الابتلاء بمختلف الشرائع وهو الهادي والضال في ذلك الحقل تخييرا دون تسيير: «وَ لَوْ شاءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ يُضِلُّ

---

[1]. نور الثقلين ١: ٦٣٩ في أصول الكافي بسند متصل عن أبي جعفر عليهما السلام حديث طويل يقول فيه ع فلما استجاب لكل نبي من استجاب له من قومه من المؤنين جعل لكل منهم شرعة و منهاجا و قال اللّه لمحمد (ص): إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح و النبيين من بعده، و أمر كل نبي بالأخذ بالسبيل و السنة و كان من السبيل و السنة التي امر اللّه عزّ و جل بها موسى (ع) «ان جعل عليهم السبت» و فيه عن علل الشرائع حنان بن سدير قال قلت لأبي عبد اللّه (ع) لأي علة لم يسعنا إلّا أن نعرف كل امام بعد النبي (ص) و يسعنا ان لا نعرف كل امام قبل النبي (ص)؟ قال: لاختلاف الشرائع.

مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ لَتُسْئَلُنَّ عَمّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»(١٦: ٩٣) (وَ لَوْ شاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ» (۴۲: ٨).

ذلك، فليست عِدّة الأمم إلّا عُدّة لبالغ الابتلاء، حفاظا صارما بليغا على وحدة الدين بعبء المحاولة الدائبة في التسليم للّٰه، فهذه الأمم هي في الحق أمة واحدة لرسالة واحدة مهما اختلفت طقوس ظاهرية ومظاهر أحكامية: «إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ» (٢١: ٩٢) و«... فاتقون» (٢٣: ٥٢).

و لكن تعدد الشرائع إلى الدين ابتلاء، كما الدين أصله ابتلاء، فقد أراد اللّٰه مثنّى الابتلاء في حقل الدين استكمالا للبلية:

«وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ» بلوى مستمرة على مدار الزمن الرسالي «فِي ما آتاكُمْ» كلّاً في زمنه، هل أنتم تصبغون شرعة اللّٰه بصبغة الطائفية والقومية والإقليمية والعادة أماهيه؟ كما فعله الكثير من اليهود والنصارى المتعصبين المتصلبين على ما آتاهم اللّٰه.

فكما التدين بشرعة من الدين في البداية ابتلاء، كذلك الانتقال منها إلى شرعة أخرى ناسخة لها ابتلاء، بل والنقلة أبلى من الابتلاء ولا سيما إلى نبي من غير قومه، فقد تختصر الحكمة الربانية في عديد الشرايع من الدين وتحتصر في:

«وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ» فكما يبلوا المولى عبده ليختبره في مدى طاعته له بمختلف أوامره، فقد يأمره أوّلا بأمر يأتمره فيه، ثم يظل فيه متعودا، ومن ثم يأمره بأمر ثان علّه إمر أكثر مما كان، وهو في نفسه إمر حيث يخالف تعوّده على الأوّل، فإن ائتمره في كل أوامره عرف تسليمه له دون أن تؤره عادته وهواه، وإن جمد على أمره دون نقلة إلى ثان وسواه عرف عدم تسليمه، وأنه ممن يؤن ببعض ويكفر بعض، وأنه متبع هواه دون مولاه.

كذلك الأمر «لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً ... لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ» من شرعة سابقة ولاحقة، فالجامد على السابقة تركا للّاحقة وهما من دين واحد وإله واحد، إنه ليس متشرعا بالسابق كما اللّاحق، فإنما هو متبع هواه مهما اتبع من قبل ظاهريا هدى اللّٰه، وهكذا نرى الدنيا بحذافيرها ابتلاء في خيرها وشرها[1].

ثم الأحكام على صنوف عدة، منها ما تكون مصالحها في أنفسها أمرا أو نهيا دون أي تطبيق كأمر إبراهيم الخليل بذبح إسماعيل، وأخرى بتطبيق دون مصلحة خارجية أخرى إلّا هو، وثالثة تتبع

---

[1]. ذلك و عالم التكليف في كل مظاهره تكوينا و تشريعا بلوى و امتحان: «وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» ٧: ١٦٨ (وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ» (٢١: ٣٥) (وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصّابِرِينَ وَ نَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ» (٤٧: ٣١) (وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَراتِ وَ بَشِّرِ الصّابِرِينَ» (٢: ١٥٥) (وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ» (٦: ١٦٥).

و بصورة جامعة: «إِنّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (١٨: ٧) (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (٦٧: ٢) (فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَ أَمّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ. كَلّا ..» (٨٩: ٧٦).

فقد نعيش ابتلاءات بأشكالها و لكلّ حساب فثواب أو عقاب قدر ما ابتلي و لا يظلمون نقيرا.

مصالح واقعية مقررة من عند اللّه، وكلّها حق لا بمعنى أن اللّه يتبع فيها حقا هو أمر ثالث بعده وبعد خلقه، بل الحق هو الذي يقرره بأية صورة من هذه الثلاث، والثابت منها هو الموافقة للمصالح الواقعية بسيرتها أم وبصورتها دون الأخريين.

و هكذا يكون دور الابتلاء بمختلف الأحكام في مختلف الشرائع:

«لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ».

دون ما اشتهر في خطابات ومؤفات أن هذه الشرائع الخمس كالصفوف الخمس الدراسية تتدرج حسب تدرج القابليات! فإن شرائع اللّه في أصولها العقيدية وفروعها الأحكامية ليست من العلوم الصلاحية التي تتدرج في صفوفها للدراسين، فأصولها الثلاثة يكفي فيها ـ فقط ـ عقل التكليف في أية درجة، ثم الفروع متلقاة بالقبول على أساس الأصول دونما حاجة إلى أية عبقرية عقلية أو علمية، فأي فرق بين واجب عقيدة التوحيد والمعاد بين شرعة نوح وشرعة الإسلام، اللهم إلّا أن اللّه بين أكمل مدارج التوحيد هنا لأنها شرعة المكلفين منذ بزوغها إلى يوم الدين، ثم الأحكام الفرعية نازلة فيها كما تحتاجها الأمة الاسلامية على مدار زمنها.

و لو أن الحكمة في تعدد الشرائع كما يقولون لما كان لعديدها ومديدها حد تقف عنده، فأين العقلية الجامدة الخامدة للجاهليين العرب، والعقلية المتحضرة في القرن الرابع العشر الحاضر، فهل من المفروض أن تأتينا شرعة جديدة تناسب هذه العقلية الحاضرة.

ثم المكلفون في كل الأدوار الرسالية الخمسة هم درجات في قابلياتهم، فالمفروض ـ إذا ـ في كل دور شرائع عدة لمختلف صنوف المكلفين دون شرعة واحدة تحكمهم على اختلاف قابلياتهم العقلية والعلمية.

فكما لا تصلح أية دراسة خاصة لمختلف الدارسين على حد سواء، كذلك شرعة واحدة لمختلف المتشرعين على حد سواء.

فهذه هرطقة حمقاء ان مختلف الشرائع هي لحكمة مختلف القابليات، إنما هو كما قال اللّه: «لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ».

فإنما الدين هو التسليم لرب العالمين في كل قليل وجليل، تناسيا كافة الأهواء إلّا هدى اللّه «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللّهِ الْإِسْلامُ وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ، فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ اللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ» (٣: ٢٠) (وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ» (٣: ٨٥) (أَ فَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» (٣: ٨٣) (وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ»(۴: ١٢٥) (بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ» (٢: ١١٢) (وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى» (٣١: ٢٢) (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ» (۶: ١۴) (ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لا نَصْرانِيًّا وَ لكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (٣: ۶٧) (وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قالُوا آمَنّا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ»(۵: ١١١).

فإنما الدين الحق: الطاعة للّه الحق، إنه واحد هو الإسلام للّه في كل شرايع الدين المتين، ف «لا نُفَرِّقُ

بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ (٢: ١٣٤) في دعواتهم بشرائعهم من الدين إلى أصل واحد هو الدين الطاعة والتسليم الواحد لرب العالمين.
ذلك، ففي كل شرعة، وفي حقول الشرائع كلها، ليس المفروض إلّا التسليم «فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ»دون الطائفيات والعنصريات والإقليميات أمّا هو آت من غير التسليم الخاص للّٰه رب العالمين.
و الخير الأخير المنقطع النظير بين كل بشير ونذير هو الشرعة الإسلامية السامية فاجعلوها في سباقاتكم السابغة، حيث الجمود على شرعة سابقة منسوخة هو شر حيث يتخلف عن شرعته الحاضرة المحكمة.
صحيح أن كل شرعة في زمنها الخاص خير، ولكنها بعد نسخها ليس خيرا، إلّا النقلة إلى ناسخها لمكان التسليم الطليق للّٰه.
ذلك، و«إِلَى اللّٰهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً» أيها المتشرعون المختلفون، إلى إله واحد شرع لكم كل شرعة من الخمس «فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» إنباءً علميا صارما بعد ما تجاهلتم في أولاكم، ثم إنباءٌ عملي بعقوبات تستحقونها «بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ».
«فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ»: بادروا فعل الخيرات إن كنتم على غير أمان من حضور الأجل وتضييق الأمل، وذلك يشبه سباق الخيل فإن كل واحد من فرسانها يشاحّ غيره على بلوغ الغاية المقصودة وينافسه في الإسراع إلى البغية المطلوبة.
و إن شرائع اللّٰه كلها خيرات، وفي كل شرعة خيرات وخيرات، ولمكان التفاضل في هذه الخيرات، على الخيّرين أن يستبقوا الخيرات، لا أن يستبقوا خيرا يجمدون عليه وقد نسخ في شرعة اللّٰه، أم فيها خير منه، وهكذا نجد اللّٰه تعالى يستقطب مساعينا كلنا بكلها للحصول على أفضل الخيرات، فالبقاء على خير وهنا خير منه شر، والبقاء على خير منسوخ هو أشر، والخير المأمور به دوما المحجور هو استباق الخيرات، طلبا للسابق السابغ في الخير سبقا في الخير في أصله دون سبق المكان أو الزمان.
فالخير للمكلفين أجمعين في شريعة اللّٰه هو اجتماعهم على شرعته الأخيرة، ثم استباقهم فيها، دون أن يظل كلّ على شرعته ثم التسابق في الجدال، أو محاولة التوحيد بين هذه الشرائع بفرض المشاركات.

تمنيات الرسل وامنيات الشياطين

«فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠). وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (٥١).
«لَهُمْ مَغْفِرَةٌ» من اللّٰه عما اخطأوا «وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ» وهو جنة النعيم «وَ الَّذِينَ سَعَوْا»مسرعين «فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ» يصارعونها سراعا لإبطالها بكل سرعة «أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ».
وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلّا إِذا تَمَنّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللّٰهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللّٰهُ آياتِهِ وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥٢.
هذه الآية من معارك الآراء بين المفسرين المسلمين وسواهم من مستشرقين طاغين بها وباضرابها من متشابهات في ذلك الدين المتين ورسوله النبي الأمين، فقد أثاروا حولها عجاجة من القيلات التي هي ويلات على هذه الرسالة السامية وعلى كل الرسالات، وسانده جماعة من المسمّين مسلمين ظاهرين

بمظاهر المفسرين والمحدثين[1] حيث تناقلوا مختلقات وثنيات، ام إسرائيليات وكنسيات جهلا او تجاهلا، قصورا او تقصيرا بحق القرآن العظيم.

و لو ان هذه الفرية الجاهلة القاحلة على هذا الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ثبتت انه قال: تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى، تجلّبا لخواطر المشركين، اختلاقا وثنيا يناقض جذور الرسالة التوحيدية، لكانت إذا فاشية في كافة الرسل والنبيين، حيث الآية تعم مادة الفرية المتخيلة لكل رسول ونبي دون إبقاء.

و لكن الآية نفسها، بعسكر مجنّد من آيات سواها وبراهين اخرى معها، تذود هذه الوصمة الوقحة عن ساحتها وساحة الرسالة السامية، لو ان الناظر إليها تأملها كما هيه، دون تحميل للآراء والروايات عليها.

فالذي يبدو أولا من وجه الآية صارحة انها تعرض سنة رسالية شاملة لا تشذ عنها أية رسالة صغيرة ولا كبيرة «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ ...» وطبيعة الحال في السنة الرسالية على اية حال ان تكون بمصلحة الدعوة، دون خصوص الداعية، او مصلحية الرعاية لناكريها المعارضين، فانها ليست تجارة تحلّق عليها المصلحيات الخاوية من مكائد وأكاذيب واحتيالات، فانها تملك من البراهين القاطعة أقواها ومن السبل الجادة اعبدها وأصفاها، دونما حاجة إلى سياسات زمنية تحوم حولها شيطنات وإغرائات، فلا تجد في قاموس الدعوات الرسالية شيئا من هذه المصلحيات القاحلة التي يعبدها أصحابها كاصنام، وهي من الأخطار الهامة في الدعوات الحقة انحرافا عن نهجها السليم المستقيم غير الملتوي، وانجرافا إلى هوّات السياسات الإبليسية التي يلعب بها الساسة الزمنيون.

فلا مسايرة في الرسالات الإلهية ولا أنصاف حلول بجعل البلد شطرين، والدعوة في واجهتين، فانما هي شطر واحد منذ بدايتها إلى ختامها، صدقا صارما دونما خليط، حتى في لفظة قول مهما كانت ثورية وتقية، وإليكم البحث والتنقير حول ألفاظ الآية:

«مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ» وهما هنا مرسلان «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ» ذلك دليل افتراقهما في بعض الشؤن مع الاشتراك في اصل الرسالة، وذكر «نبي» بعد «رسول» مما يجعله في قمة أعلى من اصل الرسالة وكما في آيات عدة: «وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا» (١٩: ٥١ و٥٤) في موسى وإسماعيل، و«الرَّسُولَ النَّبِيَّ» (٧: ١٥٨) في محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله.

و لو كان كل رسول نبيا لكان ذكر «نبيا» بعد «رسولا» زائدا بائدا، إلا ان تكون النبوة مرحلة راقية من الرسالة وكما تلوح من آياتها.

و عل الروايات المعاكسة بينهما تعني النبوءة من النبإ، دون النَبوة من النّبوة والرفعة: «نبي منبئ في نفسه لا يعدو غيره ..» وحين يخاطب يا نبيء الله يرده قائلا: لست انا نبيء الله، انا نبي الله.

إذاً ف «مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ» يحلّق على كل اصحاب الرسالات بدرجاتهم، من مرسل دون كتاب او بكتاب، من رسالة هامشية بكتابها كغير اولي العزم ام رسالة اصلية كهؤاء الذين دارت عليهم الرحا وهم اصول النبوات وقواعد الرسالات.

---

[1]. لقد أحدث رواة من الفريقين احدوثة كاذبة حول الآية، فرواة من العامة تناقلوا حديث الغرانيق، و آخرون من الشيعة تناقلوا حديث «محدث» في الآية كأنها ساقطة عنها، و الكل محجوجون بالقرآن و السنة.

إذا ف «إذا تمنى» تشملهم كلهم في التمنيات الرسالية، التي تحصل أحيانا منها دون كل ادوارها لمكان «إذا».

ثم التمني هو تقدير وجود المحبوب، وصورته قبل حصوله عند المتمني هي أمنيته وأصله المُني: التقدير، وتمنيات الرسل هي بطبيعة الحال التمنيات الرسالية تقوية لها وتطبيقا بعد حصولها، وتلك التمنيات بما هي مصحوبة بمحاولات لتحققها تعرقل في مسيرها ومصيرها بإلقاءات الشيطان من جن وانسان، وكما تعرقل أصل الرسالات منذ بزوغها، وكلما ازدادت انتشارا وتقبلا وازدهارا ازدادت ضدها العرقلات «فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ» في تمنيات ودعوات او كتابات الرسل «ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ»الملقاة فيها ما يناحرها «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ» تلك الالقاآت «حكيم» في تحقيق تمنيات الرسل نسخا لما يلقي الشيطان.

و لقد حصلت هذه الإلقاءات الشيطانية كلها في كل الرسالات، خلقا لأجواء معرقلة دونها، وتضليلا لمن لا يحن إلى الايمان تمام الحنان، وإلقاءً في كتاباتهم تحريفا وتجديفا، ولكن الشرعة الاخيرة سليمة من ذلك الأخير.

إذاً ففي ذلك العرض الشامل تسلية لخاطر الرسول الأقدس صلى‌الله‌عليه‌وآله ان اللّه هو الذي ينسخ ما يلقي الشيطان ثم يحكم اللّه آياته.

و هكذا نرى كل كتاب رسالي ينسخ التحريفات التي ألقيت فيما قبلها من كتاب[1] حتى وصل الدور إلى القرآن فأصبح مهيمنا على كافة كتب الوحي.

و نرى ان الأجواء المضلّلة الملقاة من الشياطين تتبدل صالحه هادية زمن الرسل وبعد كل رسول برسالة تالية وتأييدات ربانية، والقلوب المزعزعة بهذه الإلقاءآت تثبت على ما كانت من الايمان واليقين شرط ان تنحو منحى الإيمان واليقين، وذلك هو النظر الموعود للرسل والمؤنين:

«إِنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» (۴۰: ۵۱) (وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ»(۳۷:۱۷۲).

فليست امنية الرسل هي فقط آيات الوحي الرسالية حتي يفسّر إلقاء الشيطان فيها بزيادة عليها، فانها حاصلة دفعة واحدة ام تدريجية طيلة كل رسالة دون حاجة إلى تمنّ، ف «تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى» ليست من تلك الإلقاءات في آيات الوحي المحمدي، بل هي من إلقاءاته على مختلقيها، مردودة إليهم ومضروبة عرض الحائط، حيث تضاد طبيعة الرسالة ولا سيما هذه الأخيرة السامية.

و تراه كيف ينطق هكذا عن أضل الأهواء الشركية «وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى. إِنْ هُوَ إِلّا وَحْيٌ يُوحى»

---

[1]. تفسير البرهان ۳: ۱۰۲- عن الاحتجاج للطبرسي في حديث عن امير المؤنين ع قال: فذكر عز اسمه لنبيه ما يحدثه عدوه و في كتابه من بعده بقوله «وَ ما أَرْسَلْنا ..» يعني انه ما من نبي يتمنى مفارقة ما يعانيه من نفاق قومه و عقوقهم و الانتقال عنهم إلى دار الاقامة الا القى الشيطان المعرض بعداوته عنه- عند فقده- بعده في الكتاب الذي انزل اليه ذمه و القدح فيه و الطعن عليه فينسخ اللّه ذلك من قلوب المؤنين فلا تقبله و لا تصغى اليه غير قلوب المنافقين و الجاهلين و يحكم اللّه آياته بان يحمي أوليائه من الضلال و العدوان و متابعة اهل الكفر و الطغيان الذي لم يرض اللّه ان يجعلهم كالأنعام حتى قال بل هم أضل سبيلا.

(۵۳: ۴) تصون تنطقاته كلها كتابا وسنة عن كل هوى حتى هوى العقل، حاصرا لها في وحي يوحى؟! ام كيف يتقول على اللّه هكذا «وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ» (۶۹: ۴۶) ولم نره حينا ما مقطوع الوتين او مأخوذا باليمين، إلا في مزيد من التامين المكين، والتأييد الرصين!: «قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ» (۱۰: ۲۵) ثم «وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَ إِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا. وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا» (۱۷: ۷۴) هذه، تجتث عنه جذور هذه الفتن، و المسايرة بها ليتخذوه خليلا كما افتراه عليه مختلقوا الغرانيق العلى!.

ثم اللّه ضمن له ألّا ينسى الوحي فلا يزيد عليه ولا ينقص منه، «سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى»(۸۷: ۶) وليست أمثال قصة الغرانيق الا من سلطان الشيطان شر سلطان، وليس الا على الغاوين: «إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ»(۱۵:۴۲) (قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» (۳۸: ۸۲) ومحمد صلی‌الله‌علیه‌وآله هو أخلص المخلصين، وهو أول العابدين.

و فرية الغرانيق تعارض هذه الآيات وطبيعة الرسالات، وتكذب هذه التضمينات والصيانات لأبعاد الرسالات، فهي باطلة متنا مهما كثرت فيها الروايات، كما هي ضعيفة سندا، حيث رواها المطعون فيهم، وحتى لو صحت أسنادها فهي كاذبة المتون لمعارضة القرآن، وان الآية نفسها لا تتحملها.

هؤلآء المختلقون هم من اعداء الرسل وكما قال اللّه: «وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ» (۲۵: ۳۱) (وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً. وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ ما يَفْتَرُونَ. وَ لِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ لِيَرْضَوْهُ وَ لِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ» (۶: ۱۱۳) والافئدة هنا هي القلوب المتفئدة بنيران النكران حيث تستزيد نكرانا على نكران.

فإيحاء زخرف القول غرورا منهم هو ـ فقط ـ إلقاءهم، سواء في الأجواء والقلوب، ام في كتب السماء، والقرآن مصون عن ذلك الإلقاء، ثم لا تصغى إلى زخرفاتهم إلا «الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ».

و لماذا «أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ» إذ «يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً»ثم اللّه لا يصد عن ذلك الإلقاء الزخرف؟:

لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ الظّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ۵۳.

«وَ لِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ..» فذلك ـ إذا ـ بالنسبة للقاسية قلوبهم والمرضى الناكرين للآخرة، امتحان الامتهان ليزدادوا مرضا على مرض ونكرانا على نكران، وكما «إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ».

و هو في نفس الوقت مزيد علم وايمان لاولي العلم والإيمان «فَيُؤْمِنُوا بِهِ» اكثر مما كان «فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ» ايمانا فوق ايمان، حيث الايمان يتبلور بالامتحان، فلما يرى المؤنون تلك العرقلات الشيطانية ضد الدعوة القرآنية واضرابها، يتأكدون أكثر مما كان «أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ».

إذاً فليس ما يلقي الشيطان فتنة إلا للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم والذين لا يؤنون بالآخرة، ولو كان ذلك الإلقاء مثل ما يفترى على رسول الهدى من قصة فرية الغرانيق لكان هو صلی‌الله‌علیه‌وآله نفسه من هؤلآء المرضى الكافرين، خارجا عن الذين أوتوا العلم! بل هو خارج عن القبيلين

حيث المرسلون هم مليء العلم والايمان والإخبات إلى ربهم، لولاها لما أرسلوا إلى العالمين، فلقد اجتازوا مراحل الإخلاص من العلم والإيمان باللّه والإخبات للّه حتى أخلصهم اللّه واصطفاهم على علم على العالمين: «اللّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النّاسِ» (٢٢: ٧٥) (وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ» (٣٨: ٤٧) (وَ لَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ»(٤٤:٣٢).

انهم عليهم السلام كلهم خارجون عن ذلك الثالوث المنحوس، وحتى عن اولي العلم المتدرجين إلى ايمان الإخبات، فهم في قمة الإسلام بعد ما اجتازوا درجات الايمان والإخبات إلى ربهم فاصطفاهم ربهم على العالمين.

إِنَّ الظّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ» بينهم وبين الحق، فليسوا ليكتفوا بنفاقهم العارم وكفرهم الصارم، فيستزيدون نفاقا على نفاق وكفرا على كفر بما يلقي الشيطان، صاغية اليه افئدتهم «وَ لِيَرْضَوْهُ وَ لِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ» ـ «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظّالِمِينَ إِلّا خَساراً» (١٧: ٨٢) ف «كُلًّا نُمِدُّ هؤلاءِ وَ هَؤلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً»(١٧: ٢٠).

ف «لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» هم مرضى القلوب لعدم استقامتها في التعقل، فلا تذعن بما به يذعن إذا استقامت وصحت القلوب، ثم تقسوا لحدّ لو أرادت الإذعان لما تيسر لها حيث ختم اللّه عليها بكفرهم وهم «الْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ» ويجمعهما «الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ» حيث تصغي إلى ما يلقي الشيطان وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون «وَ إِنَّ الظّالِمِينَ» وهم هؤلآء الصاغون اليه «لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ» غارقون فلا ينجون، واصحاب الشقاق القريب قد ينجون، ثم الرفاق للحق المحتارون الفاحصون عنه أولئك هم يؤنون:

وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ اللّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٤.

ان المهديين إلى صراط مستقيم هم الراسخون في العلم، ويتلوهم «الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ»حيث الامتحان يستدرجهم إلى الرسوخ في العلم فالى صراط مستقيم، حيث العلم هنا هو الايمان على بينة فانه مغزى المعرفة باللّه دون العلم فقط، وهكذا «شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلّا هُوَ وَ الْمَلائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ ..» (٣: ١٨) (بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ»(٢٩: ٤٩) (وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ»(٣٤: ٦) (يَرْفَعِ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ»(٥٨: ١١).

ذلك هو العلم الذي يزيد في الايمان ويحقّق الإخبات إلى الرب و«انه» ما يتمناه الرسل وهي مادة الرسالة أصلا وتطبيقا وخيرها أخراها وهي الرسالة الاخيرة. «أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ» لا سواه، وان ما يلقي الشيطان هو الباطل «فَيُؤْمِنُوا بِهِ» بالحق «فتخبت له للّه «قلوبهم» حيث يصبحون لهم رفاقا في أمنياتهم دون فراق ولا شقاق، متسابقين إلى مزيد الايمان في ميدان السباق «وَ إِنَّ اللّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ»! وهنا في محتملات المراجع لضمير الغائب «انه ـ به ـ له» وجوه عدة، فقد يرجع الاول إلى ما يتمناه الرسل «أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا» بالحق «فتخبت له»: للحق الرب «قلوبهم»ام إلى خير ما يتمنونه وهو الوحي الأخير «القرآن» ماثلا فيه الحق كله، ممثلا لكل أمنيات الرسالات «فَيُؤْمِنُوا بِهِ»:القرآن «فَتُخْبِتَ لَهُ» القرآن ـ او ـ منزّله «قلوبهم»، «وَ إِنَّ اللّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» قد يقوّم كون المرجع هو الصراط المستقيم، فانه أمنية الرسل كلهم، ف «انه الحق»نفس الصراط المستقيم، «فَيُؤْمِنُوا بِهِ» بالصراط، ام ـ وباحرى ـ صاحب الصراط وهو اللّه «فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ» او ان

نسخ ما يلقي الشيطان او جعل ما يلقي الشيطان فتنة «أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ».
اجل انه ليس للشيطان إلقاء الا بإذن الله تخييرا دون تسيير امتحانا للمكلفين «وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ ما يَفْتَرُونَ».
كما وان نسخه بعد سماح الإلقاء «أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ» إلقاء «لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ..»وإلقاء ونسخ «لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ..».
و لان قرآن محمد ومحمد القرآن هما الصراط المستقيم القمة، تعريفا بالله ومعرفة بالله وتجسيدا لشرعة الله، فالحق من ربك هو القرآن ورسوله، وإخبات القلوب ليس إلا إلى الرب: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ» (١١: ٢٣) (فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ» (٢٢: ٣٤).
هذه قضية العلم والايمان في كتلة العلم الايمان، ان ما يلقي الشيطان لا يزيدهم الا نورا:
وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتّى تَأْتِيَهُمُ السّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ٥٥.
هؤلآء في مزيد الإيمان وإخبات القلوب، وأولاء «فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ»:
الحق ـ أيا كان، فإنهم في شقاق بينهم وبين الحق أينما حلّ «حَتّى تَأْتِيَهُمُ السّاعَةُ بَغْتَةً»و هي ساعة الموت «أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ» وهو ساعة القيامة الكبرى، والآخرون هم الذين تقوم الساعة في حياتهم الدنيا، والأولون في حياتهم البرزخية، فهذه الكتلة الكافرة لا يزالون في مرية منه حتى تأتيهم قيامتهم الصغرى أو الكبرى، و هم في هذه الساعات أحياء لم تفدهم حياة التكليف إيمانا إلا مرية.
ف «الَّذِينَ كَفَرُوا» هنا هم عامة كفار التاريخ الذين «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» في حياة التكليف «حَتّى تَأْتِيَهُمُ السّاعَةُ بَغْتَةً» بمباغتة الموت حيث لا ينفع الايمان «أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ» وهو اليوم الآخر.
فتفسير الساعة بالقيامة تفسير عقيم، إذ لا تبقى المرية حتى القيامة لمن مات قبلها «فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ»! حيث تكشف الحقائق فلا تبقى أية مرية الا زالت مهما لم ينفع الايمان لمن لم يؤن من ذي قبل.
فانما الساعة هي ساعة انقضاء التكليف بقيامة صغرى هي الموت، ام كبرى هي الكبرى، وقد يعني «عقيم» انه لا ينفع فيه عمل ولا ايمان، ولا يوم بعده فانه اليوم الأخير خلاف اليومين الأولين، وانه لا رجوع فيه عنه إلى حياة التكليف، وقد كان بالإمكان من قبل وان بصورة خاصة كما يرجعون يوم الرجعة وقد رجع قبلهم افراد وجماعات.
الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ فِي جَنّاتِ النَّعِيمِ ٥٦ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ ٥٧.
«الملك» كله، ظاهره وباطنه، إذ كان لهم الملك قبل «يومئذ» استخلافا ظاهرا وعارية مضمونة «وَ أَنْفِقُوا مِمّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ ..»(٥٧:٧).
ظاهر كأن يتظاهر لأهل الظاهر أنه لمن يملك ظاهرا وباطنا، و«يومئذ» يعلمون انه كان لله ولم يكن لهم إلا ظاهر مستخلف فيه ابتلاء وامتحانا.
«يومئذ» حين انقضاء التكليف برزخا وقيامة، إذا ف «جنات النعيم وعذاب مهين»تعم النشأتين مهما اختلفت جنات عن جنات وعذاب من عذاب.

وَ هُوَ اللّٰهُ فِي السَّماواتِ وَ فِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ:
و لا تعني «في» هنا ظرفية هذا الكون لذات اللّٰه سبحانه، إنّما هو ظرف لألوهيته وربوبيته للكون كله.
ف «هُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلٰهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلٰهٌ» (۴۳: ۸۴) ردا على مزعمة أن ألوهيته خاصة بهذه السماء والأرض؟.
و أما «أَ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ» (۶۷: ۱۶) فهم عمال اللّٰه من ملائكة السماء وليس هو اللّٰه كما فصلنا القول فيه عندها.
كلّا! بل إن ربوبيته تعالى تشمل السماوات والأرض على سواء، و«يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ» على سواء، «وَ يَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ» في مثلث الزمان على سواء، وهو في مستقبله أخفى من «سركم»إذ لا تعلمون أنتم مستقبل مكاسبكم ونياتكم وطوياتكم: «وَ إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى» (۲۰: ۷).
و «ما تَكْسِبُونَ» هنا قد تعم مكاسب السر والجهر في النشآت الثلاث، الى «ما تَكْسِبُونَ» من نيات وطويات وأعمال في المستقبل بمكاسبها.
و قد تعني «سركم» هنا ما أسررتم وأنتم تعلمون، أمّا أسرّ عنكم وأنتم تجهلون، وهو الأخفى من السر. ذلك، وخير تفسير لآيتنا هذه في آية الزخرف (۸۴) وعلى ضوءهما مايروى من حوار بذلك الشأن عن الامام الصادق عليه‌السلام حيث يجيب بعد ما يسأل عنها: «كذلك هو في كل مكان» قال: بذاته؟ قال:
ويحك إن الأماكن أقدار، فإذا قلت: في مكان بذاته، لزمك أن تقول: في أقدار وغير ذلك، ولكن هو بائن من خلقه، محيط بما خلق علما وقدرة وإحاطة وسلطانا وليس علمه بما في الأرض بأقل مما في السماء، ولا يبعد منه شيء، والأشياء له سواء علما وقدرة وسلطانا وملكا واحاطة[1].
وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (۴).
«آياتِ رَبِّهِمْ» هي الآيات الدالات على ربوبيته تكوينا وتشريعا، أم قد تعم الآيات الأنفسية الى الآفاقية، وإيتائها ـ إذا ـ بروزها مهما أخفوها أو اختفوا عنها، فقد تبرز الآيات الفطرية إذا انقطعت الأسباب وحارت دونه الألباب، فينقطعون اضطراريا إلى اللّٰه ثم هم معرضون: «فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمّا نَجّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ» (۲۹: ۶۵).
و لا يعني إعراضهم عن آيات ربهم إلّا إعراضهم عن ربهم تعمية عليهم كونه وكيانه، وهم يعيشون آيات ربهم ليل نهار!.
ذلك، والمفروض على من يعرف ربه أو يحتمل كونه أن يفتش استنباطا عن آياته حتى تكتمل معرفته به على ضوءها، وحتى الذكري ينكره، عليه أن يبرهن على نكرانه فليفتش عما يدعي كونه من آياته، فإما سلبا كما خيّل إليه ـ ولن يكون ـ وإمّا إيجابا كما تهديه إليه فطرته وعقليته والكون بأسره، حيث

---

[1]. تفسير البرهان ۱: ۵۱۷- ابن بابويه بسند متصل عن محمد بن النعمان قال سألت أبا عبد اللّه ع عن قول اللّه عزّ و جلّ «وَ هُوَ اللّٰهُ فِي السَّماواتِ وَ فِي الْأَرْضِ» قال: «هو كذلك في كل مكان ...».

الكائنات ككل هي براهين ساطعة قاطعة على وجود اللّه وتوحيده.
و المشتاق إلى ربه، المفتاق إلى هدايته ورحمته، ليس ليصبر حتى تأتيه آيات من ربه، بل ويفحص عنها فحصا باحثا ما حصا غير قالص ولا فالس، ولكي يزداد به إيمانا و فيه اطمئنانا.
فالناس وِجاه آيات ربهم على ضروب شتى، فمنهم من يفتش عنها، ومنهم المعرض عنها، ومنهم عوان بينهما، فالأولون هم المتقون والآخرون هم الطاغون، والعوان بينهما عوان بينهما.
و هذه موجة عريضة في مطلع السورة، تخاطب ضمير الإنسان بدليل آيات الرب الكامنة في الأنفس، والمكتملة في الآفاق.
و ليس ذلك خطابا لاهوتيا فلسفيا يختص بالمتفلسفين واللّاهوتيين، إنما هو خطاب موجه إلى كل الفطر والعقول والحواس والعلوم في كل الحقول على درجاتها.
و التذكير بآيات ربهم هو الموجه الغامرة الكون كله، بكل الآيات الربانية آفاقية وأنفسية، وترى ما هو سبب إعراضهم عن آيات ربهم حين تأتيهم؟:
فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمّا جاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٥):
«الحق» ـ ككل ـ الآتي من قبل الحق، المزود بآيات ربوبيته، إنهم كذبوه إعراضا عنها كيلا يصدقوه، ومثلهم كمثل من قال عنهم نوح عليه‌السلام:
«وَ إِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً» (٧١: ٧).
ذلك «فسوف» في مثلث النشآت «يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» ومن أنباءه هنا عذاب الاستئصال، ومن ثم عذاب البرزخ والقيامة.
و لأن النبأ هو خبر ذو فائدة عظيمة، وهو يعم واقع النبإ إلى الإخبار به، لذلك فقد تشمل الإنباء مثلث النشآت إخبارا وواقعا، مهما لم تفدهم أنفسهم إلّا هنا لو كانوا ينتبهون كما في قوم يونس، أم ولا أقل من إفادتها سائر الناس، وأما في البرزخ والقيامة فلا فائدة لهم منها إلّا بائدة.
أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَ أَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَ جَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (٦):
القرن ـ وهو الردف والاقتران ـ وهم هنا القوم المقترنون في زمن واحد متصل، ولأن العمر المتعود للإنسان لا يعدوا مائة سنة، لذلك سميت قرنا قضية اقترانهم في كل مائة مائة، انقراضا للسابق وافتتاحا للّاحق، فقد لا يختص القرن بذلك الزمن المحدد، حيث الأصل هو كل ردح زمني لأمة تعيشه، مائة أما زاد أو نقص.
«أَ لَمْ يَرَوْا» رؤة تأريخية جغرافية بما وصلتهم من أنباء من «أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ»وقد «مَكَّنّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ» ـ «وَ لَقَدْ مَكَّنّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنّاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصاراً وَ أَفْئِدَةً فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لا أَبْصارُهُمْ وَ لا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللّهِ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» (٤٦: ٢٦).
«مكناهم» بسلطات زمنية وقدرات مالية ورحمات منها غزيرة، ولكنهم ـ بما كانوا يجحدون بآيات اللّه وما كانوا يستهزءون ـ «فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ» دون أن تغنيهم عن بأسهم مكنتهم ولا عن بؤهم مكانتهم «وَ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ» مثل قرنهم، قرنا بهم بعدهم ليبلوهم فيما آتاهم، ف «كَمْ

أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَ رِءْياً»(۱۹: ۷۴) و«هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً»(۵۰: ۳۶) ف «هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ»(۱۹:۹۸)؟ كلّا بل «فَنادَوْا وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ» (۳۸: ۳) وقد مضى يوم خلاص!.

فالذنوب هي التي تخلّف الهلاك، هنا نزيرا، وهناك بعد الموت غزيرا، ومن رحمات اللّه على المؤنين أن قد يأخذهم بذنوبهم هنا كيلا يؤذوا بها هناك واين أخذ من أخذ؟.

و هنا «وَ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ» تعني جماعة بعدهم إذ أهلكوا بالطاغية.

وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ(۷):

هؤلآء المعرضون عن آيات ربهم لا يفرّقون بينها في تكذيبهم مهما تطلبوا كتابا في قرطاس ينزل من السماء ملموسا لهم بأيديهم حيث يتقولون قولتهم الفاتكة الهاتكة: «إِنْ هذا إِلّا سِحْرٌ مُبِينٌ»فما تفيدهم إذاً آيات مقترحات كما سواها من آيات.

لقد اقترح مشركون ومعهم كتابيون تنزيل كتاب من السماء، فكما لهؤاء: «لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ» (۱۷: ۹۳) كذلك لأولاء «يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ فَقالُوا أَرِنَا اللّهَ جَهْرَةً ...»(۴:۱۵۳).

إذا فتجاوبهم في تحقيق آيات مقترحات ـ ولا سيما التي ليست هي في الحق بآيات ـ إنه تجاوب معهم في التكذيب والاستهزاء بها وتهديرها وتهذيرها دون اهدائها أو تحذيرها.

و هنا «كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ» تبيّن أن هؤلآء الحسيين الناكرين لما وراء الحس بلغوا في عناد النكران لحد ينكرون المحسوس الملموس كما ينكرون غير المحسوس، لأن تصديق ذلك المحسوس ذريعة إلى تصديق لغير المحسوس.

و ترى تنزيل كتاب في قرطاس مستحيل كما تدل عليه «لو»؟ واللّه على كل شيء قدير! إنه مستحيل مصلحيا في أبعاد: «أن نازل كتاب الوحي من السماء لمحة إلى أن المنزل هو ساكن السماء وليس به، وان منزل الوحي هو قلب الرسول وليس حسّه حتى ينزل عليه كتاب في قرطاس، ثم في تحقيق اقتراحهم هذا مسايرة معهم في باطل حيث هم بعد منكرون.

ذلك! وكما «لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ» (۱۵: ۱۵).

ذلك انما هو من خلفيات نكرانهم البغيض الحضيض، فليس الذي يجعلهم يعرضون عن آيات ربهم أن البرهان على صدقها قاحل أو ضعيف، أو غامض لا يعرفه إلّا عباقرة، أو أنها تختلف فيها أرباب العقول، إنما هو المكابرة الغليظة البغيضة والعناد الصفيق السحيق.

ثم ومن عاذرتهم كما يهوون أن لم يبعث اللّه إليهم ملكا يحمل وحيه وهم شاهدوه:

وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَ لَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ (۸):

«لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ» يصدقه ونراه يوحي إليه لنا، أ فلم يكن ـ إذا ـ برهانه أمتن وتصديق أمكن؟

و الجواب الحاسم أولاً «لَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ» وثانيا «وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا ...»فما هو الأمر المقضي؟

هل هو قضاء أمر الحياة فلا تكليف ـ إذا ـ فلا نتاج لنزول الملائكة؟

كما «لَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ- إِلَيْهِمْ أجلهم» (۱۰: ۱۱) واستحقاق قضاء الأجل بالشر ليس ليحيل نزول الملائكة، وقد يؤنون لو أنزلت!.

«أم هو قضاء أمر الحياة استئصالا لهم إذ لا يؤنون؟» «وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ»(۶: ۱۱۱) ف «يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَ يَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً ... وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَ نُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا. الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ وَ كانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً» (۲۵: ۲۳) ولماذا يستأصلون حيث يجوز إيمانهم إن شاء اللّٰه!. أم هو قضاء أمر التكليف لأن انقلاب الغيب إلى الشهادة يرفع الابتلاء والتمحيص، ف «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَ الْمَلائِكَةُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» (۳: ۲۱۰) وكيف ـ إذا ـ يزول دور التكليف؟.

علّ الأمر المقضي هو مجموع الأمور، إذ لو آمنوا عند نزول الملائكة فلا ابتلاء بتكليف، ولو أنهم كانوا من اهل الايمان ببرهان لكفاهم برهان الرسالة الذي تقبله العقول، فان آمنوا قضي الأمر تكليفا وإن لم يؤنوا قضي أمر حياتهم باستئصالهم كما هو سنة اللّٰه فيما بلغت الحجة مبلغ النار على المنار والشمس في رابعة النهار.

إذا فلا طائل لهم تحت نزول الملائكة إلّا زوال التكليف أم زوالهم، فهو مستحيل في الحكمة الربانية التي تربي العباد بما يصلحهم.

و المحاولة الرئيسية القرآنية هي إخراج الإنسان من دائرة المحسوس الضيقة إلى إدراك أن هناك غيبا في ذاته، ظاهرا بآياته، والرسالة الملائكية تغلق ذلك المجال دون الإدراك الانساني، فهي ـ إذا ـ نكسة إلى الوراء وارتجاع إلى الجاهلية المادية التي ليست لتصدق وراء المادة، وهو ينهي إلى نكران التجردية الإلهية.

و جواب ثان عن «لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ»: وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ (۹):

فإضافة إلى أن نزول الملك عليهم أو على الرسل بحيث يرونهم ليس إلّا عند قضاء الأمر، وانه لا يناسب المرسل إليهم البشر ف «لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا» (۱۷: ۹۵).

فلو تخطينا أمثال هذه الموانع في نزول ملك رسول أو ملك مع الرسول يرونه، «لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا» حتى يروه ويسمعوه، فعادت المشكلة المزعومة لهم حيث يرونه رجلا وهو ملك فلا ينتفعون بكونه ملكا «وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ» بملك في صورة رجل «ما يلبسون»على أنفسهم.

و هذه قاعدة مطردة عادلة ان اللّٰه يلبس على الإنسان ما هو يلبسه. فلما لبس هؤلآء المكذبون لآيات ربهم طور الرسالة الربانية على أنفسهم، فقد يلبس اللّٰه عليهم ـ لو حقق ما اقترحوه ـ ان يجعله رجلا، عودا لمشكلتهم كما كانت، كما وهي طبيعة الحال في رؤة الملائكة لمن ليست لهم عيون تقدر على رؤتهم بصورهم الأصلية، ثم «رجلا» هنا ـ بأحرى من «رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ» في سواها ـ دليل انحصار الرسالة في الرجال دون النساء، وفيه لمحة اختصاص القيادات روحية وزمنية، شاملة أماهيه في قبيل الرجال.

ذلك ولقد نزلت هذه الآية لما احتج المشركون على الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله فقال: «اللهم أنت السامع لكل

صوت والعاصم بكل شيء تعلم ما قاله عبادك ....»[1].

و هنا مسئلة تطرح نفسها حول هذه الحجة الفريدة في القرآن كله، هي: ليس إنزال الملائكة بصورتهم الملائكية مستحيلا إذ «يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ» تثبت آجل رؤتهم لهم ـ وكما رأى النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله جبرئيل بصورته الأصلية ـ ولا بالصورة الإنسانية فإن رسلا كإبراهيم ولوطا رأو الملائكة بصورة الإنسان.

و الجواب ان «لو» هنا لا تحيل إنزال الملائكة استحالة ذاتية خارجة عن القدرة، إنما هي استحالة مصلحية وهي قضاء الأمر لو أنزلت بالصورة الأصلية، واشتباه الأمر كما كان لو أنزلت بصورة رجل: «لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ».

ثم إن ضرورة المجانسة بين الرسول والمرسل إليهم إتماما للحجة وإنارة للمحجة وإخراجا عن أية لجة، إنها تفرض إرسال رسول بشر إلى بشر ورسول غير بشر إلى غير بشر: «قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا» (١٧: ٩٥)يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا ..» (٦: ١٣٠).

ثم الآيات الرسالية الظاهرة على أيدي الملائكة ليست لتثبت رسالاتهم كما تثبت الآيات على أيدي البشر، فان احتمال طاقة خاصة تبرز هذه الآيات وارد في الملائكة للبشر ـ ولا سيما للناكرين لآيات الرسولية والرسالية.

فمهما كانت الرسالة الملائكية إلى البشر أقوى من حيث اللقاء، ولكنها أغوى من حيث عدم المجانسة وسقوط الحجة الكاملة، وحجتهم الأقوى تجبر بآيات الرسل البشر ـ فلا يبقى إلّا الأغوي إضافة إلى سقوط دور التكليف أم ضعفه، ففي رسالة البشر تضاعف البرهان بتناسق انسان مع انسان «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»!.

---

[1]. نور الثقلين ١: ٧٠٤ عن الإحتجاج للطبرسي عن أبي محمد الحسن العسكري

عليهما السلام أنه قال: قلت لأبي علي بن محمد عليهما السلام هل كان رسول اللّه ص يناظر اليهود و المشركين إذا عاتبوه و يحاجهم إذا حاجوه؟ قال: بلى مرارا كثيرة إن رسول اللّه (ص) كان قاعدا ذات يوم بفناء الكعبة- إذ اجتمع جماعة من رؤاء قريش- إذ ابتدأ عبد اللّه بن أبي أمية المخزومي فقال يا محمد! لقد ادعيت دعوى عظيمة و قلت مقالا هائلا، زعمت أنك رسول رب العالمين و ما ينبغي لرب العالمين و خالق الخلق أجمعين أن يكون مثلك رسوله بشرا مثلنا و لو كنت نبيا لكان معك ملك يصدقك و نشاهده بل لو أراد اللّه ان يبعث إلينا نبيا لكان إنما يبعث إلينا ملكا لا بشرا مثلنا، ما أنت يا محمد إلّا رجلا مسحورا و لست بنبي فقال رسول اللّه ص: «اللهم ... فأنزل اللّه عليه يا محمد «و قالوا ...» ثم قال رسول اللّه (ص): و أما قولك لي: و لو كنت نبيا لكان معك ملك يصدقك و نشاهده، بل لو أراد أن يبعث إلينا نبينا لكان إنما يبعث إلينا ملكا لا بشرا مثلنا، فالملك لا تشاهده حواسكم لأنه من جنس هذا الهواء لا عيان منه و لو شاهدتموه بأن يزاد في قوى ابصاركم لقلتم ليس هذا ملكا بل هذا بشر لأنه إنما كان يظهر لكم بصورة البشر الذي ألفتموه لتعرفوا عنه مقالته و تعرفوا خطابه و مراده فكيف كنتم تعلمون صدق الملك و أن ما يقوله حق، بل إنما يبعث اللّه بشرا و أظهر على يده المعجزات التي ليست في طبايع البشر الذين قد علمتم ضمائر قلوبهم فتعلمون بعجزكم عما جاء به أنه معجزة و ان ذلك شهادة من اللّه بالصدق له، و لو ظهر لكم ملك و ظهر على يده ما يعجز عنه البشر لم تكن في ذلك ما يدلكم أن ذلك ليس في طبايع ساير أجناسه من الملائكة حتى يصير ذلك معجزا له، ألا ترون ان الطيور التي تطير ليس ذلك منها بمعجز لأن لها أجناسا يقع منها مثل طيرانها، و لو أنّ آدميا طار كطيرانها كان ذلك معجزا فاللّه عزّ و جلّ سهل عليكم الأمر و جعله بحيث يقوم عليكم حجته و أنتم تقترحون على الصعب الذي لا حجة فيه ...».

فالمتطلبون الرسالة الملائكية هم في الحق لا يطلبون حجة أقوى، بل هي أهوى وأغوى، فمن المستحيل ـ إذا ـ إرسال الرسل الملائكية لقبيل الإنسان وأضرابه لأمور تالية:

١ ـ الملائكة لا ترى بالصورة الملائكية إلّا عند الموت وفي البرزخ والقيامة حيث تفتح العيون البرزخية وما فوقها، وعند الموت يسقط دور التكليف.

٢ ـ لو رأوُا الملائكة ولم يؤنوا قضي عليهم حيث تستأصلهم الحجة البارعة، لمكان إعلان الغيب، ولو آمنوا لم يكن في إيمانهم ابتلاء والإيمان عقيديا وعمليا ابتلاء في دار الاختيار الاختبار البلاء.

٣ ـ لو رأوُا الملائكة وأرادوا أن يؤنوا بابتلاء لم تكمل بهذه الرسالة حجة ولم تتبين محجة فان لهم شبهة في آيات الرسالة، وعدم معرفة بهذا الرسول الذي ما عاشوه، ثم لايحتّمون على أنفسهم إتباع الرسول الذي هو ذو بعدين من الدعوة: وحيا وعملا به، فإن مسئوليات الملائكة ـ حسب نوعية كيانهم ـ غير ما هي على الإنسان، وأنهم لو كلفوا بما يكلف به الإنسان فلهم حجة أننا مبتلون بالنفس الأمّارة دون الملائكة، وليس هكذا رسول من الإنس لمكان الأنس به في أصل الكون والكيان، فحين يرى الإنسان رسولا من ذوي نوعه يرغب في اتباعه ليصبح نظيره أو قريبا منه، وليست العصمة الربانية إلّا في ظروف العصمة البشرية والرسل لا يطلبون من الناس إلّا عصمة بشرية على ضوء الوحي.

فللمسانخة بين الرسول والمرسل إليهم دور هام في إتمام الحجة لاتّباعه لأنه منهم وهي من المنن الربانية التي يمتن اللّه بها على عباده:

«هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ..» (٦٢: ٢) في حقل الرسالة «وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» في حقل الخلافة، ولا نجد في الرسل رسولا يرسل إلى قوم ليس هو منهم سواء أ كانت رسالة محدودة أو مطلقة يحلق على كافة المكلفين.

و صيغة «من قومه» متكررة في حقل الرسالات، وأما الرسالة العالمية فهي ايضا منبثقة من قوم الرسول الأولين، الذين هم مبدء الدعوة الرسالية ومنطلقها، ومن ثم هم الذين يحملون هذه الرسالة إلى آخرين.

فكلّما كان الرسول أقرب إلى المرسل إليهم مكانا ومكانة وقرابة ولغة أماهيه؟ كانت رسالته أنجح وحجته أرجح، حيث يرونه منهم وفي مستواهم، وهو مع الوصف أرسل إليهم بلباقة مكتسبة كأصل حتى انتجبه اللّه للرسالة إليهم.

و هكذا تكون دور الدعوات الرسالية في كل حقولها الفرعية من قيادة الأمة روحية وزمنية، أو مرجعية الفتيا أو الحاكمية الشرعية في قضاء وما أشبه، أو إمامة الجمعة أو الجماعة أمّاهيه من مناصب روحية أو زمنية، حيث الأصلح الأليق أن ينتجب من أنفس هؤلآء الذين يحكم فيهم أو يؤهم، اللهم إلّا أن لا يكون فيهم من يليق لذلك المنصب.

و ابتعاث الرسول البشر إلى الجن وسواهم من غير الانس لا ينقض قاعدة المجانسة إلّا إذا كان هو المتكفل لهم بتبليغ الرسالة، ولكن رسل الجن هم وكلاء عن رسل الإنس قبل ختم الرسالة، أم هم نوابهم دون عصمة أم معها دون وحي كالأئمة المعصومين عليهم السلام، أما إذا كانت الرسالة إلى غير الانس كذلك فهناك أيضا المجانسة ملحوظة محفوظة، فان الذي يدعوهم مواجهة هو منهم مهما كان هو نفسه تحت قيادة أعلى رسالية أو رسولية، ففرق بين رسول لحمل الرسالة إلى رسول، ورسول يصاحب المرسل إليهم في رسالته، ورسالة رسل البشر الى رسل الجن من قبيل الأولى كرسالة الرسل

الملائكية إلى الرسل البشر.
ثم رسالة البشر الى قبيل الجن ليست بتلك المفاصلة التي هي بين الملائكة والأنس حيث هما مشتركان في كل التكليف وفي نزعات النفس والعقل.
وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ(١٠):
لا تأسف يا حامل الرسالة الأخيرة السامية على ما يستهزئ بك فيها، فإن تأريخ الرسالة مشحون بهزءهم وسخريتهم من قبل المجاهيل المكذبين بآيات ربهم: «وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ...» بمختلف ألوانه وأشجانه، وهذه تسلية للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وتسرية عنه مما كان يلقاه من عناد المعرضين وعنت المكذبين المستهزئين، طمأنة لقلبه الجريح القريح إلى سنة اللّه في أخذ المستهزئين بالرسل والمكذبين، وتأسية له كذلك بأن ليس بدعا في واجهة الهزء من هؤلآء الأوغاد المناكيد «فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ».
فقد تنزل هذه الآية حينما غاظ الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله بهزءهم[1]، طمأنة لخاطره القديس الخطير، وتشجيعا لذلك البشير النذير أن يستمر في دعوته صامدا، لا هامدا ولا فشلا.
ذلك ولم يكن اللّه ليسكت عن هزء الرسل والسخرية من الرسالات، «فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ» إصابة حالة محيطة «ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» وهو حيق الاستهزاء نفسه إذ برز بصورة عذابات الاستئصال الهازئة بهم وكما في قوم نوح: «كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنّا فَإِنّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ» (١١: ٣٨) فقد سخرت منهم أمواج الطوفان جزاء وفاقا.
هنا «ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» قد تعم إلى نفس الاستهزاء المستهزء به، حيث الرسالات ببلوغها وبلاغها وصمودها وتقدمها وآياتها استهزئت بهؤاء الأوغاد المناكيد، كما استهزء بهم هزءهم نفسه.
قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١):
«سيروا» سيرا تاريخيا جغرافيا وجغرافيا تاريخيا «في الأرض» إنسانيا، «ثُمَّ انْظُرُوا» نظرة العبرة «كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ» ـ «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» (٢٧: ٥٢) ـ (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَ هِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ» (٢٢: ٤٥) (فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ» (٦٩: ٨).
فالسير في الأرض هو للاستطاع والتدبر والإعتبار معرفة لسنن اللّه مرتسمة في الأحداث، مسجلة في الآثار.
فذلك السير يجعل الإنسان ابن غابره إلى حاضره ليعيش مجربا وعلى خبرة بنتائج الأعمال خيّرة وشريرة.
فقد لمس بهذه التذكرة قلوب المستهزئين المقلوبة، المغلوبة بطوع الهوى، بمصارع أضرابهم من أسلافهم ومنهم من هم أشد قوة منهم وآثارا في الأرض.
و خير عرض لسير الأرض هو عرض القرآن لأخبار الأرض حيث يسيرنا سيرا حثيثا حسيسا دون أي

---

[1]. الدر المنثور ٣: ٥- اخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق قال مر رسول اللّه ص فيما بلغني بالوليد بن المغيرة و أمية بن خلف و أبي جهل بن هشام فهمزوه و استهزءوا به فغاظه ذلك فأنزل اللّه «وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ ...».

خليط من أباطيل وأساطير.
قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٢):
«قل» لهؤاء الأغفال «لمن» مُلكا وملكا «ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» وهما الكون المخلوق كله، ولأن الجواب باهر حيث المسؤلون مصدقون بوجود اللّه مهما كانوا به مشركين ف «قل للّه» وكما «لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّهُ»(٣١: ٢٥) ـ (... لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ» (٤٣: ٩) ـ (... فَأَنّى يُؤْفَكُونَ»(٨٧).
هؤلآء المجاهيل الأقدمون كانوا يعترفون بالربوبية العليا وإن لم يكونوا يرتبون عليها نتائجها المنطقية بإفراد اللّه في هذه الربوبية دون إشراك، فتلك الجاهلية ـ إذا ـ لها الشرف على الجاهلية المادية المتحضرة ـ المسماة بالعلمية ـ حيث تنكر حقيقة الربوبية عن بكرتها، حيث تغلق على فطرتها وعقليتها دروبهما دون رؤة الحقيقة الكبرى!.
ذلك ومن مخلفات «لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» أنه ذو رحمة واسعة، وقد «كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ» كتابة الفرض والتحقيق إضافة إلى واقعية الكون كله التي هي من واسع رحمته.
و لقد كررت كتابة الرحمة بكل حلقاتها في القرآن مرارا، هنا مرتان أخراهما «كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (٥٤) وثالثة مصرّحة بتحقيق كتابة الرحمة: «... قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ» (٧: ١٥٦).
و تلك الرحمة الربانية الواسعة كلّ شيء، المحلّقة عليها، هي مكتوبة وعدا وتحقيقا للمتقين، ومن رحمته الشاملة «لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ» وهو رحمة في حلقات: رحمة لنا في هذه الأدنى أن نروضها بالتقوى ونرفض فيها الطغوى خوفة من الأخرى وطمعا فيها، ورحمة لنا أخرى أن احتمالة الحياة الحساب تكسر من ثورة الطغيان عن أهله، وثالثة رحمته في الأخرى، المكتوبة للذين يتقون، ورابعة أن زحمة الظالمين يوم الدين هي رحمة للمظلومين.
ذلك، وكما شملت رحمته كلّ شيء، فقد سبقت رحمته غضبه، سبقا زمنيا وشموليا وفي المكانة، ومثلث السبق باهر من الذكر الحكيم في حين لا نجد ولا لحمة لشمولية الغضب، فإنما هو ل«من أشاء» كما في آية الأعراف وما أشبه.
و لقد رويت هذه السابقة السابغة للرحمة الربوبية عن رسول الرحمة صلى‌الله‌عليه‌وآله بألفاظ عدة[1] وان

---

[1]. الدر المنثور ٣: ٦ بسند عن أبي هريرة عن النبي ص: «لما خلق الله الخلق كتب كتابا بيده على نفسه ان رحمتي تغلب غضبي» وفي اخرى «ان رحمتي سبقت غضبي»
وفي ثالثة عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه (ص): إذا فرغ اللّه من القضاء بين الخلق اخرج كتابا من تحت العرش إن رحمتي سبقت غضبي و أنا ارحم الراحمين فيقبض قبضة أو قبضتين فيخرج من النار خلق كثير لم يعملوا خيرا مكتوب بين أعينهم: عتقاء اللّه.
وفيه اخرج ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن باللّه عن أبي قتادة عن رسول اللّه (ص) قال: قال اللّه للملائكة ألا أحدثكم عن عبدين من بني إسرائيل أما أحدهما فيرى بنو إسرائيل انه أفضلهما في الدين و العلم و الخلق و الآخر انه مسرف على نفسه فذكر عنه صاحبه فقال: لن يغفر اللّه له فقال: ألم يعلم أني ارحم الراحمين ألم يعلم أن رحمتي سبقت غضبي و أني أوجبت لهذا العذاب فقال رسول اللّه (ص): فلا تألوا على اللّه.

رحمته يوم القيامة سابقة كأسبغها على رحمته يوم الدنيا[1].
و ترى ما هو موقف «إلى» في «لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ»؟ مهما وردت أيضا «إِنَّ اللَّهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَ الْكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً» (۴: ۱۴۰) ولكنه جمع خاص لمجموعين خصوص.
إن الجمع «إلى» يجمع إلى «في» ـ اللامح لحضور المجموعة ـ جمع الأوّلين والآخرين: «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ» (۵۶: ۵۰) عناية إلى منتهى الآمل لمفترقين زمانا ومكانا، وفي أمد الموت والحياة، أنهم كلهم إلى غاية واحدة هي «ميقات يَوْمٍ مَعْلُومٍ».
ذلك، وقد تشبهه «يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ» (۶۴: ۹) عناية إلى نفس الغاية أنها الجمع للحساب دونما أية تفرقة ثم «لا رَيْبَ فِيهِ» قد يعني من «فيه» كلا اليوم والجمع، فكما لا ريب في يوم القيامة كذلك لا ريب في الجمع إليه حسابا فثوابا أو عقابا.
«الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» إذ فقدوها ولم يفتقدوها، فقد ضلوا عن فطرهم وعقولهم الإنسانية، فحسبوا أنفسهم حيوانا بل وأضل سبيلا «فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» والحيوان هو في حقل الإيمان.

آجال الامم

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ (۳۴).
هناك آجال شخصية بين محتومة ومعلقة، وهنا أجال جماعية، فهل هي كماهيه آجال الأعمار بقسميها؟ ولا نجد أمة بكاملها تنقضي بموت لأجل محتوم أو معلق على أية حال!.
أم هي آجال في كيانها دون كونها كالأمم الرسالية الخمس حيث يقضى على شرعة كل بمجيء الأخرى، ثم الأمة الإسلامية أجلها القيامة الكبرى إذ لا أمة رسالية بعدها، و قد يتأيد أجل الكيان بآيات يونس:

وفي نور الثقلين ۱: ۷۰۵ في روضة الكافي في رسالة أبي جعفر عليهما السلام الى سعد الخير: «فكتب على نفسه الرحمة فسبقت قبل الغضب فتمت صدقا و عدلا فليس يبتدئ العباد بالغضب قبل أن يغضبوه و ذلك من علم اليقين و علم التقوى».

[1]. المصدر أخرج ابن أبي شيبة و ابن ماجه عن أبي سعيد قال: قال رسول اللّه ص: «إن الله خلق يوم خلق السماوات و الأرض مائة رحمة فجعل في الأرض منها رحمة فيها تعطف الوالدة على ولدها و البهائم بعضها على بعض و آخر تسعا و تسعين إلى يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة مائة رحمة».
وأخرج الشيخان عن عمر بن الخطاب قال قدم على رسول اللّه (ص) بسبي فإذا امرأة من السبي تسعى قد تحلب ثديها إذا وجدت صبيا في السبي فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته فقال (ص): أ ترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا و اللّه و هي تقدر على ألا تطرحه، قال: فاللّه تعالى ارحم بعباده من هذه بولدها.
وعن جرير قال رسول اللّه (ص): لا يرحم اللّه من لا يرحم الناس (أخرجه الشيخان و الترمذي).

«وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ. وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَ لا نَفْعاً إِلّا ما شاءَ اللّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ»[1].

ذلك، بعد ما يتأيد بما احتفت به من آيات تخاطب بني آدم ككل:

«يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ ... وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ... يا بَنِي آدَمَ» إذا فكل الأمم الرسالية الخمس مؤلة بأجل محتوم دون تعلّق، حيث ينقضي دورها الرسالي بأمة رسالية أخرى تليها، ومجيء الأجل هنا هو مجيء قضاءه، لا نفسه، حتى ينافي لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

و هنالك أجل ثالث هو أجل كل الأمم عن بكرتهم كما في يونس «وَ لَوْ يُؤ'٧cخِذُ اللّهُ النّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ» ٦١ و«كل أمة» هنا تعني كل الأمم، ولكنه احتمال بعيد عن ساحة الدلالة القرآنية.

ثم ومجيء الأجل في هذه الآجال لا يعني هنا واقعها إذ لا معنى ـ إذا ـ لاستقدامها وقد قضيت، بل هو مجيء تقدير الآجال فلا مؤر لها إذاً ولا مقدّم عما عجلت أم أجّلت لها من آجال، أم إنه واقع الأجل بفارق أنه في «يستقدمون» مستحيل ذاتيا، وفي يستأخرون وقوعيا، فقد عني ـ إذا ـ تلحيق «يستأخرون» ب«يستقدمون» في الإحالة مهما اختلفت فيها ذاتيا وسواها، حيث القصد هنا أصل الاستحالة لا وكيفيتها.

ذلك، وترى كيف «لا يستأخرون» مهما هم «لا يستقدمون»؟

«لا يَسْتَأْخِرُونَ» حيث يرون عندئذ ألّا مجال لتأخير لأنه أجل محتوم، ثم «لا يستقدمون» قد تعني ـ مع ما عنت ـ أن ليس لهم تقدم الأجل المحتوم مهما حاولوا، اللّهم إلّا المعلق ولكنه أيضا غير بعيد عن مشيئة اللّه.

و قد تعني «كل أمة» كل الأمم رسالية وسواها بكياناتها الجماعية قيادية روحية أو زمنية أمّاهيه من كيانات جماعية.

أو تعني «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ» ـ مع ما عنت ـ أجل الموت المحتوم قبل القيامة، والأمة ـ إذا ـ هي أمة الموت، فإن لكل آن أمواتا بين كل الأحياء، ف «لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ» الأجل المحتوم لا

---

[1]. نور الثقلين ٢: ٢٧ فيه عدة روايات تشابه ما نقلناه عن الدر المنثور في تفسير الآية أنها تشمل آجال الأعمار،وفيه عن كتاب التوحيد بسند متصل عن ابن حيان التميمي عن أبيه: و كان علي عليه السّلام يفنى الكتاب يوم صفين و معاوية مستقبله على فرس له يتأكل تحته تأكلا و علي (عليه السّلام) على فرس رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)- - المرتجز و بيده حربة رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و هو متقلد سيفه ذا الفقار، فقال رجل من أصحابه: احترس يا أمير المؤنين فانا نخشى أن يغتالك هذا فقال علي (عليه السلام): لئن قلت ذلك أنه غير مأمون على دينه و انه لأشقى القاسطين و ألعن الخارجين على الائمة المهتدين، و لكن كفى بالأجل حارسا، ليس أحد من الناس إلا و معه ملائكة حفظة يحفظونه من أن يتردى في بئر أو يقع عليه حائط أو يصيبه سوء فإذا حان أجله خلوا بينه و بين ما يصيبه و كذلك إذا حان أجلي انبعت أشقاها فخضب هذه من هذا- و أشار بيده إلى لحيته و رأسه- عهدا معهودا و وعدا غير مكذوب.

أقول: فالمفروض على المكلفين التحرز عن بواعث الموت إلا فيما أمر الله بالجهاد، ثم ليس عليهم الحفاظ على أنفسهم أكثر من ذلك التحرز حيث الأجل ضمان رباني.

فرديا ولا جماعيا[1] وما علينا أن نتحرز عن الآجال المحتومة فإنه غير مستطاع لنا إذنجهلها، فإنما لنا وعلينا التحرز عن أسباب الموت ـ غير المحبورة ـ حيث الأجل المحتوم مجهول بين الآجال المعلقة.
ففي مسارح القتال المفروضة علينا أو الراجحة لنا ليس التعرض للموت محظورا، بل هو محبور قضية الأمر، وفي سائر المسارح هو محظور حيث نجهل محتوم الأجل عن معلّقة[2].
فالمفروض علينا الفرار من الموت، فرارا «من قضاء الله إلى قدر الله عز وجل»[3]، فإنه قاض بالموت إذا تعرضنا لأسبابه المحتومة، ولكنه مقدر للموت المحتوم أضيق من قضاءه فنستسلم لقدره كما أمر، ونفرّ من قضاءه كما أمر، اللّهم إلّا في معترضات الموت المأمور بها كجبهات الحرب، بل وفيها أيضا ليس لنا الإقدام على الموت، بل «خُذُوا حِذْرَكُمْ» ثم إذا حضر الموت على حذركم فلكم الحسنى إذ كان

---

[1]. الدر المنثور ٣: ٨١ عن أبي الدرداء قال تذاكرنا زيادة العمر عند رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم فقلنا: من وصل رحمه أنسئ في أجله؟ فقال: انه ليس بزائد في عمره قال اللّه: «فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ» و لكن الرجل يكون له الذرية الصالحة فيدعون اللّه له من بعده فيبلغه ذلك فذلك الذي يلحقه دعاءهم في قبره فذلك زيادة العمر.
أقول: يعني (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من زيادة العمر المنفية بصلة الرحم و ما أشبه، الزيادة على الأجل المحتوم، و ما ألطفه زيادة حكمية و هو في قبره حتى يصله دعاء الصالحين من ذريته، فلا ينافي «ليس بزائد في عمره» دفع الآجال المعلقة بمبرات، فطالما الزيادة الواقعية في العمر مسلوبة فالزيادة الحكمية و كذلك دفع الآجال المعلقة، هما قائمان، فالمبرات مانعة عن النقص في الأعمار دون زيادة عليها و كما قال اللّه: «وَ ما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلّا فِي كِتابٍ».
فالمعني من النسأ في العمر هو النسأ عن الأجل المعلق لا المحتوم و كما في المصدر أخرج أحمد عن ثوبان عن النبي صلى اللّه عليه و آله و سلم قال: من سره النسأ في الأجل و الزيادة في الرزق فليصل رحمه.
وفيه أخرج الحكيم الترمذي عن ابن عباس قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): من ولي من أمر أمتي شيئا فحسنت سريرته رزق الهيبة من قلوبهم و إذا بسط يده لهم بالمعروف رزق المحبة منهم و إذا وفر عليهم أموالهم وفر اللّه عليه ماله و إذا أنصف الضعيف من القوي قوى اللّه سلطانه و إذا عدل مد في عمره.

[2]. راجع إلى حاشية ١ ص ١١٢

[3]. المصدر عن التوحيد باسناده إلى الأصبغ بن نباتة قال: ان أمير المؤنين عليه السّلام عدل من عند حائط مايل إلى حائط آخر فقيل يا أمير المؤنين تفر من قضاء اللّه؟ قال:
أفر من قضاء اللّه إلى قدر اللّه عزّ و جلّ،و فيه باسناده إلى عمرو بن جميع عن جعفر بن محمد قال حدثني أبي عن أبيه عن جده (عليهم السّلام) قال: دخل الحسين بن علي (عليه السّلام) على معاوية فقال له: ما حمل أباك على أن قتل أهل البصرة ثم دار عشيا في طرفهم في ثوبين؟ فقال (عليه السّلام): حمله على ذلك علمه أن ما أصابه لم يكن ليخطئه و ما أخطأه لم يكن ليصيبه، قال: صدقت.
و فيه و قيل لأمير المؤنين عليه السّلام لما أراد قتال الخوارج: لو احترزت يا أمير المؤنين فقال:
أي يومين من الموت أخر يوم ما قدر أو يوم قدر يوم لم يقدر لا أخشى الردى و إذا قدر لم يغن الحذر وفي كتاب المناقب لابن شهر آشوب: و كان مكتوبا على درع علي (عليه السّلام):
و كان مكتوبا على علم أمير المؤنين (عليه السّلام):
الحرب إن باشرتها فلا يكن منك الفشل و اصبر على أهوالها لا موت إلا بالأجل وفيه عن الحسن بن علي (عليه السّلام) كلام طويل و فيه: إن عليا (عليه السّلام) في المحيى و الممات و المبعث عاش بقدر و مات بأجل.

بأمر اللّه.
ذلك، فإن القضاء والقدر للموت فلا فرار كما قدر للإمام علي عليه‌السلام قبله حيث قدم إلى مضجعه إلى المحراب، وقدر للإمام الحسن المجتبي وللإمام الرضا وغيرهما من أئمة الدين قدر الموت بقضاء السم.
فإنما جهلنا بتوافق القضاء والقدر أو علمنا باختلافهما يفرض علينا الفرار من القضاء إلى القدر، فأما إذا علمنا التوافق بينهما، أم أمرنا بالتعرض لقضائه كمسرح القتال وما أشبه فلا فقد «قدر لكم أعمارا سترها عنكم»[1] «فما ينجوا من الموت من خافه، ولا يعطى البقاء من أحبه» (٣٨)
حيث «خلق الآجال فأطالها وقصرها، وقدمها وأخرها» (٨٩)
«و إن الفار لغير مزيد في عمره، ولا محجوز بينه وبين يومه» (١٢٢).
ف «إنما أنتم في هذه الدنيا غرض تنتصل فيه المنايا، مع كل جريمة شرق، وفي كل أكلة غصص، لا تنالون منها نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يعمر معمر منكم يوما من عمره إلا بهدم آخر من أجله، ولا تجدد له زيادة في أكله إلا بنفاد ما قبلها من رزقه» (١٤٣)
و«إن مع كل إنسان ملكين يحفظانه، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، وإن الأجل جنة حصينة»(٢٠١ ح).
و حصيلة البحث عن آية الأجل، أن الأجل هنا بين محتوم ومعلق، وهما بين أجل الموت عن أصل الحياة، أو انتقال إلى شرعة أخرى، أم انتقال كيان حيوي آخر روحيا أم ماديا من أمة إلى آخرين.
ثم «لا يستأخرون ولا يستقدمون» هما بين مجيء وقت الأجل إعلاما، أم واقعا في وقته، أم على أشرافه.
ف «لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ» في آجال الأمم الرسالية، هما قضية أنهم مخبرون بأن أجلهم سوف ينقضي بما قضاه اللّه، فليس لهم فيه تطلّب لتأخر إلى أمد، أم تقدم على أمد، لأنه مشاقة اللّه في قضاءه المحتوم حسب الحكمة العالية.
فلا يعني مجيء الأجل هنا واقعه إلّا في «لا يستأخرون» حيث لا مجال ـ إذا ـ ل«لا يستقدمون»فإن استقدام الزمن الماضي مستحيل.
و هكذا نمشي ونمضي بنور اللّه على ضوء القضية الدلالية لآلية فاصحة واضحة، بين محتملات الأجل والأمة ولا يستأخرون ولا يستقدمون، ما ناسبت الواقع غير المستحيل، والدلالة الصالحة.
ذلك، والأجل المقدر عند اللّه مجهول عن كل الخليقة حتى المعصومين وكما قال علي أمير المؤنين عليه‌السلام: «أيها الناس كل امرئ لاق ما يفر منه في فراره، والأجل مساق النفس، والهرب منه موافاته، كم اطردت الأيام أبحثها عن مكنون هذا الأمر فأبى الله إلا إخفاءه هيهات! علم مخزون ..» (الخطبة ١٤٩)
و«إن مع كل إنسان ملكين يحفظانه فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه وان الأجل جنة حصينة»(الحكمة ١٩٠).
أجل، وكما أن أجل القيامة من العلم المخزون المكتوم قضية الابتلاء الشامل، فكذلك أجل الموت فإنه لا يعلمه لوقته ومكانه الخاص إلّا اللّه، ولم يكن ليعلم الإمام أمير المؤنين إلّا كيف يقتل، ومتى وأين

[1]. نهج البلاغة الخطبة ٨٢/ ٢/ ١٤١.

فقد كان مجهولا لديه بنفس القضية الحكيمة الشاملة، أم كان يعلم بتوافق أجلي المقدر والمحتوم فأقدم على ما أقدم.
ذلك، وعلى أن الآجال محددة بإذن اللّه وعلمه، ولكنه من ناحية أخرى لا يمنع من التحسر على بلوغ آجال الأجلاء الذين هم هداة الناس دون بديل عنهم.
و هنا من كلام لعلي أمير المؤنين عليه‌السلام وهو يلي غسل رسول اللّه وتجهيزه:
«بأبي أنت وأمي يا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأبناء وأخبار السماء، خصصت حتى صرت مسليا عمن سواك، وعممت حتى صار الناس فيك سواء، ولولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفذن عليك ماء الشؤ، ولكان الداء مماطلا، والكمد محالفا وقلا لك، و لكنه ما لا يملك رده، ولا يستطاع دفعه، بأبي أنت وأمي، اذكرنا عند ربك واجعلنا من بالك» (الكلام ٢٢۶).
ذلك، وأجال الرسل هي مقدرة مقررة لا تستقدم ولا تستأخر، قضية الحكمة العالية الربانية في الحفاظ على وحيه الرسالي لإتمامه في أيامه، ولا سيما خاتم المرسلين محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله فقد «كتب آجالكم، وأنزل عليكم الكتاب تبيانا لكل شيء، وعمر فيكم نبيه أزمانا حتى أكمل له ولكم فيما أنزل من كتابه دينه الذي رضي لنفسه، وأنهى إليكم على لسانه محابه من الأعمال ومكارهه، ونواهيه وأوامره، فألقى إليكم المعذرة، واتخذ عليكم الحجة، وقدم إليكم بالوعيد، وأنذركم بين يدي عذاب شديد ...»(الخطبة ٨۵).
يا بَنِي آدَمَ إِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي فَمَنِ اتَّقى وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣۵).
ذلك، حيث «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ» (٢: ٣٩) ـ (قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى. وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى» (٢٠: ١٢۴) ففي هاتين «هدى» حيث تشملان آدم و هو أول الرسل، وهنا «رسل» إذ ما أتى آدم نفسه رسول، نصوص ثلاثة تتحدث عن مسرح الرسالات الربانية على مدار الزمن الرسالي للمكلفين، فالتمسك بآية «بني آدم»زعما أنهم ـ فقط ـ الأمة الإسلامية، ف «إِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ» بشارة لرسالات بعد الرسالة الإسلامية؟ إنه تمسك هباء وخواء ـ بعيد عن بني آدم ـ اللّهم إلّا أن تخرج بقية الأمم الرسالية عن بني آدم ومنهم هؤلآء المدعون استمرارية الرسالة لما بعد الرسالة الإسلامية.
كلّا! فإنه خطاب يعم كل بني آدم على مدار الزمن الرسالي دونما استثناء، منذ آدم حتى خاتم النبيين صلوات اللّه عليه وعليهم أجمعين.
ف «إِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ ..» تأكيد لإتيان الرسل بصورة الشرطية، تدليلا على أن «فَمَنِ اتَّقى وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ» بشارة ونذارة عامة تحلق على كل بني آدم المكلفين دونما استثناء.
و هنا «رُسُلٌ مِنْكُمْ» كما «يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي..» (۶: ١٣٠)

حيث تعني «منكم» المجانسة بين الرسل والمرسل إليهم، لا انهم المنتخبون من قبلهم، فهكذا أيضا «أولوا الأمر منكم» دون فارق.

و لأن «ما» تخفف عن تردد «إن» الشرطية، ثم الشرطية غير متمحضة في واقع التردد، بل هي تعلّق أمرا على آخر حاصلا أم سوف يحصل، أم حصل قبل أو لن يحصل، لذلك كله فلا تناحر بين «إن» الشرطية والتأكيد المستفاد من التأكيدية الثقيلة في «يأتين»، ولأن القص هو تتبع الأثر، وهو القص التأريخي بمعنى عرض النخبة اللامعة، إذاً «فَتقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي» يعنى تتبع الآثار الربانية فطرية وعقلية وشرعية أماهيه من آفاقية وأنفسية، وقص التاريخ الرسالي لأنه سلسلة موصولة مع الزمن الرسالي.

ذلك وقد «اصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم، لما بدل أكثر خلقه عهد الله إليهم، فجهلوا حقه، واتخذوا الأنداد معه، واجتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويروهم الآيات المقدرة، من سقف مرفوع، و مهاد تحتهم موضوع، ومعايش تحييهم، وآجال تفنيهم، وأوصاب تهرمهم، واحداث تتابع عليهم، ولم يخل سبحانه خلقه من نبي مرسل، أو كتاب منزل، أو حجة لازمة، أو محجة قائمة، رسل لا تقصر بهم قلة عددهم، ولا كثرة المكذبين لهم، من سابق سمي له من بعده، أو غابر عرفه من قبله ـ على ذلك نسلت القرون، ومضت الدهور، وسلفت الآباء، وخلفت الأبناء، إلى أن بعث الله سبحانه محمدا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله لإنجاز عدته، وتمام نبوته، مأخوذا على النبيين ميثاقه، مشهورة سماته، كريما ميلاده..»(الخطبة ١).

وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ(٣٦).

و الخلود ـ كما مر مرارا ويمر ـ هو البقاء مدة طائلة، دون غائلة الأبدية اللانهائية التي افتريت على اللّه بتعليلات عليلة، وهل العقوبة اللانهائية هي جزاء وفاق للعصيان المحدود لزمن محدود بأثر محدود؟: ـ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ حَتّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنّا وَ شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (٣٧).

فممن افترى على اللّه كذبا وكذب بآياته هؤلآء الذين يؤدّون المكذبين بآيات اللّه المستكبرين عنها، أبد اللّانهاية، فهم ـ إذا ـ معهم فيما يزعمون، اللّهم إلّا القاصرين منهم التابعين للقائلين به الغائلين.

تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ (١٠١).

«تلك القرى» الرسالية المكلفة برسالات اللّه، على مدار الزمن الرسالي «نقص عليك» قصا تاريخيا بعضا «من أنباءها» أمام الدعوات الرسالية «وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ» رسولية ورسالية، ولكن «فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا ....».

فهنا سلسلة موصولة من الرسل والرسالات بكل البسالات والحصالات، وتقابلها سلسلة من التكذيبات.

و هناك ثالوث من غائلاتهم إذ «ما كانوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ» وذلك: ١ تكذيب من قبل، ٢ فطبع على قلوبهم ثم ٣ (فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا» من بعد، لمكان

ذلك الطبع بالطبع امتناعا بالاختيار.
فترى أن «من قبل» هنا تعني قبل ولادهم في الذر؟ ولا يعني الذر في آيته عالَما قبل الولاد، فيه واقع التساءل بين اللّه وبينهم، إذ لا يذكره أحد حتى من كمّل المؤنين، فكيف يحتج عليهم ب«بلى» فيه، على «أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنّا كُنّا عَنْ هذا غافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤنا مِنْ قَبْلُ ..»! ولا دور للإحتجاج بما هو منسي طليق لن يذكر.
ثم لم يكن في الذر منهم ومن كل الناس ـ أيا كان وكانوا ـ إلّا «بلى» وهنا «بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ»!.
فحتى ولو كان منهم «لا» فلا يستحقون بمجرده أن يطبع على قلوبهم إلّا إذا أصروا في التكذيب يوم التكليف! فقد يكفر مكلف بشرعة اللّه إذاً لما تصله حجتها، أم وصلته ولمّا يفكر فيها، أم فكر وكذب بها عجالة دون إصرار، ولمّا يحن حين الطبع في هذه الثلاث، اللّهم إلّا إذا عاش تكذيبا بعلم وعناد ثم طال الأمد وزالت إمكانية الإيمان، فهنا دور الطبع وكما هو باهر في آياته.
و هنا «فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ» تنفي كينونة الإيمان منهم بما كذبوا من قبل في هذه المرحلة الأخيرة من علم وعناد، فطبع اللّه على قلوبهم بما كذبوا.
ف «ليؤنوا» حذفا للناصبة: «أن» تعني «للإيمان» إذا فما كانوا للإيمان بما كذبوا، إذ خرجوا عن إمكانيته بما كذبوا لحد طبع اللّه على قلوبهم.
أم هو «من قبل» ابتعاث الرسل؟ وقد ابتدأت البشرية بابتعاث الرسل، إذ بزغت الرسالات بآدم عليه‌السلام!
ثم لا تكذيب قبل الرسل ـ لو صح التكليف قبلهم ـ إذ كانوا ضلالا لا على هدى ولا على ضلال التكذيب بالرسالات ولمّا تأت، لو كانت البعثات الرسالة بعد ردح من خلق المكلفين.
ثم وليس كل تكذيب بعد بزوغ الرسالات مما يستحق الطبع على قلوب المكذبين!، إنما هو التكذيب العاند العامد المستمر الذي لا مجال فيه للاهتداء.
أم تعني «من قبل» أنهم عاشوا زمنا للرسل أو الرسالات فكانوا مكذبين بها علما وعنادا فطبع اللّه على قلوبهم، ثم استمروا في تكذيبهم بعد هذه العيشة المكذبة النكدة، «فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا»لوقت ما بعد «بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ» وكل ذلك كان في حضن الرسل، أو الرسالات، سواء أ كانوا في فترة من الرسل والرسالات قائمة، كالذين عاشوا بين آدم وإدريس، وبين إدريس ونوح، أم وبين المسيح ومحمد عليهم‌السلام ـ كأطول فترة: «لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ. لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ»(۳۶:۶) (لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ» (۲۸: ۴۶)
فهم «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» (۲: ۶) فالفترة بين الرسل، وفيها فتور لبلاغ رسالاتهم لمكان التحريف والتجديف، إن لها دورا دائرا مائرا في حصالة العناد اللدود.
أم وفي غير الفترة كما بين نوح وإبراهيم وموسى وكما في آيات يونس: «ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ. ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى وَ هارُونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ بِآياتِنا فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ» (۱۰: ۷۴ ـ ۷۵).
«وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمّا ظَلَمُوا وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَ ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْ ُمجْرِمِينَ. ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ»(۱۰: ۱۳) وآية الأنعام:«وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ»(۶:

١١٠). فالفترة بين الرسل هي من الظروف القاسية العاصية بطبيعة الحال، لحقل التكذيب بالرسل ورسالاتهم، فإذا جاء بعدها فقد يواجهون من قبل هؤلآء الالدّاء بتكذيبات وتعذيبات.
كما وان لتكذيب الرسل في زمنهم دور قاس في ملاحقة التكذيب، علّه أقسى من دور الفترة، فالعائش زمن الرسل برسالاتهم، هو أنحس نكرانا لهم ولها مبدئيا، مهما كان العائش الفترة بين الرسل هو أنحس منه نكرانا بطبيعة الحال، وهما مشتركان في قساوة التكذيب، مهما كان البعض أقسى- من الآخر لملابسات أخرى، أم لنفس الدور رسوليا وفترة بين الرسل.
وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ (١٠٢).
ذلك العهد هو عهد الفطرة كأول عهد، ومن ثم عهد العقلية الإنسانية والشرعة الربانية حيث يتلوانه، و«أكثرهم» هنا لا تعني أكثر المكذبين حيث التكذيب ولا سيما ذلك الصلب الصلت هو بنفسه ترك لمثلث العهود، فقد تعني «أكثرهم» أكثر المكلفين، و«إن» هنا مخففة عن «إنّ» فقد وجدنا أكثرهم لفاسقين، خروجا عن عهد الفطرة وعهد الشرعة، فالخارج عن عهد الفطرة قبل إتيان الرسل هو خارج عن عهد الشرعة بعد إتيانهم بطبيعة الحال.
ثم و«أكثرهم» قد تعني كافة الناس في مثلث الزمان في وجدان علمي رباني، وعدم وجدانه تعالى لشيء هو عدم وجود ذلك الشيء، ولا تعني سلبية العهد أصله، فإنهم يعيشون مثلث العهد، وإنما هو استمرارية ذلك العهد تطبيقا له.
ثم «إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ» دون «كافرين» لكي يشمل كل تخلفة عن العهد إلحادا أو إشراكا أو كفرا كتابيا، أم فسقا في كل دركاته.
و قد تعني «من عهد» استئصال العهد لأكثرهم عن بكرته، مهما كان عهدا معرفيا، أو عقيديا، فضلا عن العملي.
فقد تعني ـ إذاً ـ أكثرهم، أكثر المكذبين بآيات اللّه، فالعهد بين حالات ثلاث،
١ مستغرقة إيجابيا كما للرعيل الأعلى من المعصومين (عليهم السّلام)، ٢ ومستغرقة سلبيا كما لأسفل سافلين من المكذبين، ٣ وعوانا بينهما تطبيقا لعهد وتركا لآخر، فقد يوجد مكذبون لمّا تستأصل عهودهم عن بكرتها فهم قد يؤنون أم ـ ولأقل تقدير ـ يتركون التكذيب، ثم الأكثرية منهم يعيشون ترك عهودهم حتى الموت «وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ».
ففي مثلث العهود بدرجاتها، يسبّع الناس بدرجاتهم، فمن واجد عهد الفطرة دون العقل، أم واجد عهد العقل ناس دون عهد الفطرة، أم واجد عهد الشرعة دون عهد الفطرة والعقل، أم واجد لها كلها، أم واجد لاثنين منها، فالواجد لها كلها هو القائم بها مهما كان درجات، والواجد لواحد منها هو أضعف الواجدين، ثم الواجد لاثنين منها هو عوان بينهما، كمن وجد عهد الفطرة والعقل، أو العقل والشرعة، أو الفطرة والشرعة، ثم التارك لها كلها هو المصداق الصادق ل«ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ».
ذلك، ولا يخلو أحد من عهد الفطرة مهما كان خلوا من العقل، كما لا يخلو أحد من المكلفين من عهد الشرعة مهما كان زمن الفترة.
فالصراط الوحيد إلى اللّه هو مثلث العهد فطريا وعقليا وشرعيا، فإن وسيط العقل بين الفطرة والشرعة هو صالح العقل والفطرة والشرعة.
كما أن الوهيد الوهيد هو ترك ذلك المثلث بأسره ف «لم نجد له عهدا» حيث لا منفذ ـ إذا ـ له إلى

الهدى.
و من ثم نجد راحلة ـ مهما كانت مائلة ماحلة ـ في العوان بينهما، فالواجد لبعض منها التارك لبعض قد ينجو وينجح بما هو واجده، فالفطرة تدعوا إلى العقلية الصالحة وصالح الشرعة، كما الشرعة تدعوا إلى الفطرة والعقلية الصالحة، والعقل الصالح يدعو إلى الفطرة والشرعة.
ذلك، والفسق عن الفطرة يخلّف الفسق عن العقلية، كما الفسق عن العقلية يفسّق عن الشرعة، وهكذا الفسق عن الشرعة يفسق عن الآخَرين، وكوجه عام وضابطة، يخلف الفسق عن كلّ من هذه الثلاث فسقا عن الآخرين.
كما وأن صفاوة كلّ وحفاوته تؤر في الآخرين، فهي تتجاوب ـ دوما ـ سلبيا وإيجابيا في تعامل دائب.
لذلك نرى آية الفطرة تتبناها كأصل للدين، وآيات العقل تجعله كوسيط بين الأنفس و الآفاق، والشرعة الربانية تتبنى الفطرة كأصل والعقل وسيطا بين الأصلين.
ذلك، ف «من عهد» المستأصلة كل عهد، لا تناسب إلّا المكذبين بآيات اللّه طول التاريخ، فإن أكثرهم ليس لهم عهد، ولأقلهم عهد هو لأقل تقدير عهد الفطرة أو العقلية الإنسانية، فقد يرجى اهتداءهم يوما ما إلى الحق.
فلا تعني «أكثرهم» كل المكلفين، ولا المكذبين المطبوع على قلوبهم، حيث الأكثرية من المكلفين قاصرون أم مقصرون دون تكذيب على علم وعهد، أم ومهما كان عن علم وعمد فليس يطبع على قلوب أكثرهم، بل هم القلة العنيدة العتيدة في التكذيب.
و لا المطبوع على قلوبهم لأنهم كلهم ليس لهم أي عهد، إنما هم مجموعة المكذبين، فإن أكثرهم ليس لهم «من عهد».
فسلبية العهد المستغرقة كل عهد تجعلهم كأن لا عهد لهم من أصله، بل هم أدنى ممن لم يخلق له عهد إذ يعارضون كل أحكام الفطرة والعقل والشرعة.
ثم «إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ» المختوم على قلوبهم «لفاسقين» متخلفين عن هذه العهود الثلاثة إلى أضدادها، ف «إن وجدنا ..» هي كتفسير ل«ما وجدنا» تثبيتا لأصل العهود الثلاثة لهم، ولكنهم عنها فاسقون متخلفون، ولم يقل «كافرون» لأن كل المكذبين بآيات اللّه كافرون وإنما «لفاسقون» عناية إلى خروجهم عن هذه العهود.
ذلك، وكما أن الشيطنات سبع دركات، كذلك الرحمات سبع درجات، وكما الشيطان الأكبر هو الجامع لثالوث: الشيطان ـ البقر ـ النمر، كذلك الإنسان الأكبر هو الذي يجمع بين هذه العهود الثلاثة، تاركا لثالوث الشيطنات.
ذلك، ومن الآيات المحلقة على كل العهود: «أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» (٣٦: ٦٠) (وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَ إِيّايَ فَارْهَبُونِ»(٢:٤٠) (وَ مَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً» (٤٨: ١٠).
و من الخاصة بعهد الفطرة آيتا الذر والفطرة، ومن عهد الشرعة الأصيلة: «وَ عَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ» (٢: ١٢٥) (وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» (٢٠: ١١٥).
و من عهدنا فرعيا ما نعاهد ربنا أو يعاهد بعضنا بعضا: «وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللّهِ إِذا عاهَدْتُمْ»(١٦: ٩١) (وَ

الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا» (٢: ١٧٧).

الرسل رجال من اهل القرى

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَ فَلا تَعْقِلُونَ(١٠٩).

«وَ ما أَرْسَلْنا ... إِلّا» حصر للرسالة الأصيلة الإلهية في رجال من جنس الإنس، دون نساء منهم مهما بلغن الذروة من الكمال، ولا من الجن وسواهم رجالا ولا نساء، مما يدل على حصر الرسالة في بعدي الرجولة والإنسانية، فلا تنافي الآيات الصريحة او اللامحة في رسالة الجن فانها على هامش رسالة الإنس، ولا الرسالة فيمن سوى الجن والانس حيث المجانسة شرط في الرسالة بين الرسول والمرسل إليهم، إذا فأصل الرسالات الإلهية للعالمين ومحورها الأصيل رجال من الإنس، مهما حملها رجال من الجن وسائر العالمين كخلفاء لرسل الإنس، ثم يحملها في دعوة عليمة سليمة كل من تحملها علما وعملا صالحا رجالا ونساء وكما في واجب الدعوة والأمر و النهي ف «الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ..»(٩:٧١).

«وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ» منذ بداية الرسالات «إِلّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى»لا ملائكة كما كانوا يزعمون ويقترحون، ولا سواهم «إِلّا رِجالًا ... مِنْ أَهْلِ الْقُرى» بشرا مثلك وأمثالهم من أهل المجتمعات البشرية، حيث القرية هي المجتمع أيا كان، في مدينة أو ضاحية أما هيه.

فلست أنت بدعا من الرسل، فإنك رسول كسائر الرسل، رجل من أم القرى كما هم من أهل القرى، مهما بان البون بينك وبين سائر الرسل كما البون بين أم القرى وسائر القرى.

«أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ» حاضرها وغابرها، تاريخا جغرافيا وجغرافيا تاريخيا عن شئون الرسالات الإلهية، أ فلم يسيروا فيها لينظروا رجالات الرسالات أنهم كما أنت من أهل القرى «نُوحِي إِلَيْهِمْ» ثم «فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» من الذين أرسل إليهم «حيث»رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها فأنكروا رسالات ربهم «وَ لَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا»: الدنيا وهم فيها، تقوى عن طغوى النكران «أَ فَلا تَعْقِلُونَ»في أنفسكم، وفيما تنظرون من الذين من قبلكم؟

و لعمر الله إنها هزّة فظّة تهز القلوب حتى المقلوبة المتجبرة، الجاسية القاسية المتكبرة، فلحظات الاسترجاعات الخيالية لحركات الطاغين وسكناتهم وخلجاتهم، فإذا هم على حين غفلة وغفوة لا حس لهم ولا حسيس ولا حركة، قصورهم خاوية، ودورهم خالية، طواهم الموت طيا ولا فوت، فتلك مصارعهم بين آونة وأخرى ولات حين مناص.

إنها تهز هزة وتفز فزة فظه، مهما يكن القلب خاويا، وجاسيا قاسيا، فكيف لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؟! «أَ فَلا تَعْقِلُونَ» عقل دراية، فتعتبروا بعاقبة المكذّبين قبلكم، وما قاساه رسل الله منهم:

حَتّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ وَ لا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠).

أ ترى من هم الذين «ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا»؟ أهم الرسل لقرب المرجع؟
فمن كذبهم؟ أ هم المرسل إليهم؟ وقد علموا أنهم كذّبوهم طول التاريخ الرسالي أشد تكذيب دون ان يكذبوهم! وإنما يكذبهم المنافقون فيما يدعون من الإيمان، و «حتى إذا»غاية الأمر لكل الناكرين دون خصوص المنافقين! ثم وكلّ من كذبهم نفاقا، وتكذيبهم كفرا، معلوم لدى الرسل ملموس، والنص «ظنوا»! ولقد ظن ناس «أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا»[1] ونحن نكذب قولتهم بروايتهم حيث النص «كذبوا» وكما يروى عن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله[2] كما وتكذب الرواية القائلة أن الرسل ظنوا أنهم كذبوا في وعد الله والعياذ بالله من هذه المقحمات الزور[3] وكيف ييأس الرسل من نصر الله لحد ظنوا أنهم كذبوا في وعد الله و«لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ»فضلا عن ظنهم!.
إذا ففاعل الظن والكذب هم المرسل إليهم المدلول عليهم ـ على بعدهم ـ ب«حتى إذا»حيث تتحدث عن الغاية التي انتهوا اليه امام رسلهم «.. كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ... حَتّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ...» ومم استيأس الرسل، أمن نصر الله وروحه؟ و «لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ» (٨٧)! أم استيأسوا من إيمان هؤلآء النسناس إذ كذّبوهم لحد «ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا» في وعد النصر فكذلك الأمر وكما في روايات[4] والآية: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ

---

[1]. الدر المنثور ٤: ٤١- اخرج ابن مردويه من طريق عروة عن عائشة ان النبي صلى اللّه عليه و آله و سلم قرء «وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا» بالتشديد.

[2]. المصدر اخرج ابن مردويه من طريق عمرة عن عائشة عن النبي صلى اللّه عليه و آله و سلم قرء «وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا» مخففة واخرج ابن مردويه من طريق أبي الأحوص عن ابن مسعود قال حفظت عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في سورة يوسف «وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا» مخففة.
المجمع بين احتمالي ظن الرسل و المرسل إليهم اجمع و أجمل كما بيناه على ضوء الآية ٢١٤- البقرة فراجع.

[3]. نور الثقلين ٣: ٤٧٨ ج ٢٤٨ القمي في الآية حدثني أبي عن محمد بن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: و كلهم الى أنفسهم فظنوا ان الشياطين قد تمثلت لهم في صورة الملائكة،وفي تفسير العياشي عن ابن شعيب عنه (عليه السلام) قال: و كلهم إلى أنفسهم أقل من طرفة عين، أقول و تكذبهما الروايات التالية.

[4]. المصدر في تفسير العياشي عن زرارة قال قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام كيف لم يخف رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فيما يأتيه من قبل اللّه ان يكون ذلك مما ينزع به الشيطان؟ قال: فقال ان اللّه إذا اتخذ عبدا رسولا انزل عليه السكينة و الوقار و كان يأتيه من قبل اللّه مثل الذي يراه بعينه و ح ٢٥١ في عيون الاخبار في باب مجلس الرضا (عليه السلام) عند المأمون في عصمة الأنبياء (عليهم السلام) باسناده عن علي بن محمد بن الجهم قال حضرت مجلس المأمون و عنده الرضا (عليه السلام) فقال له المأمون يا بن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أ ليس من قولك ان الأنبياء معصومون؟ قال: بلى قال فما معنى قول اللّه عز و جل- الى ان قال- فاخبرني عن قول اللّه تعالى: «حَتّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا» قال الرضا (عليه السلام) يقول اللّه تعالى: «حتى إذا استيأس الرسل من قومهم فظن قومهم ان الرسل قد كذبوا جاء الرسل نصرنا، فقال المأمون: للّه درك يا أبا الحسن (عليه السلام).

قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرّاءُ وَ زُلْزِلُوا حَتّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ» (٢: ٢١۴).

و إنها ساعات حرجة محرجة للذين آمنوا أن يظن الكافرون أن الرسل كذبوا في وعد النصر، فالباطل ـ إذا ـ يتنفش ويغدر ويبطش، والرسل ينتظرون نصر اللّه كما وعدوا، و هنالك زلزال المؤنين إذ تهجس في خواطرهم الهواجس.

في تلكم اللحظات التي يستحكم فيها الكرب ويأخذ فيها الضيق بمخانق المؤنين، ولا تبقى ذرة مثقال من الطاقة المدخرة لهم «جاءَهُمْ نَصْرُنا» فيرتاح له المؤنون ويرتاع به الكافرون، ويحظوا به المرسلون «فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ» من الرسل من زلزال المؤنين حيث هالهم، والمؤنون من مخالفتهم بالبأساء والضراء، ثم «وَ لا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْ ُمجْرِمِينَ»البأس الذي فيه دمارهم وبوارهم:

تلك هي سنة اللّه في الدعوة والداعية، ان عليهم تكريس كافة طاقاتهم في الدعوة الى اللّه، والتصبر في كافة المضايق على أذى الناكرين ولظاهم، انتظارا للانتصار من اللّه بعد تقطع الأسباب وتقلب القلوب، وتحير الألباب.

أجل وليس النصر رخيصا على الأبواب، إلّا بعد استئصال الأسباب باستعمالها في كل باب، ومن ثم «جاءَهُمْ نَصْرُنا» ـ «وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ» (٣٧:) ١٧٣) ولكنما الشدائد في هذه السبيل الشاقة الطويلة الملتوية المليئة بالأشلاء والدماء، إنها لا يصمد لها إلّا الواثقون بوعد اللّه، الصادقون في إيمانهم باللّه، فهم ـ إذا ـ لا يتخلون عن الدعوة إلى اللّه مهما بلغت بهم الشدائد وحتى إن ظن الكافرون أنهم كذبوا، وزلزل المؤنون انتظارا للانتصار.

و كيف يستعجل الداعية أجل النصرة وهو يواجه طواغيت يملكون المال والقوة واستخفاف الجماهير واستحمارهم، ويملكون تأنيبهم بتأليب الجماهير الجاهلة ضدهم.

درسنا في قصص الصديق ألوانا من الشدائد، في الجب وبيت العزيز وأمام نسوة في المدينة وفي السجن، فصبر واصطبر دونما زعزعة لعرش رجاءه بنصر اللّه حتى جاءه نصر اللّه، لا على إخوته فحسب، بل وعلى العزيز والعزيزة ورجال الحاشية وفرعون نفسه، فيا له من قصص بارع فيه عبرة لأولى الألباب:

لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١).

«قصصهم» عله ـ فقط ـ قصص يوسف وإخوته: «لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسّائِلِينَ»وقد يعنيهم وقصص الرسل ككل، ف «ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى» ـ إذا ـ يعم قصص القرآن ككلّ: «كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ وَ قَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنّا ذِكْراً»(٢٠: ٩٩) «وَ كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤ'7vcدكَ»(١١:١٢٠).

و العبرة هيئة خاصة من العبور، فهي ـ إذا ـ انتقالة من حالة إلى أخرى أحسن منها: من غفلة إلى ذكرى، وذلك طبيعة الحال في أولي الألباب، وهي لباب العقول، فحين يستعمل العقل سليما تتحلل عن القشور الحاجبة، فتصل إلى الأوامر الواجبة.

«ما كان» قصص يوسف وإخوته، ولا كل القصص القرآنية «حَدِيثاً يُفْتَرى» أن يفتريها الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله

على اللّه دونما وحي، فلو كان القرآن مفترى والتورات والإنجيل وحيا لكان كلام البشر أفضل وأتم من كلام اللّه: «وَ ما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللّهِ وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ. أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ»(١٠: ٣٨).

ف «ما كان» دون «ليس» نفي باتّ مؤد عن كينونة القرآن أن يفترى من دون اللّه، بطبيعة الحال في القرآن نفسه حين يتدبر في آياته وتقاس بسائر الوحي السابق عليه، حيث الرجاحة في القمة باهرة فيه دون ريب يعتريه.

و هنا للقصص القرآن او القرآن ككل مواصفات عدة مستفادات من القرآن نفسه دون ادعاءات خاوية عن البرهان:

(١) (عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ» حيث ينقلهم من حالاتهم الرديئة جهلا وجهالة وغفوة وغفلة إلى حالات حسنة بديعة علما وذكرى ونبهة وحفوة.

(٢) (ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى» كما يعرف من تدبّره وقياسه إلى سائر الوحي.

(٣) (وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ» من وحي ناصع واصب، ومن حديث الفرية ما كان من أهل الكتاب إذ يرون خلافات بين هذا القرآن وكبتهم، في حين يرون أنها هي الأصل فيقاس عليها القرآن، فما وافقها منه فمأخوذ من كتبهم، وما خالفها فمفترى على اللّه!، فالنفي «ما كان ..» نفي للفرية «و لكن» إثبات لوحيه إذ يصدق الذي بين يديه، وليس هو الكتب الرائجة بينهم فإنها بين أيديهم لا بين يديه، ولا يعني «بَيْنَ يَدَيْهِ» هنا وفي سايرالقرآن إلّا ما نزل على أنبياء اللّه من قبل، دون المحرف المفترى! كما عرفنا الفوارق بين قصص يوسف وإخوته هنا وفي التورات.(۴) (وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ»يحتاجه العالمون إلى يوم الدين، وهو زيادة على «ما بين يديه» ـ «وَ كُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلًا»(١٧: ١٢).

و هذه كليّة شاملة لا تشذ شيئا يحتاجه العالمون، دون سائر الوحي، كما التورات: «وَ كَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ..» (٧: ١۴۵) ف «من»لمحة لامعة إلى تبعيض موعظة وتفصيلا، ف «كل شيء» كما «موعظة» هما المحتاج إليه في الشرعة الإسرائيلية في دورها المحدود، إضافة إلى الفرق بين «تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ» «وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ» حيث التنوين التنكير يشير إلى التبعيض المستفاد من «من».

فالقرآن هو تفصيل مطلق للكتاب المكنون عند اللّه: «وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ» (١٠:٣٧) (وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلًا» (۶: ١١۴).

و سائر كتابات الوحي هي مطلق تفصيل للكتاب دون شمول يعم كل زمن التكليف.

(۵) (و هدى» زائدة على الهدى السابقة عليه في سائر كتابات الوحي.

۶) (وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» ليست هي لناكريه مهما كان أهل كتاب من عهد قديم أم جديد، وحيث البون بين «هُدىً وَ رَحْمَةً» هنا وهناك شاسع واسع، بونا بين المحدود بزمن والشامل لكل الزمن، مع العلم أن الهدى المحدودة محرفة عن جهات أشراعها فلا تصلح حتى لزمنها المحدود.

فالقرآن بمنظار الإيمان «هُدىً وَ رَحْمَةً» وبمنظار تفتيش الواقع «ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَ لكِنْ ..»وبمنظار الألباب «عبرة» فهو في ذلك المثلث الرائع «تبصرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد»!

وهكذا يتوافق المطلع والختام في قصص يوسف وإخوته، وقد يختلف عن سائر قصص القرآن فإنها مقصوصة مبثوثة في مختلف المناسبات، ولكن قصة يوسف مسرودة مترتبة في سورة واحدة لأن طبيعتها تستلزم هذا اللون من العرض، حيث الحلقات الأصيلة المذكورة منها متلاحقة، وهي تشكّل قصة واحدة لو قصّت وبثّت في مختلف المجالات لم تكن عبرة كما هي في مواصلتها، دون سائر القصص حيث تقتص منها حلقات بقلة او كثرة دون تمام في مختلف المناسبات إذ تكفي عبرة ونبهة كقصص نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله ومن دونهم من رسل جاءت قصصهم في مختلف القرآن.

الرسل الربانية مع الكتاب والميزان

«الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النّاسَ بِالْبُخْلِ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ»:
فما أجهله وأبخله، وما ألعنه وألأمه هذا النكد الأغود الذي يبخل بمال اللّه ـ الذي استخلفه فيه ـ عن عباد اللّه، ثم يأمر الناس بالبخل ليكونوا معه سواء، متوليا معرضا عن اللّه، و«هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» غني عن مالِك ومالَك، غني عنك وعن غناك، غني في ذاته وعن مخلوقاته وهم الفقراء، حميد في ذاتَه وان لم يكن له حامدون، فما يناله شيء من حمد الحامدين؟!.
لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنافِعُ لِلنّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ:
هنا إقامة الناس بالقسط بمثلث: البينات والكتاب والميزان طوعا، وتقويم لهم بالقسط، بالحديد البأس الشديد كرها، لمن ليس له طوع الى الحق ورغبة الى القسط، الذين يجهلون أو يتجاهلون لغة الإنسان: البينات والكتاب والميزان، فليواجهوا بلغة الحيوان: حديد فيه بأس شديد، ومن ثمّ منافع للناس، لأنه يؤب النسناس ويوقفهم لحد الناس، فمثلث البرهان حجة الناس، والحديد حجة على النسناس، فما هو الميزان بعد الكتاب؟ وما هي البينات قبله؟ وكتابات الوحي كلها بينات!.
إن القرآن بوحدته بينات وكتاب وميزان، ولكن سواه من كتابات الوحي كتاب وليست ببينات معجزات، وإنما هي مبيّنات بمعجزات أصحاب الرسالات، ومهما كانت ميزانا بالآمل، ولكنها بما تثبته البينات.
و من ثم فحملة الرسالات يحملون معهم بينات تثبت تلكم الرسالات، معجزات كافية و آيات وحجج بالغة وافية لحمل الناكرين على التصديق، من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وإلا فليجابه بحديد.
ثم الكتاب الحامل لشريعة اللّه، ناهج مناهج الحياة في كافة الإطارات، وهل ترى الكتاب والبينات يكفيان لتقويم الناس بالقسط دون ميزان معهم يزنون به البينات والكتاب، ويزنون به الجماعات، فيثبتون الحجة وببيناتهم في قلوب الناس، ويحملونهم على تصديق الكتاب، ومن ثم الى وعيه وتطبيقه؟.
كلا! انه لا بد من ميزان: عقلي وعلمي وتطبيقي بوحي، كما الكتاب وحي ليوزن الوحي بالوحي، ويصدق الوحي ويطبق بالوحي!.

فميزان الرسل إضافة إلى البينات والكتاب، هو عقل الرسالة وروحها وعصمتها وقدسيتها وحكمتها وحكمها: «لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ بِما أَراكَ اللّٰهُ» (۴: ۱۰۵) وهذه الثلاث كلها نازلة من سماء الوحي: بينة وكتابا وميزانا، فلا يحمل الرسل من الأرض إلا قوالب وأجسادا، وأما القلوب والأرواح فهي نازلة بالوحي: «وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» (۱۷: ۸۵) روح القرآن وروح نبي القرآن: «يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ» (۴۰: ۱۵) (يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ» (۱۶: ۲) فهؤاء الرسل الكرام أرواحهم القدسية وعقولهم وعصمهم موازين لوزن البينات والكتاب والمرسل إليهم، ومن ثم «لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ»! وترى ان الناس يقومون بالقسط ـ فقط ـ بالبينات والكتاب؟ كلا! وحتى المؤنين منهم، فلا بدّ من ميزان لتقويمهم على حكم الكتاب بالعدل كما يقومون بالبينة والعقل، من ميزان الحكم القويم المستقيم على ضوء الكتاب بحجة البينات، فالحكومة الإلهية من الميزان النازل مع الكتاب، وإن كان الكتاب بميزان بيان الرسول يمثل التشريع، فميزان الحكم يمثل التنفيذ، فلا قوام لتشريع بلا ميزان الحكم، كما لا حكم وزينا بلا تشريع إلهي.

هذه هي القوة التشريعية التنفيذية، وترى انها تقوّم الناس أجمعين؟ اللهم لا، إلا المؤنين بالرسالات، الذين يعقلون فيؤنون، وأما الذين لا يعقلون أو يجهلون أو يتجاهلون، صم بكم عمي فهم لا يرجعون، أما هؤلآء فلا بدّ عليهم من قوة رادعة عن التخلفات، ضابطة عن الهمجيات والفوضويات، وما هي إلا الحديد وبأسه الشديد:

وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنافِعُ لِلنّاسِ:

و الحديد بوجه عام كل ما فيه حدة وصلابة وحتى حدة البصر: «فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» (۵۰: ۲۲)، وبوجه خاص هو الحديد المعروف بأصوله وفروعه ومواليده.

و«انزاله ذلك خلقه إياه»[1] لا فقط من السماء فإن اللّٰه ليس ما كن السماء وساكنها، حتى ينزل ما ينزله منها، وإنما أصل الإنزال في أمثاله إنزال الرحمة من علوّ ساحة الربوبية إلى المربوبين الهزلاء النازلين كما أنزلت الانعام الثمانية، وإن كان ذلك لا يمنع نزوله أيضا من السماء إلى الأرض كالأمطار.

فلما كانت الأرض شماسا مجنونة محترقة، كانت الفلزات كالحديد وأمثاله سائلات أحيانا وغازات وكبخارات في جو الأرض، أخرى، فلما أخذت تقر وتبرد شيئا فشيئا، أخذت السحب الغازية الحديدية وسواها تنزل فترة بعد أخرى فتدخل في شقوق الأرض أو تشقها فتدخلها فتصبح معادن تحت الأرض أو على مناكبها الجبال أحيانا! والحديد هنا«يعني السلاح وغير ذلك»[2] مما يحد ويقد، ومن بأسه الشديد ما هو عند البأس الشديد، ودور الحديد معروف طول التاريخ في الحروب وغيرها، إضافة إلى منافعها الاخرى.

ان البأس الشديد في الحديد لا يخص الأسلحة وفي حالة الحرب فقط، انه يعم كل ما فيه الحاجة إلى

---

[1]. الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤنين ع في الآية: فانزاله ذلك خلقه إياه.

[2]. التوحيد للصدوق عن علي ع في الآية: يعني السلاح و غير ذلك.

البأس والقوة والصلابة، من صناعات وبنايات وزراعات وسائر الحاجيات المحتاجة إلى البأس، أو غيرها من منافع للناس:

(وَ لِيَعْلَمَ اللّٰهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ): و(يعلم) هنا، كما في أمثالها، من العلم: الميز ـ دون العلم عن الجهل: (لِيَمِيزَ اللّٰهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) (٨: ٣٨) فمن ينصره ورسله بالحديد السلاح كما ينصر بسواه فهو الطيب، ومن لا ينصر قاعدا عن القتال في سبيل اللّٰه من أولى الضرر فهو الخبيث مهما نصر بسواه، فعلم الناصرين دين اللّٰه عن الخاذلين والمتخاذلين من أهم منافع الحديد، فاللّٰه يعلمهم تمييزا لكم، ليعرف بعضكم البعض في بلوى السلاح الحديد: (وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصّابِرِينَ) (٤٧: ٣١) (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمّا يَعْلَمِ اللّٰهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصّابِرِينَ) (٣: ١٤٢) (وَ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ. وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا) (٣: ١٦٧).

فالحديد السلاح، وموقف الحرب اللزام، انه بلاء يبلى به المسلمون، فالجهاد علم: علامة وميز ـ للمؤنين، والقعود عن الجهاد، أو الفرار من الزحف دون مبرر، إنه عَلم على المنافقين أو ضعفاء المؤنين، عَلم لنا بأمر اللّٰه، لا عِلم للّٰه بعد جهل أم ماذا!.

فمن ينصر اللّٰه ورسله (بالغيب): نصرة اللّٰه الغيب، وللرسل الغيب، فإن رسالتهم غيب و لو تثبت بالأدلة الشهود، كما يثبت بها وجود اللّٰه، وكذلك من ينصر اللّٰه ورسله نصرة بالغيب، في عمق القلب وحق الرضا، دون نفاق ورثاء كمن ينصر ظاهرا، بلفظة قول أو عمل ما دام الأمل في هذه النصرة: أن تجلب له المناصب والأموال، أو تعطف إليه الأنظار، فإذا جاء الخطر وخاب الأمل فحيدي حياد! وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النّارِ أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَ رَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ.

عرض لهم على النار في الاخرى لتشتريهم، كما شروا أنفسهم بموجباتها في الاولى، ثم تعريض بكلمة لاذعة: «أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ» ثم تحويل لهم إلى النار وبئس القرار: فهم إذا في ثالوث العذاب جزاء من ربك عذابا وفاقا، كما كانوا في الاولى يعرضون أنفسهم على نيران الشهوات، ويعرضون عن الموعظات تعريضا بتفكهات، ويذيقون أهل الحق بمختلف العذاب: نفسيا وجسدانيا، فيوم العرض يجمع لهم بين رؤة العذاب ـ وهو حقيقة أعمالهم ـ وبين واقعه: يتوسطها سؤل قارع نفوسهم، عذابا فوق العذاب، ثم جواب يلوي أعناقهم ويلدغ أعماقهم: «قالُوا بَلى وَ رَبِّنا»! بكل مذلة وارتياع، يحلفون بربهم الذي كانوا به يكفرون، إن عذابه هو الحق الذي كانوا ينكرون، وهنا لك الجواب مع انتهاء الحوار البوار: أن وقع الحق وبطل ما كنتم تهرئون واليه تهرعون: «فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ». هذه نهاية الحجة الدامغة القارعة على الذين كفروا، بعرض البراهين كلها ولحد كأنهم يشهدون مشهد العرض يوم العرض، ومن ثم تصبير للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وتسكين لخاطره الشريف عما يلقاه من أذيات، تصبرا في سبيل الدعوة على عزم كما صبر اولوا العزم:

«فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ» ألا يا أيها الرسول! إنه لطريق شاق مرير، فيه دماء تسيل من أشلاء تفرش فيه ألوان الأذيات والحرمانات، وفيه ما لا يتصبر عليه إلا أولوا العزم الراسخ وبعون اللّٰه «فاصبر»:

صبرا يصمدك في وجه الطغيان، صبرا يقدمك في اجتياز تلك العقبات، فانظر إلى سيرة أولي العزم من

الرسل ماذا تحملوا من المشاق والعقوبات «فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ»: ولقد صبر كما أمر على مكروهها ومحبوبها[1].

و ترى من هم أولوا العزم من الرسل؟ من الواضح أنهم أفضلهم قبل أن نعرف معنى عزمهم، لمكان «من»: فهم بعضهم، وأن خاتمهم ـ وهو أفضلهم أجمع ـ لا يؤر إلا بتصبر البعض الأفضل، بل وأفضل منهم، ولأنه يحمل أفضل الشرائع وأعظمها وأعزمها.

ثم العزم هو الثبات والجد والفرض والصبر والحزم: أن سبقوا الأنبياء في إقرارهم بالله، وثباتهم دون تفلت في الدعوة إلى الله[2]، وحزمهم في سبيل الدعوة إلى الله، وعموم شرعتهم إلى عباد[3] الله واستقلالها عمن مضى من يوم، لقاء الله فبقاء شريعتهم وعزمها حتى يأتي ولي عزم آخر من الله أم إلى أنبياء الله[4].

فهم إذا أصحاب عزم في طاعة الله ثباتا على عهده، لا كآدم عليه‌السلام: «وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» (٢٠: ١١٥): في عهدنا إليه ألا يطيع الشيطان: «وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى» (٢٠: ١٣١).

و أصحاب عزم في الدعوة إليه، لا مثل ذا النون: «إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمِينَ» (٢١: ٨٧): من المنتقصين في الدعوة!.

---

[1]. الدر المنثور ٦: ٤٥- اخرج ابن أبي حاتم و الديلمي عن عائشة قالت: ظل رسول اللّه ص صائما ثم طوى ثم ظل صائما ثم طوى ثم ظل صائما قال: يا عائشة! ان الدنيا لا تنبغي لمحمد و لا لآل محمد يا عائشة! ان اللّه لم يرض من اولي العزم من الرسل الا بالصبر على مكروهها و الصبر على محبوبها ثم لم يرض مني الا ان يكلفني ما كلفهم فقال: فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل- و اني و اللّه لأصبرن كما صبروا جهدي و لا قوة إلا باللّه.

[2]. بحار الأنوار ج ١١ ص ٣٣ ج ٣٠ عن الامام الصادق ع في معنى أولي العزم «أي انهم سبقوا الأنبياء الى الإقرار بالله و أقروا بكل نبي كان قبلهم و بعدهم و عزموا على الصبر مع التكذيب لهم و الأذى».

[3]. المصدر ج ٢٥ عن الامام الصادق ع «بعثوا الى شرق الأرض و غربها» «و جنها و أنسها» كما في ج ٦١ ص ٥٦.

[4]. اصول الكافي باسناده عن سماعة بن مهران قال قلت لأبي عبد اللّه ع في قول اللّه عز و جل: فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل: فقال: نوح و ابراهيم و موسى و عيسى و محمد (ص) قلت: كيف صاروا أولوا العزم؟ قال: لأن نوحا بعث بكتاب و شريعة، و كل من جاء بعد نوح أخذ بكتاب نوح و شريعته و منهاجه حتى جاء ابراهيم بالصحف، و بعزيمة ترك كتاب نوح لا كفرا به، فكل نبي جاء بعد ابراهيم أخذ بشريعته و منهاجه و بالصحف حتى جاء موسى بالتوراة و شريعته و منهاجه و بعزيمة ترك الصحف، فكل نبي جاء بعد موسى أخذ بالتوراة و شريعته و منهاجه حتى جاء المسيح (ع) بالإنجيل، و بعزيمة ترك شريعة موسى و منهاجه، فكل نبي جاء بعد المسيح أخذ بشريعته و منهاجه حتى جاء محمد (ص) فجاء بالقرآن و بشريعته و منهاجه، فحلاله حلال الى يوم القيامة و حرامه حرام الى يوم القيامة فهؤلاء أولوا العزم من الرسل. و مثله في عيون أخبار الرضا عنه (ع) بزيادة: و هم أفضل الأنبياء و الرسل و شريعة محمد (ص) لا تنسخ الى يوم القيامة و لا نبي بعده الى يوم القيامة فمن ادعى بعده نبوة أو أتى بعد القرآن بكتاب فدمه مباح لكل من سمع ذلك منه.

والكافي باسناده عن ابن أبي يعفور قال: سمعت أبا عبد اللّه (ع) يقول: سادة النبيين و المرسلين خمسة و هم أولوا العزم من الرسل و عليهم دارت الرحى: نوح و ابراهيم و موسى و عيسى و محمد صلّى اللّه عليه و على آله و على جميع الأنبياء.

ثم وأصحاب عزم في شعاع الدعوة أن تشمل المكلفين أجمع دون تفلت أحد فانه خلاف العزم الشامل! وعزم في أصل الدعوة استقلالا عمن سبق، وعزم في بقاء الدعوة لفترة طالت أم قصرت ثم تنسخ أم إلى يوم القيامة، وفي صيغة واحدة: عزم في كل ما تتطلبه الدعوة والداعية والمدعو إليهم، في مثلث حازم عازم صارم!.

و لقد دلت آيات، ومن ثم روايات أنهم سادة النبيين والمرسلين: من دارت عليهم الرحى: «نوح وابراهيم وموسى وعيسى عليهم‌السلام ومحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله»:

الذين أخذ اللّه عليهم خصوص العهد بعد عمومه: «وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً. لِيَسْئَلَ الصّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً» (٣٣: ٨).

و الذين شرع لهم من الدين دون سواهم: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ»(٤٢: ١٥).

ثم و«محمد ـ صلى‌الله‌عليه‌وآله ـ» آخرهم مبعثا وأو لهم ميثاقا، فبعثه إلى أرواحهم في الروح كما توحي آية الميثاق: «وَ إِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ: أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشّاهِدِينَ» (٣: ٨١) فهو رسول مصدق لما معكم: «النبيين» جاءكم في الروح قبل مجيئه بسواه: جاءكم رسولا فأنتم كأمته: لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ! ولم يؤر أي نبي أن يؤن بآخر و ان كان أفضل منه، وهو من أولي العزم ـ إلا تصديقا بسواه وان كان أدنى منه ـ اللهم إلا إيمانا بعد تصديق بخاتم المرسلين[1]. لذلك تقدمه في ميثاق النبوة آية الميثاق الأخرى: وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ .. رغم تأخره في البعثة! وتفرده آية الشرعة «بالَّذِي أَوْحَيْنا» دون تعميم ب(ما أوصى) كأن شرعته فقط هي الوحي (الذي) تدور عليه الرحى دون غيرها، ايحاء بأن الشرائع كلها شرعة من الَّذِي أَوْحَيْنا تحمل (ما أوصى) الى نوح وسائر الأنبياء الذين دارت عليهم الرحى، توصيات تنحوا نحو الَّذِي أَوْحَيْنا فما تقدّمها على الَّذِي أَوْحَيْنا الا كتحضيرات بخطوات، تمشي بها تعبيدا لطريقها وتعويدا عليها.

فهي هي كلها وزيادات: نسخا لشيء من أحكامها الموقتة، واستمرارية التكملة لها كلها لحد لا تنسخ إلى يوم لقاء اللّه، مشعّة وضاءة على قلوب وأفكار العالمين:[2]: (وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ» (٥: ٤٨) هيمنته الإمام على المأمومين، وكما اللّه مهيمن على العالمين: الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ (٥٩: ٢٢).

من هذا المثلث البارع في براعة الرسول نعرف أن عزمه أعزم من عزمهم، وأعظم، كما شرعته أعظم من شرعتهم وأعزم، فلا يعني التشبيه: «كَما صَبَرَ» إلا أصل المشابهة، لا المساواة في عزمهم، فإن لكل

---

[1]. التفصيل الى محله في تفسير آية الميثاق.

[2]. اصول الكافي باب الشرايع علي بن ابراهيم باسناده عن أبي عبد الله ع قال: ان الله تبارك و تعالى أعطى محمدا (ص) شرايع نوح و ابراهيم و موسى و عيسى .. و فضله بفاتحة الكتاب و بخواتيم سورة البقرة و المفصل.

داعية ودعوة عزما يناسبها «فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ» ومن فروعه:
وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ: العذاب رغم ما يستعجلون. ف «كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ» إذا هم من أجداثهم إلى ربهم يحشرون «كَأَنَّهُمْ ... لَمْ يَلْبَثُواً»: في الحياة الدنيا وفي البرزخ «إِلّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ» إذ يستقلون الأولى ـ مهما كانت طويلة ـ يجنب الأخرى[1]: «وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ(١٠: ٤٥) وَ يَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يُقْسِمُ الْ ُمجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ. وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ»(٥٦:٣٠) فمهما كان لبثهم قليلا فليس ساعة من نهار وإنما لبث إلى يوم البعث برزخا وقبله، فهو قلة ليست كتلك القلة: ساعَةً وإنما بجنب الأخرى! (فما بين الأولى والأخرى إلا غمضة عين)[2] فاغمض عينك في الأولى عما تهوى حتى تقر في الأخرى فيما تهوى ـ وذلك:
بَلاغٌ للناس أجمعين، وللناكرين فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ:
الخارجون عن طاعة اللّه، بما خرجوا عن حكم العقل والفطرة، إذا فليبصر الداعية، وليصمد في الدعوة، فما هي إلا حياة خاطفة أياما قلائل تنقضي فيعذبون بها طويلا فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً ثم وتنعم أنت والمؤنون طويلا!.

آدم عليه‌السلام بداية الرسالة الربانية

«وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٣١) قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلاّ ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢) قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ فَلَمّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ أَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ»(٣٣)
آيات اربع تبين موقف هذا الإنسان ـ السامي ـ بعد سائر أنساله في الأرض، أن جعله اللّه خليفة في الأرض، بعد ما خلق له ما في الأرض كأنه هو فقط إنسان الأرض، وبعد أن أعطاه المعرفة التي يعالج بها خلافة الأرض، لئلا يخلد إلى الأرض ويتبع هواه ويفرط عن هداه، بل يتابع صراطه الإنساني الى اللّه، فيحقق في نفسه خلافة اللّه، فلنعش ردحا مع هذه الخلافة السامية، بعين البصيرة وانشراح الصدر، في ومضات الاستشراف، مطّلعين على ساحته الأعلى، متطلعين إلى المشية العليا، حيث الجعل رباني فليكن الخليفة ربانيا، مثلا أعلى للرب آية لربوبيته، لا مثلا ينوبه سبحانه سبحانه! وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ

---

[1]. راجع ج ٣٠ من الفرقان ص ١٠٣ حول الآية «كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها».

[2]. روضة الواعظين للشيخ ابن القتال: قيل للنبي ص كم ما بين الدنيا و الآخرة؟ قال: غمضة عين، قال اللّه عز و جل: كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار.

إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠)

آية يتيمة منقطعة النظير في تصريح الخلافة الأرضية لهذا الإنسان، مهما تلمح لها وتلمع آيات أخرى في إشارات .. يحق لنا أن نجدّ السير بهذه اليتيمة بكل إمعان وإتقان، في كلّ لفظة أو لمحة، ولكي نحصل منها على معرفة منقطعة النظير.

«و إذ» ترى ما هو المعطوف عليه هنا؟ لا نجد هنا معطوفا عليه مذكورا يناسبه، فليكن سرا بين اللّه ورسوله غير مذكور لنا، حيث الخطاب هنا له صلى‌الله‌عليه‌وآله ذاتيا لا لنا .. «فاذكر ..» «و اذكر» إذ قال ربك .. «إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ» ولماذا «ربك» لا «رَبِّ الْعالَمِينَ»؟ علّه لأن له الحظ الأعظم من هذه الخلافة، فهو الخليفة الأعظم والإمام الأقدم، ابن لآدم الاوّل صورة وأبوه سيرة وسريرة!:

و إني وإن كنت ابن آدم صورة فلي فيه معنى شاهد بأبوتي، كما وأعظم الأسماء التي علمها اللّه آدم هو الحقيقة المحمدية كما تأتي.

«... قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً»: و«إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ» (٣٨: ٧١) (... مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» (١٥: ٢٨)«بشرا من طين من صلصال من حما مسنون»، هو الخليفة في الأرض مهما اختلف هذا الخلق عن ذلك الجعل حيث خلق بشرا من طين ثم جعل إنسانا خليفة.

ثم ترى وماذا تعني الخليفة عامة وماذا هنا؟ إنها من الخلف: أن ياتي كائن خلف آخر ينوبه في كونه أو كيانه أو صفاته وأفعاله، وكأنه هو بعده، مهما اختلفا في درجات، فلا بد إذا من مشاركة بينهما تهمّه الخلافة، وتاء الخليفة للمبالغة، أنه يتابع ما للمستخلف عنه بجد بالغ وعزم فارغ، او يزيد عنه كما هنا، او ينقص او يساوي كما في غيرها، على اشتراك ذلك المثلث من الخلفاء في المجانسة مع المستخلف عنه كونا وكيانا قضية الخلافة في حقها وحاقّها.

فهل إن هذا الإنسان ـ إذا ـ خليفة اللّه؟ أن يخلف اللّه في ألوهيته في أرضه، كأنه غائب عن الأرض، فالإنسان له خليفة ونائب في الأرض؟

«وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلهٌ» فلما ذا الخلافة في الأرض؟

و له الحكم في الأرض كما في السماء، وليس الرسل إلّا مبلغين عن اللّه، لا خلفاء أو وكلاء أو نواب عن اللّه! فلما ذا الخلافة في الأرض؟

و لو أنها الخلافة الإلهية في الأرض لكانت الملائكة المخاطبون هنا أحرى أن ينهموها، فلما ذا السؤل او الاعتراض: «أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ»؟ فهل إن خليفة اللّه في فهم ملائكة اللّه يفسدون ويسفكون؟! وهم أنوار عارفون، لا يتهمون الرب فيما يخفى، فكيف فيما يجلوا! ف «ما علم الملائكة بقولهم أ تجعل فيها .. لو لا أنهم قد كانوا رأوا من يفسد فيها ويسفك الدماء» فالخليفة هنا إنسان يخلف إنسانا مضى ام من ذا، لا أنه يخلف اللّه وسبحان اللّه أن يخلفه انسان ام من ذا.

لا نجد تصريحة ولا إشارة قرآنية على خلافة اللّه هذه، اللّهم إلّا ان يجعل اللّه إنسانا خليفة عن سالفه، فقد يسمّى خليفة اللّه ولا تعني أنه يخلف اللّه ومعاذ اللّه، وانما الذي نصبه اللّه نائبا يخلف مثيله في منصبه، نبوة أو إمامة أم ماذا: «يا داوُدُ إِنّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ» (٣٨: ٢٦) (وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ» (٦: ٢٦) (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ» (٢٧: ٦٢) فهنا خلافة خاصة كما لداود وأضرابه، وهناك عامة كما للناس أجمعين عن ناس قبلهم، او

بعضهم عن بعض.
فمن المستحيل خلافة اللّه نفسه لايّ من العالمين وحتى الحقيقة المحمدية ف «ما مُحَمَّدٌ إِلّا رَسُولٌ» و«لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» فهو هو لا يخلف اللّه في ايّ من شؤن الالوهية والربوبية حتى ولا في بلاغ الأحكام، وانما هو رسول، لا خليفة ولا نائب ولاوكيل، «وَ ما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا» (١٧: ٥٤) (وَ كَفى بِرَبِّكَ وَكِيلًا» (٤: ١٧١) (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أَ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا» (٢٥: ٤٣) فإذا لا يكون أفضل المرسلين واوّل العابدين وكيلا لرب العالمين فهل غيره بعد خليفة عنه، وهي أسمى المنازل وقمة المراحل؟ أو هل يكون آدم بذريته كلهم خلفاء اللّه؟ وليس أصفياءهم وكلاءه! أم إنه خليفة الملائكة حتى يستجيش مشاعرهم وضمائرهم لحد الاستفهام كأنه اعتراض: «أ تجعل ...»؟
و هم عارفون أنفسهم انهم معصومون «يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ»(١٦: ٥٠) فلا يستخلف عنهم ربهم إلّا كأمثالهم أو أطوع منهم وأرقى! فلما ذا يسألون «أ تجعل ...» او قد كان يكفيهم «وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ...» دون تقصير، فلما ذا الاستخلاف!.
كما وأن الملائكة لم يكونوا ـ ولن ـ من سكنة الأرض حتى يخلفهم خليفة في الأرض: «قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا»(١٧: ٩٥) (وَ لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ، وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها»(٤٣: ٦١) فجعل الملائكة في الأرض مستحيل حتى تقوم الساعة، فكيف يخلفهم إنسان الأرض وفيم يخلفهم؟ أ فيما هم يؤرون في السماء، عزلا لهم عن مقاماتهم فهم عزّل؟ أم فيما يرسلون به إلى الأرض؟ ام ماذا؟! سبحانك اللّهم هذا بهتان عظيم! او هم خليفة الجن، المفسدين في الأرض ومسفكين؟ وهم قد خلقوا قبلهم!: «وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ» (١٥: ٢٧)؟.
و لكنهم بعد لم ينقرضوا، او لم يبعدوا عن الأرض حتى يخلفهم فيها إنسان الأرض، ثم و لا نعرف خلافة للإنسان عنهم فيما لهم من حياة الأرض، فكيف يكون الإنسان إذا خليفة عنهم في الأرض؟! أو هم بنو الإنسان، حيث يخلف بعضهم البعض: «هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ»(٦: ١٦٥) (وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ»(٧:٦٩) (وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ» (١٧: ٧٤) وآية الخلافة: «إني جاعل ...» تعني خلافة آدم الاوّل ومن ثمّ بنيه، فليكن هو الخليفة الأصل ثم فروعه الفروع، وان «خليفة»تعني ـ على اكثر تقدير ـ هذا النسل أجمع: بأصله وفرعه، وعلى أقل تقدير: آدم وزوجه، فلا بد هناك على أية حال من مستخلف عنه قبل هذا النسل.
أم هم خليفة من سلفهم وانقرض من نسل او أنسال ترابية عاقلة مكلفة أفسدت في الأرض وسفكت الدماء، فأهلكهم اللّه بأن قامت قيامتها وانقرضوا، فأبدلهم اللّه بهذا الإنسان وجعله خليفة عنهم؟ ..
و هكذا يبدو من آيتها هذه وسائر آياتها ورواياتها ..
ف ما علم الملائكة بقولهم: «أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ» لو لا أنهم قد كانوا رأوا من يفسد فيها ويسفك الدماء[1].
فهذه السابقة السيئة التي رأوها ممن سلف من الخليقة الأرضية هي التي استجاشتهم حتى سألوا،

[1]. تفسير البرهان ١: ٧٤- العياشي عن هشام بن سالم قال قال ابو عبد اللّه عليه السلام ..

معترضين على الخليفة الأرضية: أ تجعل ..
تكرارا لما سلف من إفساد وسفك، وما هي الحكمة إلّا مزيد الصلاح والعبادة «وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ» وهم لا يسبحون ولا يقدسونك! فلم يكن يقنعهم «إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ» لو أنهم خليفة اللّه، إذ كانوا هم كذلك يعلمون أنه لا يعصى اللّه فلم يكونوا ليسألوا حائرين.
و لا ـ لو أنهم خليفتهم أنفسهم، إذ هم يعلمون من أنفسهم ما يعلمون من نزاهة وطهارة، فكيف كانوا إذا يسألون؟.
فانما يقنعهم «إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ» ما ينبههم من غيب هذه الخليفة، خلاف ظهوره الذي مضى مثله، من إفساد وسفك، فلم يقل «إنهم لا يفسدون ولا يسفكون» حيث هما معروفان متداولان في تاريخ الإنسان، وإنما «إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ»: من ميّزات هذه الخليفة في البعض من مصاديقها وأفرادها، من مثل عليا لا تصل أيدي ولا أفهام الملائكة إليها، وقيها جبر كامل لمن يفسدون فيها ويسفكون الدماء من أفرادها.
و كما «عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ...» ولكي يروا النموذج الاول من هذه الخليفة انه يعلّمهم وهم تلاميذه، فضلا عن الأسماء التي علّم آدم وهم أشباح من الحقيقة المحمدية وسائر الخمسة! فلأنهم خفيت عنهم حكمة المشيئة العليا في استخلاف هذه الخليفة، بما عرفوا ممن سبقها من إفساد وسفك وفتك، سألوا سؤلهم، فأجابهم اللّه بما يعلم من خير أكثري مع هذا الشر الجزئي! هذه الجيوش من البراهين القرآنية نستجيشها لإثبات هذه الملحمة الغيبية التي تتفرد بها آيتنا اليتيمة هذه: «إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» أنها خلافته لمن سبق من أنسال أمثاله، مع ما تساندها من روايات متظافرات مهما عارضتها أخرى مختلفات ومختلقات، فالأصل هو كتاب اللّه موردا ومآلا، جملة وتفصيلا: «وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ إِنّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ» (٧: ١٧٠).
فقد عاش قبل هذا الإنسان نسل أو أنسال ترابية عاقلة مكلفة[1] لانعرفها، عرفتها الملائكة من ذي قبل فضاقت بها ذرعا ففرحت بانقراضها، فرحة العبد لمولاه إذ يجده يعبد ولا يعصى، ثم تضايقت من جعل خليفة لها، دون ان تحسب حسابا لخلفيات سؤلها فجهّلهم اللّه: «إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ» أن قد تكون هذه الخليفة أعلى منكم في عبادة ربها، مهما كان فيها ببعض أنسالها فساد وسفك للدماء.
و ترى أن سؤلها هذا يتنافى وعصمتهم، أن اعترضوا على اللّه لماذا الخليفة؟ واغتروا بما عرضوا من

---

[1]. و قد تكون بعض الأجساد المكتشفة الضاربة الى عشرات الآلاف السنين قبل هذا النسل، قد تكون من الأنسال السابقة، دون ان تكذّب تاريخ هذا النسل.
ثم و هؤاء الذين عاشوا قبل هذا النسل قد يسمون بالنسناس و هم ناس أشرار كما
في تفسير نور الثقلين ١ : ٥٨ عن علل الشرايع عن امير المؤنين علي عليه السلام في حديث الخلافة: ثم قال للملائكة انظروا الى اهل الأرض من خلقي من الجن و النسناس فلما رأوا ما يعملون فيها من المعاصي و سفك الدماء و الفساد في الأرض بغير الحق عظم ذلك عليهم- الى ان قال-: «إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً فقالت الملائكة» «سبحانك ا تجعل فيها ...».
وفيه (٥٩) عن كتاب التوحيد للصدوق عن أبي جعفر (عليه السلام) حديث طويل يقول في آخره: لعلك ترى أن اللّه انما خلق هذا العالم الواحد؟ او ترى ان اللّه لم يخلق بشرا غيركم؟ بلى و اللّه لقد خلق الف الف عالم و الف الف آدم أنت في آخر تلك العوالم و أولئك الآدميين.

تسبيحهم وتقديسهم؟ وقد كذبوا كما قال اللّه: «أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» وهم كما يعرفنا اللّه: «بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ»(٢١: ٢٦) فكيف سبقوه بقولة السؤل دون نظرة الإيضاح من اللّه و«يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ» (١٦: ٥٠) فكيف لم يخافوه إذ سألوه، وكيف فعلوا ما فعلوه ولم يؤروا؟.

إن السؤل ليس نصا ولا ظاهرا في الاعتراض، فإنما سألوا استيضاحا إذ جهلوا كيف «جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً»؟ ثم وذكر النعمة والرحمة ليس اغترارا بل والتحديث بها مكرمة «وَ أَمّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ» وكان ذكرها تتمة السؤل: إن كان جعل الخليفة للعبادة فنحن لها، وان كان غير ذلك فبين لنا.

ثم «إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» وان كان تلميحا بالكذب، ولكنه كذب جاهل لا كذب متعمد، فإنهم سألوا جاهلين كأن فيهم الكفائة فلما ذا هذه الخليفة؟ فقد كذبوا قاصرين لا مقصرين، وهكذا كذب يشمل العالمين أجمعين: ان يجهلوا كثيرا مما يعلمه رب العالمين، فمنهم من يبرزه بسؤل وسواه كهولاء الملائكة، ومنهم من لا يسأل كالرعيل الأعلى من النبيين.

ثم ومن نقد الملائكة الخليفة الأرضية: «يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ» ومقابلتهم لهذا النقد بما لهم: «وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ» نعرف أن الشر كله يختصر في الإفساد والسفك، والخير كله في التسبيح بالحمد والتقديس للّه، فليكن صحيحا مصدّقا عند اللّه إلّا في الآخرين، أن المعرفة هي القمة في الخير، التي تنتج تسبيحا بالحمد وتقديسا أعلى وأحرى.

فالإفساد في الأرض يشمل كل فساد فردي يفسد فاعله، وجماعيّ يفسد مجتمعه، نفسيا أم ماديا، ومن أظهره جمعا بينها سفك الدماء فانه جماع الإفساد.

و لماذا تسبيح بالحمد وليس التسبيح وليس الحمد والتسبيح والحمد؟

أقول: لأن تسبيحه فقط دون حمد نفي بلا إثبات، والنفي ذريعة الإثبات، والحمد دون تسبيح إثبات ناقص لأنه إثبات بحدود المعرفيات ووصف له تعالى بحدود «سُبْحانَ اللّهِ عَمّا يَصِفُونَ»وكذلك التسبيح والحمد دون رباط، حيث التسبيح ينفي والحمد لا يثبت ما يليق بساحته.

فأما التسبيح بحمده، فأن نحمده مسبحين منزهين لساحة قدسه عن إثباتياتنا المحدودة، وإنما: عالم ـ ليس يجهل. قادر ـ ليس يعجز. موجود ـ ليس بمعدوم .. وهكذا في كافة صفاته الثبوتية، ألّا نصفه في حدود أفكارنا بما نعرفه ونأنسه من صفات وإثباتات، وإنما نسبحه بحمده:

ننزهه في حمدنا إياه عما هو لزام حمدنا من حدود وتخيلات، فانما إثباتاتنا تنحو منحى نفي كل ما عندنا وفي عالمنا وحدود تصوراتنا وإدراكاتنا عن ساحة قدسه، فالصفات الثبوتية تؤّل الى السلبية من نوع آخر، فهو إذا «خارج عن الحدين حد الإبطال وحد التشبيه» لا منفيّ إطلاقا، ولا مثبت له شبيه، فما أجمله وأحلاه: «التسبيح بالحمد»! ثم «وَ نُقَدِّسُ لَكَ» تعني ما تعنيه و«نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ» وزيادة: أننا نعيش تقديسا لذاتك وصفاتك وتصرفاتك، وفي أنفسنا تعبدا لك وخشوعا، وفي أفعالنا اتباعا لك وبخوعا.

و لكن ترى هل تكفي حياة التسبيح بحمد اللّه والتقديس للّه لحدّ ثابت ومقام معلوم: «وَ ما مِنّا إِلّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ» لسان قال لهم يكشف عن حالهم الثابت إذ تدوم دونما تقدّم.

ثم وهل تكفي هذه دون معرفة لائقة بجناب قدسه؟ وفي هذه الخليفة الأرضية من هم فوقهم في هذه وتلك رغم أنهم سماويون؟

إذا فالجواب: «إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ» هو على إجماله كلّ الجواب، عن سؤل الإفساد والسفك، ورعونة التسبيح بالحمد والتقديس، بما علم آدم الأسماء كلها، وبما أنبأهم آدم الأسماء كلها:
وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٣١) قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ أَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣).

و ها نحن مع الملائكة ننظر بعين البصيرة، ونسمع بأذن صاغية، ونعي بقلوب واعية في ومضات الاستشراف، ما هذا السرّ الإلهي الذي اختصه اللّه بهذه الخليفة الأرضية، التي تخضع لديها رسل السماء الملائكية، وهو بذلك يسلّمها مقاليد الخلافة الأخيرة السامية، وكرسي التعليم للملائكة؟! إنه كله في «وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ ... على الملائكة»فانظر ماذا ترى! فهل الأسماء هنا هي ـ فقط. ـ أسماء الأشخاص و الأشياء؟ و«هم»و«هؤاء» لا تعنيان إلّا ذوات عقلاء! «ثُمَّ عَرَضَهُمْ ... بِأَسْماءِ هؤلاءِ»! ومن ثمّ وما قيمة علم هذه الأسماء وكثيرون يعلمون كثيرا من الأسماء وليسوا بأفضل ممن لا يعلمونها، ولو أن الملائكة علّمتها كما علّم آدم لكانت مثل آدم كما آدم أنبأهم بها بما أمر اللّه.

فليس علم هذه الأسماء مما يتفاضل فيه، ولا أنه جناح من جناحي العلم باللّه وتقوى اللّه، وهذه الأسماء إنما يحتاج إليها في تفاهم مسمياتها، والملائكة يتلقونها دون وسائط، ولا يحتاجونها كما يحتاجها الإنسان في الحاجيات الجماعية الأرضية! أو انها المسميات، حيث الاسم من الوسم[1]: العلامة ـ الدلالة، ودلالات الأسماء اللفظية على المدلولات هي من أضعف الدلالات، فأعلى منها دلالات الذوات والأفعال والصفات على مدلولاتها فيما بينها، ثم دلالات الكائنات كل الكائنات على مكوّنها بدرجاتها، ثم دلالات الرعيل الأعلى من رجالات اللّه: بذواتهم وصفاتهم وتصرفاتهم وإرشاداتهم إلى اللّه ثم الذروة العليا منهم وهي الحقيقة المحمدية العظمى فإنها الآية الكبرى وأعظم أسمائه الحسنى بين الممكنات، بجنب ما للّه من سائر الأسماء الحسنى، «أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى» (١٧: ١١٠) (وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها»(٧:١٧).

فأحرى بهم هؤلآء أن تعنيهم الأسماء التي علّمها آدم كلها: أنهم أنبياء اللّه ورسله.

و لكنما التعلّم لا يناسب الذوات، وإنما هو التعريف، ثم ويبقى السؤل كيف يفضّل آدم على الملائكة لأن اللّه علّمه دونهم، ثم كلّفه أن ينبئهم بها؟

في الحق إن الأسماء هنا مجمع الاسمين ألفاظا وذوات، ولأن بداية المعرفة كانت بالنسبة للألفاظ صح

---

[1]. هذا احد وجهى الاسم أصلا و قيل أصله سمو من السموّ: العلوّ، لان تصغيره سمي، فلو كان من وسم: العلامة، لكان تصغيره و سيم، و العلامة انسب له معنى، و العلوّ لفظا، و علّهما معنيّان أحيانا و أحدهما أحرى، او يقال ان الاسم السمو يناسبه معنويا كما اللفظي فانه يعرف به ذات الشيء، فبه يرفع المسمى عن حضيض المجهول، و لكل وجه، و الأوجه ان السماء من السمو: العلو و الرفعة، و الاسم من وسم: العلامة، او و من السمو ايضا.

ثم الاسم قد يكون مأخوذا من «شما» آرامية و عبرية، و هي تستقل عن مادة السماء:

الرفعة، و ذكرها في مادة السمو غفلة عن تحقيق اصل الكلمة.

التعليم، مهما انتهت الى معرفة الذوات، وقد تبين هنا لهذه الخليفة فضيلتان اثنتان:
الأولى لآدم حيث علّم الأسماء ألفاظا وذوات ثم لم ينبئ الملائكة بالذوات وإنما «بِأَسْماءِ هؤُلاءِ» وإن كانت تكشف أشباحا من هؤلآء الذوات، ولكنه قليل بجنب ما عرّفه آدم من الذوات، تدليلا على أن الملائكة ليست بالتي تتمكن أن تعرف او تعرّف حقائق هذه الذوات، بيانا لكيانهم بما خلق اللّه: أنه محدود بما حدّد اللّه، دون هذه الخليفة التي منها آدم، فليس علمه محدودا لحدّ، فهم: «ما مِنّا إِلّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ»والخليفة: «وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً» والثانية أن هؤلآء الذوات هي الأصيلة في هذه الخلافة، مهما كانت لأشباههم في الصورة الإنسانية تخلّفات وترذّلات من إفساد وسفك دماء، فان هؤلآء الأشباح لا تشبه أشباهها في المعنى مهما شابهتها في الصور.
لذلك «وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها»: أسماء هؤلآء الخلفاء كلها، وذواتهم بأشباحهم كلهم، تجنيدا وعرضا لآدم أوّلا لكي يعرف موقعه أنه يحمل في صلبه هذه الأمانات الغالية، وللملائكة لكي يعلموا: «إِنِّي أَعْلَمُ» من هذه الخليفة «ما لا تَعْلَمُونَ» فهناك البون الشاسع بينكم وبينه لحدّ لا تعرّفون حقائقهم إذ لا تتمكنون، حيث هم في الذروة العليا، وما أنتم بها حتى تحيطوها معرفة وعلما، فانما أنبئتم بأسمائهم لكي تتعرفوا حسب المستطاع إلى ذواتهم. قدر ما تعلمون: «إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ»! فالأسماء الذوات هي المعروضة هنا على ملائكة السماوات،: «ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ»دون «عرضها»حيث العرض للذوات، ودون «عرفهم الملائكة» حيث العرض لمنظر من الأشباح، لا حقائقها كلها ـ لان هؤلآء من غيب السماوات والأرض: «فَلَمّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» وهم ـ او معظمهم ـ رجالات اللّه: النبيين والمرسلين: حقائق عاقلة محجوبة تحت حجاب الغيب: غيب السماوات والأرض، كشف اللّه لآدم منها أسماء وذوات، وأنبأ الملائكة بأسمائها بآدم، ولكن ترى: إنباء الأسماء فقط دون اي كشف عن حقائقها؟ إذا فكيف عرفت الملائكة فضلهم، وعرفت فضل آدم بما علّمهم دونهم!.
فليكن في عرض هؤلآء الذوات على الملائكة، وإنبائهم بأسمائهم ـ ليكن في هذا الإنباء وذلك العرض تعريف مّا بالذوات، يكفي لهم إقناعا: أنهم هم الأفضلون في الفضائل كلها، لحد لا يحيطون ـ وحتى ـ معرفة بجنابهم وعلما بذواتهم كما يحق.
فهنا تعليم وعرض وإنباء خص آدم بتعليم الأسماء والذوات، وهو فوق العرض والإنباء، حيث خصّ بهما الملائكة، فقد أنبأت بأسمائها بعد ما عرضت عليهم ذواتها، إلّا أن هذا الأنباء والعرض ما علّمها الملائكة قدر ما علّم آدم بالتعليم! فعرضها أن عرّفهم شبحا من أشباحهم يستشرفونها من بعد ولمّا، وقد كان العرض بحيث تستعرض منه أسماء المعروضين لمن يؤل، وإلّا لم يكن معنى ل: «أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» لو لا أن العرض ينبئهم!.
ثم وإنباء أسماءها زادتهم معرفة، ولحد الإقناع «إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ»: أنهم أعلى منكم محتدا وفي التسبيح والتقديس، دون إحاطة على هذه الحقائق النورانية التي تخطف الأبصار، فلا تبصر منها إلّا بحدود الإبصار، فلكلّ من العرض فالإنباء بالأسماء دوره في تعريف ذواتهم قدر إمكانية الملائكة، وكما أن تعليم الأسماء عرّف آدم الذوات والأسماء قدر إمكانيته فوقهم، لحدّ أصبح ينبئهم بأسمائهم!.
ذلك! ولم يكن آدم وقتذاك نبيا حيث «عَصى آدَمُ رَبَّهُ ـ بعد ذلك ـ فَغَوى ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى» (٢٠: ١٢٢) وهذا الاجتباء ثم الهدى هما النبوة بعد إذ تاب عما عصى.

ف «إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ» في بداية الجواب، كان له دور الإقناع دون شهود، ولكنما العرض والإنباء لهما دور الإقناع بشهود، حتى أتى موقع التنديد التذكير: «فَلَمّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ أَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ»! فقد عجزت الملائكة من استنباء أسماء هؤلآء بعد عرضهم عليهم، وكان العرض بحيث ينبئ، وعجزت أن تعرف حقائق هؤلآء الذوات المقدسة: الخلفاء، وكان الإنباء بعد العرض مما يعرّف، وقد خص آدم عليه‌السلام بتعليم الأسماء بالذوات دفعة واحدة، مما يدل على رجاحة ميزانيته عليهم[1]، وعلى أفضلية هؤلآء الخلفاء كذلك.

و بطبيعة الحال حصلت لهم أشباح من المعرفة بهذه الذوات حسب الدرجات، ولكنما الحقيقة المحمدية لم تكن تظهر لهم ولا لآدم كما يحق، فقد بهروا وتحيروا منها، واستدلوا بما عرفوا مما دونها على تلكم القمة العليا[2] وتعبدت لهم الطريق لكي يسجدوا لآدم كما أمروا! ... «فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» في دعواكم «وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ»وأنكم الأفضلون من هذه الخليفة ـ و«صادقين»في سؤلكم «أَ تَجْعَلُ فِيها»؟

فها أنتم لم تعرفوا أسماءهم بعد ما عرضوا لكم بأشباحهم فكيف تدّعون؟ .. ثم وبعد أن تعرفوا أسماءهم فتزدادون بهم معرفة بعد ما أنبأكم آدم، فتعرفون من هم، فأين هم وأين أنتم؟! «فَلَمّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ ... وَ أَعْلَمُ ما تُبْدُونَ» مما تقولون «وَ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ»: وقد كتمه اللّه عنا إلّا ما بينه عن إبليس.

فقد «عجزت الملائكة على قربهم من كرسي كرامته وطول ولههم إليه وتعظيم جلال عزه وقربهم من غيب ملكوته أن يعلموا من أمره إلّا ما أعلمهم وهم من ملكوت القدس بحيث هم، ومن معرفته على ما فطرهم عليه أن قالوا: «سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلّا ما عَلَّمْتَنا»[3].

فيا لهذا النسل الأخير الإنساني من مكرمات جعلته خير الأنسال الترابية ـ لا فحسب! فقد فضّلته على ملائكة السماء، فلا أفضل منه في تاريخ التكوين: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ»(٩٥: ۴) فليس في الخلق أقوم منه، اللهم إلّا أن يماثله من لا نعرفه: «وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا» (١٧: ٧٠) فمن هذا القليل الذي يزامله في هذه القوامه الحسنى؟ لا ندري!.

ثم اللهم إلّا أن لا يعرفوا كيانهم فيردون إلى أسفل سافلين، بعد ما خلقهم اللّه في أحسن تقويم، في ذلك التعليم والإنباء والعرض عرض لكيان هذه الخليفة في معرض القياس على الملائكة، ولكي يعلموا

---

[1]. في معاني الأخبار و كمال الدين و تمام النعمة و عن الصادق عليه السلام: ان اللّه عز و جل علم آدم اسماء حججه كلها ثم عرضهم و هم أرواح على الملائكة فقال: أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» بأنكم أحق بالخلافة في الأرض

[2]. تفسير البرهان ١: ٧٣ عن تفسير الامام الحسن العسكري عليه السلام في آية الأسماء قال: اسماء أنبياء اللّه و اسماء محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و علي و فاطمة و الحسن و الحسين و الطيبين من آلهما- ثم عرضهم-: عرض محمدا و عليا و الائمة على الملائكة، اي عرض أشباحهم و هم أنوار في الأظلّة.

[3]. نور الثقلين ١: ٥٥ عن التوحيد للصدوق خطبة لعلي عليه السلام يقول فيها: ..

أن هذه الخليفة الترابية البشر، المخلوقة من تراب من حمإ مسنون، هي أعلى من ملائكة السماوات! ولكي يعلم الإنسان من هو، فليجدّ بالسير الى مثله العليا.

نكات مستدركات حول هذه الآيات:

١ ـ (إني جاعل» دون «خالق» توحي أنه جعل خليفة بعد خلقه لا بخلقه، وعلّ بداية خلافته حين نبّئ بعد ما «عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى» وإن كان تعليمه الأسماء وإسجاد الملائكة له قبل ذلك، فقد كفى إثباتا لخلافته بذريته الأنبياء تعليمه الأسماء ـ ذاتيا ـ وإنبائهم وعرضهم الأسماء حملا لهؤاء الخلفاء...

٢ ـ «أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ»: في «مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ»فانه مهما حصل فهو أقل ممن مضى، وليس معذلك ممن يعنى من «خليفة»فانها هم الأسماء التي سوف تعرض عليكم وتنّبئون بأسمائها.

او «صادقين» في «وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ» كأنكم أنتم الأعلون في هذا المسرح.

او «صادقين» في معرفة هذه الخليفة، أن تدفعكم للحكم عليها ولأنفسكم، أم ماذا ٣ ـ (قالُوا سُبْحانَكَ»: ننزهك عن أن نقول بغير علم، أو أن تجعل فيها من يفسد فيها .. أو أن نعلم قبل أن نعلّم.

٤ ـ (لا عِلْمَ لَنا إِلّا ما عَلَّمْتَنا» توحي أن علوم الملائكة أنما هي بالتعليم الإلهي وحيا دونما محاولة منهم او تحصيل، كدحا في تعلّم او تفكير، إلّا وحيا، ومن ميّزات الإنسان عدم انحصار علومه بهكذا وحي، فله استخدام مختلف الوسائل للحصول على علوم مهما قلت او كثرت، ومهما اخطأ فيها لو سلك غير سبلها.

فعلم الوحي في الملائكة والناس على سواء في عدم تكلف التحصيل، ثم للإنسان علم زائد يحصل له بتحصيل، وهو ليس للملائكة دون وحي إلّا جهلا، ولكنه للإنسان علم بعد علم الوحي، مهما تورّط في مجاهيل.

ف «لا عِلْمَ لَنا إِلّا ما عَلَّمْتَنا» اعتراف ثان بقصورهم وجاه هذه الخليفة: «إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ» دون سواك، تعلم ما تفعل وتفعل ما تعلم: «الحكيم» في أفعالك كلّها كما هنا وإنّما نحن الخاطئون! هنا يحسن بنا عرض نظير القصة من الأصل السرياني لكتاب إدريس النبي عليه‌السلام في تعيين أفضل المخلوقين نقلا عن آدم عليه‌السلام أنني رأيت خمسة أشباح نورانية مكتوبة أسمائهم على العرش في غاية العظمة والجلال والجمال والكمال والحسن والضياء والبهاء، حيث أغرقتني أنوارهم في الحيرة ..

قلت: يا رب! من هؤاء، فإذ أنا ناظر الى العرش أرى هذه الأسماء: يا پارقليطا ـ محمّد. إيليا ـ علي. طيطه ـ فاطمة. شبّر ـ حسن. شبّير ـ حسين.

إني لهويوه أنا لبرين وارخ لا الشماى ولا أل ارعا ولا البردس ولا الكهين ولا الشمس ولا السعر:.

«لولاهم لما خلقتك يا آدم ولا السماء ولا الأرض ولا الجنة ولا النار ولا الشمس ولا القمر».

هليلوه لت شوق منّي محمّد انوّي دأله:

«هللوني فانه لا إله إلا أنا ومحمد رسولي»[١].

---

[١]. هذه البشارة ينقلها جديد الإسلام في كتاب أنيس الاعلام ج ٢ عن النسخة السريانية من كتاب إدريس عليه السلام في مكتبة الآثار في لندن المطبوعة ١٨٩٥ ص ٥١٤- ٥١٥ بالتفصيل الآتي.

وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّ إِبْلِيسَ أَبى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ (٣٤) وَ قُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَ كُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمّا كانا فِيهِ وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ(٣٦) فَتَلَقّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ(٣٨) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ(٣٩)

.. معركة مصيرية دائبة تنبثق بين خليفة الخير: آدم، وبين خليقة الشر: إبليس، عند ما يؤر الملائكة بالسجود لآدم، ندرس هذه المعركة بأجواءها وأرجاءها ومخلّفاتها ومعداتها من خلال الآيات التي تستعرضها تصريحا او تلميحا وقد صرح بها في مواضيع سبعة[1] هذه منها:

وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلّا إِبْلِيسَ أَبى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ ٣٤ (و إذ» قد تكون عطفا على «وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ» ثم وعلى المحذوف في «وَ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ» إذ .. «وَ إِذْ قُلْنا» بيانا لأهم ما كانوا يكتمون من الاستكبار عن السجود لآدم، كما حصل لإبليس «وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ» ظهور العصيان إذ كان يكتم كفره.

و ترى متى قال للملائكة اسجدوا لآدم؟ وكيف أمروا أن يسجدوا لآدم؟ وإذ لم يكن إبليس من الملائكة: و«كانَ مِنَ الْجِنِّ» (١٨: ٥٠) فلا يشمله أمر الملائكة، فكيف أبى و استكبر، فهل عما لم يؤر؟! إنهم أمروا أن يسجدوا لآدم قبل خلقه: «إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ

فيما كان إدريس النبي ببابل في معبده، ينقل هذه القصة بين جمهور من أصحابه:

اختلف ولد أبيكم آدم (عليه السلام) يوما في: من هو أفضل الخليقة؟- فقال بعضهم: انه أبونا آدم إذ خلقه اللّه بيد قدرته و نفخ فيه من روحه و أمر ملائكته بتعظيمه و تكريمه و جعله معلمهم و خليفة في الأرض.

و قال آخرون: الملائكة أفضل من أبينا فإنهم لم يعصوا اللّه و لن يعصوه، و أبونا آدم عصاه فأخرجه اللّه و زوجه من الجنة، مهما تاب عليه و هداه و وعد المؤنين من ذريته الجنة.

و قال ثالثة إن اشرف الخلق هو الملك العظيم جبرئيل أمين رب العالمين. زادت خلافاتهم فقال آدم: اسمعوا حتى أخبركم بمن هو أفضل خلق اللّه:

لما خلقني اللّه و نفخ فيّ من روحه جلست فرأيت: ...

و هكذا نرى في إنجيل برنابا ٣٩: ١٤- ٢٨ و لكنه لم يأت إلّا بذكر الرسول محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) (راجع كتابنا: رسول الإسلام في الكتب السماوية).

[1]. المواضيع الستة الاخرى هي: «وَ لَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلّا إِبْلِيسَ» ٧: ١١ (وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلّا إِبْلِيسَ قالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً» (١٧: ٦١) (وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلّا إِبْلِيسَ أَبى» (٢٠: ١١٦) (وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلّا إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» (١٨: ٥٠) (فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ» (١٥: ٢٩) و ٣٨: ٧٢).

نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ»(٣٨: ٧٢) فموقع الأمر قبل خلقه، وموقع السجدة بعد خلقه، وقد تكون بعد ما علّم آدم الأسماء كلها لتكون السجدة أمكن وأمتن، او تكون قبله لتكون المحنة أتم، ولكن فلنسكت عما سكت الله عنه.

و أما السجود لآدم؟ فهل المسجود هنا آدم عبادة؟ و«أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» (١٢: ٤٠) فلا يمكن أن يأمر بعبادة غير الله، فانها تسوية ضالة ظالمة بين الله وسواه: «تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ، إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ» (٢٦: ٩٨) ثم ولا طائل تحت هذه العبادة اللّهم إلّا دفعا لعبادة غير الله، اتباعا لملائكة الله! او أنها تكريم لخليفة الله، ان يسجد لآدم إكراما له واحتراما؟ فهكذا الأمر! فهل يأمر الله بهكذا تكريم لسواه، وفيه إهانة لساحته، وتشريك له معه في كرامته، وتسوية له في حرمته، ونيل من محتده، فلم يكن الله ليسمح أو يأمر باحترام لآدم أو من فوقه، وفيه اختزام لساحة قدسه والاحترام درجات قمتها احترام العبادة فلا يحق إلّا للمعبود! كما وآيات السجود تختصه ـ عبادة واحتراما ـ بالله، وما «وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً» من والدي يوسف له، إلّا كما سجد الملائكة لآدم، إذ تعنيان معنى سواء، دون أن تفسر إحداهما الأخرى!.

فعدم جواز التسوية بين العالي والداني، فضلا عن الله وخلقه، إنه من المستقلات العقلية، والسجود هو الغاية القمة من مراحل العبادة عبادة، ومن الحرمة احتراما او شكرا، اللهم إلّا إذا كان بقصد الاستهزاء فليس إذا سجودا، ومسرح البحث هنا هو سجود العبادة والاحترام دون اللعبة والاختزام، وهو ـ لا شك ـ منحصر في الله، منحسر عمن سوى الله مهما كان عظيما، فلا عظيم بجنب الله! أ ترى ان الله يأمر بما هو ضلال وظلم في نفسه، ولكي يرغّب الى عبادة غيره او احترامه كمثله سواء.

و القرآن في عشرات الآيات يصرح باختصاص السجود بالله أيّا كان:

«إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ»(٧:٢٠٦)

أ ترى انه تعالى يمدح الملائكة في اختصاص السجود به ثم يأمرهم ان يسجدوا لآدم، فانما الخالق هو الذي يحق أن يسجد له دون سواه، فلا تعني «اسْجُدُوا لِآدَمَ» إلّا ما تعنيه «وَ لَهُ يَسْجُدُونَ» بفارق ان هذه مطلق السجود لله، وتلك هي سجود الشكر حيث «لآدم»و«لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ»(٤١: ٣٧): فتوحيد العبادة لله لزامه توحيد السجدة لله، ولأنه الخالق دون سواه و«هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ» «وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً»(٧٢:١٨)[1].

ثم ولم يسبق لأحد من أنبياء الله، ولا لنبي الأنبياء محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله ان يسمح بالسجود او الركوع له، ومناط السماح ـ لو جاز لآدم ـ هو فيه أقوى بما لا يحصى! ولقد كذّب كونه تحية الأنبياء[2] إذ «ما

---

[1]. راجع لتفسير الآية الى ج ٢٩: ١٩٣- ١٩٤ تجد بحثا فصلا عن السجود

[2]. روى احمد بن حنبل في مسنده ٤: ٣٨١- ان معاذا لما قدم من اليمن سجد للنبي صلى اللّه عليه و آله و سلم فقال: يا معاذ! ما هذا؟ قال: ان اليهود تسجد لعظمائها و علمائها و رأيت النصارى تسجد لقسسها و بطارقتها، قلت ما هذا؟ قالوا: تحية الأنبياء فقال صلى اللّه عليه و آله و سلم: كذبوا على أنبيائهم.

ينبغي لبشر أن يسجد لبشر»[1] ولا «لأحد أن يسجد لأحد من دون اللّه يخضع له خضوعه للّه ويعظم به السجود كتعظيمه للّه»[2] لا وحتى أن يقبّل رِجل ولي من أولياء اللّه، فهل «بقي شيء ـ بقي[3] شيء» للّه، لو سوينا بينه وبين عباده احتراما فضلا عن عبادة! كما هوى رجل على قدميه صلى‌الله‌عليه‌وآله فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله: تنح! دع عنك أفاعيل الأعاجم[4] و ما إلى ذلك من مواقف مشرفة للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله والأئمة من آل الرسول، مستنكرين الركوع او السجود ـ مهما كان احتراما دون عبادة لغير اللّه ـ و لهم! وهم من نعرفهم بفضلهم على آدم ومن فوقه، فكيف يختص آدم بسجود الملائكة، ثم يحرم من هم أدنا منهم ان يسجدوا لمن فوقه، ان هي إلّا قيلة فارغة هراء، و اللّه منها براء! أم كان آدم قبلة لهم في سجودهم للّه؟ والقبلة لا يسجد له، وإنما يسجد إليه، وهنا السجود لآدم لا الى آدم! ثم لا تفضيل له عليهم بالسجود إليه كقبلة، كما الرسول يسجد إلى القبلة التي هي دونه! والسجدة لآدم تحمل تكريما له على الملائكة وفيهم إبليس القائل:

«أَ رَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ..» (١٧: ٦٢)! وان كانت سجدة الشكر لنعمة لا تجعلها أفضل من الشاكر، اللهم الا إذا كان نعمة روحية من تعليم او نبوة! أم كان السجود للّه شكرا على ما أنعم عليهم بمعلم كآدم، كما تقول:

سجدت لولدي ـ لرزقي ـ لصحتي .. والمسجود هو اللّه لما أعطاك وحباك! فاللّام إذاً للغاية «اسجدوا» للّه «لآدم» حيث خلقه اللّه لكم معلما داعيا إليه وسراجا منيرا كما «وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً» (١٢:) ١٠٠): خروا سجدا للّه ليوسف حيث وجدوه حيّا عزيزا، فليس يعني السجود هنا وهناك

---

[1]. الجصاص ١: ٣٥ عن عائشة و جابر بن عبد اللّه و انس ان النبي صلى اللّه عليه و آله و سلم قال: ما ينبغي لبشر ان يسجد لبشر و لو صلح لبشر ان يسجد لبشر لأمرت المرأة ان تسجد لزوجها من عظم حقه عليها «و رواه ابن ماجه و احمد بن حنبل في مسنده ٤: ٣٨١ و ٦: ٧٦ و ٥: ٢٢٨ و روى ما في معناه ابو داود في سننه- نكاح: ٤٠.

[2]. تفسير البرهان ١: ٨١ عن تفسير الامام الحسن العسكري قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم ... و لم يكن سجودهم لآدم انما كان آدم قبلة - لهم يسجدون نحوه للّه عز و جل و كان بذلك معظما مبجلا و لا ينبغي لأحد ... و لو أمرت أحدا ان يسجد هكذا لغير اللّه لأمرت ضعفاء شيعتنا و سائر المكلفين من شيعتنا ان يسجدوا لمن توسط في علوم وصي رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

[3]. في الوافي باب المعانقة و التقبيل عن أبي عبد اللّه عليه السلام قيل له اعطني يدك اقبلها فأعطاها ثم وجهك فأعطاه، ثم قال: و رجلك قال: هل بقي شيء ثم قال: لا يقبل وجه احد و لا يده إلّا رسول اللّه او من أريد به رسول اللّه- و في حديث آخر: إلّا رسول اللّه او وصي رسول اللّه.

[4]. في حديث لا اذكر مسنده ان أعجميا أراد ان يهوى على قدمي رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم فقال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): تنحّ! دع عنك أفاعيل الأعاجم.
وفي تفسير الرازي ٢: ٢١٢ عن الثوري عن سماك بن هاني قال: دخل الجاثليق على علي بن أبي طالب فأراد ان يسجد له فقال علي (عليه السلام): اسجد للّه و لا تسجد لي.

لآدم او يوسف أنه المسجود له، وانما مسجود لأجله المعبر عنه ب«له» «لآدم»! فاللام الأولى للمسجود له والثانية للمسجود لأجله[1] تحذف الاولى حين تحذف اعتمادا على الضرورة العقلية والقرآنية وسائر كتابات السماء أن لا سجود إلّا للّه، عبودية أو احتراما أم شكرا.

و قد يجوز أنهم سجدوا إليه كقبلة، سجودا للّه: «اسْجُدُوا لِآدَمَ»:

للّه شكرا لما خلق آدم، متوجهين إليه كقبلة، حيث كونه وسيطا بينهم وبين اللّه في سجودهم وسائر عباداتهم للّه.

ف «انما كان آدم قبلة لهم يسجدون نحوه للّه وكان بذلك معظما مبجّلا»[2]

ام انهم سجدوا عليه كتربة يسجد عليها؟ ولكنما الملائكة ليست لتسجد على شيء فانها ماكنة السماء لا ساكنة الأرض! وليس هنا السجدة «على» بل السجدة ل! ولكن «ل» في السجود، دون «الى» او «على» ينحّي هذا السجود عن هاتين، اللّهم إلّا معنيّا ضمنيا ما صلح معنويا كالقبلة، دون كونه كتربة يسجد عليه! او أن لامه للانتفاع «اسجدوا لينتفع آدم»: اخضعوا لأمر اللّه في تحقيق مصالح آدم لحاجياته الحيوية نفسية ومادية، وكما نراهم هكذا يعملون، من ملائكة الوحي والمدبرات أمرا أم ماذا.

أو أنه يحمل مثلث المعنى: أن آدم كان قبلة والمسجود هو اللّه سجدة شكر للّه، وخضوع في صالح آدم لأمر اللّه، والآية تتحملها كلها، ما دام المسجود هو اللّه، دون آدم، ولان «سجد» لازم فليتعد بشيء، فلام «للّه» هي للتعدية .. «اسْجُدُوا لِلّهِ»واللام في غير اللّه لغيرها كما في سجدة الشكر «لآدم وليوسف» إذ تعنيان: اسجدوا للّه لآدم او ليوسف! ومهما يكن من شيء ففي هذا السجود لآدم مكرمة له وشكر للّه أن يسجد له للّه لما أنعم، لمّا أنعم، فله الشكر بما أنعم وألهم.[3]

و هل يا ترى أن الملائكة كيف سجدوا؟ لا شك انهم تطامنوا في غاية التذلل والخنوع، واما كيف فلا ندري، فلكل كائن هيئة خاصة لسجوده كما يناسبه، ام دون هيئة وانما حقيقة السجود كما «وَ لِلّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ ظِلالُهُمْ»(١٣: ١٥) (وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ يَسْجُدانِ» (٥٥: ٦) ولا شك ليس يسجد كل الكائنات كما نسجد بوضع الجباه على الأرض، ولا سيما في السجود التكويني كرها ان ذواتها خاضعة لارادة اللّه، مسيّرة في قبضة اللّه دونما تمنّع، لا فحسب، فحتى الإنسان حيث يؤر بغاية الخضوع أحيانا دون هيئته الخاصة كما الخضوع للقرآن ـ التام ـ: «فَما لَهُمْ لا

---

[1]. لسان العرب ٣: ٢٠٤- و لأهل العربية وجه آخر و هو ان يجعل اللام في قوله:

و خروا له سجدا- و قوله: رايتهم لي ساجدين- لام من اجل: فالمعنى: و خروا من اجله سجدا للّه شكرا.

[2]. تفسير البرهان ١: ٨١ عن تفسير الامام الحسن العسكري عليه السلام.

[3]. و من اغرب ما نراه في هذا المسرح اختلاف الشيخين الأعظمين المفيد و الطوسي في ماهيته الشيطان؟ اختلاف التناقض- قال في البيان: كان إبليس من الملائكة بدلالة استثناءه من جملتهم و هو المروي عن أبي عبد اللّه و الظاهر في تفسيرنا و اخبارنا.

و قال الشيخ المفيد إبليس كان من الجن و لم يكن من الملائكة و قد جاءت الأخبار بذلك متواترة عن أئمة الهدى و هو من مذهب الامامية.

أقول: ليتهما استندا فيما ذهبا اليه الى كتاب اللّه، دون ان يقعوا في فخ دعوى التناقض بين متواتر الأخبار!- هامش الصفحة ٣٠٣.

يُؤْمِنُونَ، وَ إِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ» (۸۴: ۲۱) حيث تفرض السجود عند قرائة القرآن ككلّ، وهو لا شك غير سجدة التلاوة في آياتها الخاصة، حيث الموضوع هنا القرآن كلّه، فلتكن غاية الخضوع استماعا وإنصاتا وتفهما وتصديقا وتطبيقا، وهي هنا السجدة كما قد تكون السجدة حالة المشيء، فلا يمكن ان تكون الهيئة الخاصة في الصلاة كما امر بنو إسرائيل حين دخول القدس:

«وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً» (۲: ۵۸) فغاية الخضوع حالة المشيء الدخول، هي التطامن الى الأرض كما يستطاع، وهو أركع من الركوع، وأرفع من السجود!.

فالسجود بكافة صنوفه في هيئات خاصة او دونها، له معنى واحد: «غاية الخضوع»: طوعا او كرها بأرجائه وأجوائه، مهما اختلفت شاكلته وحالاته وغاياته، اللهم إلّا هتكا وهزأً! إذا فلا تهمنا وتعنينا أن الملائكة كيف سجدوا ويسجدون، وبعد ما سكت اللّه عنها، وانما أنهم خضعوا للغاية وتذللوا للنهاية بما لا يحق إلّا للّه، فسبحان اللّه عما يصفون!.

فَسَجَدُوا إِلّا إِبْلِيسَ ...لا شك أن إبليس لم يكن من الملائكة كونا في أصله وهيئته مهما كان منهم في كيانه وظاهر عبادته، فقد «كان من الجن ففسق عن امر به» ولو كان من الملائكة لم يفسق عن أمر ربه: «بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ، لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ»«يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ» «يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لا يَفْتُرُونَ».

كما وأن الملائكة أيضا تعترف أن الجن لا تسانخهم ولا تجانس:

«وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَ هؤُلاءِ إِيّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ. قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ» (۳۴: ۴۱) ومن ثم فإبليس له ذرية: «أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي» (۱۸: ۵۰) ولا ذرية إلّا بين ذكر وأنثى، والجن منهم نساء ومنهم رجال: «وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ»والملائكة لا ذكور فيهم ولا إناث: «وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ»وإذ لا إناث فيهم فلا رجال، أم ـ على أقل تقدير ـ ليست لهم ذرية فإنها بين رجال وإناث!.

فترى إذ لم يكن إبليس من قبيل الملائكة فكيف يشمله أمر السجود الخاص بالملائكة: «وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ»؟ وكيف يعتبر عاصيا إذ لم يسجد، أ فعصيانا دون ذنب؟! إنه أمر ولعله مرتين، إحداهما: «ما مَنَعَكَ أَلّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ» (۷: ۱۲) كما وهو معترف بالأمر: «فَسَجَدُوا إِلّا إِبْلِيسَ قالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً» (۱۷: ۶۱) وإلّا كان يعتذر ويعترض بعدم الأمر! فلقد شمله أمر الملائكة ـ كما وعلّه اختصه امر ثان ـ شمله حيث كان في العبادة بكيان الملائكة، وحتى في مكان الملائكة، فعدّ منهم من حيث الملائكية الروحانية، مهما اختلف عنهم في غيرها، عبد اللّه معهم كما كانوا يعبدون، ردحا بعيدا من الزمن نفاقا عارما كافرا، حتى أظهر مكنونه إذا أمر[1]«أَبى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ» (۳۹: ۷۴):

---

[1]. نور الثقلين ۱: ۵۵ عن تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن جميل عن أبي عبد اللّه (ع) قال: سئل عما ندب اللّه الخلق اليه أدخل فيه الضلال، قال: نعم و الكافرون دخلوا فيه لأن اللّه تبارك و تعالى امر الملائكة بالسجود لآدم فدخل في امره الملائكة و إبليس، كان مع الملائكة في السماء يعبد اللّه و كانت الملائكة تظن انه منهم و لم يكن منهم، فلما امر اللّه الملائكة بالسجود لآدم اخرج ما كان في قلب إبليس من الحسد فعلمت الملائكة عند ذلك ان إبليس لم يكن منهم فقيل له (ع) فكيف وقع الأمر على إبليس و انما امر اللّه الملائكة بالسجود لآدم فقال: كان إبليس منهم بالولاء و لم يكن من جنس الملائكة و ذلك ان اللّه خلق خلقا قبل آدم و

كان إذ كان مع الملائكة من الكافرين المنافقين.

و هنا الاستثناء متصل، وعلى انفصالها فالوجه انه لم يكن منهم لا كونا ولا كيانا، ولكنه إذ أمر شخصيا بالسجود: «ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ» اعتبر هنا في ردف المأمورين وليس منهم في غيره، وعلّ الفائدة هنا أتم، إذ الاستثناء المنقطع تفيد الاستغراق: لم يبق منهم احد إلّا سجد، فلم يعص منهم احد، اللّهم «إِلّا إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ»(١٨: ٥٠): وأما هم: «فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ» (١٥: ٣٠) مما يؤد استغراق الأمر بالسجود.

«فَسَجَدُوا إِلّا إِبْلِيسَ أَبى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ»: وهناك تفاصيل وتعاليل من قياس إبليس لمّا ترك السجود لآدم، أجمل عنها هنا وفصّلت في سائر آياتها الست الأخرى، ندرسها في طياتها، وهي في صيغة واحدة: رد على اللّه وردّة عن شرعة اللّه بقياس فيه إبلاس: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» (٧: ١٢) (قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» (١٥: ٣٣) (أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً»(١٧: ٦١) (فَسَجَدُوا إِلّا إِبْلِيسَ أَبى» (٢١: ١٦) (فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» (١٨: ٥٠) وهنا نجمل كما أجمل اللّه وما أجمله شمولا «أَبى وَ اسْتَكْبَرَ»:

أبى ان يسجد كما أمر اللّه، واستكبر على آدم وعلى اللّه، على آدم حيث عدّه أدنى منه لان جنسه ـ كما زعم ـ أعلى من جنسه، وعلى اللّه حيث رد حكمه بقياس، تجهيلا للّه وترفّعا عليه كأنه أعلم منه في مناطات الأحكام، فليس إذاً كفره لأنه ما سجد، حيث التاركون من المسلمين للسجود كثير وما هم بكافرين، إذ يأبون دون استكبار، وإنما لاستكبارة. لرده حكم اللّه ومحادّته للّه، وما أكفره من يحاجّ اللّه، فانه ليس فقط تكذيبا للّه، بل وترفعا وطغيانا على اللّه، فهو أنحس من ايّ شرك او كفر او إلحاد، ولذلك فهو زعيم الضالين أجمعين، إن «إبليس» كلما يذكر فهو زعيم الشياطين، طالما الشيطان يعمه وسائر الشياطين، وإن أخطر مواقفه وأكفرها هو رده على رب العالمين، فاختص في موارده ب«إبليس»: إحدى عشر موضعا من الذكر الحكيم، طالما الشيطان يذكر في (٦٨) والشياطين في (١٧) زائدا على جنوده الشياطين باسميه في (٦٢) موضعا: ثنوي الاسم وثالوثي الموقف:

إبليس ـ شيطان ـ شياطين: بشخصه وحزبه والإبلاس حزن معترض من شدة البأس، وقطع، وانقطاع حجة، وحيرة، وقنوط، وقطع رجاء، وانكسار، وحزن، وإيقاع في البلس: الالتباس.

و إبليس يجمع في نفسه جميع هذه المعاني لاسمه: حزنا على ما كرّم عليه آدم وطرد، و قطعا للجنة والناس من الوصول الى مأمولهم، مع انقطاع حجته أمام اللّه وأمام الخلق، وحيرة فيما تورّط فيه ووقع من هوّات، وقطع رجاء لنفسه عن رحمة اللّه ولغيره أيضا عن مغفرة اللّه، وانكسار في كافة الحقول الدعائية أمام عباد اللّه، وحزن مما يجاهدون في سبيل اللّه، وإبلاس لهم فيما يعتنقون من شريعة اللّه، وكل ذلك تجمعها «أَبى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ» إن إبليس يبلس كما المجرمون مبلسون يوم

كان إبليس منهم حاكما في الأرض فعتوا و أفسدوا و سفكوا الدماء فبعث اللّه الملائكة فقتلوهم و أسروا إبليس و رفعوه الى السماء فكان مع الملائكة يعبد اللّه الى أن خلق اللّه تبارك و تعالى آدم.

أقول: لعل الجمع بين معرفتهم لإبليس و عدمها ان الذين قاتلوه هم عرفوه دون سواهم.

ثم أقول: و في معناه ان إبليس لم يكن منهم، رواه في اصول الكافي عن علي بن ابراهيم عن أبي عبد اللّه (ع) ..

الدنيا ويوم الدين: «حَتّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ»(۶:۴۴) «وَ يَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ»(۳۰: ۱۲) ولكنما إبليس زعيمهم هو الأصل في الإبلاس كما إفعيل مبالغة في مادته، والإبلاس هنا هو الإياس، فانه آيس عن رحمة اللّه ويؤس عن رحمة اللّه ليجلب اكثر عدد ممكن إلى حزبه، ألا فتيقظوا يا أولي الأبصار! وَ قُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَ كُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظّالِمِينَ (۳۵) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمّا كانا فِيهِ وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ (۳۶) قصة الجنة هذه تذكر هنا وفي أخرى: «وَ يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظّالِمِينَ، فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وَ قالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ. وَ قاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النّاصِحِينَ، فَدَلّاهُما بِغُرُورٍ فَلَمّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ ناداهُما رَبُّهُما أَ لَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ، قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ، قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ، قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَ فِيها تَمُوتُونَ وَ مِنْها تُخْرَجُونَ» (۷: ۲۵)
و ثالثة في طه: «وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً. وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلّا إِبْلِيسَ أَبى. فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى. إِنَّ لَكَ أَلّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى. وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤا فِيها وَ لا تَضْحى. فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى، فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى. ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى. قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى» (۲۰: ۱۲۳).
مواضع ثلاثة تذكر فيها قصة جنة آدم، كما وذكرت قصة المعركة المصيرية بين إبليس وآدم في سبعة هذه منها، معركة تفتح للغاوين السبعة أبواب الجحيم كما ذكرت في سبعة، ندرس الثلاثة هنا ونترك السبعة الى محالها، وفي الهامش عرض الاعتراضات السبع الابليسية[1].

---

[1]. في تفسير الفخر الرازي: ۲/ ۲۳۶: حكى محمد بن عبد الكريم الشهرستاني في أول كتابه المسمى بالملل و النحل عن ماري شارح الأنا جيل الأربعة، و هي مذكورة في التوراة على شكل مناظرة بينه و بين الملائكة بعد الأمر بالسجود، قال إبليس للملائكة: إني اسلم ان لي إلها هو خالقي و موجدي و هو خالق الخلق لكن لي على حكمة اللّه تعالى اسئلة سبعة:
الأولى: ما الحكمة في الخلق لا سيما إن كان عالما بان الكافر يستوجب عند خلقه الآلام؟.
الثاني: ثم ما الفائدة في التكليف مع انه لا يعود منه ضرر و لا نفع و كل ما يعود الى المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التكليف؟.
الثالث: هب انه كلفني بمعرفته و طاعته فلما ذا كلفني بالسجود لآدم.
الرابع: ثم لما عصيته في ترك السجود لآدم فلم لعنتي و أوجب عقابي مع انه لا فائدة له و لا لغيره فيه و لي فيه أعظم الضرر؟.
الخامس: ثم لما فعل ذلك فلم مكنّني من الدخول الى الجنة و وسوست لآدم؟.
السادس: ثم لما فعلت ذلك فلم سلطني على أولاده و مكنني من إغوائهم و إضلالهم؟.
السابع: ثم لما استمهلته المدة الطويلة في ذلك فلم أمهلني؟ و معلوم ان العالم لو كان خاليا من الشر لكان ذلك خيرا! ..
هكذا زين لإبليس سوء تفكيره و الجواب كلمة واحدة:

و في هذه القصة مسارح للبحث والتساءل ندرسها على ضوء المثلث من آياتها، تاركين الأقاويل والروايات المتناقضة التي لا تلائمها، كما هو دأبنا في تفسيرنا «وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ إِنّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ»(٧: ١٧) فعلّنا نكون ممن يصلح ولا يفسد في آي الذكر الحكيم.

فما هي جنة آدم؟ ولماذا أدخل فيها إذا كانت سماوية وهو خليفة أرضية؟ وما هي الشجرة المنهية؟ وكيف النهي؟ وكيف يجوز العصيان من الخليفة المفضّلة على الملائكة وهو نبي؟ وكيف استطاع إبليس أن يزلّهما وهو خارج الجنة إذ أمر بالهبوط قبله؟ ومن هم المأمورون بالهبوط: «اهبطوا»؟ وما هي الكلمات التي تلقاها من ربه فتاب عليه؟ أم ماذا من أسئلة حول هذه القصة المهمة التي تستعرض بداية ظهور الإنسان وحياته.

١ ـ جنة آدم؟

ترى إنها جنة الخلد؟ وكما يفهم من إطلاقها دون قرينة تصرفها عن وجهها؟

١ ـ وجنة الخلد هي خلد دونما شرط الأكل من شجرة خاصة منها، فكيف عصى آدم ربه فغوى طمعا فيها: «هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى. فَأَكَلا مِنْها»(٢٠:١٢١) وآدم أعرف بها منا إذ دخلها، فلو كانت هي الخلد لم يزلّ للحصول عليه بالأكل من شجرة الخلد وملك لا يبلى! ٢ ـ وأن «فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ»دونما استثناء، وقد نهي آدم فيها عما اشتهت نفسه! ٣ ـ وأن الداخل فيها ليس بخارج عنها: «لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ وَ ما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ» (١٥: ٤٨) وقد مسّه نصب وأهبط عنها، وهم «خالِدِينَ فِيها أَبَداً» (٥: ١١٩) (لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ»(٩: ٢١):

٤ ـ وان الكافر محروم عنها ونادى اصحاب النار اصحاب الجنة ان أفيضوا علينا من الماء او مما رزقكم اللّه قالوا إن اللّه حرمهما على الكافرين (٧: ٥٠) وإبليس كان من الكافرين! ٥ ـ وان الخلد هي

«لا يُسْئَلُ عَمّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ» حيث المسئول تنديدا ليس إلا لجاهل او العامد الخاطئ و الظالم المفتاق، و أما الغني الحميد و العالم الذي علمه لا يبد فلا يسأل إلا تفهما! ثم الحكمة في الخلق هو اظهار لطفه و رحمته و إبراز عطفه و نعمته، فما لمن بدّل نعمه اللّه نقمة ان يعترض على ما أتاه اللّه من نعمة.

ثم التكليف ليس لفائدة الى اللّه من دفع ضر أو جلب نفع، و انما العائدة الى المكلفين و استكمالا للهدف من خلقهم ف «ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلّا لِيَعْبُدُونِ. ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ» و تحصيل الكمال لنا دون سعي بطالة و عطالة و هي خلاف الحكمة.

ثم التكليف بالمعرفة و الطاعة لزامه الابتلاء بالأمر و النهي، و منه السجود لآدم إظهارا لفضله، رغم أنه أضله، فليرغم بذلك جزاء عما أضل.

و ليس العذاب و اللعنة إلا من خلفيات العصيان أيا كان دونما ابتغاء فائدة للّه ام لغيره و إنما جزاء وفاقا هو العصيان بنفسه في ظهور حقيقته، و لكيلا يسوّي بين المحسن و المسي، و ليتحذر كل سيّئ.

و في تمكينه لدخول الجنة تمكين بلا تسيير لاقتراف المعصية، فلو لم يمكّن العاصي في عصيانه لم يفرّق بين المطيع و العاصي و هذا ظلم و تسليطه على ولد آدم ليس تسليط التسيير، و انما تخيير دون الزام، لا في إغواء و لا إهداء، و حجج اللّه البالغة كافية لولد آدم تركا لطاعة إبليس، و في ذلك التسليط ابتلاء يجعل من المدعين الايمان مخلصين و غير مخلصين، و لتمييز الصالح عن غيره، فعند الامتحان يكرم المرء او يهان.

و في إمهاله إملال و إدلال، و ليظهر مكنون كفره كما هو، و يظهر مدخول النيات و الطويات لمن يدعون الايمان.

فلقد أغلقت أبواب جحيم إبليس السبعة بكلمة واحدة «لا يُسْئَلُ عَمّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ».

جنة الآخرة، لا يدخلها احد قبل الآخرة، فكيف دخلها آدم وزوجه في الأولى وقبل أن تقوم القيامة!.
٦ ـ وأنها ليست دار شريعة وتكليف وقد كلّف آدم فيها! ٧ ـ وأنه لا يدخلها إلّا من آمن و عمل الصالحات وجاهد وصابر: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصّابِرِينَ» (٣: ١۴٢) ولا يعرف لآدم عمل يستحق به الجنة قبل دخولها ولا موقف للمصابرة قبل معركة الشيطان!.
٨ ـ وانها لا تزلف لأهله إلّا عند القيامة: «وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ» فكيف يدخلها آدم قبل إزلافها وقبل ابتلاء التقوى!:
فلدخول جنة الخلد التي لها ثمانية أبواب، شرحناها، ولم يدق آدم حينذاك ولا بابا واحدة فكيف دخلها؟! ام كانت هي الجنة البرزخية؟ ١ ـ ولا دخول فيها قبل الموت عن الحياة الدنيا وكما تشهد لها آياتها: «وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»:
٢ ـ ولا يخرج الداخل فيها ما دامت السماوات والأرض: «وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ»(١١:١٠٨).
٣ ـ ولا يدخلها الداخلون إلّا بأبدان تناسبها هي البرزخ بين الآخرة والأولى، دون الأبدان الأولى! إذا فلتكن هي من جنان الدنيا، وترى أنها من جنان الدنيا الأرضية؟ أم السماوية؟ و الأرضية منها ترفضها آياتها: «وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» ولا هبوط إلّا من أعلى الى ادني، ثم ولا تدل «اهْبِطُوا مِصْراً» على أنها المعني منها، حيث القرينة الأرضية هنا حاكمة دونها، وتفسير آية بأخرى ليس أن تفسرها بما فسرت الثانية مع فارق قرينة فيها دونها، فانه من ضرب الآيات بعضها ببعض، وهنا قرينة قاطعة أن الهبوط كان من جنة في السماء:
«قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ. قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَ فِيها تَمُوتُونَ وَ مِنْها تُخْرَجُونَ» حيث الأرض المستقر فيها هي كلّ الأرض بجنانها وجاه السماء، وفيها حياة وموت وخروج منها، دون الجنة التي كان آدم فيها، و أن في الأرض الشقاء أيا كانت دون هذه الجنة: «فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى. إِنَّ لَكَ أَلّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى، وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى» وفي الأرض بجناتها جوع وعرى وظمأ وضحى! إذاً فلتكن هي من جنان السماء، المتوفرة فيها مواصفاتها التي ليست في جنان الأرض أبدا.
و هل خلق آدم وزوجه فيها ومن ترابها ثم أسكنا فيها استمرارا لكونهما؟ كما قد توحي له: «وَ قُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ»؟
و السكون لا يخص الاستمرار فيما كان، وقد يلمح للدخول، فلا يقال للمكوّن في مكان: اسكن فيه، فانه لا محالة ساكن فيه ما لم ينقل عنه، وإنما يقال: ابق فيها، فالسكون فيها هو الدخول، وكما توحي له خلافته الأرضية منذ خلق: «إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَ تَجْعَلُ فِيها».
إذا فهو مخلوق في الأرض ثم منقول منها الى جنة في السماء، علّها جنة المسيح عليه‌السلام التي رفعه الله إليها، مما يدل أن الحياة الارضية تختلف عن حياة الجنة الدنيوية في السماء، ف «إِنَّ لَكَ أَلّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى. وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى»وبصيغة واحدة انك فيها لا تشقى: «فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى».
فلتكن فيها حياة بلا شقاء، بلا جوع ولا عرى ولا ظمأ ولا ضحى، فلتكن فيها أحياء وسعداء لا يعصون

اللّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤرون.
و ترى كيف صعد إليها آدم وحواء ثم كيف هبطا؟ القرآن ساكت عنهما، فلنسكت عما سكت اللّه عنه.
٢ ـ خليفة الأرض كيف يسكن جنة السماء ولماذا؟
إن آدم ـ دون شك ـ خلق لهذه الأرض بحياتها الشقية البلاء منذ اللحظة الاولى، ولكنه لا بد له من تجربة واستعداد، إيقاظا لقواه المكنونة، وإبرازا لسوئاته المواراة، و معرفة لشيطانه الغاوي، تدريبا له على تلقي الغواية، وتذوّق النهاية، وتجرّع الندامة، واللجوء المكين إلى ملاذ أمين.
فنسيان العهد، ووسوسة الشيطان في الشجرة المنهية، والصحوة بعد السكرة، والندامة بعد المعصية، التي بدأت لآدم وزوجه في الجنة، إنها مثال التجربة البشرية المتكررة في الحياة الأرضية، فليستعد آدم وزوجه لمعركة الشيطان المصيرية الدائبة على هذه الأرض وليعرف أن الشيطان لا يكاد يتخلى عنه في الجنة فكيف له في الأرض، فليعدّ عدته وعدّته لمعترك هذه الساحة بسلاح اليقظة حتى لا يقع في فخّه، ثم التوبة لو اعترضته اللمم، تلقيا من اللّه عهده فلا ينساه، ومعرفة عدوه فلا يهواه! وتعرّفا إلى كلماته ليتوب عليه «إِنَّهُ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ».
إن تجربة الجنة توحي بأن حياة الخليفة الأرضية هي حياة الجنة لو لا الخطيئة، وسوف تنتهي إلى الجنة إذا تداركها بالتوبة، كما وتتدارك حياته الأرضية ايضا بالتوبة، وأن الطريق إلى التوبة مفتوحة في يسر وبساطة، وحتى إذا كانت توبة وقتية فضلا عن التوبة النصوح.
و توحي ايضا أن ما حلت في حياته من الطيبات اكثر بكثير مما حرمت من الخبيثات[1] فان له أن يستعيض الطيبات بخبيثات يهواها على ضوء الشريعة السهلة السمحاء، فلا عليه إذ يهدف تبنّي حياة الجنة في الأولى والآخرة إلّا أنها تنغّص الحياة المريحة، وتهدم صرح الإنسانية.
ففي معترك الحياة الأرضية تكفيك معرفة عدوك بما عرفه اللّه، والالتزام بعهد اللّه، ثم التوبة إلى اللّه إذا اعترضتك لمم، مثلث الحياة للخليفة الأرضية، التي تجعلها راجعة الى ربها راضية مرضية! ..
٣ ـ ما هي الشجرة المنهية؟
لا نجد لها اسما في آياتها الثلاث، اللّهم إلّا سمات وآثارا، وهي هي المقصودة في كتاب الهداية دون الأسماء، إذ لا جدوى فيها إلّا تعريف المسميات، وعلّ القصد من الشجرة المنهية ليس شجرة واحدة مما نعرفها، وإنما جنس ما يتشجر تحريضا للشهوات والتشاجرات، فليس لها ـ اذاً ـ اسم خاص ولا مسمى خاص، وانما كلما يؤر ذوقه وتناوله هذه الآثار:
الخروج من حياة الجنة الى حياة الشقاء والعناء، حياة الجوع والعرى والظمأ، والضحى وظهور السوءات، وهي في صيغة اخرى: نسيان عهد اللّه والإعراض عن ذكر اللّه: «وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ... وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى» كما في الآيات من طه، فضنك المعيشة وشقائها، والهبوط من حياة الجنة الى ارض التجربة والبلاء، كل ذلك من مخلفات ذوق هذه الشجرة، التي تشجّر الحياة فتعملها فوضى، وتتشجر عنها الحياة الظالمة

[1]. نستوحيه من «وَ كُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ».

المظلمة فتخلّف عيشة ضنكا!.
هذه هي الشجرة المنهية بسماتها دون أن نعرف اسمها او أسمائها حيث لا جدوى فيها إلّا سماتها، مهما تشجرت الآراء في اسمها، بين هابطة خابطة كالتي تسربت في توراة موسى: شجرة المعرفة! وبين ما لا طائل تحتها او لا صلة بها وآثارها، او لا دليل لها من علم او أثارة من علم[1].
و ترى كيف ينهى عن تناول شجرة المعرفة بين الحسن والقبح، وهي الشجرة الطيبة التي خلق الإنسان لها، وامره اللّه ان يعيشها متزودا بها حياته وحياتها، مندّدا بمن لا يستظل في ظلها، ولا يتناول من ثمراتها؟ فكيف ينهى عنها؟
أم كيف يعصى بتناولها قبل أن يعرف الحسن والقبح؟ ومن القبيح عصيان اللّه! فليعرف فيتعرف إليها بذوقها حتى لا يعصى ربه بعدها! فلما ذا عدّ من العصاة؟: «وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى» فلو كانت هي شجرة المعرفة كان تناولها من أفضل الطاعة! ثم و لا عصيان قبل المعرفة! حيث هي مهبط التكاليف الإلهية، واما المجانين او البله المستضعفين الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلا، فليسوا هؤلآء عصاة!.
ثم آدم الذي علّم الأسماء كلها وأنبأ الملائكة بأسمائها، هلّا كان هو من العرفاء، ولحد يعرف الحسن عن القبيح حتى يعصى ربه في ذوق شجرة المعرفة! إنها لقولة فارغة هراء، خاوية عراء، واللّه منها براء! وأما شجرة الكرم والنخلة والتين والحنطة والكافور والأترج والسنبلة فليست هي بالتي تؤر هذا الأثر الرذيل، رغم أن التين مبارك في القرآن والسنبلة مباركة في حديث الرسول، والنخلة ام لآكله، والحنطة إدام لدوام الحياة، والكافور ممدوح في القرآن، والأترج في السنة، فما هي الصلة الطبيعية بينها وبين هذه العرقلات للحياة مادية وروحية، اللّهم إلّا كونه نهي امتحان دون أن تحمل شجرته هذه وتلك من العرقلات، ولكنما التوبة ـ إذا ـ لا بد وان ترجع بصاحبها الى ما كان من حياة الجنة لو لا أن طبيعة الشجرة المنهية تحمل عناء الحياة و شقائها، وكما أن ذوقها عصيانا للّه نسيان لعهد اللّه وإعراض عن ذكر اللّه.
فنفسية الشقاء هي من مخلفات العصيان، ومادّيتها من آثار هذه الشجرة، خلاف ما وصفها الشيطان: «هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى»! ومهما يكن من شيء فلنسكت عما سكت اللّه، ونفصح مستصفحا عما ذكر اللّه، وما هو في مثلث الآيات إلّا التي عرفناها: شجرة الإعراض عن ذكر اللّه، تتبع نسيان عهد اللّه، فتخلّف معيشة ضنكا: انحرافا وانهرافا عن معنوية الحياة، وشقاءً وجوعاً وعرىً وظمأً وضحىً، التي تجمعها: «الهبوط عن الحياة العليا»: أسفل سافلين: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ. ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ»: «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ».
ثم الآيات تنهى آدم وزوجه ان يقربا هذه الشجرة، مما يوحي بشدة النهي كما في سائر مواردها: «وَ لا تَقْرَبُوا الزِّنى» «وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ»...

---

[1]. انها بين ستة عشر قولا: شجرة الكرم، النخلة، التين، الحنطة، السنبلة، الكافور، الأترج، الحنظل، المحبة، الطبيعة، الهوى. العلم بالخير و الشر، الخلد، الحسد، شجرة علم محمد و آله، و المؤدة ببعض الروايات منها هي: ١- ٤- ٥- ٦-١٥- ١٦.

و لكنما المنهي عنه هو الأكل منها أو ذوقها: «فَلَمّا ذاقَا الشَّجَرَةَ» و«فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما» وترى انه ذوقها هي ام ثمرتها؟ إن الشجرة لا تؤل او تذاق بسوقها وأوراقها! وإنما أثمارها، فهي هي التي نهي عنها، والنهي عن قربها تأكيد للنهي عن ثمرتها، «فالمعاصي حمى الله فمن حام حول الحمى او شك ان يدخلها».

و هنا الأكل منها يعني ذوق ثمرتها، دون شبع للبطن منها، ولا أكل دون ذلك، وإنما ذوق الأكل وأكل الذوق: أقل ما يسمّى أكلا، «فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما» ما أن بدئا يأكلان، و لذلك عبر عنه بالذوق.

و هذا الأكل الذوق خلّف دون فصل او اختيار ظهور السوءات، ومن ثم حياة العناء الهابطة الخابطة.

٤ ـ وكيف النهي؟

لقد نهى الله تعالى آدم وزوجه عن أكل الشجرة وذوقها نهيا مؤدا منذرا: «وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظّالِمِينَ» ـ «أَ لَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ» ـ «فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى».

فهنا يهدد في اقتراف المحظور بالخروج عن الجنة والشقاء وأنه ظلم، ثم ينادي في آيات أخرى انه زل عن طاعة الله بوسوسة الشيطان:

«فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ» «فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ» «وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى»! فهناك فيما فعله آدم وزوجه: زلة وغواية وظلم وعصيان وشقاء، وكلّ منها كاف في التدليل على أنهما ارتكبا الحرام، كما و«لا تَقْرَبا» تؤده وتشدده! فالزلة هنا هي الزوال عن الحق او زوال الطاعة: «إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا» (٣: ١٥٥) والغواية جهل عن اعتقاد فاسد:

«لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» (٢: ٢٥٦) (وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ» (٧: ٢٠٢).

و الظلم انتقاص إما بحق النفس والغير وهو أفحشه، او بحق الغير وهو أوسطه، او بحق النفس وهو أدناه، وليس بحق الله إذ لا ينتقص في شيء: «وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»(٢: ٥٧)، وقد ظلم آدم نفسه فانتقص حاله ومستقبله!: «رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ». ثم قد يكون الظلم بالنفس دون اقتراف منهي عنه كما في يونس: «سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمِينَ»(٢١:٨٧)

و في موسى: «رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي» حيث لم يسبق ليونس نهي عن ذهابه عن قومه مغاضبا مستاءً أن عصوُا الله، وانما انتقص في دعوته الرسالي إذ ذهب عن قومه ولم يصابرهم!..

و اظهر منه ظلم موسى نفسه فانه قتل القبطي المشرك المقاتل للاسرائيلي الموحّد، و ليس هذا محرما حتى ولو لم يقاتل المشرك فان دمه هدر، فكيف إذا قاتل الموحد فان مطاردته تصبح واجبة، فهذا ذنب العصيان عند المشركين: «وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ» (٢٦: ١٤) وطاعة خاطئة عند الموحدين: «ىَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي»

فلم يقل غيري وهو قد قتل، وانما «نفسي» حيث أخر دعوته الرسالية نتيجة قتله القبطي، إذ كان الأحرى أن يدفعه ولا يقتله حتى لا تتأخر دعوته، ولكنه «فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ» (٢٨:) ١٥) فوكزه عمل الرحمان وقد كان مقصودا للدفاع عن الموحد،

وقتله من عمل الشيطان ولم يكن مقصودا حيث يؤر الدعوة، وطلب الغفر عن هذا الذنب الظلم لا يعني إلّا ان يستر اللّه على البغضاء الفرعونية حتى يواصل موسى في دعوته.

و مهما يكن هنا وهناك من شيء فليس الظلم من يونس وموسى مسبوقا بنهي، وان كان مرجوحا وجاه الدعوة الرسالية، لكن ظلم آدم كان مسبوقا بأشد النهي، موصوفا بالزلة والغواية والعصيان، إذا فهو الظلم الحرام مهما كان من أدناه، وقد هدّد الظالمون العصاة بعدم الفلاح «إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظّالِمُونَ» (۶: ۲۱) والهلاك: «هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظّالِمُونَ» (۶:) ۴۷) واللعنة: «أَلا لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظّالِمِينَ» (۱۱: ۱۸) وبضلال مبين:

«بَلِ الظّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» (۳۱: ۱۱) مهما اختلفت مراتب الهلاك والضلال واللعنة حسب اختلاف الظلامات.

فهل لك بعد ذلك كله ان توجّه ظلم آدم وعصيانه وزلته وغوايته بظلم غير محرم كما في يونس وموسى، وبينهما مثلث البون:

۱ ـ انهما لم يسبق لهما نهي، وقد سبق لآدم أشده بتهديدات! ۲ ـ انهما اعترفا بظلم توجّهه قرينته أنه ـ فقط ـ انتقاص في الدعوة دون قصد، ولكن آدم وزوجه «فَتَكُونا مِنَ الظّالِمِينَ»: سائر الظالمين العصاة لا «فتكونا ظالمين» حتى يتحمل ما تحمّله في يونس وموسى!.

۳ ـ إنّ ظلم آدم مقرون بقرائن قاطعة أنه ظلم الزلة والغواية والعصيان، دونهما حيث القرائن تنفي عنهما ظلم العصيان.

و ترى هل يتحمل هكذا نهي أنه تنزيهي إرشادي، فان ذوق الشجرة أتبع الهبوط عن الجنة فعناء الحياة الأرضية وشقاءها، فقد نهيا عنها إرشادا إلى التحرز عن هذه الشقاء، ولو لا انه ـ فقط ـ ارشادي: لا مولوي ـ لأنتجت توبتهما رجوعهما إلى ما كانا فيها ولم يرجعا بعدها؟! إلّا أن المتصور من النهي والأمر: المولوية ـ الإرشاد ـ مجموع الأمرين.

فإذ ينهى المولى مولويا وللإرشاد الى ما يحمله من فساد، كان العصيان ثنائيا فالظلم اثنان، كما في أكثرية النواهي التشريعية.

و إذ ينهى مولويا دون إرشاد الى محظور الفساد، فهذا نهي ابتلائي فعصيان واحد لا اثنان، كما في القليل من موارده.

و إذ ينهى إرشاديا لا مولويّا، فقد يتحمل توجيه خلاف الأولى! وقد لا يتحمله.

و الأغلبية الساحقة من أوامر اللّه ونواهيه هي من القبيل الأول فان اللّه يأمر وينهي كرب العالمين ومولى الخلق أجمعين، بما يحمل توجيهات ـ عرفناها ام لا ـ إلى مصالح فيما يأمر ومفاسد فيما ينهى، فليس ذكرى التبعات في المنهيات مما يزحزحها عن المولويات. كما ليس ذكر المثوبات في المأمورات يجعلها ـ فقط ـ ارشاديات، فكثير هذه الأوامر والنواهي القرينة بذكر المصالح والمفاسد، دنيوية او أخروية، ترغيبا الى الطاعات وترهيبا عن المحظورات.

و هنا اللّه تعالى ينهى آدم وزوجه عما ينهى مهدّدا لهما أنه ظلم يتبع شقاء كما في الكثير الكثير مما ينهى سائر الجنّة والناس، فهل هي كلها إرشادات تحمل على ترك الأولى، وقليل هذه الأوامر والنواهي التي لا تحمل إرشادات؟

بل الأصل فيها كلها ان تكون ارشادية من المولى سبحانه، إلّا ما بثت أنه مولوي دون إرشاد، كما امر

ابراهيم ان يذبح إسماعيل عليه‌السلام ثم لا نجد امرا إرشاديا او نهيا في صيغة الغواية والظلم والعصيان أن لو ترك، اللّهم إلّا في مستحبات ومرجوحات تحمل ارشادات غير ملزمة وهي بحاجة الى قرائن قاطعة.
ثم التوبة عن الذنب ليس لزامها رجوع التائب الى كل ما كان قبل الذنب، وانما الرجوع الى اللّه فرجوع اللّه اليه ألّا يأخذه بنكاله، وقد يكون ـ ايضا ـ رجوعا الى سائر ما كان.
أ ترى ان الآكل للسمّ، الذي تاثر في جسمه لحد الموت، هل هو يرجع الى صحته الاولى ان لو تاب؟ او ان القاتل لابنه هل يرجع هو غير قاتل، وابنه حيا بعد ما تاب؟.
كذلك آدم وزوجه إذ عصيا بما هددهما اللّه «فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى»إرشادا الى تبعة هذا العصيان التي هي لزامها، مهما تاب او تابع في العصيان، ولكنما التوبة ترجعه إلى ما كان من نزاهة وطهارة الطاعة، دون هذه التبعة الدنيوية للعصيان.
فالأصل في التوبة ازالة التبعات الأخروية، وقليلة هذه التوبات التي تزيل تبعات من الدنيوية كذلك.
و أما القول أن نهيه كان في الجنة قبل تشريع أية شريعة، حيث شرّعت بعد هبوطه الى الأرض: «فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى»(٢٠:١٢٣) إذ توحي بمستقبل الهدى بعد ما «اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى».
إذاً فلا يعني نهيه في الجنة نهي تشريع وحكم حتى يحرم عصيانه؟
فهذا غريب في نوعه! فإذا لا شريعة في هذه الجنة ـ وحتى بقدر نهي واحد ـ فكيف ينهى اللّه فيها، وأقل النهي أن يحمل تنزيها وهو من الشريعة، وإذا صحّ نهي تنزيه صح نهي تحريم على سواء فإنهما في كونهما من الشريعة شرع سواء.
ثم النص «فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً» وقد هداه هنالك وجاه الشجرة سلبا وإيجابا: «إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى» سلبا لاتّباع الشيطان «إِنَّ لَكَ أَلّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى. وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤا فِيها وَ لا تَضْحى» وترغيبا لا تباع الرحمن، أ فليست هذه الهدى تكفي آدم في الانتهاء بنهي اللّه، مهما عبّرت عنه بشرعة او غير شرعة، وليست الشرعة إلا طريقة الهداية الى طاعة اللّه قلّت او كثرت، وقد كانت من شريعته في الجنة السماح من أكل ثمار الجنة كلها إلّا هذه الشجرة، ثم توسعت في الحياة الأرضية، كل حسب مقتضياتها ومتطلباتها، وكما تختلف الشرائع الأرضية هكذا: «لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً ... لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ ..». ومن الغريب الإصرار على هذه التأويلات المخالفة لآليات، واجابة الامام الرضا؟ عليه‌السلام عن مشكلة عصيان آدم مع نبوته مشهورة، أنه كان قبل النبوة* ثم لا نجد تأويلا يجعل عصيانه خلافا للأولى!
٥ ـ كيف يجوز العصيان من الخليفة المفضلة على الملائكة وهو نبي؟!
في الحق ان آدم عليه‌السلام لم يكن نبيا حين عصى: «وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى، ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى» فاجتبائه بما تاب عليه وهدى كان بعد ما عصى وغوى: «إِنَّ اللّهَ اصْطَفى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ» (٣: ٣٣)
«فلما اجتباه اللّه تعالى وجعله نبيا كان معصوما لا يذنب صغيره ولا كبيرة»*
و خطابه بوحيه قبل نبوته لا يجعله نبيا حيث خاطب اللّه مريم وام موسى دون نبوة، وخاطب إبليس الكافر كما خاطب آدم الخليفة، فليس الخطاب إذا دليلا على النبوة حينه.
و ترى كيف شمله عهد اللّه: النبوة، وهو ظالم ناقض لعهد اللّه: الطاعة ـ «وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ

فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» «وَ إِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنّاسِ إِماماً قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظّالِمِينَ»(٢: ١٢٤) أ فليس العصيان الغواية ظلما ونقضا لعهد توحيد الطاعة، وعهد اللّه: الإمامة النبوة، لا ينال الظالمين وإن ظلموا لمرة وقبل النبوة؟.

أجل إنه ظلم، ولكن عهد اللّه في آية الإمامة هو عهد الإمامة في النبيين، لا عهد مطلق النبوة، وانما النبوة المطلقة التي تقود نبوات جزئية، حيث الرسالة والنبوة درجات: «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ» فالرسالة المفضلة لحد الإمامة، وعلّها ولاية العزم الخاصة بالخمسة الذين دارت عليهم رحى الرسالات، هذه الرسالة القمة هي المقصودة بعهد اللّه في آية الإمامة حيث لا تنال الظالمين، لا مثل آدم الذي هو في أدنى درجات النبوة! وترى ان آدم حين المعصية نسي الشيطان أنه عدو له؟ وقد عرّفه ربه إياه وأراه شخصه!: «فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى» كما وحوار الشيطان إياه حين أزلّه تذكّره أنه من هو؟:

«وَ قالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ. وَ قاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النّاصِحِينَ. فَدَلّاهُما بِغُرُورٍ ...»!.

ـ أقول: مجرد تعليم اللّه لا يدل على نبوة والا كانت ام موسى وام عيسى ـ من النبيين إذ كلهما اللّه، وكذلك الشيطان حيث خاطبه اللّه فهذا الحديث وأمثاله مردود مزور على رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله لأنه مخالف لكتاب اللّه.

ام هل نسى الرحمن أنه ربه؟ وإنه أحط دركات الغفلة عن اللّه فكيف يناسب آدم الخليفة! ..

او نسي نهيه؟ وقد ذكره الشيطان بنهيه: «ما نَهاكُما»! ومن قبل ما استكبر إبليس عن السجود له فلا ينسى موقفه منه.

إذا فما هذا العهد الذي نسيه فدفعه الى ارتكاب الخطيئة؟

قد يكون هو العهد العام المأخوذ على بني آدم: «أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ».

و لكنه يعم بني آدم دون آدم، وآدم لم يعبد الشيطان وإنما اغتر بما غره، وملامح العهد أنه فوق ما عهده اللّه الى بني آدم: «عَهِدْنا إِلى آدَمَ» لا بني آدم او الإنسان.

أو أنه العهد المأخوذ في الذر على توحيد الربوبية: «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى» (٧: ١٧٢)؟ وهذا العهد وان كان أعلى من الاوّل، فقد يعم ويناسب آدم، ولكنه ايضا من بني آدم! أو أنه الميثاق المأخوذ على النبيين، في درجة أعلى من توحيد الربوبية: «وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى ـ ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً. لِيَسْئَلَ الصّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً» (٣٣: ٨).

او انه عهد خاص إليه كما إليهم خاصة العهود حسب درجاتهم؟

و لكنه لآدم كان قبل نبوته: «وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ ..» وعلّه بمناسبة المحنة الإبليسية عهد يضم توحيد الربوبية وترك طاعة الشيطان «فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً»: إذ لم يثبت ويعزم على عهده، فلم يكن النسيان مما يرفع عنده التكليف، وإنما التناسي الغفلة الغفوة الذي يتنافى وذكر الربوبية الموحّدة، فكل تخلف وعصيان هو من خلفيات نسيان حضرة الربوبية ولحد الإعراض عن ذكر اللّه: «وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى».

و ترى انه كان عصيانا كبيرا؟ إذ كان النهي مؤدا: «وَ لا تَقْرَبا» حيث النهي عن القرب الى شيء يوحي بان محظورة عظيم: «فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ» إيحاءٌ ثان الى تأكد النهي بنونه الثقيلة.
ثم في اتباعه لإبليس وهو يعرفه بعينه وقد سبق التحذير عنه، وكأنه صدّقه ناصحا: «وَ قاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النّاصِحِينَ» ما يوحي كأن اللّه غشه بزعمه ـ في نهيه: «ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ. وَ قاسَمَهُما»!.
أقول: لم يكن آدم عليه‌السلام في هذا المسرح ليتّهم ربه بالعش والخداع ومعاذ اللّه! ولو كان متّهمه هكذا لكان أنكى من أكل الشجرة وأردى، فلما ذا لم يخصه التنديد او يعمهما، و إنما خصه بأكل الشجرة ليس إلّا، مما يبرهن ان سبيله في ذنبه لم يكن أعظم من ذنبه: ان يتهم اللّه بالإغواء والخداع، ويصدق إبليس في النصيحة ولا سمح اللّه!.
و إنما غره أن «قاسمهما» وما كان يظن ان خلقا خلقه اللّه يحلف كاذبا باللّه وكما
يروى عنه في حوار له مع جبريل عليه‌السلام*: (فاغتره*.عدوه نفاسة عليه بدار المقام ومرافقة الأبرار، فباع اليقين بشكّه، والعزيمة بوهنه، واستبدل بالجزل (الفرح) وجلا، وبالاغترار مذما، ثم بسط اللّه سبحانه له في توبته ولقّاه كلمة رحمته، ووعده المردّ الى جنته فأهبطه الى دار البلية وتناسل الذرية»*.
فقد حل بين غرورين ووقع بين محظورين: غرور بما قاسمهما وهو لا يظن ان أحدا يقسم باللّه كاذبا، وغرور بما وعده دار المقام في جنة اللّه بمرافقة الأبرار، ومن ثم محظور سابق من نهي اللّه، وآخر في غروريه: لعل اللّه نسخ ما نهى وفسخ ما عهد «فباع اليقين»بنهي اللّه «بشكّه»في نهي اللّه «و العزيمة على الثبات على عهد اللّه»بوهنه ـ «فنسي» عهد اللّه «وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» يعصمه من معصية اللّه «فأهبطه اللّه الى دار البلية وتناسل الذرية» ثم ولم ينتجبه كولي عزم من أنبيائه، الذين حافظوا على عهد اللّه واعتزموا عصاما دائبا وسياجا على حرمات اللّه قبل اصطفائهم برسالات اللّه وبعدها، وهم سادة المرسلين الذين دارت عليهم الرحى، وآدم في درجة من درجات الرسالات بعد ما عصى وأهبط!.
هكذا ياتي الشيطان غرورا كلّ إنسان او جان بغراره ومسلكه، فآدم الخليفة، المعلّم الأسماء، ليس ليستضل بالشهوات او مربع السياجات الشيطانية، اللهم إلّا يمنة: «ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم» فقد جاء آدم عليه‌السلام عن يمينه، عن طريق دينه: ألّا يمكن الحلف كاذبا باللّه، ولا سيما في وعد المقام في دار كرامة اللّه! «فَدَلّاهُما بِغُرُورٍ» كهذا، بدلوا يتعلق هو به! وحب الشيء.
ـ السلام) والمأمون قال فيه: ولم يكن آدم وحوا شاهدا قبل ذلك من يحلف باللّه كاذبا «فدلاهما بغرور فأكلا منها ثقة بيمينه باللّه ...».
يعمي ويصم، وهذه اوّل تجربة توقعه في فخ العصيان دونما تعمد او طغيان.
و على أكثر تقدير تذرع بعصيان ما الى البقاء في دار القرب والكرامة لورود الاحتمال أن اللّه نهاه عن أكل الشجرة: وعلّها الخلد! ـ تبعيدا له عن ساحة قربه ولمّا يصل الى أهليته، وقاسمه الشيطان على مقالته، فرجح عصيانا على حدته ـ ودون تعمد وطغيان ـ على بعده الدائب لو خرج عن جنته ـ عن جوار الرحمة وجناب العظمة.
كعبد ينهاه مولاه عن المقام بجواره، فيغترّ بما يغر أن يعصيه هيمانا للمقام بجواره، فليس إذا هو البعيد البعيد في خطئه، مهما كان خاطئا في تصرفه، حيث العبودية اللائقة بجنابه تعالى هي المطلقة

الشاملة عزما وعملا صالحا، لا يحول بينه وبين طاعته اي غرور وان كان في محبته.
و لقد كان ابتلاء آدم وزوجه شديدا بهكذا غرور، لا سيما وكما يروى ـ ابتعدت حرس الشجرة عنها حيث اقترباها، بعد ما كانت تحرسها قبله، فظنا أن اللّه تعالى رفع حظره فأبعد حرسه! فمستهلّ هذه المعركة المصيرية بين آدم وإبليس يوقظ النابهين أن يحذروا الشيطان الرجيم، حيث يحتال بمختلف الحيل في خطواته المضللة، فليكن الإنسان كله بصرا وبصيرة، كي لا يقع في فخه كما وقع الأبوان الأولان، تجربة مرة مرّت بهما، فحذار حذار لولدهما وكما تتردد في إذاعات قرآنية:
«يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ»(٧: ٢٧).
٦ ـ كيف استطاع إبليس أن يزلهما وهو خارج الجنة إذ أمر بالهبوط قبله؟.
في الحق إن إبليس إذ أزلهما كان في الجنة بين أمرين بهبوطه: أمر يخصه إذ أبى عن السجود لآدم واستكبر: «قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصّاغِرِينَ»(٧: ١٣).
و من ثم امر يعمه وأبوينا: «قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ» (٧: ٢٤) (فَأَخْرَجَهُما مِمّا كانا فِيهِ وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» .. «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً» مهما امرا ـ هما بأمر آخر يخصهما: «قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ..» (٢٠: ٢٣).
فامر الهبوط الجماعي هناك دليل أن إبليس كان بعد في الجنة، أن عصى ربه في أمره الاول، ولكنما الثاني كان نافذا لم يقدر أن يعصوه، إذا فالأول أمر تشريعي، و الثاني يعمه والتكويني أن اهبطهم من الجنة، مهما كان ذلك للشيطان دحرا دائبا، ولأبوينا هبوطا آئبا الى دار الخلد والكرامة!.
ثم «بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» في جماعيّ الأمر «اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً» تأشير الى العداوة الدائبة بين الشيطان وبين الإنسان، فما هي العداوة بين بعض في ثنائي الأمر: «اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ»؟
هل هي العداوة بين قبيلي الأناثى والذكران من بني الإنسان، ام نسل الإنسان ككل حيث التثنية تخرج الشيطان، ولا مباعضة بين الإنسان والشيطان حتى تعمهما هنا المباغضة؟.
ام إنها بين الإنسان والشيطان طالما الشيطان غير مذكور هنا ولكنه مذكور هناك، ولا تعني المباعضة المجانسة، وإنما مباعضة في هذا الجمع العصيان، او الجمع الذي يجوز عليه ككل العصيان، فثنائية الأمر وجماعيته تعنيان العداوة الدائبة بين قبيلي الإنسان والشيطان.
او انها ـ وباحرى ـ تعنيهما جميعا، فآية الجمع تعني عداوة الجمع، بين الشيطان وبينهما، وآية التثنية تعني ـ فقط ـ ما بينهما كخليفة الأرض جميعا، فحياة الأرض الضيقة العناء الشقاء، هي حياة العداء بين بني الإنسان، كما بين الإنسان والشيطان: ازدواجية العداء التي تتوحد في إغرائات الشيطان، فقد يأتيك بنفسه او خيله ورجله من ذوي جنسه، وقد يأتيك بذوي جنسك: «شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ» (٦: ١١٢) حيث ينزغون بيننا: «قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ» (١٥: ٥٣) (وَ إِمّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»(٧: ٢٠٠).
٧ ـ (ما هو لباسهما وسوآتهما المواراة قبل العصيان»؟
طبعا إنه من ملابس الجنة، ولقد ووري عنهما سوآتهما بلباسهما ثم بدت بما ذاقا الشجرة: «يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما».
و قد توحي الآيات في اللباس المواري للسوئات ـ وقد بدت بما ذاقا الشجرة ـ أنهما ما بدت لهما

سوآتهما منذ خلقا لحد الآن، مما يوحي أنهما ألبسا من لباس الجنة منذ خلقا دون انتخاب او محاولة منهما، حيث اللباس يلبس السوء، فقبل أن تبدو السوءة لا دافع لمواراتها بلباس.
او ان كلّا كان عارفا بسوءته هو، دون الآخر، فلما نزع عنهما لباسهما عرف كل سوءة الآخر فأحسا بشهوة الجنس بما عرفا، فلو لا المعرفة الثانية لما احسّا شهوة الجنس.
إلّا أن «ما وري عنهما من سوآتهما» توحي بلطف ان المواراة كانت عنهما في أنفسهما وكما بالنسبة لبعض، ان اللّه أوراها تحت لباس الجنة، حتى إذا أبرزا سواتهما في أرواحهما بما عصيا، برزت لهما سوآتهما في اجسامهما، ليعلما أنهما بعد عائشان سوآت على سوآت، فلا يليقان حياة الجنة.
فلم يكن لهما في هذا المسرح إلّا العصيان والمواراة الثانية للسوئات «وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ» وأما لبس لباس الجنة، وأما نزعها، فلا شيء منهما كان منهما، وانما اللبس منذ البداية لموارات السوءة فلا يعرفاها فيسوءآها لكرامة الجنة ولباس الخلافة، ثم النزع في النهاية ليعرفاها فيسوءآها ويعلما أنهما على سوء والى سوء إلّا أن يتبعا الهدى!.
فَتَلَقّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ (٣٧).
٨ ـ وما هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه ومتى تلقاها؟
إن الكلمات هي كلمات التوبة وقد تلقاها آدم بين أمرين جماعيين بالهبوط: «فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمّا كانا فِيهِ وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ. فَتَلَقّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ. قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ».
فقد تلقى آدم كلمات من ربه بعد العصيان وقبل الهبوط، وتاب اللّه عليه كذلك قبل الهبوط، فلم تكن التوبة بالتي تنفعه في البقاء في الجنة، اللّهم إلّا غفرا عن ذنبه فلا يعذب في دار الخلد، وأما الدنيا «فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً ..» إنها دار عمل دون جزاء، كما الآخرة دار جزاء ولا عمل.
و لأن اجتباءه بما تاب عليه وهدى كان في الجنة وقبل الهبوط «ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى. قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً ..» فلتكن بداية نبوته في الجنة وان كانت رسالته باتساع نبوته بعد الهبوط عن الجنة: «قالَ اهْبِطا ... فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً»فهنالك له هدى واجتباء قبل الهبوط، علّهما النبوّة دون رسالة، وهنا هدى عامة بعد الهبوط هي الرسالة بعد اتساع النبوءة.
إذا فترتيب القصة: أكل من الشجرة، فتلقي كلمات التوبة، فنبوءة، فهبوط فتوبة فرسالة، ولكنما النبوءة تنافي العصيان وقد عصى! إلّا أنها كانت بعد التوبة.
و ترى انها كانت كلمات الاعتذار التوبة: «قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ. قالَ اهْبِطُوا» فتلقى كلمات التوبة، وهذه الكلمات كان قبل الهبوط وبعد الأمر الأول بالهبوط، أ فلا يدل القرآن أنها هي تلك الكلمات؟.
أقول: إنها كانت قبل الأمر بالهبوط «أَ لَمْ أَنْهَكُما ... قالا رَبَّنا ظَلَمْنا» وتلقي الكلمات هو بعد الأمر الأول وقبل الثاني الذي بعده الهبوط، والترتيب حسب مختلف الآيات، العصيان ـ ربنا ظلمنا ـ الأمر بالهبوط ـ تلقي الكلمات ـ الأمر الثاني بالهبوط، كما وتلمح «فَتابَ عَلَيْهِ»بعد «فَتَلَقّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ» أن آدم تاب إلى اللّه قبلها بقوله: «رَبَّنا ظَلَمْنا» فلم يتب اللّه عليه حتى «تلقى مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ»

اخرى «فَتابَ عَلَيْهِ».
كما وتوحي «وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا» دون «اغْفِرْ لَنا» انها ما كانت لتكفي في المغفرة، فتلقّى كلمات غيرها بعدها تشفعها «فَتابَ عَلَيْهِ».
ثم وقد لا تحتاج هذه الكلمات «ربنا» الى تلقّ من اللّه، حيث الندامة بعد المعصية وظهور السوأة هي التي تدفع مثل آدم الخليفة أن يردد هذه الكلمات دون نظرة لتلقّيها من ربه، وقد لا تكفي ـ كذلك ـ توبة من اللّه عليه وان صحت توبة منه إلى اللّه، والنص «فَتابَ عَلَيْهِ» اللّه، دون «تاب إليه»: آدم الى اللّه، إذا فهذه الكلمات مشفوعة بأخرى وهي شفيعه له في قبول التوبة، وعلّها هي هي الأسماء التي علّمها، أسماء الخلفاء الذين احتج اللّه بهم على الملائكة في هذه الخلافة، فليكونوا هم الرعيل الأعلى بينهم، لا كأمثال آدم، إذ لا تنفع شفاعة ممن هو مثله في كيانه، إلا من هو فوقه وفوق العالمين كمحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله وآله المعصومين (عليهم السلام): «وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللّهَ تَوّاباً رَحِيماً»(۴: ۶۴) والتلقّي هو التلقن، أخذا للكلام على تفهّم لما يعنيه، إذا فهذا التلقي يحمل تعريفا بأصحاب هذه الكلمات الأسماء، أكثر مما حمله تعليمه بها، ولأن «إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ» ثم «عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ..» يحمل جوابا مقنعا للملائكة عن قولهم «أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها»فليكن الأسماء هم هؤلآء الرعيل الأعلى أنهم هم الخلفاء، او أن فيهم من يكافح العصاة والعصيان، إذا فهم أولاء الأكارم الذين بهم يتوب اللّه على من يتوب، وفيهم الكفاح عمن لا يتوب ام لا يتوب عليه اللّه، ولا نعرف أجدر أو بهذه الجدارة من اهل بيت الرسالة المحمدية صلى‌الله‌عليه‌وآله!*.
الدر المنثور ۱: ۵۸ ـ اخرج الطبراني في المعجم الصغير والحاكم وابو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل وابن عساكر عن عمر بن الخطاب قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: «لما أذنب آدم الذنب الذي أذنبه رفع رأسه الى السماء فقال:
اسألك بحق محمد الا غفرت لي فأوحى اليه ومن محمد؟ فقال: تبارك اسمك لما خلقتني رفعت رأسي الى عرشك فإذا فيه مكتوب لا اله إلّا اللّه محمد رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فعلمت انه ليس احد أعظم قدرا عندك ممن جعلت اسمه مع اسمك فأوحى اليه يا آدم! انه آخر النبيين من ذريتك ولو لا هو ما خلقتك».
وفيه اخرج ابن البخاري عن ابن عباس قال: سألت رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه؟ قال: سأل بحق محمد وعلي و فاطمة والحسن والحسين إلّا تبت علي فتاب عليه ورواه مثله في ملحقات الاحقاق ج ۱۴: ۱۴۸ العلامة ابن المغازلي الشافعي في المناقب ص ۳۹ نسخة مكتبة صنعاء بيمن ـ بإسناد متصل عن ابن عباس عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله. واخرج مثله و توبة العبد الى اللّه، المقبولة، محفوفة بتوبتين من اللّه عليه: توبة اولى ليتوب: «ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا» (۹: ۱۱۹) وثانية هي قبول توبته حيث التوبة هي علم وحال وعمل، وكل ذلك بحاجة الى توفيق من العلامة النطنزي في الخصائص.
و فيه ۳: ۷۶ وممن أخرجه العلامة البيهقي في دلائل النبوة على ما في اللوامع ۱: ۱۲۵ روى عن عمر بن الخطاب قال آدم اسألك بحق محمد وآله الا غفرت لي ـ الى قوله ـ:
و لو لا هو ما خلقتك، ورواه مثله ابن عساكر في مسنديه على ما في اللوامع۱:۲۱۵.

و فيه اخرج الديلمي في مسند الفردوس بسند رواه عن علي عليه‌السلام قال: سألت النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله عن قول اللّٰه: فتلقى آدم من ربه كلمات؟
فقال ـ بعد ما ساق القصة ـ قال: فعليك بهؤاء الكلمات فان اللّٰه قابل توبتك وغافر ذنبك قل اللهم اني اسألك بحق محمد وآل محمد سبحانك لا اله الا أنت عملت سوء وظلمت نفسي فاغفر لي انك أنت الغفور الرحيم، اللهم اني اسألك بحق محمد و آل محمد سبحانك لا اله الا أنت عملت سوء وظلمت نفسي فتب علي انك أنت التواب الرحيم، فهؤاء الكلمات التي تلقى آدم ومن طريق اهل البيت (عليهم السلام) اخرج الشيخ الطبرسي في الاحتجاج عن معمر بن راشد قال سألت أبا عبد اللّٰه عليه‌السلام قال قال رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله: ان آدم لما أصاب الخطيئة كانت توبته ان قال: اللهم بحق محمد وآله محمد لما غفرت لي فغفر اللّٰه له أقول: واخرج الصدوق مثله في معاني الاخبار باسناده الى أبي سعيد المدائني يرفعه اليه، واخرج في الخصال عن المفضل بن عمر عن الصادق جعفر بن محمد عليه‌السلام قال: سألته عن قول اللّٰه تعالى «وَ إِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ» ما هذه الكلمات؟
قال: هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه وهو انه قال: يا رب اسألك بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلا تبت علي فتاب اللّٰه عليه انه هو التواب الرحيم، وفي ملحقات الاحقاق ٣: ٧٨ عن المولى معين الكاشفي في معارج النبوة ركن ٣ ص ٩ عن الصادق عليه‌السلام في حديث ان الكلمات التي تلقاها آدم من ربه: يا محمود ويا علي الأعلى ويا فاطم ويا محسن ويا منك الإحسان بحق محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين ان تغفر لي وتقبل توبتي ورواه مثله القندوزي البلخي في ينابيع المودة اللّٰه، ولا يوفق إلّا من أراده وحاول له، ثم لا يقبلها إلّا إذا أتى بها على وجهها، وتلقي الكلمات هو تعليم له كيف يتوب بتوفيق منه، وتلقّن لها علما وحالا وعملا «فَتابَ عَلَيْهِ».
فهذا التلقي يحمل إلقاء من اللّٰه تعليما وتوفيقا للحال والعمل، وتقبلا من آدم إذ تحولت حاله وعمله «فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ»! فالعلم اليقين بالخطاء وبمقام الرب نور، يؤج نار الندم في القلب، فيبعث اللسان والأعضاء الى التلافي، وهذا المثلث هو التوبة الصالحة، وأهمه قاعدته المتوسطة بين العلم والعمل وهي الندامة وكمايروى عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: «الندم توبة».
و لكي ينجو الإنسان من فخاخ الشيطان فعليه أن يكون دائب التوبة حتى يرجع في هذه المعركة الدائبة بالخسار على الشيطان وقد سئال رجلّ عليا امير المؤنين عليه‌السلام عن الرجل يذنب ثم يستغفر ثم يذنب ثم يستغفر فقال امير المؤنين عليه‌السلام يستغفر أبدا حتى يكون الشيطان هو الخاسر فيقول: لا طاقة لي معه، وقال: كلما قدرت أن تطرحه في ورطة وتتخلص منها فافعل*.
قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨).
٩ ـ ثم وما هي الهدى التي وعدها هذه الخليفة؟.
قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ ـ ٣٨ ـ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ(٣٩) ..*.
«قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى. وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى»(٢٠: ١٢٤).
هذه الهدي الآتية لخليفة الأرض إلى الأرض لا ريب هي فوق هدى العقل، سواء أكانت هدى تهدي

العقل في أخطاءه او تهديه في تكامله، أم تحمل أحكاما ليس للعقل فيها حكم لا جملة ولا تفصيلا، وهذا المثلث من الهدى تجمع الشرائع كلها، فهي المقصودة للمكلفين منذ آدم الى يوم الدين، إلا أن آدم ومن دونه، والى نوح لم يبعثوا بشريعة او شرائع من القسم الثالث إطلاقا فانها لأولى العزم من الرسل، حيث العزم لهم يعني فيما يعني استقلال الشريعة الناسخة لما قبلها ان كانت، والحاكمة على من بعدها إلى ولي عزم آخر، وليست إلّا لأولى العزم من الرسل، الخمسة الذين دارت عليهم الرّحى*.

و قد توحي «كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيَما اخْتَلَفُوا فِيهِ» (٢: ٢١٣) ـ توحي أن الناس ظلوا في فترة من الزمن ضلّالا عن هكذا شرعة إلهية تحمل كتاب وحي برسالة، فليكن آدم رسولا بلا كتاب بشرعة غيرها، كالتي تهدي العقل فقط عن أخطاءه، أمّا التي لها فروع لا تحكمها العقل لا جملة وتفصيلا فلا، وعلّها ليست بالتي تكمّلها ايضا، وإنما الزاوية الأولى من مثلث الوحي الرسالة، وهي أدنى درجات الرسالة.

و لا شك ان اوّل ما أتت من هدي لخليفة الأرض كانت بواسطة آدم صفي اللّه، الذي اصطفاه واجتباه بعد ما عصى وتاب عليه وهدى «وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى، ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى» ولحد الآن ما*.

بعث رسولا، وإنما نبّى واهتدى ثم «قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً ..» فابتعث بهذه الهدى*.

و من ثم ضابطة عامة لمن ضل او اهتدى: «فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى» ـ «فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ»: عائشا في مربع النور والسرور: لا يضل ـ ولا يشقى: حتى في الحياة الدنيا، أن تصبح حياته حياة الجنة، فلا يحزن على ما فاته منها ولا يخاف أن يشقى «فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى»! واما «مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي»: «الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ» ـ «فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً» في الأولى وفي الأخرى «وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى» إذا فهو يشقى في الحياة كلها.

فليست توبة آدم بالتي تزيل عنه شقاء الحياة وضلالها وخوفها وحزنها بل وعليه أن يتبع هدى اللّه في حياته الدنيا حتى لا يخاف ولا يحزن ولا يضل ولا يشقى.

فقد تخطّى هذه الخليفة المعصية إلى التوبة وإلى الهدى، فعصيانه أهبطه إلى الأرض الشقاء والعناء، وتوبته أصلحته لحياة راضية خالية عن مربع العناء، وهداه أدخلته الى جنة الحياة وهو في الدنيا، فتألّفت حياته الأرضية بحياة سماوية علينية إذا تعلق بوحي السماء، وهي ارضية سجينية إذا تحلل عن وحي السماء: «فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً».

و من ثم ينتقل المهتدون إلى حياة سماوية خالصة أسمى من الأولى وأنمى، والضالون إلى حياة أرضية أتعس وأنكى!*.

الدر المنثور ١: ٥١ عن أبي ذر قلت يا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: من أول الأنبياء؟ قال: آدم، قلت: نبي كان؟ قال: نعم مكلّم، قلت ثم من؟ قال: نوح وبينهما عشرة آباء.

رجعة ثانية الى مثلث الآيات في القصة باستدراكات ونكات:

١ ـ نتأكد من ترداد الأكل من الشجرة في آياتها أنها ليست شجرة العلم او الحسد او المحبة او المعرفة وأمثالها، من التي لا تؤل وإنما تتلقى معرفة وعلما، مهما حملت هذه الشجرة روح الشقاء والضلال.

٢ ـ إخراجهما من الجنة قد ينسب الى الشيطان كما هنا «فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمّا كانا فِيهِ» وفي الأعراف «كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ» وفي طه «فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى».
ثم ينسب الإهباط والأمر بالهبوط الى اللّه: «وَ قُلْنَا اهْبِطُوا» كما هنا «قالَ اهْبِطُوا» في الأعراف و«قالَ اهْبِطا» في طه.
و الجمع ان سبب الخروج والهبوط هو إبليس بما أزلهما دون أن يهبطهما هو بنفسه، ثم اللّه أهبطهما جزاء بما كسبا أن استزلا بما أزلهما.
٣ ـ هنا أمران جماعيان بالهبوط يتوسطهما تلقي كلمات التوبة، أ ترى ان آدم عصى الأمر الاوّل حتى تاب، ثم أمر ثانيا بالهبوط؟ فكان عليه ـ إذا ـ أن يتوب عن عصيانه الثاني أن خالف الأمر الاوّل؟
هناك عصيان ثم بداية التوبة في الأعراف قبل الأمر بالهبوط: «أَ لَمْ أَنْهَكُما ... قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا ... قالَ اهْبِطُوا» ثم هنا تلق لكلمات التوبة بين الأمرين بالهبوط: «و قلنا اهبطوا .. فتلقى .. قلنا اهبطوا ...»
مما يدل ان الكلمات المتلقاة هي نهاية التوبة لا بدايتها: «رَبَّنا ظَلَمْنا ...».
فقد اشتغل آدم منذ الخطيئة في الجنة بالتوبة قبل الأمر الأوّل وبعده حتى تاب اللّه عليه، وعلّ الاول ما كان فوريا دون مهلة وكما في طه:
«وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى. ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً ..»مما يوحي أن أمرهما الخاص بالهبوط بعد ما أمر إبليس حين ازلهما، وبعد ما تاب عليه ربه وهدى، وكمال التوبة كان بتلقي الكلمات بعد الأمر الاوّل الجماعي بالهبوط هنا، وكأنه يقول أنتما بعد قليل وتحقيق التوبة هابطان مع الشيطان، إذا فلا عصيان ثانيا لآدم وزوجه، وإنما إبليس هو الذي عصى ربه لحد الآن مرتين ـ: مرة إذا استكبر عن السجود لآدم «قال اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها» واخرى إذا أمر مع آدم وزوجه إذ أزلهما، إذ كان امره غير أمرهما، حيث هما كانت لهما مهلة تحقيق التوبة دونه، أو أن التأكيد لأجل التكرار حيث ظنا أن توبتهما نسخت الأمر بالهبوط فأعاده اللّه تدليلا على ان الهبوط لزام العصيان ولو بعد التوبة، ولأنه خلق خليفة في الأرض لا في السماء!.
و مهما يكن من شيء فالأمر الأخير بجماعية الهبوط يحمل تحقيقه تكوينا، بجانب ما يحمل إيجابه تشريعا، مهما كان آدم وزوجه مطيعان والشيطان عاصيا!.
«فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمّا كانا فِيهِ»: من الجنة بما يشقى: «إِنَّ لَكَ أَلّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى. وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى» وقد خرجا من بعض ما فيه «وَ لا تَعْرى» وهما بعد فيها، حيث نزع عنهما لباسهما «وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ»ولكن لم يسمح لهما، حيث «طَفِقا يَخْصِفانِ» دون «خصفا» كما وأن الخروج مما فيها يقتضيه، إذ لا يخص بالخروج عنها، وإنما «مِمّا كانا فِيهِ» ومنه لباس الجنة ورقا وسواه، فقد بقيا عريانين حتى أهبطا، وقد تابا عريانين منكسرين، وإنه أحرى بحالة التوبة وأجدى.
٥ ـ (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما» توحي أن لو لا وسوسة الشيطان بذوق الشجرة لم تبدو لهما سوآتهما أبدا، إذ كان لباس الجنة لهما لزاما، كما ألبساه منذ خلقا وأدخلاها، فظهور السوأة كان مقصودا للشيطان نكاية بآدم وزوجه، أنكما تحملان سوآت في أبدانكما، واخرى في أرواحكما حيث عصيتما ربكما فلست أنا العاصي فقط وأنتما مطيعان! فهذا عصيان

بعصيان وأي فرق بين عصيان وعصيان؟ فطالما أنا عصيت ربي أن لم أسجد لك، فأنت عصيت ربك فيما أنعم عليك من الجنة، ام ماذا من أهداف أضاليل.
فالشيطان بخيله ورجله يحاول دوما بخطواته أن يضم الى حزبه من عباد الرحمن لكي لا يبقى وحده مرذولا مدحورا.
و من ثم كان لظهور السوأة هذا أثره في آدم وزوجه، ان يأخذا حذرهما في الحياة الأرضية، ويتاكدا من «إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ» فعلى الإنسان أن يلتزم لباس التقوى الذي يستر على العورات والسوآت كلّها: «يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَ رِيشاً وَ لِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ. يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ» (٧: ٢٧).
و ما لم تظهر السوآت لا يندفع أصحابها لسترها أو علاجها، فقد كانت بلية الجنة لأدم و زوجه درسا للأجيال كلها: كيف عليهم أن يعيشوا معركة الحياة الأرضية، ولكي يرجعوا الى الجنة على ضوء الصالحات في معتركات الحياة، حيث الجنة دون كدح وعمل ليست بالتي ترضي الضمير: «يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ» ٦ ـ لماذا «فتشقى» دون «فتشقيا» في «فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى»؟ كما و«إِنَّ لَكَ أَلّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى. وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى، فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ» رغم انهما معا منهيان وقد حذّرا معا عن غرور الشيطان، واكلاً معا منها، فهما في هذا المسرح على سواء ولماذا يختص آدم بالحظر عن عقبات هذا العصيان، وهما معا منهيان: «وَ لا تَقْرَبا»، كذلك وظالمان عند العصيان «فَتَكُونا مِنَ الظّالِمِينَ»«رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا» فهل يا ترى إن الظلم العصيان منهما يخص بخلفياته ـ فقط ـ آدم دون زوجه و«لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى».
أقول: هما متشاركان في الظلم والعصيان والخروج مما كانا فيه والهبوط عن الجنة: «فَأَخْرَجَهُما مِمّا كانا فِيهِ وَ قُلْنَا اهْبِطُوا ..» ولكنما العبء في الحياة الأرضية وشقاءها و جوعها وعراها وظمأها وضحاها، انها كلها تتوارد على الذكران قبل الأناث وأكثر، حيث هن يعشن على هامش أتعابهم، فعليهم مطاردة هذه الشقاء وحمل هذه الأعباء لا لأنفسهم فحسب، وإنما لأزواجهم وأمهاتهم وبناتهم ايضا كما يتحملون لأنفسهم، بل وقد يفضلونهن عليهم حيث «جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً» (٣٠: ٢١) و«الرِّجالُ قَوّامُونَ عَلَى النِّساءِ».
ففي الحياة الأرضية للرجال ضعف وأضعاف ما للنساء من أعباء وشقاء.
٧ ـ ولماذا «فَتَلَقّى آدَمُ ... فَتابَ عَلَيْهِ» دون «تلقيا .. فتاب عليهما» وهما معا عاصيان تائبان «قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا»؟
ذلك لأن آدم هو الأصل وهي الفرع، طوي عن ذكرها هنا حيث التلقّي وحي وهي محرومة عنه، وإنما تتلقى منه بعد ما تلقى، ثم هي التائبة على هامشه، وكما أن عبء الحياة الدنيا عليه دونها «فتشقى»..!
٨ ـ كيف التلاؤ في «فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً» بين «إن» الشرطية الدالة على الشك و الترديد، وبين «نّ» التأكيد التي تؤد مدخولها؟
في الحق ان «إن» لا تعني بنفسها ترديدا، وانما شرطا يلائمه كما يلائم التحقيق، وهنا التحقيق مستفاد

من نون التأكيد والشرط يفيد مفاده، ف «إن» يأت مني هدى وهو «ما يأتينكم» ـ «فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ ..».
٩ ـ وترى كيف «فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» «فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى» وشقاء الحياة الدنيا شاملة لعائشيها، بل هي للمؤن أشقى وأنكى، كما أن خوفه وحزنه فيها واقعان على ما يرى من ظلامات وتخلفات عن شريعة اللّه؟ فمهما «لا يضل» ولكنه يخاف ويحزن ويشقى.
و لكنما الشقاء في الحياة الدنيا، منها مشتركة بين المؤن والكافر، لأنها لزام الحياة الدنيا، ولكنها للمؤن مجبورة بما تستقبله من راحة الحياة الأخرى، ثم وشقاء فيها تخص المتخلفين عن شرعة اللّه: التي تخفف كثيرا من أتعابها، ولو طبقّت تماما لأصبحت الحياة الدنيا الشقاء رحمة كلها كما الجنة سواء، فالمؤن في هاتين الشقائين برحمة وراحة نسبية في الأولى وحقيقية في الثانية: «فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى» وأما الكافر:
«وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً. وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى» فضنك المعيشة في الحياة الدنيا هو لزام الكافر قدر كفره، وراحتها ـ رغم انها دنيا ـ هي لزام المؤن قدر ايمانه، فليس الايمان بالذي يعمّر ـ فقط ـ الحياة الأخرى، بل انه يجمع تعمير الحياة الدنيا إلى الأخرى، كما الكفر هو ضنك فيهما.
و أما «فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» فهو مما يستقبلهم في الاخرى فإنهم آمنون فيها، واما ما يخوفهم أهل الدنيا في نفس او مال ام ماذا، فانها ليست بالتي تخوفهم ما داموا في مسيرهم إلى الجنة المأوى.
ثم «وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» على ما مضى، مما قدموه في سبيل اللّه او فات عنهم من زخرفات الحياة وزهراتها، فما قدموه يقدمهم الى الحسنى فلما ذا يحزنون؟ وما فات عنهم يخفف عنهم ثقلهم فلما ذا يحزنون: «لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ ...»
و اما الكافر فهو يعيش دوما بين حزن لما فاته وخوف عما يستقبله «فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً»!.
«بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (٢: ١١٢) (فَمَنِ اتَّقى وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (٧: ٣٥) «أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللّٰهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (١٠: ٦٢) «إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللّٰهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (٤٦: ١٣).
فأتباع هدى اللّه، بإسلام الوجه للّه، وبالإصلاح وتقوى اللّه، ممن قالوا ربنا اللّه ثم استقاموا من أولياء اللّه، هؤلآء الأكارم: «فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ»!
على هامش القصة:
هنا آيات توراتية مختلقة، وروايات أمثالها تسربت وترسبت في روايات إسلامية تشوّه وجه القصة الى خلاف العقل والعدل، نضربها عرض الحائط حفاظا على كرامة الوحي وذودا عن ساحة الربوبية والرسالة، ومن التورات:(تكوين ٢: ١٦ ـ ١٨) و(٣: ١ ـ ٢٦): واوصى الرب الإله آدم قائلا: من جميع شجر الجنة تأكل واما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها شيئا لأنك يوم تأكل منها تموت موتا ـ فقالت الحية (يعني إبليس) للمرأة (حواء) أ حقا قال اللّه: لا تأكل من كل شجر الجنة؟ فقال المرأة: نأكل منها إلّا التي في وسط الجنة فقال اللّه: لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا. فقالت الحية: لن تموتا بل اللّه عالم انه حينذاك تنفتح أعينكما وتكونان كاللّه عارفين الخير و الشر ـ فأكلها آدم مع زوجه

فانفتحت أعينهما وعلما انهما عريانان. فخاطا أوراق طين وصنعا لأنفسهما مآزر وسمعا صوت الرب الإله ما شيا في الجنة فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط الجنة فنادى الإله اين أنت؟ فقال آدم:سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت، فقال: كيف علمت أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة؟ فقال: المرأة ابتلتني، فقال: وأنت لماذا؟ فقالت: الحية غرتني ... فقال للحية ... وقال للمرأة: أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولادا ... وقال الرب الإله له: هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر والآن يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة ويأكل ويحيى الى الأبد فأخرجه من جنة عدن ...!

وا فضيحتاه من هذه الآيات المقحمات في التورات فأكثرها خرافات هراءات، خارجة عن حدّ التصليح إلى مطلق التزييف، حيث تجهّل الرب وتعجّزه وتعدّده وتمثّله بعبيده و تغلّب عليه كيدهم، وكل من له أدنى معرفة بالإلهيات يزيّف هذه العبارات المجنونة المتناقضة، دون حاجة الى إجابات! ثم انظر الى الذكر الحكيم والقرآن العظيم كيف يهيمن على ما بين يديه من كتاب، فيزيف زيف ما أقحم فيها، ويصدّق صدق ما تبقّى و اللّه من وراء القصد.

آدم عليه‌السلام نسى عهد الله فدعى ربه وغوى قبل رسالته

ان «معرفة الله حق معرفته هو رأس العلم»*

و سائر العلم وسائلها، ولا نهاية لحق المعرفة واليقين وكما يؤر رسول الهدى صلى‌الله‌عليه‌وآله«وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ».

«وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» ۱۱۵ علّها اضافة الى بيان واقع سابق من ضعف العزم الإنساني المتمثل في الإنسان الأولى، هي إلى جانب ذلك تكريم لساحة الرسالة القدسية الأخيرة، التي يحملها أعظم اولي العزم من الرسل.

فأنت يا محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله محافظ لعهد اللّه تماما، وعازم عليه تماما، ولذلك قد تسبق رسل الوحي في قراءته، واين أنت من آدم حيث عهدنا اليه من قبل فنسي العهد ولم نجد له عزما وثباتا على العهد!.

و لا نعهد عهدا الى آدم في الذكر الحكيم إلّا ألّا يطيع الشيطان ولا يقرب الشجرة المنهية كما في آيات عدة مثل ما هنا: «فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى» (۱۱۸).

و نسيان عهد اللّه لو كان عن قصور لا يسمى عصيانا، وان كان عن تقصير كان عصيانا، «وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» ـ «وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى» هما في جملة عساكر الادلة القاطعة على نسيانه المقصر العصيان، «وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» تعني أن لم يكن له عزم على تطبيق العهد رغم تقبّله وتصديقه، ف «لم أجد» في غير اللّه أعم من الوجود وعدمه حيث العلم غير مطلق ولا مطبق، ولكنه في اللّه صيغة أخرى عن عدم الوجود، ولماذا «لم نجد» بديلا عن «لم يكن أو لم يوجد له عزم» حيث الثاني يستأصل عزمه كأن اللّه لم يخلق له عزما، إذا فهو قاصر لا يتمكن من عزم، ولكن «لم نجد» تنفي وجود عزمه بما قصّر، لامحة انه خلق له عزما مختارا في تطبيق عهده، ولكنه نسي عهده وترك عزمه لعهده، فأصبح عهدا دون عزم تقصيرا منه دون قصور، و لذلك يعلن في هذه الإذاعة القرآنية العالمية «وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى».

اجل، وكلما كانت النفس أعزم على تطبيق عهد اللّه فهي أعظم عند اللّه، وابعد عن محارم اللّه، حتى يتصل الى قمة العزم وهي النفوس القدسية لأولي العزم من الرسل و من نحى منحاهم كالائمة من آل الرسول الأقدس محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله.

و نسيان آدم، المقصّر، كان تناسيا على ذكر، وإلا فكيف هنا اصل النسيان وقد ذكره اللّه من قبل بموقفه مع الشيطان: «إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ ..» ام «كيف ينسى وهو يذكره ويقول له إبليس: «ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ»(٧: ٣٠)؟*.

و كضابطة عامة لا عصيان إلا بنسيان الرب وعهده تساهلا وتناسيا وتجاهلا عانـدا ام عامـدا ام عـن جهالة، ونسيان اللّه وعهده على أية حال عصيان مهما اختلفت دركاته.

و لقد نبه اللّه آدم حين خلقه وأسجد له ملائكته وتمنّع إبليس عن السجدة، نبّهه بذلك العهد وذكّره: وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلّا إِبْلِيسَ أَبى ١١٦.

و لقد فصلنا القصة وحققناها حسب المستطاع في البقرة وقلنا هناك وفي مواضع اخرى ان المسجود له هنا عبودية او احتراما هو اللّه، وآدم هو المسجود له شكرا للّه، كما تقول سجدت لولدي بيانا لدافع سجودك شكرا للّه.

فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى ١١٧.

عداء سابق على السجدة لماذا أمر بها، وعداء لاحق على مرّ الزمن لماذا لعن بتركها:

«قالَ أَ رَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلّا قَلِيلًا» (١٧: ٦٢) (قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ»(١٥: ٣٩).

و الشقاء هنا، المتفرعة على الخروج عن الجنة الى الحياة الأرضية، هي التعب والعناء في هذه الحياة، فالشقاء بالكدّ والعمل والشرود والضلال والحيرة واللهفة والانتظار والألم والفقدان، ام أيا كان، كل هذه تنتظرك خارج الجنة في حياة الشقوة الارضية، وأنت في حمى منها كلها في رحاب الجنة.

و من اصول الشقاء هناك خارج الجنة الجوع والعرى والظمأ والضحى:

إِنَّ لَكَ أَلّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى ١١٨ وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى ١١٩.

لا جوع فيها حيث الأكل حاضر فيها كما تشهي دون كدّ للحصول عليه، ولا عرى حيث ملابس الجنة تلابسك دون سعى قد يخيب، ولا ظمأ العطش حيث الماء فيها كما تشاء وحيث تشاء، ولا ضحى الشمس حيث الجنة تجن عن الشمس الضاحية، ثم وبرودة الهواء ونعامتها من ناحية، وعدم الحاجة الى مظلّات من أخرى، لا تحوجك تكلّف التستر عنها.

و هنا الجوع والعرى يتقابلان مع الظمإ والضحوة، وهي في مجموعها تمثّل رؤس متاعب الإنسان وشقاءه في الحصول على حاجيات الحياة ودفع مضراتها.

هذا ـ ولكنما الإنسان النسيان، الغفلان عن تجاربه مع الشيطان، والرغبان في البقاء والسلطان، من هذه الثغرات ينفذ اليه الشيطان، ابتلاءً بالعصيان وخروجا عن جوار رحمة الرحمن:

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى ١٢٠.

«ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ. وَ قاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النّاصِحِينَ. فَدَلّاهُما بِغُرُورٍ ...»(١٧: ٢١).

الشيطان يحبّذ الى آدم الأكل من الشجرة المنهية، واصفا لها بشجرة الخلد وملك لا يبلى، بعد أنّ

الرحمن يحذره عنها، واصفا لها بشجرة الشقاء والخروج عن جنة الراحة و البقاء، ويا للإنسان من غفلة ونسيان لعهد اللّه وذكراه، كيف يميل الى الوسواس الخناس، ويترك عظة اله الناس؟.

أ تراه كذّب اللّه في وعده مصدقا للشيطان، وهو من اكفر الكفر! ام ان شغفه البالغ لخلد الحياة في الجنة وملك فيها لا يبلى أنساه ذكراه، فنسي عداء الشيطان والشقاء الناتج عن اتّباعه «فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» فلقد لمس اللعين في نفس آدم الموضع الحساس، وهو تطلّب البقاء، فأنساه العهد والعناء المتوعدة على الخروج من الجنة، فأقدم على المحظور:

فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى ۱۲۱.

و هذه السوآت هي العورات، فقد كانت عنهما مستورة، وكان بدوّها من اهداف الشيطان: «لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما» (۷: ۲۰) (يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما»(۷: ۲۷).

فقد كانت عوراتهما ملبوسة بلباس الجنة ولمّا تبدوا لهما منذ خلقا، فلما اكلا من الشجرة نزع عنهما لباسهما فبدت لهما عوراتهما، عورة ظاهرة كانت خفية، نتيجة عورة باطنة في الروح هي النسيان العصيان، وليعلم الإنسان انه في قرارة نفسه عورة ظاهرة وباطنة، فعند الامتحان يكرم المرء او يهان، وعند تقلب الأحوال تعرف جواهر الرجال.

و بالفعل «فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما» وهي مواضع الجنس والعفة بما أكلا، ومواضع الخفة في الروح لماذا أكلا، فأصبحا عارفين من عورات الروح والجسم ما أريا «وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ» سترا لعورات الجسم، ولكنهما كيف يستران عورات الروح؟:

«أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَ رِيشاً وَ لِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ» (۷: ۲۶) وقد بقي عليهما ان يسترا عورات الروح حيث «وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى»!

«و هي أول قدم مشت الى الخطيئة»*

و طبعا بين قبيل الإنسان، فان الشيطان سبقه فيها.

و قد تلمح «طَفِقا يَخْصِفانِ» انهما ما قدرا على ان يخصفا، وإلّا لكان حق التعبير «فخصفا» فانما حاولا، واما واقع الخصف فلا خبر عنه، ثم «إِنَّ لَكَ أَلّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى ..» كانت مشروطة بعدم الأكل من الشجرة وقد اكلا فليعريا هنا وفي الحياة الأرضية. «وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى»!

و هنا أول انسان يبتلى بأول عصيان، مهما حاول ناس وهم الأكثرية المطلقة من مفسرين ومحدثين ان يحوّلوا عصيانه الى ترك الاولى، ولكنه محاولة غافلة فاشلة حيث تخالف نصوص الكتاب والسنة وكما فصلناها على ضوء آية البقرة.

و منهم من يردّد القول ان ذلك كان قبل تشريع الشّرعة، وانه كان نهيا إرشاديا، وتراه ماذا يقصد من الشرعة الإلهية، أ هي المشرّعة منذ الرسالة الأرضية؟ ولا ينافيها حكم واحد تكليفي او يزيد قبل هذه الشرعة! ام تعم اي حكم الهي؟ فقد حكم اللّه قبل الشرعة الارضية احكاما عدة، منها ما أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس، وقد لعن إبليس حين ابى، فهلا هو عاص إذ لم تكن هنا لك شرعة؟ وهو شر عصيان! ام لم يكن الملائكة ـ إذا ـ طائعين؟ وهي خير طاعة! فكذلك في عصيان آدم وقد لحق عصيان الشيطان.

فحتى لو كان النهي إرشاديا ـ ولم يكن ـ فهو ايضا من الشرعة، وعصيان النهي الارشادي بهذه الصورة العجيبة، هو ايضا في الحق عصيان، ثم طبيعة الحال في الأوامر والنواهي الإلهية انها مولوية ككلّ الا

بقرينة قاطعة، ام هي كلها ارشادية حيث ترشد الى مصالح تحملها فردية ام جماعية، فمجرد ان تسمي نهيا إرشاديا ـ ودون اي برهان ـ لا يخرج تخلفه عن العصيان، وكما اللّه صرح في هذه الاذاعة القرآنية «وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى».

فلو كان تركا للأولى فكان الاولى بل المحتوم في القرآن البيان «و ترك الاولى»دون «و عصى» لا سيما مع تصريحات أخرى تؤد انه حقا «عصى»: فالنهي المؤّد عن الاكل منها، ثم فتكونا من الظالمين، وانه زل، وشقي، وعصى، وأهبط من الجنة، وتاب فيها وبعدها، هذه عساكر سبعة تدلنا على انه حتما «عصى- فغوى».

و «عصى» بنفسها تكفي دلالة على اقتراف الحرام ولم تستعمل في القرآن كله إلا في نفس المعنى، كما الظلم والزلة والشقاء والغواية، ثم هذه التوبة العريضة ليست الا عن ارتكاب محرم.

و ترك الاولى تخلفا عن نهي ارشادي كما يقولون، لا يستحق هذه التعابير القاسية القاضية على العدالة فضلا عن العصمة، ولا يستوجب تلك التوبة الطويلة العريضة! و العصمة الضرورية لساحة الرسالة هي منذ الرسالة حتى يقضي الرسول نحبه، دون ما قبلها الا لمن دلت لهم الدلالات القاطعة كالرسول محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وعترته الطاهرة (عليهم السلام) ومن نحى منحاهم من اولي العزم ام سواهم.

و ليت شعري ماذا يدفع هؤلآء الأعاظم الى تأويل نصوص الكتاب والسنة في عصيان آدم عليه‌السلام؟ أ استعظاما لشأن آدم عليه‌السلام والقرآن أعظم شأنا أن يؤّل الى خلاف نصوصه، و ما تشهيره فيه بذنبه إلا «ان مخالفة الحبيب على الحبيب شديدة»*

و ليعلم ذريته انهم سيبتلون بالشيطان كما ابتلي أبوهم آدم فيتخذوه عدوا.

و لعمر الهي الحق ان ذلك التأويل العليل غريب في نوعه دون اي تعويل إلا على أن الأنبياء معصومون! ولم يكن هذا العصيان إلا قبل نبوته* لمكان «ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى»والقرآن مصرح بذلك العصيان، ولا يوجد في عشرات من الأحاديث الناظرة اليه المفسرة له إلا نفس الذنب والخطيئة والعصيان، دون ترك الاولى ولا مرة يتيمة.

و غريب من صاحب بحار الأنوار انه يعنون بابا من أبوابه ب«ارتكاب ترك الاولى»سردا لآيات عصيان آدم ورواياته، ولا ينبئك مثل خبير بغربة القرآن الغريبة حيث تؤل آياته البينات دون اي برهان، حتى وإذا صدقت بمتظافر الأحاديث التي هم يؤّلونها، ويفرعون القرآن عليها*!

اجل انه عصى فغوى، ولكنها معصية صغيرة حيث نسي واغتر بما قاسمه إبليس* وكان ذلك قبل رسالته* فانه:

ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى ١٢٢.

الاجتباء من الجباية: الجمع، والافتعال جمع متكلّف فيه، وإذ لا تكلف في افعال اللّه تعالى، فليكن اصطفاءً له بعد صفاءه بتوبته وهداه، فللعصمة مرحلتان، إخلاص خلقي، ثم إخلاص من اللّه، فلما يجبي الإنسان نفسه لربه كما يستطيع، فقد يجتبيه ربه لنفسه رسولا منه الى خلقه، و«ربه» هنا دون «اللّه» ام «رَبِّ الْعالَمِينَ» تلمح لهذه الربوبية الخاصة في ذلك الاجتباء.

و «ثم» هنا تجعل اجتباءه الرسالي متأخرا عن توبته تعالى عليه وهداه، وهذه طبيعة الحال في الاجتباء، كما ان «فَتابَ عَلَيْهِ» تدل على توبته الى اللّه فتاب اللّه عليه، وهذه التوبة محفوفة بتوبتين من

اللّه الى التائب، من قبل حتى يتوب الى اللّه، ومن بعد توبة من اللّه عليه تقبلا منه، حتى يتوب عليه: «ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا»(۹:۱۱۹).

كما أنّ «و هدى» هي هدى بعد توبة اللّه عليه ثانية، وليس الاجتباء إلا بعد هذه الهدى، فهو المرحلة الخامسة بعد تخطيّه هذه الأربع، توبات ثلاث وهدى، والاجتباء هدى رسالية بعد الهدى الخاصة المبيّنة صلاحية الرسول كشخص، وهي المعنية بالهدى التالية:

قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى ۱۲۳! هنا «قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً» وفي سواها «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً»(۲: ۳۸) «اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» (۲: ۳۶) وو ۷: ۲۴) فهل المخاطب مثنى فكيف الجمع في ذلك الجمع؟ ام هو جمع فلما ذا المثنى في هذه اليتيمة؟.

«اهبطوا» في هذه الثلاث الاخيرة تجمع آدم وزوجه والشيطان، و«اهبطا» هنا بقرينة الجمع في «يأتينكم» والعداء في «بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» تعني نفس الجمع، والتثنية اعتبارا بالفريقين المتناحرين على طول خط الحياة، فالعداء الأصيل هو بين الشيطان و الإنسان ككلّ، ويتفرع عليه عداء ثان بين قبيل الإنسان «قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ»(۱۷: ۵۳) وهنا احتمال ثان ان التثنية تعني قبيلي الرجال والنساء المنتسلين من الأولين، ومباعضة العداء تعم عداء كل للآخر، وعداء كلّ مع قبيله، ثم الشيطان رأس الزاوية في كل عداء.

و ذلك العداء بين قبيل الإنسان، واثره عليه من قبيل الشيطان، هما لا يزولان ام يخفان إلا بهدى اللّه الملك المنان:

«فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً» ونون التأكيد تنسف التردد في إتيان هدى الى التأكد منها، و «هدى» هذه، الآتية بعد الهبوط، ليست هي الفطرية والعقلية والحسية وقد أوتيها كل مكلف منذ خلقه، بل هي الهدى الرسالية بالوحي، غير المستطاعة لهم، سواء أكانت هدى العقل صدا عن اخطاءه اما زاد، وعليها هي مادة الرسالة الاولى التي حملها آدم عليه‌السلام حيث الشرعة الإلهية بفروعها الأحكامية الشاملة انما ابتدئت من نوح: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسى ..»(۴۲: ۴۳) فقد «كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ..»(۲: ۲۱۳) والنبيون هنا هم حملة الشرائع منذ نوح الى محمد (عليهم السلام)، وآدم كان رسولا مهديا بهدي الدلالات العقلية الناضجة و لم يكن نبيا، حيث النبوة هي منزلة رفيعة في الرسالة، وآدم لم يحظوا إلا مرتبة دانية بدائية من الرسالة.

«فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ» في أية شرعة الهية «فَلا يَضِلُّ» اتباعا للشيطان، وعداء بعضهم لبعض، وقصورا للعقل عن كامل المصلحة الحيوية، وبالنتيجة «وَ لا يَشْقى» بالرغم من ان الحياة الدنيا هي حياة الشقاء، وباحرى «لا يَشْقى» في البرزخ والأخرى، فالشقاء في الحياة لمتبع الهدى منفية، في عيشة راضية مرضية، وقد يروى عن رسول الهدى صلى‌الله‌عليه‌وآله في تفسير آية الهدى «من اتبع كتاب الله هداه الله من الضلالة في الدنيا ووقاه سوء الحساب يوم القيامة ..»*

و هذا تفسير تطبيقي للهدى بأفضل مصاديقها.

و ترى كيف يهدّد آدم إذا عصى بأنه يشقى، وإذا أطاع فلا يشقى، وهنا يعده مرة اخرى «فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى» في هذه الحياة الارضية الشقاء؟.

علّه لان الشقاء المهدد بها تعم النشآت الثلاث روحية وبدنية، وهي تجبر باتباع الهدى، إلا بدنية في الاولى، لا تحسب بشيء بجنب الرياحة الروحية برضوان من اللّه.
صحيح ان آدم اهبط من الجنة بما عصى، ولكنه زوّد في الحياة الارضية بزاد التقوى التي تجعل له منها جنة المأوى، اضافة الى حياته الحسنة في الدنيا، والجنة التي يخلفها الإنسان بما سعى، خير من جنة دخلها دون ان يسعى.

هل اشرك آدم عليه‌السلام وزوجه

«فَلَمّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعالَى اللّهُ عَمّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَ يُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَ لا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٩٤) أَ لَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ(١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصّالِحِينَ (١٩٦) وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَسْمَعُوا وَ تَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَ هُمْ لا يُبْصِرُونَ»(١٩٨)
هذه الآيات هي قبل صحيح التأمل فيها قد تكون متسرّبا لوثنيات مفتريات على أبينا الأول أول المرسلين المعصومين سلام اللّه عليهم أجمعين، لحد يختلق عن خاتم المرسلين صلى‌الله‌عليه‌وآله أنه قال: «خدعهما مرتين»*
يعني الشيطان، فالخدعة الأولى حيث أضلهما في الجنة وجاه الشجرة المنهية، والثانية لما «جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما» كما هنا!! ذلك رغم أن اللّه اجتباه بعد ما هبط إلى الأرض، وكيف يقع اجتباءه على من يشرك به وقد علّمه الأسماء كلها؟! أ جهلا بما يشرك، أم اجتباء لمن يشرك! فكيف بالإمكان للذي علّم الأسماء كلها، وقد عرّفه اللّه الشيطان إذ هما في الجنة، كيف له أن ينخدع مرة أخرى هي أفضح من الأولى أن يسمي بعض أولاده أسماء شركية؟ فهل ضاقت عليه الأسماء بما رحبت فلم يجد لولده اسما إلّا ما يختاره عدوه المعروف لديه؟
ذلك، وليس في مسرح هذه الآيات ذكر من الشيطان، ولو كان هو المقصود من «جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ»لكان النص «جعلا له شريكا» لوحدة هذا الشيطان، ثم «ما لا يَخْلُقُ» كان «من لا يخلق»اعتبارا بأن الشيطان من ذوي العقول.
و بعد ذلك كله فضمائر الجمع التي هي هنا بضع وعشرون وفي أفعال مستقبلة! لا تناسب خصوص أبوينا الأولين، فلو كانا هما المقصودين لكان حق النص التثنية الماضية، لا سيما وأن الحق في اجتثاث جذور الوثنية عن بكرتها منذ بزوغها أن يركز على أول المشركين، فلو كان أبوانا هما اللذان أشركا باللّه قبل كل المشركين! لكان الحق تركيز الضمائر في ذلك التنديد المديد عليهما، دون أولادهما اللذين لم يولدوا بعد والذي ولد لمّا يبلغ الحلم حتى يكلّف فيندّد بشركه.

ذلك خلاف ما يروى أنه بعد مرات عدة لم تكن زوجه موفقة حيث ولدت ناقصا لايعيش*! فإنها من الإسرائيليات المسيحية والمسيحيات الإسرائيلية التي تلقي كل عصان على آدم وزوجه، وهنا «مرت به» أي الحمل، هو المرور كعادة بلا ثقل حيث لاتحس ذلك الحمل.

فالعلاقة الأولية بين الزوج ومسكنه هي التغشي حبا وشهوة وإنجابا للمماثل، والتغشي هو أحسن تعبير عن ذلك اللقاء اللقاح حيث يغشى كيانها ككل فتحشر فيه بكلها روحا وجسما، فهو التقاء روحين بجسدين وجسدين بروحين، كما الزواج هو الالتقاء المثنّى وأهمها الروح إذ هو الذي يدرك المسكن، وهذه صورة إنسانية في تلك المباشرة بعيدة عن الحيوانية الخالصة الكالسة الفالسة، قريبة إلى الإنسانية الصالحة، إنجابا لصالح.

«فَلَمّا أَثْقَلَتْ» بحملها «دَعَوَا اللّهَ رَبَّهُما» الذي رباهما وحملها «لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً» يصلح للحياة الإنسانية «لَنَكُونَنَّ مِنَ الشّاكِرِينَ» المخلصين لك الدين.

فقد تبين الحمل وتعلقت به قلوبهما وجاء دور الأطماع فيه، المختصرة في صيغة (صالحا) وهو الصلاح الظاهر عند الولادة لمكان «فَلَمّا آتاهُما صالِحاً» حيث الصلاح الظاهر عند الولادة ليس إلا الظاهر في الحياة الإنسانية، دون الباطن الذي لا يظهر إلّا عند بلوغ الحلم، لا سيما وأن الطبيعة الإنسانية المائلة إلى الإشراك لا تنحو نحو صلاح الباطن.

فهذه قصة واقعية عامة بين بني الإنسان تصويرا لمدارج الانحراف في النفس الإنساني من معارج الفطرة التي فطرهم اللّه عليها:

«فَلَمّا آتاهُما صالِحاً» يعيش عيشة صالحة «جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعالَى اللّهُ عَمّا يُشْرِكُونَ» وهنا «شركاء» دون «شريك» لا ينطبق على الشيطان، كما أن «يشركون» جمعا لا ينطبق عليهما، إذا فهما كل أبوين من هذا النسل، أنهما عند اثقالها يدعوان اللّه «لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشّاكِرِينَ» ولكنهما ينسيان صالح ما آتاهما اللّه إلى طالح الإشراك به حيث «جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما» إذ يخيل إليهما أن لغير اللّه مدخلا في صالح الولد.

و هذه طبيعة الإنسان الغفلان النسيان إلّا من هداه اللّه ووقاه، تخلفا عما فطره اللّه عليه كما ويكرر قصّ ذلك التخلف في القرآن بصور عدة:

«وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (١٠:١٢) ـ (وَ إِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمّا نَجّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلّا كُلُّ خَتّارٍ كَفُورٍ»(٣١: ٣٢) (وَ إِذا مَسَّ النّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ. لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» (٣٠: ٣٤).

و هكذا ينقطع الإنسان فطريا إلى ربه حين تنقطع الأسباب التي كان يعيشها، فلما كشف عنه ضره رجع إلى نفس الأسباب معتبرا إياها كأنها الكاشفة له ضره، فقد يمرض مرضا هالكا فلا ينفعه أي طبيب ولا دواء، فلمّا يعافى ينسب عافيته إلى كل شيء إلّا اللّه! هذا، والقول إن «يشركون» وما أشبه جمعا لا ينافي تثنية الأبوين، فإن دأب القرآن الدائب هو التعميم بعد التخصيص إعطاء للضابطة، مردود بظاهر الجمع الراجع إلى صاحبي القصة، إلّا إذا دلت قرينة كما فيما تقولون، ولو كانت هنا قرينة كسائر الموارد ف «نَفْسٍ واحِدَةٍ» ـ لأقل تقدير ـ لا تعني ـ فقط ـ آدم عليه‌السلام مهما كان محتملا،

ولكن الاحتمال ليس بناء الاستدلال، ففرية الإشراك على أبوينا الأولين لاسناد لها هنا، والأسناد القرآنية الأخرى تترى على أنهما كانا موحدين، مهما عصيا في الجنة: «وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى. ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى»(٢٠: ١٢٢) وكيف يقع اجتباء اللّه على من يشرك باللّه فيما يعلم منه و«اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ»ولا يلمح القرآن بعد عصيان آدم في الجنة أية لمحة لتخلف منه صغير طيلة حياته وهو رسول، فضلا عن هكذا الإشراك باللّه، وعوذا باللّه من هذه المختلقات الزور الغرور التي يزوّرها لأهليها الغرور، «أَ يُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ لهم شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ»إشراكا به في صالح ما آتاهم من ولد؟ «وَ لا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ»؟

«وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ» وهنا الخطاب الجمع برهان آخر مع عساكر البراهين الأخرى أن التنديد غير وارد على أبوينا الأولين «سَواءٌ عَلَيْكُمْ» أنتم المشركون على مدار الزمن «أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ» فهؤاء الذين تدعونهم من دون اللّه من حي وميت هم في ضلال لا يهتدون فكيف يتخذون شركاء للّه «أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلّا أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ»(١٠: ٣٥)!.

«إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ» أيا كانوا وحتى الملائكة والنبيين هم «عباد» للّه «أَمْثالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» أنهم ليسوا أمثالكم بل هم آلهة كما اللّه.

«ألهم» أولاء الأموات منهم الذين تعبدونهم «أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ» وحتى الذين لهم أرجل وأيد طائلة وأعين مبصرة وآذان سامعة، لا يستطيعون نصركم بل ولا أنفسهم ينصرون.

ذلك، فاحتمال أن النفس الواحدة هنا أبو البشر، فضلا عن ظهور الآية أو صراحتها فيه كما الخصم يدعيه لا يأتي بشيء ينال من كرامة آدم عليه‌السلام إلّا باحتمالات أخرى لو ثبت:

الأول: رجوع ضمير الغائب في «ليسكن» و«تغشاها» إلى خصوص النفس الواحدة هذه، وهو خلاف الأدب الفصيح والصحيح أن يرجع الضمير المذكر إلى مرجع مؤث هو «نَفْسٍ واحِدَةٍ»فالصحيح هنا لو عنيت نفس النفس الواحدة «لِيَسْكُنَ إِلَيْها»و«فَلَمّا تَغَشّاها» بضميري التأنيث كما في ضميري «مِنْها زَوْجَها» حيث هما راجعان إلى «نَفْسٍ واحِدَةٍ» وفقاً لتأنيثها، إذا فلا تعني «ليسكن وتغشى» إلّا جنس النفس الواحدة من ذكور بني الإنسان دون شخصها، وليس من المحتمل رجوع ضمير المذكر هنا إلى «زوجها»لأنوثتها الحقيقية، ولأن الزوج هو الذي يسكن إلى زوجته من الأتعاب كما «وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها» (٣٠: ٢١).

الثاني: أن تعني «شركاء» شخص إبليس حسب الرواية المختلقة، والجمع لايناسبه، فهم ـ إذا ـ الشركاء المعبودون لجنس بني الإنسان.

الثالث: رجوع ضمير الجمع في «يشركون» وما أشبه من بضع وعشرين إلى خصوص آدم وزوجه والفصيح الصحيح رجوعه إلى الجمع دون المثنى، إضافة إلى استقبال تلكم الجموع، والمثنى ماض فقد رجع الضمير المفرد الغائب في «ليسكن وتغشاها» إلى نوع مرجعه وهو كل ذكر من ذلك النوع لا شخصه، استخداما لطيفا في ذلك الإرجاع.

و هكذا ترجع ضمائر الجمع أيضا من «يشركون» وما أشبه إلى جمع الأزواج من نوع الإنسان، أي يشركون هؤلآء الأزواج، استخداما لطيفا حيث هو من المجازات الحسنة اللطيفة.

ثم من قال لكم ـ بعد ـ إن «نَفْسٍ واحِدَةٍ» هنا هي شخص آدم إلّا على وجه أن «من»في «مِنْها زَوْجَها» نشوية لا جنسية، والجنسية هي المعنية هنا للذكورة في «ليسكن وتغشاها» والجمعية في بضع وعشرين، فلا تدل الآية على ما تستدل به الجمعية المرسلون الأمريكيون إلّا على احتمال اختصاص «نَفْسٍ واحِدَةٍ» بآدم، ورجوع ضمير الذكورة إلى مؤث «نَفْسٍ واحِدَةٍ»ورجوع ضمائر الجمع هنا إلى مثناهما رغم استقبال افعالها، ثالوث من الاحتمالات التي لا تحتملها هذه الآيات، اللّهم إلا أولاها دون الأخريين.

ذلك، فالقصة كما ترى تتحدث عن سيرة عامة لأفراد هذا النوع إلّا من رحمه اللّه وهداه، أنهم مهتمون بنقض مواثيقهم وخلف مواعيدهم مع اللّه نقضا لنداء الفطرة والعقلية السليمة: «فَتَعالَى اللّهُ عَمّا يُشْرِكُونَ».

و الذي غفل عنه كلا الناقدين، والموجهين لآلية بوجوه غير وجيهة ولا مرضية، هو تحسّب أن هذه الآيات عرض عن الحالة الوالدية لأبوينا الأولين، وهي بعيدة عنها كل البعد.

ذلك لأن «خلقكم» تعم كل بني الإنسان، و«نَفْسٍ واحِدَةٍ» هنا هي الوالد لكل مولود منهم «وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها» قد تعني والحال انه تعالى جعل من جنسها زوجها فخلقكم منهما اعتبارا بأصالة زائدة بين الأصلين للزوج الوالد على الزوجة الوالدة، جعل ليسكن إليها: «وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً» (٣٠: ٢١) فالأصل في التقاء الزوجين هو السكن ليظل السكون و الأمن جو المحضن الذي تنمو فيه الفراخ الزغب: فليس لمجرد اللذة، إلا ذريعة تجذبهما إلى هذه العشرة العشيرة على أتعابها وأسغابها، فاللذة العابرة والنزوة العارضة هما اللتان تتغلبان على كل الحوادث والكوارث في ذلك الالتقاء.

«فَلَمّا تَغَشّاها» جماعا «حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً» هو النطفة الجرثومية «فمرت به»وذلك هو الحمل الأول فهي تبين حال الأبوين من النوع الإنساني في انجابهما أولادهما باعتبار العام النوعي دون اختصاص بالأولين، ولا جمع خاص من الأبوين، ولا شمولهما للأولين، حيث تعني أن كل إنسان وليد أبويه: «يا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى»(١٣: ٤٩).

و الغالب على حال الأبوين ـ وهما محبان مشفقان شغفان على ولدهما ـ أن ينقطعا في أمرهم إلى اللّه قبل ولادهم، دون التفات إلى تفصيل ذلك الانقطاع، وكما ينقطع راكب البحر ـ إذا التطمت أمواجه وأخذت تلعب به ـ إلى اللّه، فالإنسان في هذه الحالة المضطربة ينقطع في لب ذاته إلى ربه وإن لم يكن موحدا ولا معترفا بأصل الألوهة، ولكنه ينسى ربه أو يتناساه بعد ما نجى: «فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمّا نَجّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ» (٢٩: ٦٥).

كذلك للأبوين ـ نوعيا ـ انقطاع إلى ربهما في أمر الأولاد، يريدان صلاح الولادة ويشترطان بطبيعة الحال أن يكونا له شاكرين، فلما أجيبت دعوتهما إذا هما يشركان باللّه وينثلان ما عاهدا عليه اللّه، وهذه حالة النوع الإنساني إلّا من عصمه اللّه كآدم و سائر المعصومين والصالحين الموحدين على طول الخط.

إذا ففرية الشرك على أبوينا الأولين مبنية على فرية أخرى هي الخلط وعدم التناسب بين هذه الضمائر ومراجعها، وهل ترى عاقلا منصفا يزيف المعني من مقالة صادقة لا لشيء إلا الخبط والخلط في لفظية التفسير، كاعتبار المؤث مذكرا في حالة ومؤثا في أخرى، واعتبار التثنية جمعا أو الجمع تثنية

والشريك الواحد شركاء و الشركاء واحدا! وهكذا «إِنَّ وَلِيِّيَ اللّٰهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصّالِحِينَ» نزل الكتاب هدى للصالحين وهو بنفسه دون شركاء يتولى الصالحين «وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ»أيا كانوا «لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ».

وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَسْمَعُوا» هؤلآء المشركون، كمثل شركائهم «وَ تَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَ هُمْ لا يُبْصِرُونَ» كرسول تدعو إلى الهدى، إنما يبصرون شركاءهم فهم عليها عاكفون.

فهذه الآيات ـ بالرغم من روايات شيطانية* وتخيّلات واهية ـ لا تدل ـ ولا لمحة ـ على ما يمس من الكرامة التوحيدية لأبوينا الأولين.

ف «نَفْسٍ واحِدَةٍ» كما تحتمل آدم عليه‌السلام حيث خلق منه الجميع برمتهم، كذلك تحتمل كل والد من هذا النوع حيث خلق منهم المجموع، كل من كلّ على الأبدال، وتحتملهما ـ أيضا ـ معا، أن خلق المجموع من نفس واحدة كما خلق الجميع من نفس واحدة، مهما اختلف خلق عن خلق، في تسلسل الانتشاء كما من آدم، أم فرديته كما من كل ذكر لهذا النوع.

ثم «جَعَلَ مِنْها زَوْجَها» كما تحتمل أمّنا الأولى أن جعلت من أبينا خلقا منه، ثم جعلت له زوجا، كذلك تحتمل كافة الأمهات حيث جعلت في الخلق كالآباء في المجانسة الإنسانية المؤتية للزواج، وجعلت في التشريع محلّلة لذلك التزاوج.

ف «من» في الأول نشوية حيث انتشأت الأم الأولى من الأب الأول، والجعل يعم التكوين والتشريع، وهي في الثانية جنسية والجعل نفس الجعل حيث يعمهما.

ثم «لِيَسْكُنَ إِلَيْها» الحاملة ضمير المذكر ـ كما في ـ تغشاها ـ لا تعني تغشية خاصة بأبوينا الأولين، حيث المرجع وهو «نَفْسٍ واحِدَةٍ» تستحق أنوثة الراجع إليه قضية الأدب الصحيح أو الفصيح، ولكيلا يشتبه أمر العناية من ذلك التغشي بما بعده من «جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ».

و من ثم «فَلَمّا تَغَشّاها حَمَلَتْ» تحمل الحمل الأوّل لأقل تقدير، فلا تحمل على الحمل غير الأول كما حملتها روايات شيطانية تشيطن أبوينا في حقل الحمل! ثم «يشركون»و ما بعدها من الجموع المستقبلة لمن يشركون، تدل بجمعيتها واستقبالها أنها ليست لتعني أبوينا الأولين، لأنهما اثنان ماضيان دون جمع مستقبل.

كما و«شركاء» وما بعدها من الجموع لا تناسب شخص الشيطان المضلل إياهما في هذه الرواية الشيطانية.

فسواء أ كانت «نفس واحدة وزوجها» هما خصوص أبوينا الأولين، أم وبأحرى كل الآباء والأمهات، أم المجموع من الأولين وسائر الآباء والأمهات، ف «ليسكن ـ تغشاها»وما تتلوها من عرض لما استعرض، لا تناسب إلّا نسل الإنسان ككلّ وبطبيعة الحال، إلا من رحم اللّٰه.

فذلك ـ إذا ـ عرض للحالة التي عليها الأكثرية الساحقة من هذا النوع*، وكما «إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ» وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا

«إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى» «إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً» فانها وما أشبه تقرر الأصل الأكثري بطبيعة الحال لقبيل الإنسان «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ» «و إلا».

فلا تعني الآية أبوينا الأولين بلا كرامة حتى في إشراك طاعة* فضلا عن إشراك عبادة.

فليست هذه الآيات الكريمة لتمس من كرامة أبوينا الأوّلين إلّا بتأويلات عليلة مختلقة لا تناسب أدب اللفظ ولا حدب المعنى لهذه الآيات.
و ليس إقحام أمثال هذه المختلقات الزور التي دسها الغَرور في رواياتنا إلا من شيطنات الشياطين، عمدا وعلما وعنادا من الذين يعلمون، وجهالة وحماقة من بسطاء المسلمين مؤفين وسواهم.
فحذار حذار من تنقل هذه الروايات الشيطانية، التي تبزر آيات من القرآن كأنها آيات شيطانية، اللّهم إلا تزييفا لها حين تنقل*.

ابتى آدم

ندرس في ذلك العرض العريض للشرعة القرآنية أحكاما تشريعية سياسية قيادية تتبنّى الحياة الإنسانية السليمة المطمئنة، تتعلق بحماية الأنفس والأموال والعقول والعقائد والأعراض، وهي النواميس الخمسة التي تتمحورها كلّ شرعة من الدين.
و لأن النواميس الحيوية تتمحور ناموس النفس والحياة ـ مهما تقدمها ناموس العقيدة بينها أنفسها ـ نراه رأس الزاوية في ذلك المخمس، عرضا لأولى مرحلة عجيبة من جريمة القتل الظالمة النكراء، مخلّفة عن الحسد القاحل القاتل إذ يحمل أحد ابني آدم صفي اللّه أن يرتكبها بحق أخيه التقي البريء، ثم يرتبك نادما أسفا، وهنا تتقدم مهمة ناموس الحياة وصيانتها في قصة ابني آدم كاشفة عن طبيعة الجريمة وبواعثها في النفس البشرية الحاسدة الكاسدة، كما تكشف عن بشاعة هذه الجريمة في نفسها، وفجورها، وضرورة الوقوف في وجهها، وفرض العقاب الصارم على فاعليها، ومقاومة البواعث والدوافع الكوارث التي تبعث النفس للإقدام عليها، و ليعتبر سائر بني آدم مما حصل لابني آدم، ويأخذوه متراسا عن كل بأس ونبراسا ينير الدرب لمن يدق باب الصلاح والإصلاح.
و قد ينبهنا عظم قتل النفس البريئة أحاديث جمة مثلما يرويه الإمام الصادق عليه‌السلام عن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله أنه وقف بمنى حتى قضى مناسكها في حجة الوداع ـ إلى أن قال ـ فقال: أي يوم أعظم حرمة؟ فقالوا: هذا اليوم، فقال: أي شهر أعظم حرمة؟ فقالوا: هذا الشهر، قال: فأي بلد أعظم حرمة؟ قالوا: هذا البلد، قال: فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه فيسألكم عن أعمالكم، ألا هل بلّغت؟ قالوا: بلى، قال: اللّهم إشهد ألا من كانت عنده أمانة فليؤها إلى من ائتمنه عليها فإنه لا يحل دم امرئ مسلم ولا ماله إلّا بطيبته نفسه ولا تظلموا أنفسكم ولا ترجعوا بعدي كفارا»*.
وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧).
النبأ هو خبر ذو فائدة عظيمة، وهذه التلاوة المباركة تحمل عظيم الفائدة وجسيم العائدة لبني آدم ككل، درسا عن ابني آدم الأولين لآخرين منهم إلى يوم الدين.
فليسا هما ابني رجل إسرائيلي سمي بآدم، زعم الاستيحاء من «مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ ...» فإنه علم لأبي البشر الأوّل، لا يعني في سائر القرآن ال (٢٥) مرة إلّا إيّاه لا سواه، ولئن سمّي غيره باسمه فيؤى في يتيمة قرآنية كما يزعم هاهنا، فواجب الفصاحة والبلاغة القرآنية القمة قرن قرينة

صارحة صارخة تحوّله عن مسماه الأصيل إلى بديل.
ثم وقصة الغراب غريبة عن الجيل الإسرائيلي المتحضّر- الغارق في دماء الأبرياء طول خطوطها وخيوطها، ألّا تعرف كيف يوارى سوأة القتيل، حتى يبعث اللّه غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه!.
و إنها لا تناسج إلّا نسج البيئة البدائية الأولى لبني آدم الأوّل الأوّلين - إذ لم يروا قتيلا حتى يعرفوا مواراته.
ثم و«مِنْ أَجْلِ ذلِكَ ..» لا تحمل حكم القتل في أصله حتى تحرم عنه قبل التورات سائر الشرائع السابقة عليها، بل هي قول فصل في أولى شرعة تفصيلية مترامية الأطراف، تبين المسؤلية الكبرى أمام الأنفس، ومدى الأهمية الجماعية في قتل نفس أو إحياءها، ضابطة صارمة في الشرعة التوراتية المحلّقة على ما شرع قبلها، كاملة كافلة لصيانة النفوس المحترمة المحرّمة عن سخاء الضياع بأيدي قتلتها الضياع .. ذلك مهما ذكر حكم القتل فيما بعدها كأصل «وَ كَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ...»ولكنها ليست كتابة منحصرة تحسرها عما قبل التورات من كتاب.
ثم و«بالحق» هنا لها دور المطاردة للمختلقات الزور المختلّفات عن الحق الواقع، من مختلقات الروايات والإسرائيليات التوراتية وسواها كما وفي نص التورات إفراط وتفريط في عرض القصة، بعيدين عن وجه الحق وواجهته*.
ف «اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ» خالصا دون شوب الباطل -: «إِذْ قَرَّبا قُرْباناً»وهذه هي طبيعة الحال في تقريب قربان للّه تحقيق قضية الحال أو تبيّنها أو تفوّق الحال - طبعا - في صراع مبارات بين ابني آدم، إن في زواج بين اثنتين مختلفتي الجمال*، أم في مبارات استباق لأخذ وصية الوراثة والخلافة من آدم بجدارة روحية* أماهيه من نظرات الحال الخفية في تلك المجال؟ لا يشير النص إلى أيّ من هذه أو تلك، حيث الهامة المقصودة في ذلك العرض لا تعني شيئا من هذه أو تلك، بل هي بيان الحال عن طبيعة الإنسان وسجيته لو خلي وطبعه، ومدى هتك الحسد وقتله إلى حتفه، وصدى القتلة المجرمة الحاسدة، والمسئولية الكبرى الجماعية، ومحتد التقوى بين النفوس المحترمة، وخطر الطغوى بين الناس النسناس، التي تتهدم بها حيوية الناس من الأساس، في كافة النواميس الإنسانية الخمسة.
و تراهما «قَرَّبا قُرْباناً» واحدا كما يخيّل من ظاهر الإفراد في النص؟ أن اشتركا في تقريبه وهما في النية مختلفان؟ ولا يعرف تقبل ظاهر يصدقانه معا لأحدهما وعدمه لآخر! إنه لأقل تقدير اثنان، والقربان مصدر لا يثنى أو يجمع، فالقربان هنا - إذا - اثنان مهما اختلفا شكليا وفي مادته غنما وزرعا أم اتحدا، ثم وفي لفظ الإفراد إيحاءٌ إلى وحدة الاتجاه - رغم اختلاف النية - في القربان.
و بطبيعة الحال كان التقبل لأحدهما دون الآخر محسوسا لهما لا ينكر، إذ لم يكن الآخر ليصدق ردّه وتقبّل الأوّل بمجرد الإيحاء الخبر، ولم يك يوحى إلى الآخر إذ لم يك تقيا، أم ولا إلى الأوّل إذ لم يثبت وحيه النبوءة، وعلى ثبوته لم يكن الآخر ليصدق وحيه ولا نبأه، فليكن خارقة محسوسة في المتقبّل علامة النجاح.
إذا فكأنه كان «قربانا تأكله النار» علامة النجاح، والآخر لم تأكله النار علامة السقوط، ك«الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنا أَلّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتّى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النّارُ قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّناتِ وَ

بِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ»(٣: ١٨٣)! ولأن «قربانا تأكله النار» كان علامة للرسالة، فكان الخلاف بين ابني آدم حول وراثة النبوة عن آدم، أم وقصة الزواج، ونسكت عما سكت الله عنه.
ترى وما هي ردة الفعل من المردود قربانه؟ أ يحاول في إصلاح نفسه فتقبّل قربانه كما تقبل من الآخر، أم يكظم غيظه دون إصلاح ولا إفساد؟
كلّا! بل هي قولة بغيضة ثم فعلة شذيذة حضيضة: «قالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ..»
حسما لمادة التفاضل وحياة التعاضل، وهذه ثالثة ثلاثة مما يحتمل في مسرح السقوط، وما أجهلها وأرذلها! ثم وما أعضلها حالا واستقبالا؟.
هنا «فتقبّل» بصيغة المجهول توحي بغيب القبول من علام الغيوب، وأنه هو المتقبّل دون حمل أو فرض من أحدهما وتركه من الآخر، فلا جريرة ـ إذا ـ له توجب الحفيظة عليه وتهديده بالقتل، إذ لم تكن له يد فيه إلّا يد التقوى، التي هي رصيد القبول من أيّ كان، دون يد الطغوى التي هي رصيد الأفول والذبول.
فخاطر القتل هو أبعد ما يرد على النفس وأردءه في هذا المجال:
«تقريب القربان».
و على أية حال «قالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ..» حتما لا مردّ له، أو وحتى إذا عكس الأمر؟ كأمنه نعم، أم إلّا إذا عكس الأمر، وليس الله ليعكس أمر التقوى والطغوى فوضى جزاف، إذاً «لأقتلنك»! حتما لا مردّ له.
ترى وما هو جواب الآخر، هل هو رد بالمثل «و أنا لأقتلنك» أو «لأقاتلنك»؟ كلّا! حيث الناوي للقتل لا يستحق القتل ولا القتال، ولا غير المتقبّل قربانه إذ لم يرتدّ به بعد عن الدين.
بل هو كلمة إصلاحية صالحة، تبيينا للموقف المعادي لكي يهتدي إلى هداه، أم يكف عن أذاه: «قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» توجيها رقيقا رفيقا للمتهدّد بالقتل أن يتقي الله كما هو اتّقاه، وهداية إلى الطريق المؤية إلى القبول.
فما ذنبي إذ تقبّل مني تقوى ولم يتقبل منك طغوى، فهل ترجوا تقبلا منّا معا على سواء؟ أم ردا علينا على سواء؟ وهما تسوية ظالمة والله منها براء! أم ترجوا تقبلا منك رغم طغواك، وردا عليّ رغم تقواي، وهذا تقديم للمفضول على الفاضل وما أظلمه!.
قل لي صراحا ماذا تريد مني لأعطيك إياه إن قدرت ورضى الله بديلا عن قتلي؟.
نرى الطاغية لا يحير جوابا لأنه منغمر في طغواه، فائر مرجل غيظه إذ سقطت مناه، فهو مصمّم على مغزاه وأن يرمي مرماه، والمتقي يشرح متواصلا واجهته الصالحة أمام التهديدة الكالحة الطالحة.
ف «إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» ضابطة صارمة لا تستثنى طول خط الحياة بكل خيوطها، فتقريب القربان أم أية عبادة أم أي تقريب كان لن يجد مجالا لتقبله إلّا بالتقوى الصالحة له وقدرها «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلّا ما سَعى» فلا مجازفة في تقبّل الأعمال ـ كما فيها ـ عند الله، وكل شيء عنده بمقدار.
ضابطة ثابتة تجعل الأعمال الناتجة عن غير تقوى حابطة مهما أبرقت وأرعدت في ظواهر الحال، وهنالك تتخربط الحسابات الخابطة عند النسناس، الذين «ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» (١٨: ١٠٤)*.
و إنه «لا يقل عمل مع تقوى وكيف يقل ما يتقبل»*
ف «إن الله لا يقبل عمل عبد حتى يرضى عنه»*.

و هل إن تقبل عمل يقدّم للّه منوط بالتقوى المطلقة في كل الأعمال، فلا يتقبل عمل صالح بشروطه من غير العدول في كل الأعمال؟ وهذا خلاف الضرورة كتابا وسنة!.
أم التقوى مشروطة في نفس العمل المتقبّل إيمانا ونية وفي نفس العمل، مهما كان العامل لا يتقي في سواه، بل ولا في مقدمات نفس العمل، وهذا هو القدر المتيقن من الآية، فإن متعلّق التقبّل هو القربان المقرّب للّه، دون سائر الأعمال أو مقدمات هذا القربان، فلتكن التقوى التي هي شريطة تقبل العمل، هي التي في نفس العمل بنيته والإيمان الدافع له، مهما كان التقبل أوفر ممن يتقي في سواه من عمل أو مقدمات لما قربه.
فالآتي بعمل صالح دون نية صالحة، أم عمل غير صالح بنية صالحة، لا يتقبل منه ذلك العمل، لأنه غير متق فيه، حيث التقوى تحلّق على ظاهر العمل وباطنه، ونفس «يتقبل»اللّامح إلى تكلّف القبول، مما يدل على أن العمل لا يقبل إلّا بشروط صالحة دونما فوضى جزاف.
و هنا الأخ المهدّد بالقتل لا يجابه أخاه بخشونة، بل بكل ليونة، فلا يقول إنك غير متق فلم يتقبّل منك، أو إنني متّق فتقبّل مني، بل كضابطة سارية المفعول كيفما كان انطباقها: قال إنما يتقبل اللّه من المتقين والتقبل وعدمه هما من فعل اللّه، وليس منّا إلّا ظرف التقبل وعدمه، فهل أنا مجرم إذ حصلت على ظرف التقبل، فأستحق أن أقتل؟!.
أ ترى من تقواه ألّا يبسط يد الدفاع عن نفسه إلى من يبسط إليه يد القتل؟ والدفاع عن النفس وعمّا دونها حق طبيعي لكل ذي نفس، كأصل من أصول الشرعة الأحكامية!.
النص هنا «ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ» لا «لا أدافع عن نفسي» فهنالك يدان تبسطان إلى من يريد القتل، يد القتل وهي أثيمة كيد القاتل المتطاول، وهذا التقي ينفيها، ثم يد الدفاع حسب الضرورة والمستطاع ولا ينفيها، فعلّه اغتاله* فيد الدفاع ـ إذا ـ غير مبسوطة قضية المفاجأة، أم قاتله، فيد الدفاع مبسوطة ولكنه اغتيل ولم ينفعه الدفاع.
ثم «ما أَنَا بِباسِطٍ» دون «لا أبسط» تنفي محاولة القتل من التقي على أية حال، لمكان الدوام المستفاد من صيغة الفاعل، ف «ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ» هذا ـ ثم يبين ظاهرة تقواه مع من يريد قتله بطغواه:
لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخافُ اللّٰهَ رَبَّ الْعالَمِينَ (٢٨).
اللّهم إلّا باستحقاق القتل، وأما أنه صمم على قتلي امّن سواي، أم بسط يده للقتل إلي أم إلى من سواي، لأنني سقطت في محنة إلهية كما سقطت، أمّاذا من دوافع غير عادلة ف «ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ» فإنها ـ إذا ـ يد قاتلة متطاولة دون أي سبب، إلّا أن مقاتله صمم على قتله، أم بسطت إليه يده ليقتله، وشيء منهما لا يبرّر بسط اليد القاتلة، اللّهم إلّا بسطا للدفاع إذا هو بسطها للقتل أمّا دونه، فلم يكن من المقتول ـ إذا ـ إفراط الظلم بيد قاتلة، ولا تفريط الانظلام بيد غير دافعة، والنص إنما ينفي اليد المفرطة، دونما تصريحة ولا إشارة إلى يد مفرّطة.
و لماذا «ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ»؟ ل«إِنِّي أَخافُ اللّٰهَ رَبَّ الْعالَمِينَ» وبسط اليد إلى نفس غير مستحقة للقتل بقصد القتل محرم في شرعة اللّه، لا ابتداء، ولا دفاعا، فإن قتل المهاجم بضربة الدفاع قدر الضرورة لم يكن قتل عمد وفيه دية الخطأ، وأما قتله عن تقصّد لأنه مهاجم فهو قتل عمد يتطلّب القود.

فلا مبرر لقتل المهاجم عمدا، فضلا عمن ينويه، اللّهم إلّا مهدور الدم بسبب آخر فمسموح قتله حسب الضوابط المقررة، وإن لم يهاجم، والنفس المحترمة لا تقتل بسبب تقصّد القتل أو هجمته، اللّهم إلّا فلتة الدفاع القاتل من غير تقصّد فقتل خطأ.

و في الدفاع نفسه ـ أيضا ـ لا تقابل إلّا بالمثل حسب الضابطة المقررة «فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ» (٢: ١٩٤) فالضارب بما لا يقتل حسب العادة لا يضرب إلّا بمثله، دون زيادة فضلا عما يقتل، فإن قتل بضربة زائدة فمسؤل عن الزيادة، أم بضربة قاتلة فقتل شبه عمد مهما لم يقصده!.

و لقد ارتسم هنا نموذج بارع من الوداعة والسلام والتقوى في هذه المواجهة الخطيرة، في أشد المواقف، استجاشة للضمير الإنساني، وحماسا للمعتدى عليه ضد المعتدي ... وعل توصيف اللّه برب العالمين تلميحة أن ما هباه الرب لا يسمح لغيره أن يسترجعه.

و قد كان في هذا القول اللين ما يفتأ الحقد المكين، ويهدّئ الحسد الدفين، ويسكن الشر ماسحا على الأعصاب المهتاجة المحتاجة إلى التليين، حيث يرد صاحبها إلى حنان الأخوة واللين، وبشاشة الإيمان الأمين، وذلك في الشطر الأول من إجابته، وفي الشطر الثاني إخافة وإنذار من سوء العاقبة وآجل الجزاء للظالمين:

إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَ إِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحابِ النّارِ وَ ذلِكَ جَزاءُ الظّالِمِينَ(٢٩).

ذلك التبشير وهذا الإنذار كانا كافيين لأخيه أن يصداه عن بغيه فلا يمد في غيّه ولكن لا حياة لمن تنادي! أ تراه بعد يريد لأخيه أن يقتله فيبوء بإثمه إلى إثمه فيكون ـ إذا ـ من أصحاب النار؟

و ذلك بعيد كل البعد عن ساحة العلم والتقى اللذين عرفناهما من هذا التقي!.

«إني أريد» ليس مطلقا وعلى أية حال، إنما هو على فرض القتل حين يهاجم وتكلّ يد الدفاع، فالقاتل ـ إذا ـ مسئول عن تعمّده هنا وفي الأخرى، وقد أراد اللّه للقاتل ظلما أن يكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين، وأراد أيضا أن يبوء بإثمه نفسه قتلا و سواه، وبإثم المقتول فيما دون القتل من إثم إن كان، فيما دون حق الناس، فيصبح المقتول ظلما ـ وهو تقي ـ خالصا عن ذنوبه، يتحملها القاتل إلى ذنوبه*.

فقد أراد ما أراده اللّه لا سواه، إن حصل قتل لا على أية حال «وَ ذلِكَ جَزاءُ الظّالِمِينَ»كضابطة تستثني عن أخرى هي «لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى» فالنفس القاتلة ظلما تزر وزر المقتولة ظلما، استثناء من الضابطة العامة، وقد تزر الوازرة الأولى مثل ما تزره كل وازرة أخرى ف «لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل»*.

أو يقال إن القاتل صدّ على المقتول باب المغفرة لسيئاته والمزيد لحسناته فليجبر بحمله من إثم المقتول جزاء وفاقا فليست قاعدة الوزارة هنا مستثناة.

أ ترى ذلك التقي النقي في حساب اللّه كان آثما حتى يبوء أخوه إثمه إلى إثمه؟ وهب ان اللّه هكذا يريد إن وقعت واقعة، فما للأخ المؤمن أن يريد لأخيه هكذا حمل، وإنما يحق له أن يترجى نجاته من كل إثم، آسفا على أن يهوي إلى هوّاته!.

علّه اعتبر نفسه آثما تواضعا لربه، فلا يحسب طاعاته لائقة بجنابه، ولكنه إذا ليس إثما يزره قاتله إلى إثمه، بل هو طاعة فان حسنات الأبرار سيئات المقربين!، أم يعني من «إثمي»قتله كشخصه مهما أريد

منه كل آثام القتيل ظلما كآخرين، و«إثمك»هو الذي جعله لا يتقبل قربانه، ف «إثمي»هنا من إضافة المصدر إلى مفعوله: الإثم الواقع عليّ من قتلك إياي، كما هو في الوجه العام من إضافة المصدر إلى فاعله، فهو ـ إذا ـ مجمع الإضافتين حيث يجمع الإثمين.

ثم «إني أريد» ليس إلّا على فرض وقوع القتل من أخيه عمدا، حين لا يؤر فيه عظته، «أريد»بعدم بسط يدي إليك لأقتلك، إضافة إلى «إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ» ـ «أن تبوء» كما قرر اللّٰه وقدر «بإثمي»: قتلي «و إثمك» الذي لم يتقبل به قربانك «فَتَكُونَ مِنْ أَصْحابِ النّارِ وَ ذلِكَ جَزاءُ الظّالِمِينَ» ومن شروط الإيمان عقيدة الجزاء العدل وإرادته للعالمين عدلا أو ظلما، كما أراد اللّٰه.

و قد تعتبر هذه العظات دفاعية إيجابية حفاظا على نفسه وسلبية حفاظا على أخيه كيلا يقترف إثمه، ثم دافع عن نفسه بيده بعد دفاعه ببرهانه! وهكذا يواجه المهدّد بالقتل وسواه، أن يوجّه إلى الحق تبعيدا عن باطله، ثم إذا لزم الأمر دفاعا باليد وكما فعله هابيل.

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِينَ (٣٠).

ذلك القتل العضال، على مرونة القتيل في ذلك المجال العجال، كان صعبا على النفس الإنسانية بعد هذه العظة البالغة التي طامنت عن حدّته في هدّته، فكان بحاجة إلى تطويع، ويا لها من نفس نحسة تطوّع لصاحبها قتل أخيه التقي دونما ذنب إلّا تقاه، و هو لا ينوي قتله رغم طغاة.

و التطويع تدريج لواقع ذلك الأمر المريج، يتطلب ردحا من الزمن لكي يصمم التصميم الأخير، حيث الموانع عن هذه الجريمة النكراء ـ في ظاهر الحال ـ كانت أكثر من الدوافع لها.

إذا فتحقيقها بحاجة إلى زمن تتدرج فيه النفس الأمارة بالسوء لإيقاع الواقعة النكراء، فسولت له نفسه وقربت عليه البعيد وسهلت له الصعب حتى أتاه طوعا دون تصعّب، بعد ما كان قتله صعبا عليه كأصله وبما سمع من أخيه.

و أخيرا «فقتله» وأغلب الظن أنه كان غيلة وحيلة، دون تفريط في الدفاع خلافا لما تسربت في كتبنا من إسرائيليات، مهما لم يحصل دفاع لمكان الغيلة أم حصل، فإنما النص ينفي بسط يده إليه ليقتله، لا ترك بسطها حتى للدفاع، فإنه حق ثابت لا مرد له على أية حال.

«فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِينَ» خسر نفسه حيث أوردها ورد الهلاك فأرداها، وخسر أخاه التقي الرقيق الرفيق فبقي بلا شقيق، وخسر دنياه إذ لا تهنأ للقاتل حياة، وخسر عقباه إذ باء بإثمه إلى إثمه، كما وخسر جوه الذي يعيشه، فسوأة الجريمة في صورتها الحسية، حيث باتت الجثة لحما يسري فيه العفن، ويظهر لأبيه فيعرف الجريمة من فورها، تلك السوءة مما لا تطيقها النفوس، فبرز حينذاك عجزه عن مواراة السوءة.

فَبَعَثَ اللَّهُ غُراباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قالَ يا وَيْلَتى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ فَأُوارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النّادِمِينَ (٣١) كيف أنا القوي القادر على قتل أخي هكذا غوي إذ عجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي التي ارتكبتها، فارتبكت فيها؟.

غراب يبعث ليبحث في الأرض، نقبا فيها فثقبا لموارات شيء كأخيه الغراب؟ أم لمجرد أن يريه كيف يواري سوأة أخيه؟ ظاهر «كيف» تمام الكيفية، فليوار الغراب غرابا أماذا، حتى تتم رؤة الكيفية فيواري سوأة أخيه «فَأَصْبَحَ مِنَ النّادِمِينَ»، أمن النادمين عما عجز عنه؟ والندامة تقتضي القدرة في مجالتها، فلا معنى للندم على غير المستطاع!.

أم هو ندم التوبة عما اقترف من جريمة إذ تبين عجزه عما يقدر عليه لغراب وقد قتل أخاه غلبا عليه لكيلا يراه وهو الناجح ولكنه الساقط؟.

و صيغتها الصالحة «من التائبين»! ثم ولا صلة بين عجزه عن مواراته وندامة التوبة عن قتل الموارى! والندامة ـ أيضا ـ بمجردها ليست توبة، والتوبة غير مقبولة إلّا بشروطها وهي هنا مفقودة لسابق النص «فَتَكُونَ مِنْ أَصْحابِ النّارِ» و«إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّٰهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ...» (۴: ۱۷) وقد عمل السوء بغير جهالة، بل بكل عناد ومعرفة بكيان المقتول، فقد قتله لإيمانه وتقواه «وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وَ غَضِبَ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً»(۴: ۹۳) فلم يك إذا ممن يتوب الله عليه إن كان ندمه توبة، وقد خرج عن الإيمان بقتله المؤن متعمدا*.

علّه «فَأَصْبَحَ مِنَ النّادِمِينَ» عن فعلته زعم القدرة الغالبة وهو يراه أضعف من غراب وأجهل، فلم يحصل ـ إذا ـ بقتل أخيه على مكانة وقوة غالبة خلاف زعمه، وذلك الندم غير المصحوب بتوبة، أم بتوبة غير مقبولة، إنه عذاب فوق عذاب الأخرى، وما أمر الظالمين إلّا في تباب، وهنا يبرز له أن قتل أخيه كان عن جهل منه متعمّد فليندم على ما فعل، وهكذا يرتبط ندمه بجهله وعجزه تعليما من غراب.

و هنا يلتقط السياق الآثار العميقة التي تتركها في النفس رواية ذلك النباء بهذا التسلسل، ليجعل منها ركيزة شعورية للشرعة التي فرضت لتلافي الجريمة في نفس المجرم أو القصاص العدل إن هو أقدم عليها بعد علم بالآم القصاص التي تنتظره*.

مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النّاسَ جَمِيعاً وَ مَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النّاسَ جَمِيعاً وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (۳۲).

و هنا «مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ ...» وكذلك «أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ» تتقيدان بآية البقرة: «الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَ الْأُنْثى بِالْأُنْثى» فلا يقتل الحر بالعبد ولا الذكر بالأنثى، ومهما كانت آية البقرة مدنية أولى وهاتان مدنيتان في المائدة وهي آخر ما نزلت، فلأنهما تحكيان حكما سابقا توراتيا فآية البقرة تنسخهما تقييدا.

ثم «فَكَأَنَّما قَتَلَ النّاسَ جَمِيعاً» ليس تشبيها في الواقعية مهما كانت بعض النفوس قتلها كقتل الناس جميعا، إذ لو عني الفرض: لو لم تكن نفس إلّا هذه لكان قتلها قتل الناس جميعا، فإنه يجري في النفس المستحقة للقتل أيضا، ولا في الحد إذ لا يمكن في القصاص، ولا يصح في الدية ولا في العقوبة إذ إن «جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها» بل المشابهة فقط في الشرف، فكما أن قتل مؤن لإيمانه قتل للإيمان ككل، كذلك قتل إنسان لأنه إنسان قتل للإنسانية شرفيا كما أن تكذيب رسول لأنه رسول تكذيب للرسالات كلها، وتصديق رسول لأنه رسول تصديق للرسل كلهم، كذلك القتل والإحياء، فلا يشمل القتل إلّا عمده القاصد دون الخطأ.

و «أجل» في الأصل هو الجناية التي يخاف منها آجلا ثم استعملت في التعليل، وهي هنا تعنيهما، أن هذه الجناية العاجلة، المخيفة عاجلا وآجلا، سببت هذه الكتابة على بني إسرائيل القساة البغاة «ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ»لاينتهون عن تلك الجريمة النكراء حتى بحق النبيين!.

ف «مِنْ أَجْلِ ذلِكَ» البعيد البعيد عن ساحة الإنسانية، المتخلف عن حيويتها السليمة، المخلّف دمارا وبوارا، «و من أجل ذلك» الاعتداء الأثيم الظليم على المسالمين المظلومين، الذين لا يريدون في الأرض بغيا ولا فسادا.

و «من أجل» أن العظة ـ مهما كانت بالغة ـ والتحذير البالغ، لا يجديان نفعا في نفوس شرّيرة مطبوعة على التخلف العارم، وأن المسالمة والدعة لا تكفان عن الاعتداء حين يتعمق الشر ويتحمق في النفوس النحسة.

نوح أول الخمسة من اولى القوم من الرسل

سورة نوح ـ مكية ـ وآياته ثمان وعشرون

سورة نوح

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ* (١) قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ*(٢) أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ* (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللّٰهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَ نَهاراً (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلاّ فِراراً (٦) وَ إِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً(٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفّاراً (١٠) يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً (١١) وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً (١٢) ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلّٰهِ وَقاراً (١٣) وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً (١٤) أَ لَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللّٰهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً (١٥) وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً (١٦) وَ اللّٰهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَ يُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً (١٨) وَ اللّٰهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً(١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً (٢٠) قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلاّ خَساراً (٢١) وَ مَكَرُوا مَكْراً كُبّاراً (٢٢) وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَ لا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لا سُواعاً وَ لا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسْراً (٢٣) وَ قَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ لا تَزِدِ الظّالِمِينَ إِلاّ ضَلالاً (٢٤) مِمّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَنْصاراً(٢٥) وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيّاراً (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلاّ فاجِراً كَفّاراً (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ لا تَزِدِ الظّالِمِينَ إِلاّ تَباراً (٢٨)

اولى الرسالات الفذة الإلهية يحملها أول الخمسة من اولي العزم من الرسل، نوح عليه‌السلام، وقد ذكر بدعواته وما لاقاه بسببها من قومه ٤٣ مرة في القرآن، منها مدى دعوته: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلّا خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَ هُمْ ظالِمُونَ (٢٩: ١٤). وهو اللبث الرسالي لذكره هنا بعد الرسالة، و قومه هم بنو الجن والإنسان كافة* كما في اولي العزم كافة، ولذلك حق له ان يدعو على من على الأرض من الكافرين: «رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيّاراً» فلو لم تشملهم دعوته لم يحق له هكذا دعاء شامل، ومن لطيف الأمر في دعوته الاليفة الرحيمة طوال قرونه العشرة ان القرآن يعتبره أخاهم: «إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَ لا تَتَّقُونَ» (٢٦: ١٠٦) فانها اخوة

لهم فيما سوى الايمان: ان نشأ في البيئة التي نشأوا فيها فلم يتأثر بضلالها، وعاشرهم ودعاهم إلى الله كأخ رحيم، إلى ان تأكد بالوحي ان لا خير فيهم وفي أنسالهم، فانما هم شر خالص: «إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلّا فاجِراً كَفّاراً» فقد صبر على اذاهم المتواصل طول الدعوة علّهم يؤنون، فهل يصبر إذا انقطع الأمل وتفاقم العناد منهم في ضلالهم ضد الدعوة والمؤنين بها، إنه صبر على الظلم والضيم وعلى انتقاض شريعة الله وانتقاص دعوته، ولا يرضاه العقل والعدل!

الشريعة الأولى هل إن شريعة نوح عليه‌السلام هي الاولى فلم تكن قبله شريعة من الدين مع أي من النبيين؟ ام كان الوحي إليهم يحمل تقوية الأحكام العقلية دون أن يحمل احكاما شرعية؟ ام لم يكن قبل نوح أنبياء؟ لا سبيل إلى الأخير والأولان هما الأوليان.

فإن القرآن لا يذكر من شرائع الدين إلا خمسا محتصرة: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ(۴۲: ۱۳) إِنّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ...(۴:۱۶۲).

و اصحاب الشرائع الخمس هم اولوا العزم من الرسل: عزم لهم في استقلال شرائعهم و ثباتها إلى شريعة أخرى تنسخها تكميلا لها:

بعثوا إلى شرق الأرض وغربها وجنها وأنسها*

و عزم لهم في سبقهم الأنبياء إلى الإقرار بالله*

و ثباتهم على عهد الله المعهود إليهم: وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (۲۰: ۱۱۵) وعزم لهم في الصبر على وعثاء السفر واتعاب السفارة الإلهية: فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ (۴۶: ۳۵) فقد

عزموا على الصبر مع التكذيب لهم والذي*

فهم «الذين دارت عليهم الرحى» (۴) رحى الوحي بشرائع الدين.

فهم عظماء ثابتون في عزمهم في أنفسهم وعهودهم وشرائعهم وكتبهم، وليس منهم آدم وإدريس قطعا، فلم يحملا إذا شريعة من الدين، وانما احكاما عقلية مؤدة بوحي النبوة، فشرائع الدين بحملتها الأصول، ودعاتها الفروع: النبيين الأتباع، إنها ابتدأت بنوح بعد ما كان الناس أمة واحدة في الضلالة، ولانقطاع دعوة النبيين عنهم، عائشين في الفترة بين إدريس ونوح، كما بين آدم وإدريس:

كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيَما اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۲: ۲۱۳) وَ ما كانَ النّاسُ إِلّا أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۱۰: ۱۹).

كانت الوحدة سائدة بين الناس قبل الرسالات، فهل يا ترى انها وحدة في الهدى دون رسالة إلهية، ولم تتحقق الوحدة الدينية مع الرسالات؟ كلا، انهم كانوا ضلّالا أجمع، لعدم شرايع الدين وقتذاك، وتحللهم عن شريعة العقل المؤد بوحي السماء.

و مهما كانت الضلالة سائدة على البشرية قبل شرائع الدين، فانها ضلالة عن تقصير و قصور، قصور زال بشرائع الدين، وتقصير في التحلل عن شريعة العقل الوحيد، أو عقل الوحي التي حملتها غير اولى

العزم من غير أصحاب الشرائع، كآدم وإدريس، يوحي بذلك ما يحمله نوح في مستهل رسالته:
إِنّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ:
فإذا لم تكن قبل نوح أية شريعة قاطعة للعذر، داعية إلى الحق، فما هو العذاب الأليم الذي يهددهم به نوح عليه‌السلام: «أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عذاب اليم» فلولا الإنذار من نوح ـ ايضا ـ لكان يأتيهم عذاب اليم، ولكن اللّه يكمل حجته وإنذاره بأول شريعة من الدين، بعد ما ثبتت الحجة بشريعة من العقل، فشرائع العقل بالوحي وسواه، وشرائع الدين، هما متناصرتان في اثبات الحجة ومزيدها على الناكرين، والقرآن يشير إلى رسل قبل نوح: «وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ وَ جَعَلْناهُمْ لِلنّاسِ آيَةً»(٢٥:٣٧) ولو لم يكن رسل قبل نوح لما صدق تكذيبهم لجمع الرسل، واقله اثنان أو ثلاثة، وفي المروي عن الباقر عليه‌السلام انهم كانوا عشرة*.
فلا تخلوا ـ إذا ـ الفترات الرسالية، من حجج بالغة، الفترة قبل شرايع الدين (بين آدم و إدريس وبينه وبين نوح) وبين شرائع الدين (كما بين المسيح ومحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله) مهما كانت الحجج ابلغ وأقوى في غير الفترات الرسالية، فإنما يداقّ اللّه الناس في الحساب على قدر ما أوتوه، كما يقتضيه عدله وحكمته البالغة.
و نوح عليه‌السلام يحمل في مستهل الدعوة وفجر الرسالة، الدعوة إلى أصول ثلاثة هي خلاصة الأساس في الرسالات الإلهية كلها، مهما افترقت في التخطيط والتفريع و العمق والبساطة والشكليات المناسبة لكل جيل:
«قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ».
«إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ عن عذاب اللّه في الدارين، ان تركتم هذه الأصول نَذِيرٌ مُبِينٌ: مبين لجذور الإنذار وأسبابه، مبين عملا واقعا جزاء ترك الشريعة، ومبين كذلك من هنا نتائج تطبيقها.
«أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ: فعبادة اللّه وحدها، وكأوّل الفرائض، هي منهج كامل للحياة، تشمل التعرف إلى ألوهيته والعمل لعبوديته، وانها الصلة الوحيدة العريقة بين العبد والمعبود، وينبثق نظام الحياة عنها، وهي تشمل توحيده في سائر شئون الالوهية، وتطبيق الواجبات الشرعية تجاهه تعالى.
«وَ اتَّقُوهُ»: تقوى اللّه في عبادته فلا يعبد معه سواه، وفي طاعته فلا يطاع معه سواه، وفي حرماته فلا تهتك، انها هي الضمانة الحقيقية لاستقامة الإنسان على الثبات في عبادته، وعدم التلفت والتفلّت عنه أو الالتواء في تطبيقه.
وَ أَطِيعُونِ: وطاعة الرسول أولا وأخيرا هي الوسيلة الوحيدة للتعرف إلى عبادة اللّه وتقواه المقصودة الصالحة، إذ لا تعرف إلا بالوحي ولا سيما الذي يحمله اولوا العزم من الرسل الذين دارت عليهم الرحى.
و هكذا نجد البرامج الرسالية طوال عهودها، تحمل هذه البنود البناءة كأصول الدعوة بالإنذار والتبشير، ثم الفروع تتبناها مهما اختلفت باختلاف المصالح والبيئات، وليبلوهم اللّه تعالى فيما آتاهم:
«لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً ... لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ»(٥:٤٨).
و الشرائع هي شرائع الدين وهو واحد برغم اختلافها في شكلياتها، فالدين هو الطاعة للّه الواحد القهار، مهما اختلفت صورها وسيرها: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما

وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» (۴۲: ۱۳) أقيموا الدين الواحد في شرائعه، فالدين واحد والامة واحدة: «إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ»(۲۱: ۹۲).

فهل توجد شريعة من شرائع الدين لا تتبنى ـ كأصول ـ هذه الثلاثة؟ والشاذة عنها أو عن واحدة منها ليست شريعة إلهية أو هي محرفة.

و نتيجة هامة عامة تنجم عن اعتناق هذه الثلاثة اضافة إلى سائر نتائجها الدنيوية والاخروية أمران: «يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

غفر الذنوب ـ بعضها لا كلها ـ فان «من» يوحي بالتبعيض، وهذا البعض ليس إلا مما سلف في زمن الكفر: «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ» (۸: ۳۸).

و البعض المغفور هو الحقوق الإلهية المضيعة زمن الكفر، وذلك بشرف الإيمان، واما البشرية الضائعة فلا تغفر بالإيمان، انما بالإصلاح وإرضاء أصحابها، مناسبة الحكم والموضوع، فان الإيمان باللّه ليس ليضيع حقوق الناس.

و ليس من العدل والحكمة في التشريع غفران الذنوب الآتية بسند الإيمان السابق ولو دام، فان الإيمان لزامه الدفع للصالحات، لا أن يغفر صاحبه إذا تخلف عنها إلى الطالحات، ولزام الغفران هكذا الغاء التكاليف الإلهية بسبب حصول مبدء التكليف ودافعه: الإيمان.

اجل: يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ (۱۴: ۱۰) يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللّهِ وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ (۴۶: ۳۱)

و فيما يوحي بالغفر العام فهو بين مخصّص بهذه الآيات، وخاص بالذنوب وهي الصغائر المكفرة بالإيمان وبترك الكبائر، ومذكور فيه بواعث الغفران فيحدد بحدودها كما توحيه:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَ أُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ»(۶۱: ۱۳).

«وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى»: وهو المحتوم الثابت الذي لا يؤر، وقبله الأجل المعلق على بواعث وحوادث للموت، سواء من صاحب الأجل. مخيرا أم مسيرا، ام من غيره، ام من اللّه، وكل من اللّه دون منافاة لخيرة الخلق.

و التأخير عن الأجل المعلق ببواعثها إلى الأجل المسمى المحتوم قد يكون نعمة ليكسب صاحبه فيها مزيدا من الإيمان والعمل الصالح، كما هنا، جزاء الحسنى بالحسنى، وكما في آيات تترى: «ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى(۱۱: ۳) يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى»(۱۴:۱۰).

و قد يكون نقمة لا تكسب إلا إثما وعذابا مهينا: «وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ»(۳:۱۷۸).

كما ان من التعجيل عن الأجل المسمى نعمة كمن يقتل في سبيل اللّه، ومن يعجل في موته كيلا يفوت عنه ما حصل من صالح، ولا يكسب في المستقبل ما يخسره من طالح.

إِنَّ أَجَلَ اللّٰهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ: وهذا التعليل يحمل بشارة وإنذارا، بشارة لمن آمن فيؤر إلى الأجل المسمى ليكمل، وليس بمؤره لولا إرادة اللّٰه، فان اجل اللّٰه لا يؤر، لا محتومه إطلاقا، ولا معلقه إذا جاء، فلا مؤر له إلا اللّٰه، وليس هو بمؤره رحمة إلا لمن تاب وآمن. ويحمل إنذارا لمن بقي على الكفر، فان أجله المعلق إذا جاء لا يؤر إلى المسمى.

فهنا الأجل كلا الأجلين، وكون المعلق اجل اللّٰه اعتبارا بان الموت لا يتحقق إلا بإرادته مهما توفرت بواعثه، وان الحياة لا تبقى إلا بإرادته مهما توفرت عواملها، فله التأجيل إلى الأجل المسمى فإذا جاء لا يؤر قط، وله التعجيل عن المسمى، فإذا جاء لا يؤر إلا باذنه، إذا فلا منافاة بين عدم تأخير اجل اللّٰه، وأنه يؤره إلى المسمى.

فلا يحسبن احد ان اجله بيده، او ان له تأجيل أجله أو تعجيله، انما له تقديم دوافع الموت قبل أجله المحتوم، ثم إذا شاء اللّٰه أماته، وله تقديم دوافع التأجيل إلى المسمى كالايمان، وقد يشاء اللّٰه تأجيله ان كان لصالحه.

«قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهاراً. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلّا فِراراً».

عرض نموذجي لما بلغه نوح من رسالات اللّٰه، وما لاقاه وعاناه من قومه طوال الدعوة مع ما كان منه من صبر على ألوان الأذى طوال الف سنة إلا خمسين عاما:

«وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغى» (٥٣: ٥٢).

هذه الدعوة كانت متواصلة ليل نهار دون ملل ولا كلل ولا خلل، دون أن يمله عدم الاجابة، أو تكلّه مواصلة الأذى، يعرضها نوح في نهاية الأمد الطويل من دعوته ومستهل دعائه عليهم بعد الإياس من خيرهم والتأكد من شرهم ومن في أصلابهم.

فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلّا فِراراً: هل لأن دعوته كانت قاسية يفر منها؟ ام لأنها كانت ناقصة لا تحمل حججا تقبلها الفطر والعقول؟ ام لأنهم هم كانوا اظلم واطغى، ودعوة الحق لا تزيد دعاة الباطل العنيدين إلا ضلالا بما يصرون في عتوهم ونفورهم ونكيرهم للحق الصراح: وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظّالِمِينَ إِلّا خَساراً (١٧: ٨٢) إذ يخسرون فيها الدعوة والداعي ويبدلون الرحمة عذابا وخسارا: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللّٰهُ مَرَضاً وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ(٢:١٠)

و انما زيادته بظهوره عند ظهور الحق ووفوره عند نكيره.

إنه لا بد للدعوة الحقة من زيادة، إما في الهدى، أو في الضلال، وأما ألا تؤر لا إثباتا و لا نفيا؟ فلا! ولا بد من مواصلة الدعوة ليل نهار واثباتا للحجة تنويرا للمهجة لكي تصبح نورا للمهتدين ونارا على المعتدين جزاء وفاقا.

إنهم كانوا يفرون عن دعائه وعن اجابة الحق، ولكن نوحا لم يكن ليذرهم يفرون إلا ويلاحقهم أينما كانوا، فما استطاعوا بالفرار بعدا عن دعائه، لذلك احتالوا حيلا أخرى ليفروا عن سماع الحق في فرارهم على قرارهم، بملاحقته إياهم:

«وَ إِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً»:

إصرار تلو إصرار واستكبار، إصرار الداعية على دعوة الحق في محاولة دائبة، وتحيّن الفرص لتبليغهم

إياه، وإصرارهم تجاهه في ادبار واستكبار كأنهم يدعون إلى الموت! وهو يدعوهم إلى الحياة، ليغفر الله لهم ذنوبهم ويحييهم حياتا طيبة!.

ظلوا في محاولة عنيدة بغيضة كيلا يسمعوا نوحا ولا يروه بطريقة صبيانية حمقاء، بسد الآذان عن سماع الحق، وستر العيون عن رؤة داعية الحق، برد الثياب، وهذا منتهى الضلال.

لقد جرّب نوح كافة الأساليب في دعوتهم علهم يهتدون، وهم قابلوه بكافة أساليب التمرد والعصيان وظلوا معاندين.

فمن حيث الزمن: الف سنة إلا خمسين عاما، وفي مواصلة دعاءهم ليل نهار، وفي ملاحقتهم حالة الفرار لم يخل مجالا، وفي كيفيتها: إسرارا ثم إعلانا، ثم إعلانا وإسرارا:

ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً: فقد يوحي بسابق الإسرار، وهو بطبيعة الحال مستهل الدعوة: فلو ابتدأت جهارا واجهت حملة جماهيرية قاضية، فلا بد من الإسرار أولا كي تجد جوا صالحا وركيزة تتركز عليها الدعوة في المارقين.

ثم إذا واجهت قبولا ولو قليلا، ام لم تواجه، فالإعلان، علّها تثير عطف الجماهير وتحرك فكرهم وتنير فطرهم عل فيهم من يُقبل ويَقبل.

ثم أخيرا لا بد من الجمع بين الإعلان والإسرار، كلّ في مجاله المناسب وجوّه اللائق:

ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً: إسرارا ليدخل شغاف القلوب وعل القابل يقبل فيلحق دون خجل من الجماهير العنيدة، وإعلانا لتعزيز كلمة الحق، ولتظهر القابليات على رؤس الأشهاد، ولقد حملت الدعوة ـ فيما حملت ـ ترغيبهم بالحق فوعدتهم بمتطلبات الحياة الدنيا، رغم انها ليست دار جزاء، وتحريكا لعقولهم وعواطفهم وضمائرهم، وتنديدا بهؤاء الذين قلوبهم قلوب الشياطين فلا يعرفون أو يفهمون كلمة الحق!:

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفّاراً: لا يذهب استغفاركم هباء، لأن الله تعالى غفار في سنته الإلهية منذ بدء الخلق، فاستغفروه لأنه ربكم: المالك المدبر لكم، ولأنه معدن الغفران: إِنَّهُ كانَ غَفّاراً.

و من آثار غفرانه في الدنيا انه يفتح لكم بركات من السماء والأرض:

«يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً»: «وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ»(٧:٩٦).

هذه البركات الموعودة هي مما تنتج عن الإيمان والتقوى وليزيدوا من الصالحات ويعيشوا بركات، ولكنها ليست دائما ناتجة عن الصالحات كالتي توفر على الكفار إملاء وامهالا ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين، فهي إذا دركات لهم وليست ببركات، و كما نشهدها اليوم في دولتين كبيرتين موسع عليهما في الرزق، ممكّن لهما في الأرض: أمريكا الرأسمالية المستعمرة، روسيا الشيوعية المستحمرة، والدرك الأسفل في الأولى هبوط المستوى الأخلاقي إلى اشر دركات الحيوانية، والحياة كل الحياة قائمة فيها على اغراءات المال، وفي الثانية تهدر قيمة الإنسان الروحية إلى أسفل دركات، ويسود التجسس ويعيش الناس في وجل دائم من المذابح المتوالية، وليست هذه أو تلك حياتا انسانية، ولا تعد بركاتهم إلا دركات!: أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَ أَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَ جَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً

آخَرِينَ(۶: ۶).

و آية المدرار والإمداد بالأمطار الغزيرة والأموال والبنين توحي انهم كانوا في نقصان منها كلها، فما يزيدها عليهم مجانا ودون عمل دنيوي، هو الاستغفار من الذنوب ومواصلة الطاعات، إلا أنه ليس حتما في كل الظروف والمجالات، فقد تكون هناك عوائق نجهلها، أو نحن نعملها، وإنما الاستغفار لو خلي وطبعه يستتبع بركات من السماء والأرض كضابطة عامة تقبل الاستثناءات ولا سيما بالنسبة للأفراد، فالحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد، فما من امة قام فيها شريعة اللّه واتجهت اتجاها حقيقيا للّه بالعمل الصالح والاستغفار المنبئ عن خشية اللّه إلا فاضت فيها الخيرات ونزلت عليها البركات من الأرض والسماوات، وكما الآيات تحمل هكذا وعد للأمم لا للأفراد: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْناهُمْ جَنّاتِ النَّعِيمِ. وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ (۵: ۶۶) إذاً فالقاعدة اممية لا فردية وإن كانت تعم الأفراد أحيانا.

و التقوى الجماهيرية بطبيعة الحال تقي جماهيرها عن التورط في دركات الحياة، وتخلق جوا سليما سالما متحللا عن التطاولات المسببة للفوضويات، وتبني صرحا عاليا لرغد الأمن والعيش لمن يتقي الحرمات واللاأخلاقيات، مما يؤل لنزول مزيد البركات كنموذج فعلي للجزاء، وتمام الجزاء ليوم الجزاء: وَ يا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ وَ لا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ(۱۱: ۵۲).

و إرسال السماء مدرارا لا يخص ماءه المدرار المكثار، إنما بركات السماء ككل، من نور شمسها وحرارتها ورياحها وأشباهها.

و الإمداد بالأموال والبنين ليس دائما إلى خير، فمن الأموال ما لا تمدّ وإنما تمد في خسار وبوار، ومن البنين من لا يمدون إلا في غي وطغيان، ومنهما ما يضر دينا ودنيا، فالإمداد الموعود فيهما هو الذي يأخذ بيد الإنسان إلى صالح النشأتين، ويدفع عنه تبابهما.

«فرحم اللّه امرءا استقبل توبته واستقال خطيئته وبادر منيته»*.

و أكمل الاستغفار ـ على حد تعريف أمير المؤنين عليه‌السلام إنه «درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معان: أو لها الندم على ما مضى ـ والثاني العزم على عدم الرجوع اليه أبدا والثالث أن تؤي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى اللّه عز وجل أملس ليس عليك تبعة والرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤي حقها والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالاحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول: استغفر اللّه».

ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلّٰهِ وَقاراً. وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً: وأصل الوقار ثبوت ما يكون به الشيء عظيما، من الحلم والعلم اللذين يؤن معهما الخرق والجهل، ومن القدرة التي تؤن عن العجز، وأشباهها التي تثقل الكائن وتخرجه عن الخفة، وبصيغة أخرى العظمة المطلقة.

و الرجاء ظن يقتضي حصول ما فيه من المسرة، وكذلك هو خوف عما يؤل المخافة، فأنتم أنتم الأوغاد المناكيد ما لكم: تقطعون عن ربكم وحتى أمل الخير، أمل الوقار والعظمة، كمن يتأكد من ربه اللاوقار فيفر منه وممن يدعو اليه، وإذا أنتم تعتقدون وقاره فلما ذا لا تخافونه، رغم أن وقاره

وعظمته، تصميمه وحكمته، عطفه ورحمته، علمه وقدرته، وكل مظاهر ألوهيته وربوبيته، إنها ظاهرة في خلقه لكم وللكون كله لو أنتم تشعرون، فهو الذي يجب رجاء وقاره وتوقيره:أن تخافوه لأنه الوقار كله، والوقور يخاف لعدله وقدرته، وأن تأملوا من وقاره خيرا، فانه يؤل فضله لرحمته، وأن تأملوا من أنفسكم له وقارا فتعبدوه وتوقروه وتعزروه. فقد يعتقد الإنسان ربوبية اللّه ولا يوقره جهالة وعصيانا، وقد لا يوقره ارتيابا في ربوبيته مع احتمالها، وقد لا يرجو ـ أيضا ـ وقاره، كأنه متأكد انه ليس إلها، وهذا أحط دركات الكفر باللّه، رغم ظهور آياته في الآفاق والأنفس!.

«وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً» فلكلّ من اشخاصكم أطوار، ولكم أجمع أطوار، مما تنتفي عنه الصدفة العمياء، والخلق الفوضى:

فمنها الأطوار الجنينية من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى الهيكل إلى الخلق الكامل وإلى إنشاء الخلق الآخر: «الروح» فتبارك اللّه أحسن الخالقين.

و من الأطوار الجنينية نفسها أن الجنين يشبه لأول مرة حيوان الخليّة الواحدة، ثم بعد فترة يمثل شبه الحيوان المتعدد الخلايا، ثم شكل حيوان مائي، ثم حيوان ثديي، ثم المخلوق الإنساني، وإدراك هذه الأطوار الثانية، مهما كان بعيدا عن قوم نوح، فانه قريب إلينا كما كشف عنه العلم حديثا، والقرآن كتاب كل الأزمان.

و من الأطوار الأخرى بعد الخلق هي أطوار الحياة الدنيا، من كونكم طفلا وإلى الشيخوخة ثم إلى الأجداث وقد تجمع هذه الثلاثة آية الخلق والبعث:

يا أَيُّهَا النّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفّى وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ..(٢٢:٥)

و منها أطوار الحالات الجسمية والنفسية والألوان وأشباهها.

ثم الأطوار الرابعة هي الجماعية، فالقطاعات البشرية ترى مختلفة في الألسن والعادات والأشكال والأحوال، وليتعارفوا: يا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقاكُمْ (٤٩: ١٣).

فهذه الأطوار المقصودة في الخلق، الدائبة فيه، مما يجعل العقلاء الأحرار يأملون ويخافون ويرجون للّه وقارا، لأنه الخالق، وهو المدبر لا سواه، وهو الرحمان الرحيم والمنتقم، فما لكم لا ترجون للّه وقارا وقد خلقكم أطوارا؟!، والخلق المتطور يدل على الخالق المطوّر، والتطور المتناسق اللامتفاوت دليل على وحدة المطور، فكما لا خالق سواه، كذلك لا مدبر ولا مطور إلا إياه، فليرج وقاره على اية حال.

أَ لَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً. وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً.

هل الرؤة المسؤ عنها هنا هي الحسية؟ أم العلمية التجريبية؟ أم بالوحي؟

و كيفية السبع الطباق مجهولة حتى الآن! بديهي انها ليست رؤة حسية حين الخلق إذ لم يكونوا موجودين عنده:

ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ (١٨: ٥١) ولا بعد الخلق، كيف والعيون المسلحة حتى الآن لم تصل إلى عمق السماء الأولى، سماء الأنجم، فضلا عن واقع أو كيفية السبع الطباق، وفضلا عن الإنسان زمن

نوح عليه‌السلام! وكذلك الرؤة العلمية على ضوء العلوم التجريبية لم تتحقق حتى الآن.
و أما رؤة المعرفة الدينية من طرق الوحي فهي وان كانت حاصلة لقطاعات من البشر المعتنقة وحي السماء، ولكنها علم الواقع عن السبع الطباق بالوحي، لا كيفية خلقها، إذاً فما ذا تعني الآية، لا سيما والمخاطبون ـ وهم الكفرة من قوم نوح ـ لم يكونوا ممن يعتنق وحي السماء ليعرفوا ذلك بالوحي!.
و الحل أن معرفة كيفية خلقة السبع الطباق ليست بمستطاع الإنسان أيا كان، إلا من يوحى اليه فيريه اللّه ملكوت الكون كما أراه ابراهيم «وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ»(٦:٧٥).
فلتكن الرؤة المسؤ عنها معرفة واقع السبع لا حقيقتها وملكوتها، ولا سبيل إليها أيضا إلا عن طريق الوحي، حيث العلم التجريبي قاصر حتى الآن عنها وحتى عن المعرفة الشاملة بالسماء الأولى، فالآية توحي انه كان هناك وحي قبل نوح، بالإمكان أن يتعرف به إلى أمثال هذه البدائع الكونية، طالما كان قوم نوح مكذبي الوحي، حين كان عليهم تصديقه، لمزيد المعرفة باللّه عبر التعرف إلى عظمة الخلقة.
أو أن الخطاب لا يخصهم، وإنما المخاطبون هم الذين يخاطبون بوحي القرآن منذ نزوله وحتى القيامة، فهؤاء يمكنهم معرفة السبع الطباق، بتصديق الوحي أم بالمحاولات العلمية التوسعية، وان لم يصلوا بها حتى الآن.
أو أن رؤة السماء ـ أية رؤة كانت ـ هي في الواقع رؤة السبع الطباق سواء عرفوا السبع بما تعرف، أم لم يعرفوا، فلا أقل من رؤة هذه الأجواء الواسعة ذات القناديل البراقة الكوكبية والنجومية، فليعتبروا بها، بالسبع أم الجو الممتد مدّ البصر.
فمهما كانت الرؤة قاصرة عن السبع، ولكنها ليست لتجعل واقع السبع غير واقعها، فلينبّه الناظرون ـ ولو بأمثال هذه الآيات ـ ان ما يرونه فوقهم هو السبع الطباق، والقرآن كما يخبرهم بها، يحركهم نحو معرفتها والاستدلال بها على قدرة بادئها.
و لقصور الرؤة المتحللة عن الوحي: هنا يجعل القمر فيهن نورا والشمس سراجا وهاجا «وَ جَعَلْنا سِراجاً وَهّاجاً» (٧٨:١٣) كل ذلك رغم آلاف الأقمار والشموس في سماء الأنجم، وعلها في سواها أيضا.
فبما أن المخاطبين هنا ـ فعلا ـ هم سكنة الأرض، وان كان معهم غيرهم، ولا نور قمريا و لا سراج شمسيا لهم في هذه السماوات، إلا هذا القمر وهذه الشمس لذلك يقول: وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً، وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً أي جعلها لكم، كما جعلها لغيركم من سكنة الكرات طالما لهم أقمار النور والشموس السراج، مما يبرهن أن الشمس الضياء والقمر النور هما في السماء الأولى: سماء الأنجم، لا فوقها: تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَ جَعَلَ فِيها سِراجاً وَ قَمَراً مُنِيراً (٢٥: ٦١).
و الشمس السراج توحي أن نور القمر مكتسب منها، ودليلا واقعيا حسيّا على أنه ليس له نور من ذاته، وصول البشر إلى سطح القمر، بينما تأكدت الاستحالة على أي المخلوقات الوصول إلى كوكب الشمس، فلولا الشمس لكنا في ليل داج دائب، فالقمر ليس سراجا، وإنما نور كما يستعمل لغرفة النوم ليلا وهُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً (١٠: ٥).
فالقمر إذا ليس سراجا ولا ضياء بذاته، إنما هو الشمس سراجنا وضياؤا الوحيد في كل الأفلاك، مهما كان في سماء الأنجم وسواها شموس وأقمار لمن سوانا من سكنة الكرات.
وَ اللّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً. ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَ يُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً:

هل الإنسان من نبات الأرض؟ أجل ولأنه نبت منها كسائر النباتات مهما اختلفت كيفية الإنبات، فلنبات الإنسان من الأرض وسائل طائلة تخرجه من صدق نبات الأرض عليه فيما يطلق، فلا يصح السجود عليه لعدم صدق الأرض عليه ولا نباتها، مهما كان نابتا منها. فصدق الاستعمال والتعبير إيحاء بحقيقة كونية لا يصدق شمول اللفظة المطلقة على المستعمل فيه، وحقيقة الإنبات الظاهرة من لفظه، إنما هي فيما تطلعه الأرض من نباتها، وتخرجه عند ازدراعها، ولما كان اللّه سبحانه يخرج البرية من مضائق الأحشاء إلى مسافح الهواء، ويدرجهم من الصغر إلى الكبر وينقلهم من الهيئات والصور، كل ذلك على وجه الأرض ومن الأرض، لذلك صح التعبير عنه بكونه نباتا وان لم يشمله على الإطلاق.

أنت تبيع أحيانا ما عندك من البقل، فأنت حقا بايع البقل، فهل أنت إذا بقال! .. انما البقال من شغله بيع البقل، وكذلك النبات ـ حين إطلاقه ـ لا يشمل كل نابت من الأرض، وإنما لقرينة خاصة كما هنا.

فهذه الآية ونظائرها توحي بالوحدة بين أصول الحياة الارضية مهما اختلفت نشئاتها و ألوانها وأشكالها وأسماؤا، وكلها من نبات الأرض.

فالإنسان الأول نابت من تراب الأرض، ثم نسله كذلك منها، من ترابها ومائها وثمارها التي هي نتيجة التزاوج بين ما يخرج من بين الصلب والترائب، ثم في الرحم ينمو بادواره وأطواره مما يصله من الأرض ونباتها، ثم يعيش ـ بعد ما يولد ـ على هذه الأرض بما تنبت.

و انباته نباتا دون إنباتا، خلاف ما يقتضيه بناء فعله، علّه للإشارة إلى أزواجية خلق الإنسان: من فعله تعالى: «الإنبات» وهو الأصل في خلقه، ومن فعل الأرض الذي هو أيضا راجع إلى فعله: «النبات» فهو أنبتكم منها، فنبتم منها نباتا بفعلها وتفاعلها، وبما تزرعون وتأكلون فتولدون: فعل اللّه وفعل الخلق.

فالأرض الأم هي التي تلده بما تلده أمه، ثم تعيده في رحمها بعد انقضاء أجله، ثم تلده ثانية لحياة الحساب والجزاء.

و من لطيف التناسب هنا أن السجود في الصلاة يفسر لنا عمليا هذه المراحل الثلاث، فالسجدة الأولى للّه أن أنبتنا من الأرض نباتا، نسجد شكرا له ولنشر برفع رؤنا عن السجدة الاولى، إلى سبب الشكر: أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً ثم نسجد ثانية، إشارة إلى الإعادة ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها فالموت نعمة تتطلب الشكر كما الحياة نعمه، ثم نرفع رؤنا ثانيا اشارة إلى الحياة والولادة الثانية و الأخيرة التي نحاسب فيها فنجازى.

وَ اللّٰهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً، لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجاجاً.

بما أن البسط هو النشر بعد القبض، وان الجعل المتعدي لمفعولين هو جعل الشيء شيئا آخر في كيفيته وصورته، فجعل الأرض بساطا يوحي انها كانت منقبضة غير منبسطة، ثم جعلها اللّه منشورة للعايشين عليها، ولا سيما إنسانها:

جَعَلَ لَكُمُ فلم تكن بساطا قبلئذ، ولا صلبا، إذ كانت محترقة مذابة، ولا لها جو إذ كانت حارة محرقة، دون أن يعيش فيها مواد الحياة من الماء واكسجين الهواء، شربا وتنفسا و إنباتا.

إنها لم تكن لتسلك فيها سبل فجاج: الطرق الواسعة، التي يهتدى بها إلى متطلبات الحياة: وَ جَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٢١: ٣١) فالسبل الفجاج في الصحارى وبين الجبال، إنما هي من

حصائل بسط الأرض ونشرها، فقد ذلت الأرض بعد شماسها لنمشي في مناكبها ونأكل من رزقه: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ (٦٧: ١٥) ذلولا بعد شماس، في ركوبها وسكنها وابتغاء الرزق فيها، وبصيغة عامة: الحياة المريحة عليها، في فجاجها السبل التي ما كانت مسبلة حين شماسها.

ثم البساط ـ وهو النمط الذي يمد على الاستواء فيجلس عليه ـ إنه يوحي برياحة التنقل في الأرض كما يتنقل الإنسان على بساطه.

فيا نبات الأرض، المفضل على كل نباتها! المدلل إلى كل خيراتها وبركاتها، المستنير بقمر السماء وشمسها ومطرها، أنت كيف تسمح لنفسك أن تكفر بربك رب العالمين و لا تستطيع التحلل عن نعمه ابدا؟.

قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلّا خَساراً.

و الإنذار والتبشير، بعد هذا كله ـ إنهم عصوني في عبادتك وتقواك وطاعتي، واتبعوا الخاسرين المخسرين، الذين لم تزدهم نعمة المال والأولاد إلا خسارا لسوء تصرفهم فيها، وغرورهم بها: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ كُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ (١٤: ٢٩).وَ مَكَرُوا مَكْراً كُبّاراً. وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَ لا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لا سُواعاً وَ لا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسْراً. وَ قَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ لا تَزِدِ الظّالِمِينَ إِلّا ضَلالًا.

.. مكرا كبارا: متناهيا في الكبر، مستعملين فيه كافة أساليب التدجيل فقالوا ما قالوا .. وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ أضافوا الالهة إليهم إثارة للنخوة الكاذبة والحمية الحمقاء، كأنهم يدعون إلى إله غريب عنهم، دخيل في آلهتهم، فلينكروه حفاظا على الكرامة، وليتمسكوا بآلهتهم إبقاء للقديم على قدمه واستدامة لعادة الآباء والجدود، ففي تخليهم عنها والإيمان بإله نوح، رفض لكيانهم وخروج عن كونهم حملة التراث، وأنهم أبناء آبائهم.

فإثارة الحميات والقوميات والطائفيات والعنصريات، لها دور كبير في المتمسكين بها، المتقيدين بأسرها، المفتخرين بها، بين المتحللين عن المثل العليا الأخلاقية، المفاخرين بما لغيرهم من اللاأخلاقيات، الماشين ممشاهم على العمياء.

و النص يلمح لدرجات ثلاث بين آلهتهم، أهمها ود وسواع إذ خصا بالعطف بعد التعميم، ثم يغوث ويعوق ونسر، المذكورة في عطف وردف واحد، ثم بقية الآلهة الداخلة في عموم اللفظة.

طبقات في الآلهة هي معبودة طبقات*، فالنظام الطبقي العارم بين الوثنيين كان سائدا بين آلهتهم أيضا، ظلمات بعضها فوق بعض! كما وحدة الإله بين الإلهيين أزالت النظام الطبقي بينهم مهما كانوا درجات:

حسب المساعي والخلقة، فشريعة التوحيد تأمرهم بحياة تضامنية أليفة تحكمها روح التوحيد والحنان والمحبة، كأنهم شخص واحد رغم اختلاف الأعضاء.

هذه الأصنام الخمسة ـ ومعها غيرها ـ كانت تعبد زمن نوح وحتى الرسالة الإسلامية التي قضت عليها فاجتثت من جذورها، إلا التي أفلتت منها أو نبش قبرها بعد الرسالة أو بعدها، في القطاعات التي تحكمها الطواغيت.

و لقد تناصرت نعرات الجاهلية الأولى والقرن العشرين، في الحفاظ على الوثنيات وعبادة الطواغيت

لكي يبقى الشيطان على كرسي الضلالة مهيمنا.
وَ قَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً حول الأصنام: أخشابا وأحجارا واشخاصا وأفكارا، للصد عن شرعة التوحيد، بهذا المكر الكبار.
وَ لا تَزِدِ الظّالِمِينَ إِلّا ضَلالًا ضلالا كجزاء لضلالهم، جزاء وفاقا، ضلالا في قلوبهم بما ضلوا وزاغوا: فَلَـمّا زاغُوا أَزاغَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ وضلالا في سعيهم:
الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً وضلالا في في الآخرة إذ يضلون سبيل الجنة إلى النار وبئس القرار، وكل هذه ردة عادلة لما ضلوا وأضلوا وَ أَنَّ اللّٰهَ لَيْسَ بِظَلّامٍ لِلْعَبِيدِ؟.
مِمّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَنْصاراً.
من خطيئاتهم تلك اغرقوا في الخسران ومنه غرقهم في الطوفان ومن ثم في النيران يوم البرزخ: الفترة بين الموت والقيامة.
أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً ففاء التفريع تفرع دخولهم نارا على غرقهم بخطيئاتهم ومضي الفعل «أدخلوا» يصرح بسابق دخولهم النار، فلا يعني مستقبله يوم الحشر، وانما بعد الموت دون فصل، فهذه الآية من آيات الحياة البرزخية بعذابها وثوابها، مع العشرات الأخرى من آياتها.
و فيما إذا سئلنا كيف تجتمع النار والماء، فهم غرقوا في الماء وأدخلوا في النار؟ فهل الماء يحمل النار، لا سيما تلك النار التي لا تبقي ولا تذر فكيف لم يغل الماء؟! فالجواب: ان المعذب في البرزخ ليس الروح ببدنها الدنيوي الظاهر انما ببدنها البرزخي الذي يساور الروح، فناره أيضا برزخية غير ظاهرة، كثوابه، ولكلّ من العالم الظاهر والباطن حكمه، والثواب والعذاب البرزخيان، هما من الباطن بالأسباب الباطنة غير المحسوسة، ولكنها مدروسة حسب الوحي.
و شاهد علمي على ذلك أن المادة أيا كانت، إنها تحمل الطاقات الحرارية، وحسيا: الشجر الأخضر الذي تطلح منه نار فإذا أنتم منه توقدون: الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٣٦: ٨٠).
فهذا الشجر يحمل خشب الوقود، وماء الإطفاء، ونار الإيقاد! رغم انحصار مفعوله في الدنيا، أ فليس الذي يقدر على ذلك بقادر على إحراق الأجساد البرزخية بالنار البرزخية الكامنة في الماء وفي كل شيء مع اختلاف العالمين؟.
و انما يحمل السائل المتعنت المستنكر على هكذا سئوال، جهله بالبدن المثاب والمعذب في البرزخ، وبماذا يثاب وبماذا يعذب؟ ثم تجاهله وإنكاره لهذه الشواهد الحسية والعلمية.
فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَنْصاراً: فمن ينصرهم من بأس اللّٰه بعد إذ غرقوا واحرقوا، و إذ لم يكن أنصارهم بمنجيهم عن غرق الدنيا، فكيف ينجونهم من غرق البرزخ ولا تنال منه قدراتهم؟ فأين من أضلوهم وآلهتهم؟ ولينصروهم إذ هلكوا في سبيل الصمود على طاعتهم، ومعصية اللّٰه رب العالمين!.
ثم في آخر المطاف من دعوة نوح الطويلة ـ وبعد انقطاع الأمل عن إيمانهم وخيرهم، و حتى عما يخلفون من أمثالهم، وبعد التأكد انهم مضلون كما هم ضالون ـ هناك يدعو:
وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيّاراً. إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلّا فاجِراً كَفّاراً.
فان صالح الإنسان في صلاحه أو صلاح نسله، فإذا فقد الجانبين إلى الإضلال فيهما، لم يبق لبقائه إلا

فساد على فساد وسبحان الله عن هكذا إبقاء! فقد لمح الوحي إلى نوح بمستقبلهم وذريتهم سندا لما عرف عنهم في ماضيهم:
أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (١١: ٣٦) ف «لن» تنفي ايمانهم ابدا، ولزامه أن لا يلدوا إلا فاجرا كفارا، وكما عن باقر العلوم عليه‌السلام*.
فقد كانت الأرض بحاجة إلى الإحياء بعد موتها، وإلى التطهير بعد قذارتها من الشر العارم الذي انتهى اليه القوم في زمنه، ولم يبق علاج في تطهيرها إلا تدميرهم، إذ إن في بقاءهم إضلال القلة القليلة ممن آمن معه، طوال ألف سنة إلا خمسين عاما.
و فيما إذا سئلنا: كيف لا يلدون إلا فاجرا كفارا، والإنسان أيا كان لا يولد كافرا مهما كان أبواه كافرين، وإنما الكفر والإيمان منذ التكليف لا الولادة؟
فالجواب: ان خبث النطفة اضافة إلى خبث الجو والبيئة، لا يلدان إلا فاجرا كفارا، فان الجو الفاسد الذي أوجدوه، والبيئة الضالة التي خلقوها، انهما يوحيان بالكفر من الناشئة الصغار، فلا توجد فرصة لترى الناشئة نورا، وقليل هؤلآء الذين يولدون من الظلمات ويعيشونها، ثم يخالفونها إلى النور، وقد ولد هذا القليل في هذه المدة الطائلة ولم يبق منهم أحد وفي أنسالهم أيضا، فلا يعنى من ولادة الفاجر الكفار أنها منذ الولادة، إنما من حين التكليف، وإن كانت الولادة الخبيثة والجو الخبيث لهما دورهما الفعال في الكفر والفجور، فالولادة عن هكذا كفار، ثم ولادة ثانية تولدهم البيئة الكافرة لحد التكليف، ثم عفويا الولادة الثالثة منذ التكليف، الناتجة عن الولادتين، هذه وتلك ليست إلا ولادة الفاجر الكفار:
لا يَلِدُوا إِلّا فاجِراً كَفّاراً.
حينذاك كانت مناداة نوح ربه حقا وفي محله ومرضيا عند ربه: وَ لَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٣٧: ٧٥) دون أن تكون مرضية للشيطان كما في مختلقات الروايات.
ثم يدعو للمؤنين والمؤنات مع نفسه ووالديه:
رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ لا تَزِدِ الظّالِمِينَ إِلّا تَباراً.
دعاء على الظالمين مرتين يوسط بينهم دعاءه لنفسه ولوالديه، ولمن دخل بيته مؤنا، لما حان حين الغرق، فهم المؤنون الجدد حينه وعند البأس، ثم للمؤنين والمؤنات طول الزمن، وهذا شعور عام بآصرة القربى على مدار الزمن واختلاف السكن دون أن يبعدهم بعد الزمان والمكان، كما الدعاء على الظالمين عام على طول الزمن.

نوح فى نبرات رسولية

سورة الأعراف

لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٦٠) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَ لكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ أَنْصَحُ لَكُمْ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ لِتَتَّقُوا وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ

وَ الَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ (۶۴) وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ (۶۵)

سرد خاصر غير حاصر لأولى الرسالات الهامة العامة لأول ولي من أولي العزم الرسولي: «نوح»عليه‌السلام وقد جاء ذكره في الذكر الحكيم بمختلف المناسبات في مختلف الذكريات (۴۳) مرة، في (۳۱) سورة منها سورته نفسه: «سورة نوح» مما يلمح بهامة هذه الرسالة البادئة، وقد ابتليت بهامة الابتلاءات الفادحة القادحة لها وهي الكادحة طوال ألف سنة إلّا خمسين عاما!.

و ترى ألم تكن قبل نوح شرعة من الدين؟ وقد نبئ قبله آدم وإدريس وقد كان نبيا: «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا» (۱۹: ۵۶) كما وآدم قبله: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ» (۳: ۳۳) (ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى» (۱۲۲: ۲۰) وهكذا من بينهما من النبيين بمختلف درجاتهم.

فمن المقطوع المحتوم أن الرسالة الربانية لم تكن مبتدأة من نوح عليه‌السلام ولم تكن الفترة ـ ما كانت ـ إلّا رسولية، لا رسالية، وأهمها ما كانت بين المسيح ومحمد عليهم‌السلام، وعلّ من قبلهما ما كانت بين آدم وإدريس، وبينه وبين نوح (عليهم السّلام)، وكلها فترات رسالية فحسب «لِئَلّا يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ» (۱۶۵:۴).

و حين تفسر ولاية العزم لرسل ـ فيما تفسر ـ بأنهم جاءوا بشرائع مستقلة غير تابعة لما قبلها، فلتكن شرعة آدم عليه‌السلام ـ لأقل تقدير ـ شرعة مستقلة، إذ ما كان قبلها من شرعة لهذا النوع الأخير، ولأن إدريس النبي كان أفضل من آدم عليه‌السلام فقد يكون حاملا لشرعة مستقلة بعد آدم، وإن في توسع لأحكام، مهما لم ينسخ حكما من شرعة آدم عليه‌السلام.

فمن الجواب لذلك السؤل العضال ما أوردناه في سورة نوح عليه‌السلام أن الرسل قبله جاءوا بشرعة لا تزيد على تصليح الأحكام العقلية والفطرية، فهي ـ إذا ـ تحمل سلبية إزالة الحجب عن الفطر والعقول وإيجابية تنويرات لهما عن أخطاء فيهما، إلّا أن الأحكام الفرعية لا مدخل فيها للفطريات والعقليات، اللّهم إلّا الفرعيات الثابتة في النواميس الخمسة التي لا حول عنها، دون كيفيات خاصة لطقوس عبادية لا بد منها، موقوفة على بيان اللّه.

و منه أن هذه الشرائع قبل نوح ما كانت واسعة شاسعة الأطراف، فإنما كانت تقضي حاجات بسيطة في البسيطة لساكنيها القلة القليلة، فما كانت ـ إذا ـ تحسب أمام الشرائع الخمس في حساب شرعة، كما وأن الرسل قبل نوح عليه‌السلام ما كانوا أولي عزم كما كان أولوا العزم من الرسل، فان من ميزاتهم هي: سبقهم إلى الإقرار باللّه، وعموم شرعتهم إلى عباد اللّه، وعزمهم في التصبر في اللّه، مهما كان منها ـ أيضا ـ استقلالهم في شرعتهم عما قبلها من شرائع اللّه، أماهيه من ميزاتهم المسرودة على ضوء آية الأحقاف.

فالحامل لمجموعة المیّزات الرسولية والرسالية هو من أولي العزم وهم الخمسة المعاريف كتابا وسنة، ولم تكن الرسل قبل نوح عليه‌السلام لهم، ولا لإدريس النبي الذي هو أفضلهم، ولاية عزم رسولي ولا رسالي كما هي لأولي العزم.

فمهما كانت شرعة آدم عالمية، لم يكن يعدو عالمه بنيه، ثم «وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً»!، ومهما كانت شرعة إدريس عالمية ـ ولا برهان له ـ فلم يكن من السابقين في الإقرار باللّه، فانما تتبنى ولاية العزم عزمات دون أزمات فيهم أنفسهم وفي شرائعهم، التي تشكل الإمامة في الرسالة الربانية، فهم ـ إذا ـ مجامع

عزمات رسولية ورسالية قمة لحد أصبحوا لسائر الرسل ـ كما للمرسل إليهم ـ أئمة.
ذلك، ولأن الرسالة الربانية تحمل مثلثا من الوحي: إزالة لغشاوات على الفطر والعقول، ثم تنويرات لهما قدر المعني لهما، ومن ثم أحكاما فرعية لا سبيل لغير الوحي إليها، لأنها قضية العلم الطليق على كافة الصالح والمفاسد، كما ومنها قضية صالح الابتلاء كقصة ذبح إسماعيل، ولا سبيل إليهما للعلم فطريا وعقليا ومزيدا عليها حيث هما ـ على أية حال ـ محدودان.
فقد حملت شرعة آدم عليه‌السلام خاصرا غير حاصر من هذه الثلاثة، ومن ثم تفصيل في شرعة إدريس، ثم تفصيل كأولى مرحلة جامعة لشرعه من الدين، وإلى تفصيل القرآن العظيم.
إذا فحمل شرعة قبل نوح عليه‌السلام لا يحمل ولاية العزم لحاملها مهما كان له عزم في بعض الواجهات رسولية ورسالية، ثم لا شرعة مستقلة بين نوح ومحمد عليهم‌السلام إلا لهؤاء من الخمسة الخمسة، قضية إمامتهم على كل الرسل في هذا البين، وعموم شرائعهم للعالمين ومنهم سائر أصحاب الرسالات والنبوات.
و ترى كيف كان نوح بعيثا على كل المكلفين، ولم يجل بنفسه التجوال الرسولي بينهم؟ إنه تجوال رسالي بمن يحملونها عن أولي العزم من الرسل مهما أجمل عن ذكرهم في الذكر الحكيم.
و هنا سرد لدعوته بإجمالها وما عارضه قومه إلى غرقهم أجمعين إلّا من آمن به كإجمال قاصد إلى ملابسة عابرة ليست فيها التفصيلات التي ترد في مواضع أخرى، بل هو تصوير معالم رئيسية لهذه الرسالة وكما في هود وصالح، ولوط (عليهم السّلام).
و قد يعني «قومه» كافة المكلفين حيث الأقوام تختلف مصاديقها المعنية بمغازيها، فالأقوام الرسالية تعني الرساليين كما أرسل اللّه، ولأن رسالة نوح كانت عالمية،«قومه»إذا كل العالمين المكلفين، وكما دعى على كفار الأرض أجمعين: «وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيّاراً» (٧١: ٢٦).
«فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ» دعوة مبدئية توحيدية في حقل العبودية الموحّدة تحلّق على كافة الرسالات وهنا «ما لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ» نفي لجنس الإله كما في «لا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ»استئصالا لأية ألوهة لغير اللّه، لا أصيلة كما قد يزعم، ولا فصيلة خلاف ما يدعون.
ثم «إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» تلحيقة للمبدء بالمعاد، وقد يعني «يوم عظيم»إلى المعاد عذاب البرزخ وبينهما عذاب الطوفان، ف «يوم» هنا هو جنس ليوم العذاب العظيم، مهما اختلف عظيم عن عظيم، وفي مثلث العذاب الموعود، لكونه غيبا كله، تطوى دعوى الرسالة، وهي الأصل الثالث من أصول الدين فإنها بين المبدء والمعاد، ثم والدعوة التوحيدية في جوّ الإشراك المطلق المطبق هي دعوى رسولية.
«قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ» وهم أشراف القوم وخواصهم الذين يملأون بكثرتهم وقوتهم العيون والقلوب، وتمتلئ منهم صدور المجالس فهم المستكبرون من قومه، والملأ في الأصل بين ملأ الشر وملأ الخير ومن الخير: «لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ»(٣٧:) ٨) ويقابلهم الملأ الأدنى وهم الشريرون المعارضون للرسالات على طول الخط، وهنا قالوا: «إِنّٰا لَنَرٰاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» حيث تخالف ما نعيشه من حياة الإشراك والحرية الشهوانية، ونحن أركان المجتمع وأصوله، فما يعارضنا ـ ونحن على هدى الحياة الراقية ـ إلّا من هو في ضلال مبين.
و كيف يواجههم نوح عليه‌السلام أمام رمية الضلالة وهي شر رمية؟ إنه فقط سلب لها إيجابا لرسالته من

رب العالمين: «قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَ لكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ»، فلو كانت الرسالة الربانية ـ الثابتة لي بمثبتاتها ـ ضلالة، فأنا إذا في ضلال مبين، لأن ربي مضل وأنتم على هدى! فهل أنتم مائلون إلى هذه الطنطنة الغوغاء، قائلون غائلون هذه الغائلة النكراء؟ وأنتم ترونه رب الأرباب!.

و ترى كيف يجيب عن «ضَلالٍ مُبِينٍ» ب«لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ» دون «ضَلالٍ مُبِينٍ»نفسه سلبا لما أثبتوه؟ علّه يعني ب«ضلالة» كل أنواعها لا فقط «ضَلالٍ مُبِينٍ» ف «لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ»من مبين وغير مبين.

«أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي» دونما زيادة أو نقصان، وقد يعني جمع «رسالات» دون «رسالة»الجمعية الرسالية، في جمعية الأصول والفروع الأحكامية، فان كل زاوية من زوايا الرسالة هي رسالة، مهما كانت مجموعها أيضا رسالة، «وَ أَنْصَحُ لَكُمْ»لصالحكم «وَ أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ» رسالة «ما لا تَعْلَمُونَ» منفصلين عن رسالة اللّه.

فقد اختصرت واحتصرت رسالة نوح عليه‌السلام في مثلث هو هندسة لصرح الرسالات كلها: ١ (أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي» تبليغا بليغا بالحجج الربانية الكافية الوافية.

٢ (وَ أَنْصَحُ لَكُمْ» نضجا لبراهين الرسالة وفرامينها في قلوب بذلك النصح الرسولي الغالي، فللنصح دور دائر لكل حائر تبقى حيرته لحدّ ما بعد ساطع البراهين الآفاقية والأنفسية، وحقيقة النصح هي الإرسال إلى المصلحة مع خلوص النية.

٣ (وَ أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ ما لا تَعْلَمُونَ» وذلك لزامه الوحي فإن «ما لا تَعْلَمُونَ» تحلق على كل أسباب العلم ومسبباتها، فالعلوم المنقطعة عن منقطع الوحي حاصلة لي من اللّه بالوحي، انقطاعا إلى الوحي.

فهذه الثلاث و«أ وعجبتم ..» هي قواعد أربع لصرح الرسالة الربانية، إجابة عن شطحات ك«إِنّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» رؤة عوراء حمقاء ترى من يدعو إلى الهدى في ضلال مبين، والواو العاطفة هنا تعطف إلى محذوف معروف في درج الكلام وهو سائر أسباب العجاب.

و هكذا يبلغ المتعرف في الضلال في تبجحه الوقح المرح في انقلاب الموازين والضوابط.

و هذا ما يتقوله ضلّال التاريخ منذ بدءه إلى جاهلية القرن العشرين أنهم أنفسهم متقدمون متحضرون على رعناتهم وحيوناتهم اللّامحدودة، ثم المؤنون متأخرون رجعيون ضالون عن سبيل الحياة الراقية!.

هذه الجاهلية المتحضرة! تقول للفتاة التي لا تكشف عن لحمها وعورتها: إنها رجعية، كما تقول للشباب المؤن الذي لا يسافد البنات كالحمير: إنه رجعي، وتقول لمن يترفع اهتماماته عن جنون السكر والأفلام الخلاعية، وجنون الرقص والحفلات الفارغة، تقول: إنه جامد ميت.

فالجاهلية هي الجاهلية مهما اختلفت شكلياتها وظروفها وملابساتها.

و هنا إجابة عن عجابهم الشباب «أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ»عطفا على سائر العجاب في مجيء ذكر من ربهم «عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ» في رجولة البشرية، أ عجبتم أن اللّه يهديكم سبيل الرشاد «أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ» دون اختلاف عنكم في طبيعتها وقضيتها وجواذبها ونوازعها لكي تتم حجة اللّه عليكم في رسالة من هو «منكم»قطعا لكافة الأعذار، وأنسا بالمماثل «لِيُنْذِرَكُمْ وَ لِتَتَّقُوا. وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَ تَذْكِيرِي بِآياتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَ لا تُنْظِرُونِ»(٧١).

تحدّ سافر من نوح لقومه المتعنّتين المتعنّدين: «إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي» فيكم رسولا داعيا إلى اللّه «وَ تَذْكِيرِي» إياكم بآيات اللّه «فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ» في بلاغي المستمر بينكم لرسالة اللّه، ثم لا أخاف أحدا إلّا اللّه، فافعلوا ما شئتم بحقي صدا عن بلاغ رسالة اللّه «فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ» عليّ إمرا ملتويا، كما تستطيعون عن بكرتكم «وَ شُرَكاءَكُمْ» الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء، استنفارا عاما بين العابدين من دون اللّه والمعبودين «ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ» ذلك الأمر لاستئصالي «عَلَيْكُمْ غُمَّةً» غما عليّ ورحمة ولا غماما فلا ترحموني في ذلك الاستنفار النفار «ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ» بكل أمركم بشركائكم حيث لا حول ولا قوة فوقه «وَ لا تُنْظِرُونِ» أبدا نظرة النظر في أمري أم أية نظرة.

أجل «فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ» إجماعا في شورى، بإجماع بالكم وكل حالكم، وبالغوا في قدح الرأي بينكم حتى لا يكون أمركم غمة عليكم، أي: مغطى تغطئة حيرة، ومبهما إبهام جهالة، فيكون عليكم كالغمة العمياء والطخية الظلماء، وذلك مأخوذ من: غم الهلال، إذا تغطى ببعض الغمام التي تمنع من رؤته، ثم افعلوا بي ما أنتم فاعلون على مكانتكم.

فهذه حلقة أخيرة من تحدي نوح عليه‌السلام بعد إنذار وتذكير طويل طال ألف سنة إلّا خمسين عاما، حلقة تختصر كل تفاصيل دعوته الطويلة ومواجهتهم العنيدة العتيدة، قضيةَ الاختصار.

و هنا «اقْضُوا إِلَيَّ» دون «علي» لمحة باهرة أنهم ليسوا ليقضوا عليه بكل قواتهم، إنما «إلي» قصدا لغاية القضاء علي.

أنا كرسول من اللّه كل استعدادي هو التوكل على اللّه، وأنتم كمكذبين إياي أجمعوا أمركم وشركاءكم ككل، ثم انظروا من هو السابق في ذلك السباق.

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٧٢).

«فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ» رغم هذه الحجة الأخيرة المتحدية المتهددة، «فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ» حتى يكبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات اللّه، فما داءكم بعد وما دواءكم، حجة بالغة تبلغ بكم إلى الحق المرام دون أن تكلفكم أجرا «إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ» الذي حمّلني رسالتي إليكم «وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» للّه في حمل هذه الرسالة، تحملا لكل أعباءها والتواءاتها دون أية وقفة في أي موقف.

تحدّ صريح مثير، الذي لا يفعله إلّا المالئ يديه من طاقة لا تغلب أمام كافة الطاقات من هؤلآء الجماهير الضخمة، يحرضهم على أن يهاجموه بقوة جمعية واحدة دون إنظار ولا غمة، وذلك برهان لا مردّ له ولا حول عنه إلا على من ركز العناد في قلبه.

أجل إنه كان معه الإيمان باللّه والتوكل بكل كيانه على اللّه، القوة التي تتصاغر وتتضاءل أمامها كافة القوات من دون اللّه.

ذلك، وحتى إذا غدروا به وقدروا عليه ضربا وهتكا وفتكا وتشريدا وتقتيلا، فلن يضروا الداعية شيئا، لأنه إبتلاء من اللّه تمحيصا للقلوب، ثم تعود الكرّة لهم عليهم، حيث النصرة الرسالية مضمونة لهم من اللّه مهما خسروا كل ما لهم من غير رسالة اللّه ف : «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ»(٤٠:٥١).

إنه لا يضرني توّليكم عني سلبا ولا إيجابا، سلبا لأجر: إذ «فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ» وإيجابا للقضاء إلي: «وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» للّه في هذه السبيل، فأنا من السلسلة الرسالية الموصولة على مدار الزمن الرسالي، الصامدة في بلاغ الرسالة، لن يزجرني عنها أي مزدجر.

أجل «وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» فتراه إسلاما كسائر الإسلام البسيط أو الوسيط؟ كلا! إنه الإسلام العالي الغالي وكما ينسبه ثاني المسلمين على أمير المؤنين عليه‌السلام: «لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل» (الحكمة ١٢١).

فهنا الكفاح من نوح عليه‌السلام بعد دعوته الرسالية غير المؤرة فيهم، إنما هو «فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ» أمام كل العراقيل منهم، وأخرى مقترحة هي «فاجمعوا أمركم .. ثم لا يكن أمركم عليكم غمة، ثم اقضوا إلي، ومن ثم «لا تُنْظِرُونِ».

و يا له من كفاح حاسم جاسم لنوح أمام مثنى العرقلات: منهم، متطلبا من نوح أن يعملوها، كفاحا صارما يهدّدهم بكلالهم في ضلالهم وانهم لا يقدرون على شيء للقضاء على هذه الرسالة السامية اللّهم إلّا شذرا نزرا عابرا.

و قد خطى نوح في رسالته خطوات ثلاث:

١: خطوة المواصلة في دعوته تقديما لبراهين رسالته ووحيه.

٢: خطوة المفاصلة لما كلت دعوته إذ كذبوه وهددوه.

٣: خطوة تكملة الحجة بعدهما تأكيدا للأولى بعد تلك المفاصلة: «فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ..»وهنا «أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» صارح في رسالته، صارخ في دعوته، إذ كانت بالغة، ثم «فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ» تأكيدا لصالح الدعوة، وإزالة العرقلة مالية قد تمنع دون تصديقها، فقد خلصت دعوته في بعدي الروحية والمالية، فائضة من كل متطلباتها كدعوة ربانية، فاضية عن موانع الإقبال إليها كسؤل أجرة.

و في نظرة أخرى إلى الآية، قد تلمح «نَبَأَ نُوحٍ» بصيغة الإفراد، أن تهديهم السافر أمام تلك الجموع المحتشدة ضده، المعرقلة دعوته، بتحضير مربع طاقاتهم وإمكانياتهم قضاء إليه، وليس له إلا توكله على ربه، تلمح أنه يقول ما يقوله صدقا دونما ادعاء خاو هاو، وهذا على حده كأنه نباءه عليه‌السلام مع ما كانت له أنباء وأبناء، حيث الرسول النافض يديه عن بلاغه بعد كل الحجج المثبتة لرسالته، لو لم يكن في الحق رسولا كان يضعف، لا أن يتضاعف بذلك المربع البارع الذي كلّ من أضلاعه كاف واف لاثبات حقه حقّه.

ثم «مقامي» قد تحتمل مثلث معانيها: قياما بمكانه وزمانه في دعوته، ومن ثم تطلبه إجماعهم في أمرهم وشركاءهم دونما إبقاء، تدليلا على أن جمعية قواتهم كليلة عليلة عن مقاومته في دعوته.

و بعد كل ذلك «ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ» دون «عليّ» لمحة لعدم مكنتهم للقضاء عليه، إنما إليه، قصدا للقضاء عليه ولن يقضوا عليه أبدا.

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ جَعَلْناهُمْ خَلائِفَ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣).

لقد غرقوا بما كذبوا ومرقوا، ونجى نوح والذين معه في الفلك فلم يغرقوا «وَ جَعَلْناهُمْ خَلائِفَ»من بعدهم يخلفونهم في استمرارية الحياة «فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ».

و هكذا انطوى طومار هؤلآء الأنكاد عن بكرتهم على كثرتهم، ونجى نوح والذين معه في الفلك على قلتهم إذ «ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ».

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ

نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧۴).
هنا نتوسع في المعني من «خلائف» فإن الذين نجوا معه في الفلك أصبحوا بأنسالهم خلائف للغرقى في كونهم، وبعض منهم في كيانهم حيث خلفوهم بأنسال لهم في التكذيب بآيات اللّه.
«فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ» وتراه «مِنْ قَبْلُ» وهم ذر؟
و الذر أيا كان ليس في دور التكليف، وقد فصلنا القول حول آية الذر أنها تعني قضية الفطرة التي فطر الناس عليها، دون حالة سابقة على هذه الولادة التكليفة، كما فصلنا هذه الآية بنظيرتها في الأعراف.
أم «مِنْ قَبْلُ» ابتعاث الرسل بالبينات؟ فما هذا الذي كذبوا به من قبل حتى يؤنوا به من بعد! ولا إيمان قبل الرسالة، اللّهم إلّا في الفترة الرسالية، فمن المحتمل أنهم كذبوا بنوح وهو بعد فيهم، أم بعد ما توفاه اللّه وقبل أن يبعث رسلا من بعده.
أم و«مِنْ قَبْلُ» بعد بعث رسل بعده إليهم فبادروهم بالتكذيب ثم «فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ» فهو على أية حال تكذيب بما يجب الإيمان به، وطبيعة الحال في الذين يكذبون بالرسل المبعوثين بالبينات، أنهم يواصلون في تكذيبهم إياهم استمرارا لنقطة البدء السوداء، اعتداء بمثل الاعتداء «كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ»: «وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ»(۶:۱۱۰) (تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ»(۷:۱۰۱) (وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمّا ظَلَمُوا وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَ ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْ ُمجْرِمِينَ. ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ»(۱۰: ۱۳).
و هؤلآء الرسل هم كل هؤلآء الذين جاءوا بعد نوح إلى موسى عليه‌السلام لمكان:
ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى وَ هارُونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ بِآياتِنا فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (۷۵).
و من هنا إلى سبعة عشر آية تالية سرد خاطف لقصة الرسالة الموسوية إلى فرعون وملئه، منذ البداية إلى غرق فرعون وملئه وتبوّء بني إسرائيل.

نوح في رسالته

هنا انتقالة بارعة من دلائل الايمان إلى واقع الايمان الذي جاء بها رسل الايمان، وما واجههم الطغاة المستكبرون على مدار الزمان طول خط الرسالات منذ نوح إلى خاتم النبيين، وهم يحملون رسالة واحدة إلى امم هم في الحق امة واحدة، حيث الدعوات الرسالية صيغة واحدة في الجذور مهما اختلفت في بعض الصور والقشور، قضية مختلف الظروف والابتلاءات في مختلف العصور.
وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ۲۳.
«نوح» هو أول نبي من اولى العزم الذين دارت عليهم الرحى ولقد اختصت باسمه سورة تحدثنا عندها عن مدى رسالته ودعوته الصعبة الصارمة، وتصدّيات وعرقلات قومه العارمة، وهذه الدعوة التوحيدية هي إجمال عن كل تفاصيل دعوته المفصلة في آياتها.

هنا «اعْبُدُوا اللّٰهَ» وفي هود «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللّٰهَ»* والاولى لا يستلزم الثانية، فانها نص في توحيد العبودية وتلك مطلقة، وليست مقالة نوح لقومه الا التوحيد، فما هو التوفيق؟

المشركون كانوا ولا يزالون يعبدون غير اللّٰه ولا يعبدون اللّٰه لا توحيدا ولا اشراكا، واطلاق الإشراك على عبادتهم لا يعني الجمع بين العبوديتين، وانما لأنهم يعبدون من لا يستحق، كأنه اللّٰه الذي يعبد، فهي إذا إشراك في اصل استحقاق العبادة لا من حيث واقع الشركة، فاللّٰه ـ في زعمهم ـ شريك في الاستحقاق، وليس له نصيب العبادة في الواقع حسب الزعم انه أعظم من ان يعبد بنفسه، فليعبد شركاءه: «ما نَعْبُدُهُمْ إِلّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللّٰهِ زُلْفى» فلو كان يصح عبادته لم تصح عبادة غيره.

ثم «ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ» قائم مقام ذلك الحصر «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللّٰهَ» وحتى بالنسبة لمن يجمعون بين العبادتين، كما هو واقع في آخرين من المشركين ومن مقالهم «تَاللّٰهِ إِنْ كُنّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ» (٢٦: ٩٨) والشرك الاول ليس ـ في زعمهم ـ تسوية، ثم ومن مصاديق الإشراك الواقع في العبادة رئاء الناس، حيث المعبود الأصل فيها هو اللّٰه، اضافة إلى رعاية الناظر رئاء له «أ فلا تتقون»الشرك باللّٰه، و«لا تتقون» عذاب اللّٰه؟.

و هنا «ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ» برهان لا مرد له لحصر العبودية في اللّٰه إذ لا يعبد الا الإله ولا اله الا اللّٰه، فلا يعبد الا إياه.

و لكن الملأ المستكبرين من قومه الذين لم يناقشوا أمثال هذه الحجج الباهضة الناهضة للهدى، انهم تغافلوا عنها بصورتها العامة واخلدوا إلى شخصياتهم الوهمية قياسا إلى شخص نوح كالسا فالسا في حقول البرهان:

فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا إِلّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَ لَوْ شاءَ اللّٰهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ ٢٤.

«من» هنا تبعّض قومه الكافرين إلى الملأ المستكبرين الأشراف وسواهم، وهذه الأقاويل ليست الا منهم الأصول دون الهوامش الأتباع اللهم الا تبعا لهم ولفظ قول، و لم يؤن احد من ذلك الملإ وكما يحكي عنهم القرآن دون تكذيب «وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ» (١١: ٢٧).

نقول لهؤاء الأنكاد وحماقي الطغيان إذا كان بشر ـ لأنه مثل سائر البشر ـ لا فضل له على أضرابه فكيف أنتم تفضلون أنفسكم ـ بزيادة المال والمنال والقوة والأولاد وسائر زخرفات الحياة ـ على من يفقدها، وهذه كلها من حيونات الحياة، ثم لا ترضون ان يتفضل ذووا الفضل في الروحية الانسانية ـ وهي أصلها وجمالها ـ على من يفقدها، وليهديهم إلى صراط مستقيم.

فيا له من برهان قاحل جاهل هو عليهم أنفسهم قبل أن يكون على رسل اللّٰه لأنهم بشر.

ثم هم يهتكون ساحة البشرية حيث لا يستأهلونها لابتعاث نبي لهم من أنفسهم لحد الإحالة: «وَ لَوْ شاءَ اللّٰهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً» إحالة لإرسال اي رسول، ثم على فرض إمكانيته فليكن من الملائكة.

ثم تلحيقا لذلك النكران النكير يستندون إلى «ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ»وطبعا المشركين، وهم شرع سواء في استحالة او استبعاد ابتعاث بشر إلى بشر.

يستندون في نفي التوحيد إلى حقل الشرك القديم، وهو جديده وقديمه على سواء في كونه خواء وعراء عن اي برهان، الا دعايات زور وغوغائيات غرور، يرأسهم في كل ذلك الغَرور!.

و لا فحسب انهم نزّلوه إلى منزلة البشرية المماثلة لسواه، غير المفضّلة على من سواه، بل ونزلوه عنها

ايضا إلى حقل المجانين اسقاطا لرأيه عن بكرته حتى لا يسمع كبشر مثل سائر البشر:
إِنْ هُوَ إِلّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتّى حِينٍ ٢٥.
به جنة لأنه يخالف آراءنا وآباءنا الأقدمين في أصالة الشرك، وانه يدعي ضرورة المستحيل في بعدين: ان ينزل اللّه شيئا، وان يرسل بشرا رسولا «فَتَرَبَّصُوا بِهِ» نظرة علاجه عجالة ام إجالة «حتى حين» يعافى عن جنته، فسوف ترون انه لا يقول قوله الآن، ام «حتى حين» يموت على جنته فنستريح من دعايته الجنونية، ام «حتى حين»يظهر تصلبه في دعوته فتقضوا عليه في ذلك الحين، ام «حتى حين» تظهر جنّته ويظهر حقنا عليه، حينات اربع قد تعنيها كلها «حتى حين» إذ لا برهان لواحدة منها دون أخرى حتى حين.
و هذه الدعاية النحسة هي بطبيعة الحال مؤرة في المستضعفين العائشين تحت نير الذل، المحتاجين إلى رحمة المستكبرين، حيث العقل هو خير ما يرام، فمن به جنّة لا يرجى منه أي خير حتى إذا كان ممكنا وهو منه متمكن فضلا عن الدعاوي الشاردة المستحيلة غير الواردة في «آبائِنَا الْأَوَّلِينَ».
إذا فاتّباعه خروج عن العقلية الانسانية، وسنة الآباء القدامى! تحذير خطير يتحذر منه كل مسامح عن عقله، متاجر بانسانيته الحرة البالغة.
هنا ـ ولما لا يجد نوح منفذا إلى هذه القلوب المتحجرة ـ يستنصر ربّه لكي يهديه سواء السبيل:
قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ ٢٦.
و هذه آخر المطاف من تصبّره على أذاهم، وتحمّله لظاهم طول الف سنة الا خمسين عاما، وقد تكون اجمالا عن تفاصيل دعواته لربه طول هذه المدة كما في آيات عدة:
«قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ، فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»(٢٦: ١١٨) (وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيّاراً. إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلّا فاجِراً كَفّاراً» (٧١: ٢٧) وذلك بعد ما أخبره ربه «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ» (١١: ٣٤).
فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ٢٧.
«اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا»: رقاباتنا، كما تناسب صناعة فلك النجاة عن البحر اللجي «و وحينا»فقد كانت هندسة الفلك تماما وصناعته بوحي اللّه، إذ لم يكن نوح صانع الفلك، ولا ان مصنوع الإنسان دون وحي يتمكن من الإنجاء في هذه الهلكة الشاملة، فليكن إذا صنع الفلك «بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا» «وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ» (١١: ٤٢) (تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ»(٥٤: ١٤).
أ ترى فلكا تصنع بأعين اللّه ووحيه، وهي تجري بأعين اللّه، أ تراها تغرق او تتكسر ـ في موج كالجبال واللّه ربّانه! «فَإِذا جاءَ أَمْرُنا» بغرقهم ودلالة عليه بإمارة عجيبة خارقة العادة كنفس الغرق الجماعي، «وَ فارَ التَّنُّورُ» فوران ماء الغرق من تنور النار دون سائر التنور المؤّل، ثم وما ندري اين هو*؟
«فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ» اسلك «أَهْلَكَ إِلّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ»: امرأته وابنه «وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا» رسالة اللّه وعباد اللّه، سواء أكانوا من أهلك ام سواهم «إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ» كلمة واحدة لا رجعة فيها.
و لان السلوك هو النفاذ في الطريق، وهذه الفلك كانت طريق النجاة، إذا «فاسلك»لا تعني ـ فقط ـ

الإدخال، وانما التمكين والإنفاذ لكامل الإنقاذ.
ثم «من كلّ» تعني من كلّ الخليقة الا الناس، ام كلهم لمكان الاستثناء: «إِلّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» الا ان «أهلك» قبلهم يؤد الأول، إذ كان يكفي الاستثناء دون ذكر اهله، ان كانوا معنيين في «مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ».
و ترى «أَهْلَكَ إِلّا ...» هم فقط كانوا ناجين، فلم يؤن طيلة الف سنة إلا خمسين عاما الا اهله الثمانون، الا امرأته وابنه كانا من الغابرين؟
عله نعم حيث «وَ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ»(٣٧: ٧۶) (وَ نَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ»(٢١: ٧٧).
و قد يعني «اهله» اهله نسبيا وسببيا إلا من سبق، واهله ايمانيا كما تدل عليه «وَ أَهْلَكَ إِلّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلّا قَلِيلٌ»(١١: ۴٠) فالقلة الثمانون طول هذه المدة بين الملايين، هم اهله الا من سبق ومن آمن من غير اهله، إذا «فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ» هم ليسوا كل قومه، بل هم ـ فقط ـ «الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا».
و ذلك آخر المطاف لقوم صلد صلب هم حجر عثرة في حياة الإنسان وعقبة كئودة كائدة في طريق الايمان، ولأنهم كانوا في فجر البشرية في بدايات الطريق، فشاءت ارادة اللّه الإطاحة بهم من الطريق المرسوم للانسانية جمعاء، تحطما لهذه المتحجرات المتفجرات في وجهها، فتحتّما من سلوك سبيلها إلى النجاة، ولتسري ركب الانسانية قدما إلى الحياة المرماة.
فقد غسل الطوفان هذه التربة لتعاد بذرة الحياة السليمة من جديد:
«وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ».
ذلك! وقد كان بالإمكان ان ينزل اللّه عليه فلكا من السماء، او يصنعه هو دونه، ولكنه شاء ان يصنع نوح فلك النجاة بيده، لأنه لا بد للإنسان من الأخذ بالأسباب، وبذل ما في طوقه، ثم يمده اللّه في الخارج عن طوقه، والنجاة القاطعة بالفلك كانت بان يصنعها «بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا» وكما هي «تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ»! فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي نَجّانا مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ٢٨ وَ قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبارَكاً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ٢٩.
«فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ» يا نوح «وَ مَنْ مَعَكَ» المؤنين والحيوان، والاستواء هو الاستقرار: ان يأخذ كلّ مستقرّه وقراره كقرار البيت «فَقُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ» كواجب الحمد للّه «الَّذِي نَجّانا مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ» من بأسهم البائس ومن الغرق معهم، وهذه مرحلة اولى من النجاة حالة الطوفان، ثم «وَ قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبارَكاً» نفس النزول ومكانه وزمانه، مباركا في زواياها الثلاث «وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ» ـ «اللهم أنزلنا منزلا مباركا وأنت خير المنزلين»*.
هنا «أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ» فلما ذا «فقل ـ وقل» وهم عدة؟ عله لأنه إمامهم، فقوله قولهم و كلما يقوله بأمر اللّه فهم قائلوه وقائلون به قضية الإمامة المحلّقة على كل قال وحال و فعال، ولا سيما في هذه الحالة الخطرة والرحمة العطرة المستوجبة لقالة الحمد والدعاء والاستدعاء.
فقطع دابر الظالمين يتطلب الحمد له من المظلومين، بل واللّه يقولها تعليما لهم وتأديبا «فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» (۶: ۴۵).
و ترى كيف أصبح الإستواء على الفلك نجاة لمّا تنزل منزلا مباركا؟
لأنها صنعت بعين اللّه ووحي اللّه، وهم ركبوها باسم اللّه: «وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللّٰهِ مَجْراها وَ

مُرْساها» (١١: ٤١) وهي «تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ» (٥٤: ١٤) أ فيبقى بعد هذا من شك في النجاة؟! إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ وَ إِنْ كُنّا لَمُبْتَلِينَ ٣٠ (إن» مخففة عن مثقلة تعني تأكيد مدخولها وكذلك اللام، تأكيدان اثنان انه تعالى يبتلي عباده بألوان البلاء، ابتلاء لنوح ومن آمن معه بالصبر والشكر، تمحيصا للشكر والتوجه والتأديب والأجر والتقويم، وابتلاء للذين كفروا بازدياد الكفر والكفران والنكران وإلى مصير النيران.

ف «إِنَّ فِي ذلِكَ» العظيم العظيم في تاريخ الرسالات ولفجرها وبزوغها «لآيات» تدل المستدلين على علمه وحلمه وحكمته وقدرته، وواقع وعده للمؤنين وعلى الكافرين «يا ايها الناس ان الله قد أعاذكم من ان يجور عليكم ولم يعذكم من ان يبتليكم وقد قال: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ وَ إِنْ كُنّا لَمُبْتَلِينَ»*.

و «كنا» هنا تضرب إلى اعماق الماضي الضارب إلى مثلث الزمن كسنة إلهية يوم الدنيا.

ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ ٣١.

و هم ذرية نوح حيث «وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ» وتراهم ذرية النسب؟ فما شأن المؤنين الآخرين! علهم اهله الناجون حيث تعم ذرية النسب وذرية الإيمان بغير النسب، بل هم ذرية الايمان ككل في نسب او سبب ام غير سبب ولا نسب، وقد تلمح له سابقتها: «وَ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ» مع العلم ان اهله أعم من اهله الخصوص كما دلت عليه آية هود «وَ أَهْلَكَ إِلّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ»(٤٠).

و اما ان نوحا هو الأب الثاني للبشر، فهو ان كان ثابتا فليس يستغرق كل البشر، وانما ـ على اكثر تقدير ـ الاكثرية الساحقة اللاحقة من البشر حيث انتسلوا من ذريته في النسب وهم ثلة ثم الآخرون هم قلة وترى «قَرْناً آخَرِينَ» هم كل المنتسلين من الناجين في الفلك؟ وما كان كلهم كافرين! ام انهم خصوص الكافرين منهم المكذبين؟ ولا يختصهم ذلك الإنشاء الجديد! «وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ» هي عبارة أخرى عن «قَرْناً آخَرِينَ» ولكنه يقصد منهم في حقل الدعوة الرسالية من هم أضراب قوم نوح.

و مهما اختلفت الآراء في: من هم هؤلآء المكذبون؟ الا ان في انشاءهم بعد قوم نوح، و إرسال رسول فيهم بعد نوح، برهان قاطع لا مرد له انهم عاد قوم هود فإنهم كانوا بعد قوم نوح وكما خوطبوا «وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ» (٧: ٦٩) كما وجاءت قصة عاد تلو قصة نوح في سورة الأعراف وهود والشعراء وهم يذكرون قبل ثمود فيما تجمعهما من آيات، إذا فهم «قَرْناً آخَرِينَ» مهما كان منهم مؤنون:

فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ ٣٢.

و صيغة الدعوة نفس الصيغة السابقة السابغة، حيث الرسالة واحدة وامم الرسل هم امة واحدة في هذه الدعوة التوحيدية، وكما المعارضة ضد الدعوة نفس المعارضة، سلسلة موصولة طول تاريخ الرسالات رسلا ومرسلا إليهم:

وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ وَ أَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ما هذا إِلّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمّا تَشْرَبُونَ ٣٣.

«وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ» وهم في ثالوثهم المنحوس «الَّذِينَ كَفَرُوا ـ وَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ ـ وَ أَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» قالوا قيلتهم في نكران الأصل الثالث: الوحي والرسالة: «ما هذا إِلّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ» فانه «يَأْكُلُ مِمّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمّا تَشْرَبُونَ» آخذين المماثلة في حيونة البشرية وحاجياتها المادية دليل

المماثلة المطلقة بين بشر و بشر، متغافلين متجاهلين عن رحمات روحية وان اللّه يمن على من يشاء من عباده، فمقياسهم الاول والأخير هو المادة والمادة فقط «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَ النّارُ مَثْوىً لَهُمْ» (۴۷: ۱۲) والإتراف ـ وهو التوسيع في النعم فوق الحاجة ـ انه يحجب الفطرة، ويغلّظ المشاعر، ويغلّط الشعور، ويسد المنافذ وتفقد القلوب حساسيتها المرهفة، فالمترفون كالعفن يفسدون الجو الذي فيه يعيشون، ولا سيما إذا كانوا كافرين باللّه ويوم لقاء اللّه.

ثم هم يمحورون المماثلة في البشرية لإبطال الطاعة وهم يطيع بعضهم بعضا والمماثلة نفس المماثلة، لأنهم يمحورون فضل المادة والترف أصلا أصيلا وحيدا في التفضيل:

وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ ۳۴.

حيث المماثل يجعل من طاعته لمماثله ترجيحا بلا مرجح، لأن الرجحان عندهم هو فقط في ميزات الحيوان، متغافلين عن انسانية الإنسان.

و ترى إذا كانت طاعة المماثل في البشرية خسارا، فلما ذا هم أنفسهم يحمّلون طاعتهم على من دونهم؟ أ لأنهم ـ فقط ـ بشر وسواهم حيوان؟ أم هم مناقضون في قيلاتهم الويلات، وذلك هو الملاحظ فيها عند كل حماقى الطغيان، ثم وهم بأتباعهم يعبدون أحجارا واخشابا واين الجماد من الإنسان؟

و منهم من هم يحتجون على نكران رسالة البشر انهم وإياهم في اصل البشرية سواء و في فضلها المادي لا سواء «وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ»(۴۳: ۳۱) وهؤلآء اقل من أولاء خطأ مهما هم كلهم مخطئون.

ذلك! ومن ثم يحاولون إحالة رسالة هذا الرسول البشر لدعواه البعيدة عندهم كحجة اخرى على دحضه بمحضه:

أَ يَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُراباً وَ عِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ۳۵ هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ۳۶.

«إِذا مِتُّمْ» زوالا للحياة «وَ كُنْتُمْ تُراباً ...» زوالا للأجساد «أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ» من اجداثكم بأرواحكم وأجسادكم، فيا له مراما ما أبعده «هَيْهاتَ هَيْهاتَ» بعيدا بعيدا لحد الاستحالة «لِما تُوعَدُونَ»: «أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ» وهم بهذه الحجب الثلاث عن واقع المرام وعن الحق المرام، هم مرتكسون ركسة الحيونة الرذيلة، منتكسون إليها عن كل فضيلة، وقد هدرت ميزات الانسانية فيهم ف «أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ»! ثم هم بعد هذه الدعاية والدعوى يحصرون الحياة في حياتهم الدنيا ليست الا:

إِنْ هِيَ إِلّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۳۷.

ذلك وكما قال نظرائهم: «إِنْ هِيَ إِلّا حَياتُنَا الدُّنْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ» (۶: ۲۹) (وَ قالُوا ما هِيَ إِلّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ وَ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلّا يَظُنُّونَ» (۴۵: ۲۴) وعلّ الآخرين ـ فقط ـ هم دهريون كما قد تشهد ما قبلها: «أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ ...».

و تراهم حين يحصرون حياتهم في الحياة الدنيا، كيف يقدّمون «نموت» على «نحيى» و الحياة بعد الموت هي الحياة الأخرى، تناقضا صارحا صارخا ينقض دعواهم الاولى؟.

قد تعني «نموت» جماعة مثلنا نحن الأحياء ثم لا نبعث «و نحيا» جماعة اخرى لمّا يحيوا، وهم ـ كما نحن ـ يموتون ثم لا يبعثون، ويجمع عدم بعثهم احياء وأمواتا «وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ»سواء الأحياء

الحاضرون الذين يموتون، او الذين سوف يحيون ثم يموتون.
ام ان «نموت» تعني ما تعنيه «نحيى» مقالة التناسخية، فكل من يموت عن جسده يحيى في آخر حتى تنتهي الحياة الدنيا ثم لا حياة بعدها.
ام انه بيان واقع حياتهم بعد موتهم خلاف زعمهم، اضافة إلى الأوّلين، فأصبحت الآية تجمع بين هذه الثلاث، والمجموعة صالحة دلاليا ومعنويا لتعنيها، وما أجملها عبارة و ألطفها جمعا بين الواجهات المعنية حقا وزعما.
إِنْ هُوَ إِلّا رَجُلٌ افْتَرى عَلَى اللّهِ كَذِباً وَ ما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ٣٨.
و هنا أصبحوا وكلاء عن اللّه يذودون عن ساحته فرية الرسالة التي هي قضية ربوبيته العادلة الرحيمية.
فهم ـ إذا ـ لا يؤنون بمدعي الرسالة قضية إيمانهم باللّه، معاكسة هارعة رأسا على عقب، وكأنهم هم الصادقون في ايمانهم إذ لا يؤنون بمن يفتري على اللّه كذبا، فليشكرهم اللّه على ذلك ويشكرهم الشاكرون! ولما وصلت حالتهم البئيسة التعيسة الآية هذه الهارفة النحيسة، حيث صمت آذان قلوبهم وعميت ابصارها.
قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ ٣٩.
نصرة كما نصر نوح على قومه الظالمين مهما اختلفت صورتها، فطمأنه ربه بالاجابة:
قالَ عَمّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ ٤٠.
و ماذا تفيدهم الندامة والإيمان ـ لو آمنوا ـ عند رؤة بأسهم؟! فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ ٤١.
«بالحق» هنا قد تعني بسبب الوعد الحق، او مصاحبة الحق الذي رفضوه، او الحق الذي وعدوه، والصيحة هي التي جعلتهم كالرميم، حيث خلّفت الريح العقيم «وَ فِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ»(٥١:٤٢).
و الغثاء هي هشيم الأوراق: «إِنّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ»(٥٤: ٣١) فقد عاجلهم اللّه بهلاك الاستئصال فطاحوا كما يطيح الغثاء إذا سال به السيل الجارف، حيث الغثاء ما حملت السيول في ممرها من أضغاث النبات وهشيمها، فكأنهم هلكوا ولم يحس لهم اثر كما لا يحس اثر ما طاح به السيل من غثاء، فجعلناهم كالغثاء الطافح في سرعة انجفاله وهوان فقدانه واضمحلاله «فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ»؟
ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ ٤٢.
كثمود قوم صالح وسائر الفراعنة والنماردة المعرقلة لمسير الرسالات.
ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ ٤٣.
فان اجل العذاب المهدّد محدّد بما يراه اللّه، ف «ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها» المقدر لها ان يعجلها «وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ» تأجيلا لها، فانها من الآجال المحتومة الأممية حين تستحق العذاب ولات حين مآب.
و هذه سنة اللّه الجارية في تاريخ الدعوات الرسالية، كل قرن يستوفي اجله ويمضي غثاء:
ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَ جَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ٤٤.

«ثم» بعد نوح إلى موسى «أَرْسَلْنا رُسُلَنا» من ولي عزم كإبراهيم ام سواه كسواه «تَتْرا» تلو بعض البعض ولصق بعض، متواترين في سلسلة الرسالة والدعوة دونما انقطاع «كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ» دونما انقطاع، وكأنهم تواصوا بينهم «فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً» في عذاب الاستئصال مهما اختلفت ألوانه وأطواره «وَ جَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ» إذ لم نبق منهم على اثر فلم تكن منهم من باقية الا «أحاديث» عنهم في صفحات التاريخ وألسنة الناس وبقيت العبرة ماثلة امام الناس في مصارعهم، حيث محيت العيون وعفيت الآثار فلم تبق منهم الا الآثار «فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ» ـ «فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ! ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى وَ أَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ ۴۵ إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً عالِينَ ۴۶.

و هنا إرسال كسائر الرسالات بآيات كسائر الآيات وسلطة البرهان كسائر السلطات الرسالية، مهما اختلفت في بنودها وقيودها ومظاهرها، وانما يذكر هنا موسى بعد رسل تترى لأنه كان يحمل ولاية العزم في أعظم رسالة إلهية وأبعدها غورا، وأعمقها طورا، وأكثرها عراقيل، وأشدها في مواجهة الأباطيل، فكانت ـ إذا ـ قمة رسالية مرموقة، كما ان آياتها بعد القرآن قمة منقطعة النظير.

«الى فرعون» رأس الزاوية الطاغية «و ملائه» هوامش الضلالة «فاستكبروا» عن هذه الرسالة بصيغة مطردة بين المستكبرين المكذبين «وَ كانُوا قَوْماً عالِينَ» في كافة القدرات الزمنية والمقدرات المادية، وبطبيعة الحال كانوا مستعلين.

فَقالُوا أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَ قَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ ۴۷ فَكَذَّبُوهُما فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ۴۸. فصيغة التكذيب نفس الصيغة وهم كانوا مؤنين لبشر مثلهم.

سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۰۵ الى ۲۲۱

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (۱۰۵) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَ لا تَتَّقُونَ (۱۰۶) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۰۷) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۰۸) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۰۹)فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۱۰) قالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (۱۱۱) قالَ وَ ما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۱۲) إِنْ حِسابُهُمْ إِلاّ عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (۱۱۳) وَ ما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (۱۱۴)إِنْ أَنَا إِلاّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۱۱۵) قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (۱۱۶) قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (۱۱۷) فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۱۸) فَأَنْجَيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (۱۱۹) ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ (۱۲۰) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۲۱) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۱۲۲)

ثمانية عشر آية تستعرض دعوة نوح الرسالية حوارا مع قومه بصورة خاطفة منذ البداية حتى غرقهم أجمعين:

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۱۰۵.

«قوم» في لفظها مؤث تصغيرها قويمة، يجوز في فعلها المقدم الوجهان ومن الثاني: «لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ» وهي كالظرف والمجرور، تعم حين انفرادها القبيلين، وحين تنضم إلى نساء تعني قبيل الرجال،

كما «قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ» تلحقها «وَ لا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ».
ف «قَوْمُ نُوحٍ» هم كل المرسل إليهم نوح، وهو أوّل من دارت عليه الرحى من أولي العزم الخمسة، وقصة نوح تقصّ في سور عدة* وتختص بها سورة واحدة، مما يشي إلى بالغ الأهمية في عرضها في هذه الإذاعة العالمية القرآنية، كقصة موسى وابراهيم والمسيح ومحمد صلوات اللّه عليهم أجمعين.
و ترى كيف «كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ»؟ ولم يأت في سائر القرآن إلّا تكذيبهم ـ فقط ـ نوحا لا سواه! علّه لأنه تكذيب لسلسلة الرسالات ككل، فان مقالهم هو مقال تكذيب الرسالة بأسرها، وان تكذيب رسول واحد ثابت الرسالة بآياتها هو تكذيب للرسالات كلّها، ولا سيما الرسالة الأولى وهي مفتتح ولاية العزم، أم لأنه «مكث نوح ألف سنة إلا خمسين عاما لم يشاركه في نبوته أحد، ولكنه قدم على قوم مكذبين للأنبياء الذين كانوا بينه وبين آدم ..»*.
إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَ لاتَتَّقُونَ ١٠٦.
«إذ قال» هنا كظرف لذلك التكذيب الجماهيري، تؤد أن تكذيبه كان تكذيبا للمرسلين، مهما سبقه تكذيبهم من قبل.
و تلك الأخوة هي الأخوة في الإنسانية وفي المواطنة، فلا بد أن تنجر إلى الأخوة في حق الإنسانية من هداها، طردا لرداها، ومن حق الأخ على الأخ ان يحاول في هداه وقد فعل نوح وبلسان الأخوة الحانية «أَ لا تَتَّقُونَ» اللّه فيما تبغون وأنتم تطغون؟ و«أَلا تَتَّقُونَ» في بزوغ الدعوة مما يزعزعهم عن تقاليدهم الجاهلة، ويجعل إلى قلوبهم منفذا للاستماع إلى الدعوة الرسالية، تخوّفا من الواقعة الموعودة، إذ هم ليسوا على علم مما هم عليه.
و لأن تقوى اللّه لا بد لها من صورة كما لها من سيرة، فوسيط الرسالة هو لزامها على أية حال، وكأنه يجيب بعدئذ عن سئوال كيف نتقي اللّه؟
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٠٧.
أمين على رسالة اللّه إليكم، فلا تجدون فيّ خيانة في تلك الأمانة حالا ومآلا وأفعالا، و كما لمستموه مني حتى الآن، إذ ما خنتكم كخلق اللّه ومرسلا إليكم من اللّه، فكيف أخونكم في رسالتي لكم من اللّه؟
وهنا يعود مرة ثانية يأمرهم بتقوى اللّه بذريعة الرسالة:
فَاتَّقُوا اللّهَ وَ أَطِيعُونِ ١٠٨.
«أطيعون» في: كيف يتقى اللّه، فإني أحمل رسالة اللّه بكل امانة، ثم ولا أكلفكم على رسالتي ـ بكل صعوباتها وملتوياتها ومنحنياتها ـ اجرا، مما يزيد لي تصديقا:
وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ ١٠٩.
و عدم سئوال الأجر أو قبوله سنة مستمرة طول خط الرسالات، مما يسهّل الإقبال إليها دونما صعوبة وتكلف، فالركن الأوّل لها هو الايجابي:
«إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ» والثاني هو السلبي: «وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ» فالدافع لتصديقها واقع، والمانع عنها غير واقع، فما بقي هنا إلّا القبول، وبطبيعة الحال لا يدعي الرسول ما يدعيه دون برهان مبين يقطع كل الأعذار ويقنع الأفكار.
فَاتَّقُوا اللّهَ وَ أَطِيعُونِ ١١٠.
يكرر هنا الأمر بتقوى اللّه وطاعته هو كرسول اللّه، لتكرار الدافع لها، وهو السلب إلى الإيجاب، وهذه

ثالثة ثلاثة في أمر التقوى، مما يدل على انها هي المحور الأصيل في كل شرعة إلهية، حيث تجتمع فيها كل الأصول العقائدية والفروع العلمية، من واجبات ومحرمات تجمعها تقوى اللّه وطاعة الرسول في اللّه.

و ذلك خلاف ما عهده الناس من الكهّان وقسم من رجال الأديان من استغلال الدين لابتزاز الأموال بشتّى الأساليب، فدعوة اللّه الحقة متجردة عن كل أجر إلّا من اللّه.

و خلاف عهد آخر لهم من النسناس المتزيين بزي الدعاة إلى الحق وهم في الحق على باطل نكد، فلكي يلصقوا باطلهم إلى قلوب الناس لا يطلبون أجرا بل ويصرفون أموالا طائلة ويرخّصون الجنس، ويقدمون كل ألوان المشتهيات الحيوانية، لكي يجلبوا أنظار الناس إلى ما يدعون.

و لكن رجالات اللّه، الدعاة إلى اللّه، هم متجردون عن كل هوى إلّا هوى اللّه، وعن كل أجر إلّا من اللّه، متزودين بآيات اللّه البينات، واقعيين متصلبين في وجهاتهم الدعائية لا تحركهم العواصف ولا تزيلهم القواصف.

و المهم في دعامتي الرسالة الحقة الأمانة ثم الأمانة، وليس عدم سئوال الأجر إلّا قاطعا للأعذار المادية بعد قطع الأعذار المعنوية، فليس ـ إذا ـ مستقلا بجنب الأمانة، و لذلك تأخر عنها تأكيدا للتصديق.

فالرسول الأمين الذي يطلب أجرا لا يتوفّق في دعوته لا سيما والأكثرية الساحقة من المهتدين فقراء، وغير الأمين وإن دفع أجرا بديل طلبه إياه لا يدعو إلّا إلى النار، فليكن الرسول جامعا بين الأمرين «لِئَلّا يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ».

قالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ١١١.

«فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلّا بَشَراً مِثْلَنا وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَ ما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ» (١١: ٢٧).

نعم «الأرذلون» «أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ» المعروفون عندهم بحساب الهوى وقيم الدنيا الرذيلة، ألّا مال لهم ولا منال، فلو كانت دعوتك حقة لاتبعك الأعلون، ذووا الحنكة المتحضّرون، فلمّا اتّبعك الأرذلون عرفنا أن دعوتك رذيلة لا تحمل أية فضيلة.

أم إن كانت دعوتك حقة فلتطرد التابعين الأرذلين حتى يفسح لنا مجال اتباعك، حيث التسوية بيننا وبينهم ضلال مبين.

لكن «الأرذلون» في ميزانهم المتأرجف اللعين هم السابقون دوما إلى الرسل، أخفاء في قبول الحق لا تثقلهم وتقعدهم عنها أغلال الثروات والطنطنات والكبرياءات والمصلحيات القائمة على الأوضاع المزيفة.

فإيمانهم الموعود شريطة طرد المؤنين: «الأرذلون» في حسابهم هو خلاف متن الايمان وقضيته، حيث يوحّد بين قبيل المؤنين، فلا أكرم عند اللّه منهم إلّا أتقاهم، ولا فوارق بينهم إلّا تقواهم، فهي التي توحّد صفوفهم، وهي التي تميز بينهم بفاضلها.

هنا نجد الجواب الحاسم من نوح في حلقات أربع كل واحدة تكفي حسما لعذرهم الغادر: قالَ وَ ما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ ١١٢.

فإن كانت «الأرذلون» حالتهم السابقة على الايمان، فما علمي بأعمالهم السابقة؟ وإنما المعلوم عندي حالتهم الحالية وهي الايمان، وذلك هو المطلوب منهم الآن أيا كانت أعمالهم السابقة.

و حتى لو كانوا محاسبين برذالة سابقة ـ ولا يحاسبون ـ «يغفر لهم ما سلف»بايمانهم الخلف، ف: إِنْ حِسابُهُمْ إِلّا عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ١١٣.

و لست أنا المحاسب، فما أنا إلّا رسول الإيمان إلى أيّ كان، فحين تؤن جماعة مهما كانت حالتهم السابقة رذيلة، كيف أطردهم، وما حسابهم عند اللّه إلا حسنا يسيرا فليس ـ إذا ـ «وَ ما عِلْمِي ... إِنْ حِسابُهُمْ» إلّا تنازلا في الحوار، أن ليس عليّ حساب لو أنهم محاسبون بما كانوا يعملون ولن! ثم وما عليّ إلّا البلاغ المبين فقبولا لايمان من أقبل دون أية محاسبة.

وَ ما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ١١٤.

فبأية حجة أطرد المؤنين وما أحمل إلّا رسالة الايمان «وَ ما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (٢٩) وَ يا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْطَرَدْتُهُمْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠) ... وَ لا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْراً اللّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظّالِمِينَ»(١١:٣١).

و هذه سنّة رسالية دائبة: جذب المؤنين وطرد المعاندين، فكيف ـ إذا ـ أطرد المؤنين؟ «وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ ما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظّالِمِينَ»(۶: ۵۲) أطردهم ثم أطري الكافرين المتطاولين المستكبرين؟!.

إِنْ أَنَا إِلّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ١١٥.

«نذير» من عذاب أليم «مبين» سبب النذارة ومادتها، فكيف أطرد المنذرين المؤنين لرغبة المتأنفين المستكبرين، فان هي ـ إذا ـ إلّا رسالة الظلم والاستكبار!. و لقد قلت لكم من ذي بدء «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ» وتلك ـ إذا ـ خيانة في الرسالة أن أطرد المؤنين، ونقضا لصالحها إلى مصلحية الجمع لجم غفير من المستكبرين وهم كاذبون، بذلك يثبت نوح جدارة هذه الرسالة الأمينة أنها لا تخضع لرغبات الأقوياء الأغوياء، وإنما لحكم اللّه جذبا للأبرياء الأتقياء.

قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ١١٦.

هذا جواب العاجز اللعين إذ يتنقّل من الحجة ـ إذ يراها عليه لجة ـ إلى التهديد «لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ» عن دعوتك ودعايتك «لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ» وقد كان الرجم أشد عقوبة للمتخلفين، فقد بدأوا بحوار، ثم تطلّبوا منه أن يأتيهم بما يعدهم: «قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ» (١١: ٣٢) وآخر المطاف «لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ»! قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ١١٧ فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً وَ نَجِّنِي وَ مَن مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ١١٨.

عرض لحال معلومة عند اللّه، ولكنها موقف الدعاء تعرض فيه كل حالة بقالة متواضعة، ولأن تكذيب الرسالة راجع إلى تكذيب المرسل فنوح هنا في ذلك العرض يتطلب إلى ربه ان يعالج موقفه الرسالي بفتح منه ونجاة له ولمن معه من المؤنين، مما يلمح أنهم هدّدوا بالرجم كما هو، وقد يشير إليه «مِنَ الْمَرْجُومِينَ» ممن رجم أو يحكم له بالرجم. «فافتح ..» احكم بيني وبينهم حكما قاطعا وأمرا فاصلا، يفتح الباب المبهم بعد ما استصعب رتاجه، وأعضل علاجه، ويقال للحاكم: الفتّاح، لأنه يفتح وجه الأمر بعد اشتباهه واستبهام أبوابه «وَ هُوَ الْفَتّاحُ الْعَلِيمُ» يفتح بعلم ويغلق ما انغلق ويفتق ما ارتتق.

و هذا الفتح هو بطبيعة الحال واقعه المميّز بين الفريقين وفيه نجاة المؤنين وهلاك الكافرين دونما اقتراح لنوعية الفتح استسلاما لأمر ربه، فليس فتحا في حكمه شرعة لأنه كان واقعا منذ الدعوة، بل

ومنذ بزغت شرعة في هذه البسيطة.
و قد فتح اللّه بينه وبينهم بعد ردح بعيد من الزمن، حيث الدعوة كانت ألف سنة إلّا خمسين عاما:
فَأَنْجَيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۱۱۹ ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ ۱۲۰.
و لقد كان فلكه مشحونا بشحنات الحيوان من مختلف أجناسها، ومن الذين آمنوا معه و«المجهز الذي قد فرغ منه ولم يبق إلا دفعه»*.

لبث نوح عليه‌السلام في رسالته الف سنة الا خمسين عاماً

هنا عرض لنماذج من الفتن التي اعترضت الدعاة الرساليين من لدن نوح وإلى خاتم النبيين صلوات اللّه عليهم أجمعين، وليعلم الذين قالوا آمنا ان ليس الايمان رخيصا دونما فتنة في سبيله، وليتذكر الفريقان مصارع الغابرين والعاقبة الحسنى للمتقين.
وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلّا خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَ هُمْ ظالِمُونَ ۱۴.
«وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ» وطبعا «قومه» في هذه الرسالة العالمية هم العالمون أجمعون، كما في غيره من اولي العزم الذين دارت عليهم الرحى، فليس قومه ـ فقط ـ مواطنوه الخصوص: «فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلّا خَمْسِينَ عاماً» وهو اللبث الرسالي، إذ «فلبث» بعد «أرسلنا»* فليس ـ إذا ـ لبثه في كل حياته وعلها آلاف من السنين خلافا للتوراة القائلة انها سنّي عمره ككل! ولا نحتمل أن السنة هنا أقل مما نعرفها حيث النص يمانع غيرها، و«إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللّٰهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللّٰهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ». تجعل السنة إثني عشر شهرا على طول الخط دونما استثناء حتى يعني من السنة غيرها لوقت ما.
و ليكن ذلك العمر الطائل نبراسا ينير الدرب على هؤلآء الذين يتشككون ويشكّكون في عمر صاحب الأمر عجل اللّه تعالى فرجه الشريف.
و إذا كان ذلك العمر الطويل لذلك الايمان القليل: «وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلّا قَلِيلٌ» فبأحرى لصاحب الأمر عمر أطول ليملأ الله به الأرض قسطا وعدلا بعد ما ملئت ظلما وجورا»: وبيمنه رزق الورى وبوجوده ثبتت الأرض والسماء! وقد يعني عرض سنّي الدعوة لنوح عليه‌السلام تسلية لخاطر الرسول محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله ألّا يضيق صدره بتعنّد قومه وتعنّتهم ضد الدعوة، ونموذجا من طول العمر يفتح الطريق لتقبّل طائل العمر لصاحب الأمر، إذ لم يذكر نبي في القرآن بسني رسالته إلا نوح.
و لقد عرضت قصص نوح عليه‌السلام في معارض ثلاث سورة من القرآن، مختصرة كما هنا وفي غيرها، ومفصلة كما في أخرى، ولم تأت سنّي رسالته إلّا هنا.
و لماذا «خَمْسِينَ عاماً» استثناء عن «ألف سنة» وهما واحد؟ علّه رعاية لعدم التكرار لفظيا، والتوافق معنويا، قضية الفصاحة القمة القرآنية، كما وفي الاستثناء حصر- يحدّد سنّي الرسالة دون احتمال نقيصة ولا زيادة، ثم هذه الصيغة أجمل من «تسعمأة وخمسين سنة»لفظيا كما هي أكمل منها معنويا.
و لقد كان عاقبة امر قومه اللّد الكافرين المتعنتين «فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَ هُمْ ظالِمُونَ»بطوفان الظلم،

فاخذهم ـ إذا ـ طوفان بطوفان جزاء وفاقا.
فَأَنْجَيْناهُ وَ أَصْحابَ السَّفِينَةِ وَ جَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ ١٥.
«أَصْحابَ السَّفِينَةِ» هم المؤنون القلة الذين آمنوا معه بين أقارب نسبيا وأغارب، وكيف «جَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ»؟
انها بقصتها المقصوصة في كتابات الوحي وهذا القرآن العظيم، آية للعالمين على مدار الزمن الرسالي منذ نوح الى خاتم النبيين والى يوم الدين، وعلّها كذلك ببعض انقاضها الباقية، المرقوم عليها اسماء الخمسة الطاهرة المحمدية كما فصلناها في «الحاقة» آية حسية مبصرة للعالمين*.
فضمير التأنيث راجع إلى قصة السفينة وإليها نفسها دونما اختصاص بواحدة دون الأخرى، ومما يدلنا على آيتها الحسية «وَ لَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ» (٥٤: ١٥) و«لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَ تَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ» (٦٩: ١٢)
فلا يصغى إلى قبلة القائل من السفارة السوكيتية ـ بعد ما نشرت المجلات* هذه الآية الإلهية ـ أنها لا أصل لها، إخفاء للحق الصادر عنهم أنفسهم، وما ذا بعد الحق إلّا الضلال!.
وَ إِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللّٰهَ وَ اتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١٦.
«إذ قال» تحدّد قومه المخاطبين هنا بقومهم الحالي الحضور عند قوله، ولأن القالة هذه هي قالة الرسالة الابراهيمية، فقومه ـ إذا ـ هم قومه الرسالي، فعلى حملة شرعته حملها الى كافة المكلفين عرض المكان وطول الزمان لهذه الرسالة السامية، وكما هي طبيعة الحال في كل رسالة عالمية لمن دارت عليهم الرحى من اولي العزم من الرسل.
و هذه القالة الإبراهيمية هي القالة الرسالية لكافة المرسلين، وهي الأمر بعبادة اللّٰه وحده وتقواه وحده «ذلكم» اللّٰه «خير لكم» ممن سواه في عبادته وتقواه «إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» وتعرفون الحق عن الباطل، و«تعلمون» ان اللّٰه هو الحق المبين، فمن يعلم انه اللّٰه كيف ينحو الى سواه؟ واين هنا «وحده» ولا حصر تخص به التقوى والعبودية؟ علّه لأنهم ما كانوا يعبدون اللّٰه حتى مع شركائهم زعما منهم انه لا يعبد إلّا بشفعاء عنده، فإذا صحت عبادته دون واسطة فقد بطلت عبادة من سواه، معه أولا معه، حيث الفرع ساقط بوجود الأصل!

سورة هود (١١): الآيات ٢٥ الى ٩٤

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّٰهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلاّ بَشَراً مِثْلَنا وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَ ما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ (٢٧) قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ آتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَ نُلْزِمُكُمُوها وَ أَنْتُمْ لَها كارِهُونَ (٢٨) وَ يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً إِنْ أَجرِيَ إِلاّ عَلَى اللّٰهِ وَ ما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (٢٩) وَ يا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللّٰهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللّٰهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَ لا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللّٰهُ

خَيْراً اللّٰهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظّالِمِينَ (٣١) قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ (٣٢) قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللّٰهُ إِنْ شاءَ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَ لا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللّٰهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمّا تُجْرِمُونَ (٣٥) وَ أُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧) وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنّا فَإِنّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (٣٩) حَتّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلاّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلاّ قَلِيلٌ (٤٠) وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللّٰهِ مَجْراها وَ مُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ وَ نادى نُوحٌ ابْنَهُ وَ كانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَ لا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ (٤٢) قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّٰهِ إِلاّ مَنْ رَحِمَ وَ حالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْماءُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ (٤٤) وَ نادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ(٤٥) قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (٤٦) قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ إِلاّ تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنّا وَ بَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنّا عَذابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)

خمسة وعشرون آية تتحدث عن قصة نوح عليه‌السلام مع قومه بقول فصل لا يقل عن سورة نوح نفسه إلّا بثلاث آيات، ولكنها أكثر منها استعراضا لأصول دعوته وحواره طول بلاغه حتى غرقهم.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللّٰهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦).

هذه الدعوة الأولى الرسالية بين أولي العزم من الرسل، بازغة كسائر الدعوات الرسالية بالأصول الثلاثة، ف «أَرْسَلْنا ... إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ» هي أصل الرسالة ومسئوليتها، ثم «أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللّٰهَ» هي أصل التوحيد عبارة أخرى عن كلمة الإخلاص «لا إِلهَ إِلَّا اللّٰهُ»ومن ثم «إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ» هي أصل المعاد.

و هنا «أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللّٰهَ» دليل أنهم كانوا معترفين باللّٰه مشركين به ما سواه، وتوحيد العبودية للإله الأصل هو من القضايا التي قياساتها معها، حيث الإشراك باللّٰه ظلم عظيم فطريا وعقليا وفي كافة الموازين الإنسانية بل والحيوانية، وحتى أدنى شعور لأدنى حشرة!.

و هنا «إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ» خلاصة وكلاسة من رسالته كلها، وعلّها خبر ل«و رسالته إني ـ أو ـ قال: إني ...» ثم بيّن نذارته بالقطاعات التالية.

و لأن عبادة اللّٰه بحاجة إلى شرعة لها من اللّٰه فقد كانت له شرعة فرعية متفرعة على هذه الأصول الثلاثة، مهما كانت محدودة بحدود الحاجات والإمكانات*.

و هنا «عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ» قد تعني إلى عذاب الأخرى عذاب الاستئصال في الأولى وكما تطلّبوه منه: «فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ» (٣٢).

و قد ذكر «نوح»عليه‌السلام بدعوته في (٤٣) موضعا من الذكر الحكيم ضمن (٢٩) سورة مما يدل على هامة دعوته، وهنا كأهم ما يؤى بذاكرة يذكر سبع مرات أكثر من كل سورة حتى سورة «نوح»حيث يذكر فيها ثلاث مرات، فهنا تفاصيل لا توجد في غيرها من مسارح ذكراه.

فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلّا بَشَراً مِثْلَنا وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَ ما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ (٢٧).

هنا يقدّم «الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ» ثالوث الأعذار علّهم ينجون من كرور دعوته ووفور دعايته وهي: «ما نَراكَ إِلّا بَشَراً مِثْلَنا» في البشرية، ولا بد أن يكون الرسول إلى البشر من صنف هو أعلى من البشر كالملائكة ـ كما يقوله البراهمة ـ متغافلين أن الملائكة ليسوا كأصل أفضل من البشر، وحتى لو كانوا أفضل منه، ففي البشر نفسه تفاضلات من الناحية الروحية كسائر التفاضلات، أو ليس المتحكم على جمع مفضلا عليهم طوعا أو كرها؟ أم لا يتفاضلون أبدا فيما بينهم أنفسهم بالقيم الزائفة وهم أمثال في البشرية؟. ولكنهم لما لم يجدوا في نوح مقياس الفضيلة الظاهرة أنكروا رسالته الربانية.

ثم «وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ» وهو الرأي البادي الأول، قضية بادي النظر، رغم أن بادي الرأي هو دون تأمل ونضج، لا يعتمد عليه، فقد أجابوا عن حجتهم هذه اللجة ب«بادِيَ الرَّأْيِ».

فلئن اتبعك أفاضلنا بادي الرأي لكنّا نفضلك علينا رغم أنك بشر مثلنا.

فمن ثم «ما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ» تتفضلون به علينا بالرسالة، لا فيك يا نوح ولا في أتباعك القلة الذليلة الرذيلة.

و هنا «ما نرى» في ثالوثها، سناد إلى عدم الرؤة البادية وهي الحسية الخسيسة التي يتبناها الحسيون الناكرون لما وراء الحس، ثم «بادى الرأي» وهو الرأي دون غور وتأمل الذي مجاله وراء الحس أم والحس فيما يحتاج إلى تأمل، ثم «نظنكم»سنادا إلى غير العلم في النكران.

و كيف تكذّب رسالة اللّه ب«ما نرى» «بادي الرأي» «نظنكم» وهو جهالة مثلثة مفلّسة؟!.

ف «ما نرى» الأولى تتبنى ظاهرة البشرية، أننا لا نجدك إلّا مثلنا فيها، فكيف تتفضل علينا ولا فضل لك علينا، متجاهلين الفضائل الروحية غير الحسية.

و «ما نرى» الثانية تتبنى ظاهرة الفقر الذي يعبرون عنه بالرذالة، وهو الفقر المادي الحسي، متجاهلين الثروة الروحية التي تدعوا لإتباع الحق المبين.

و «ما نرى الثالثة» سلب لأي فضل وحتى الروحي إذ لا يرى حسيا، ورؤة الفضائل الروحية هي رؤة عقلية روحية، وليس «من فضل» تختص بالفضل الحسي لمكان «فضل» النكرة في سياق النفي من هؤلآء الذين يعنون سلب أي فضل مهما كان روحيا فهم لا يعتبرونه فضلا، مجاراة مع نوح عليه‌السلام «فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا إِلّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ» (٢٣: ٢٤).

ثم النتيجة «بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ» هي ظن يتبنى «ما نرى» في حقل سلب الرؤة الحسية «ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ».

فلقد عمّيت على هؤلآء الأعمين أصل الفضيلة وهي الروحية، زاعمين أن الفضيلة هي فقط الفضيلة

في الحياة الدنيا بزخرفاتها وقواتها الحيوانية، فحرموا أنفسهم من رحمة غالية ربانية.
ذلك رد العَليّة المستكبرين من قومه كما هو رد سائر المستكبرين طول الزمان وعرض المكان، اعتذارا جاهلا ماحلا قاحلا ليس ليقصد الجد، وإنما هو للفرار عن المسئولية، والقرار على الأريحية والإباحية الطليقة، فحتى إذا أرادوا أن يعبدوا فهم عابدون ما أرادوا كما يشتهون ما لا يحملهم أو زار التكليف الذي يحدد شهواتهم ورغباتهم، وأوضاره.
ذلك، وفي استنكار رسالة البشر إلى البشر تغاض عن أهلية البشر لحمل الرسالة الربانية، رغم أن اللّه خلقهم في أحسن تقويم، ولكنهم يردون أنفسهم بأنفسهم إلى أسفل سافلين!.
هذا! وفي رسالة البشر إلى البشر تبجيل لهذا البشر أنه مكتف بنفسه في حمل الرسالة، وهذه أقرب إلى القبول، وأغرب عن الذّبول والأفول، وأقوى حجة عند أرباب العقول.
ثم في تسمية الفقراء العزّل المظلومين أراذل رذالة من الرأي، وثفالة من الوعي، فإنما الأراذل هم الذين رذّلوهم وظلموهم وهضموهم حقوقهم، فهم ـ إذا ـ أفاضل وليسوا أراذل، واتّباعهم رسل اللّه هو بنفسه دليل على أن رسالات اللّه ناحيه ـ كأساس ـ منحى الحفاظ على حقوق المظلومين المهضومين، فهم يعيشون تحت ظلالهم، ويخرجون بذلك عن ضلالهم.
ثم في دمج نوح بمن اتبعوه من «الأراذل» ترذيل له نفسه، فلو كان فضيلا لما اتبعه رذيل، وأقل ما في الدور أننا «ما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ» يفضلكم علينا بفضيلة الرسالة، فالنتيجة: «بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ» في دعوى الرسالة واتباعها، فلا رسولكم رسول ولا أنتم مؤنون برسول.
و هنا الجواب الحاسم، القاصم ظهور المستكبرين، يأتي في صيغة الاستفهام الاستنكار:
قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ آتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَ نُلْزِمُكُمُوها وَ أَنْتُمْ لَها كارِهُونَ (٢٨).
هنا لا يحتّم ـ قضية حائطة الحوار وأدبه الأريب ـ أنه على بينة من ربه، وإنما «إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي» تقديما ل«أرأيتم» تحريضا لتحرّيهم عما يدعيه لكي يصدقوه على بينة أم يكذبوه على بينة، حثا على إعمال الرأي في إمكانية كونه على بينة من ربه، ومن ثم واقعه، وقد كان واقعا عمّي عليهم بسوء تقصيرهم، وتفسير هم لكيان نوح و الذين آمنوا معه.
ثم «وَ آتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ» خاصة بين البشر ـ وهي الرحمة الروحية المتميزة الرسالية بعصمتها وبلاغها، أ ترون اللّه بخيلا أم عاجزا لا يستطيع على إتياني رحمة من عنده؟.
ف «كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي» تعني بينة الرسالة الربانية الخاصة، البينة من حالي وفعالي وأعمالي وكما «قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ» حيث التربية الرسالية الربانية باهرة فينا، ظاهرة علينا، فهذه بينة البرهان، وأما المبرهن عليه ف «وَ آتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ» تبينها اني «عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي» «فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ» تلك البينة وهذه الرحمة إذ أنتم حاصرون الرحمة في المعطيات الحيوانية الظاهرة، حاسرون عن المعطيات الإنسانية الزاهرة.
فلقد أعماكم عن هذه وتلك أنفسكم الأمارة بالسوء، والشياطين المؤزّرون عليكم بالسوء، فعميت أبصاركم ـ الفطرية والعقلية، بل والحسية ـ عن إبصار الحق المرام، فلا تبصر ـ إلّا ظاهرا من الحياة الدنيا «أَ نُلْزِمُكُمُوها» رؤة للبينة فتصديقا للرحمة «وَ أَنْتُمْ لَها كارِهُونَ» والكاره للحق ليس ليكره على قبول الحق ولا سيما إذا «جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا» و«لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ» إذ «قَدْ تَبَيَّنَ

الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ».
و بما أن الرحمة لا توصف بالعمى، وإنما يوصف الناس بها عن تمييز مواقعها وإدراك مواضعها، فلما وصفوا بالعمى عنها حسن أن يوصف بذلك في القلب، كما يقال: أدخلت الخاتم في أصبعي والمغفر في رأسي، وإنما الداخل هو الأصبع والرأس.
أم إنها تعني أخفيت عليكم كما يقال: عمي عليّ خبرهم، وعمي عليّ أثرهم، أي خفي عني الخبر والأثر.
فيا عظماه لذلك الاتجاه في الإجابة عن المعترض القاسي حيث يخاطبهم خطاب الحنون ب«يا قوم» مرات في كل من القطاعات من حججه، وبكل سماحة ومودة، ثم «أرأيتم» تطلبا لرأيهم على ذبالة وعيهم خروجا عن الرؤة الحسية لفترة، «إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي» شرطا دون تثبيت رغم ثابتها، «فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ»: البينة والرحمة، فلم تروهما فيّ، فهل لكم أن تنكروها ـ إذا ـ فتكذبوني، ثم «أَ نُلْزِمُكُمُوها» إلزاما بغير حجة عميت عليكم «وَ أَنْتُمْ لَها كارِهُونَ» فلا دور للإلزام العقلي بينة ورحمة إذ عميت عليكم ثم لا دور للإلزام قلبيا «وَ أَنْتُمْ لَها كارِهُونَ».
و هنا «أرأيتم» تكسح ثالوث «ما نرى» والناتج عنها: «.. بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ» تحريضا على الرؤة العاقلة وراء الحس وهي الرؤة الإنسانية المتميزة عن الحسية الحيوانية، فقد وجههم إلى رؤة «بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي» تتبين بالعقلية الإنسانية دون مجرد الحس.
و هكذا يتلطف نوح عليه‌السلام في توجيه أنظارهم وأبصارهم ولمس وجدانهم وإثارة حساسيتهم لإدراك القيم التي عميّت عليهم بما عمّوها على أنفسهم، إعذارا لنفسه في نكرانه بينة الله ورحمته، وحملا للمسؤلية كلها على عواتقهم بذلك التوجيه الوجيه الدقيق الرقيق، الحقيق أن يكتب بالذهب.
فهذه طمأنة لصدق هذه الرسالة من ناحية البينة الصادقة والرحمة، ثم من ناحية ثانية:
وَ يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالًا إِنْ أَجرِيَ إِلّا عَلَى اللّهِ وَ ما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (٢٩).
هنا عدم سؤل المال إضافة إلى بينات الهدى هما طرفان طريفان وجناحان ظريفان للطائر القدسي الرسالي أثبتا رسالته دون أية ريبة.
فالداعية على غير بينة وإن لم يسأل أجرا على دعوته، وسائل الأجر عليها إثقالا على المدعوين وإن كان على بينة من ربه ولن، هما لا يطمئن بهما في الادعاء والدعوة والدعاية، فإن الذي يسأل أجرا قد يدعوا حسب مصلحية الأجر وقدره، أم يهدف الحصول على المال بدعوته الرسالية، والذي لا يسأل أجرا ولكنه ليس على بينة قد لا يسأل جذبا للنفوس الساذجة، بل وهو يدفع لمن يتبعه أجرا كما هو رائج بين دعاة الباطل.
و لكن الذي هو على بينة من ربّه ولا يسأل أجرا، ليس ليكلف العقول ما لا حجة له، ولا يكلف أصحاب العقول مالا وأجرا، فإنما يدعو دعوة خالصة مريحة مربحة عن أعباء الجاهليات والهمجيات.
لذلك نرى أن الدعاة الرساليين ككل يلحّقون بينات رسالاتهم بعدم سؤل الأجر، مما يكمل حججهم على المكلفين دونما إبقاء لأية عاذرة عقلية ولا مالية.
و لو أن الدعوة الرسالية كانت مزوّدة بسؤل الأجر لحرم عن قبولها والإقبال إليها الفقراء، ولكانت حملا على الأغنياء ولا سيما على البخلاء، أن يؤوا أجرا على ما لا يشتهون، ولكانت مظنة للطمع في

الأموال.
ثم «وَ ما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا» رعاية للذين لم يؤنوا ويشترطون في إمكانية إيمانهم طرد الذين آمنوا، ربطا للإيمان بشريطة اللّاإيمان، فإن طرد المؤنين يناحر الإيمان، ف «إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ» بأنفسهم هنا ويوم اللقاء، ولهم مالهم لإيمان وعليهم ما عليهم لو كان خلاف الإيمان:
«قالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ. قالَ وَ ما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ. إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ. وَ ما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ. إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ» (٢٦: ١١١ ـ ١١٥) ـ (وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ ما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظّالِمِينَ»(٦: ٥٧).
و هذه شيمة شنيعة للمستكبرين الرعناء اللعناء أنهم يشاقون الفقراء والضعفاء حتى في الإيمان المدعى، فلا يجمعهم معهم حتى الإيمان باللّه ـ وهو الجانب الروحي الفضيل من الإنسان ـ لأنهم يرون المقياس هو الجانب المادي الرذيل!.
و كيف تجيب الرسالات الربانية إلى متطلّبهم في طرد الفقراء، وهي ملاجئ لهم أمام هؤلآء الهاضمين حقوقهم، ولو كانت الرسالات ـ على حد زعم الاشتراكية البلوشية ـ حفاظات على الثروات، فلما ذا كانت ـ على طول الخط ـ يلجأ إليها الفقراء ويطاردها الأغنياء؟!.
وَ يا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠).
و لو أنني أطرد المؤنين لأنهم فقراء، لكم أنتم الكافرين لأنكم أغنياء، أم مغبة إيمانكم القاحل الماحل، فذلك ذنب رسالي لا يغفر، وإذا ف «مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللّهِ» حيث يعاقبني «إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ» ناصح الحق وناصحه.
و أنا ـ إذا ـ خسرت خالص المؤنين، وما ربحت إلا كالس وعد الكافرين، فإن آمنوا فإيمانهم هذا ـ شرط ذلك الطرد ـ مطرود في شرعة اللّه، وإن لم يؤنوا ـ ولن ـ فقد خسرت المؤنين بالفعل، ومعهم الكافرون الواعدون الإيمان كذبا!.
ذلك، فقد يعاقبني ربي تخلفا عن صالح الدعوة، رغبة في كالح الإيمان، فهل من ناصر ـ إذا ـ ينصرني من بأس اللّه ونكاله إن طردتهم، فما تزيدونني ـ إذا ـ من بأس اللّه ونكاله إن طردتهم، فما تزيدونني ـ إذا ـ غير تخسير، حيث إن داعية الحق إن أجاب إلى باطل لتحقيق الحق فيمن ليس ليقبله، طردا لمن قبله مقبلا إليه، كانت دعوته ـ إذا ـ فالسة كالسة، متخلفة عن الدعوة الخالصة الرسالية عن بكرتها.
أجل، فلا دور لسائر المصلحيات المزعومة الموعودة من قبل الناكرين رسالات اللّه، إلا كورا، وإنما المصلحية الصالحة هي خالص الدعوة الصارمة إلى اللّه، دون جعل البلد شطرين، وأخذ العصا من الجانبين، فإنه نفاق في الدعوة، وصفاق خاسر فيها!.
وَ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَ لا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْراً اللّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظّالِمِينَ(٣١).
هنا سلبيات أربع تسلب عنه ما يخيّل إليهم إثباته للرسول، فإذا لم يجدوه فيه كذبوه، وهي إجابة صريحة عن الفضل المزعوم لهم للرسالة الإلهية حيث نفوه عنه عليه‌السلام «وَ ما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ» إن الفضل فضلان، فضل رباني وهو مختص باللّه تعالى، وفضل رسالي فأنا على بينة من ربي ورحمة

منه، وبينهما فضل غيرهما يزعمونه شرطا أصيلا للرسالة، والسلبيات الأربع، هي التالية، مما اختص إثباته باللّه كالثلاثة الأولى، أم اختص بالملائكة:

١ (وَ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللّٰهِ» حتى أملكها فأملّكها الفقراء التابعين إياي ليخرجوا من رذالة الفقر على حد تعبيركم: «هؤلآء أراذلنا» فخزائن اللّه هي عنده لايؤيها لأحد من العالمين، ولا أملك منها شيئا ولا تطلّبا مجابا، ولا أدعي الثراء، أو القدرة على الإثراء.

٢ (وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ» كيف ولا يعلمه إمام الرسل محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله كما لا يملك خزائن اللّه: «قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللّٰهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلّا ما يُوحى إِلَيَّ ..» (۶: ۵۰) ـ «قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَ لا ضَرًّا إِلّا ما شاءَ اللّٰهُ وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلّا نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (۷: ۱۸۸).

٣ (وَ لا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ» كما تشتهون وتتعنتون فادعي صفة ـ هي بزعمكم ـ أعلى من صفة الإنسانية، لأرتفع في حسبانكم الباطل الجاهل إغراء بالجهل، حيث الحق لا يتذرع إليه بالباطل، والغاية لا تبرر الوسيلة، بل أنا فوق الملك برسالة ربي لو تشعرون.

٤ (وَ لا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ» انتقاصا لهم وإزراء بازدراء إرضاء لكبريائكم وعلوائكم أو مسايرة لتقديركم الغدير أرضيا، قيمكم ـ الهابطة ـ عرضيا، «لا أقول» لهؤلاء الفقراء: «لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللّٰهُ خَيْراً» كما تزعمون.

و الازدراء هو صفة أصحاب هذه الأعين، منسوبة هنا إلى الأعين مبالغة بليغة إذ تستصغرهم بلمحات العين، حيث يقبحون في منظر عينك خلقة ويصغرون دمامة، كما يقال: اقتحمت فلانا عيني واحتقره طرفي، إذا قبح في منظر عينه خلقة، وصغر دمامة.

«اللّٰهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ» من نفاسة الإيمان كما يظهرون، أم من نحوسة النفاق لو أنهم يبطنون، فليس إلا ظاهرهم الباهر بالإيمان حيث يدعوا إلى التكريم والاطمئنان، و إلى الرجاء أن يؤيهم اللّه خيرا مما آتاهم على ضوء الإيمان.

و هنا «لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللّٰهُ خَيْراً» سلب طليق لكل خير عن هؤلآء الذين تزدرى أعينهم، وهذه فكرة خاطئة استكبارية بشأن الفقراء، اعتبارا أن اللّه تعالى كما فضل الأغنياء بفضل القوة والسيادة والمال، فهكذا الحال في كل فضل من رسالة ربانية أماهيه من فضل، وقد يندد بهم كما في آية الأعراف من أصحاب الأعراف: «وَ نادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ. أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللّٰهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ» (۴۹) فهؤلاء الأغنياء المستكبرون الأغبياء يظنونهم يستحقون كل الخيرات لأنهم أوتوا من المال والقوة ما به يستكبرون! كلا يا أغبياء، ليست السيادة المادية تلازمها السيادة الروحية، بل هما متناحرتان اللّهم إلا في صاحب السلطة الزمنية على ضوء السلطة الروحية منه أم من روحي آخر! وتاريخ السلطات المادية الزمنية تشهد أنهم ليسوا إلا معارضين للسلطات الروحية فكيف ـ إذا ـ يستحقونها على شؤهم ولؤهم!.

«إني إذا» لو أنني أقول عندي خزائن اللّه واعلم الغيب وإني ملك، وأقول «لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللّٰهُ خَيْراً» ـ «إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظّالِمِينَ» بحق رسالة اللّه وعباد اللّه!.

ذلك، وأحسن تعريف بالملائكة بعد تعريف القرآن ونبي القرآن ما عرفهم به شاهد منه في قوله

عليه‌السلام: «ثم خلق سبحانه لإسكان سماواته، وعمارة الصفح الأعلى من ملكوته خلقا بديعا من ملائكته، وملأ بهم فروج فجاجها، وحشا بهم فتوق أجواءها، وبين فجوات تلك الفروج زجل المسبحين منهم في حظائر القدس، وسترات الحجب، وسرادقات المجد، ووراء ذلك الرجيح الذي تستك منه الأسماع سبحات نور تردع الأبصار عن بلوغها، فتقف خاسئة على حدودها، وأنشأهم على صور مختلفات، وأقدار متفاوتات أولي أجنحة تسبّح جلال عزته، لا ينتحلون ما ظهر في الخلق من صنعه، ولا يدعون أنهم يخلقون شيئا معه مما انفرد به (بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) ـ جعلهم فيما هنالك أهل الأمانة على وحيه، وحمّلهم إلى المرسلين ودائع أمره ونهيه، وعصمهم من ريب الشبهات، فما منهم زائغ عن سبيل مرضاته، وأمدّهم بفوائد المعونة، وأشعر قلوبهم تواضع إخبات السكينة، وفتح لهم أبوابا ذللا إلى تماجيده، ونصب لهم منارا واضحة على أعلام توحيده، لم تثقلهم موصرات الآثام، ولم ترتحلهم عقب الليالي والأيام، ولم ترم الشكوك بنوازعها عزيمة إيمانهم، ولم تعترك الظنون على معاقد يقينهم، ولا قدحت قادحة الأحن فيما بينهم، ولا سلبتهم الحيرة ما لاق من معرفته بضمائرهم، وسكن من عظمته وهيبة جلاله في أثناء صدورهم، ولم تطمع فيهم الوساوس فتقترع برينها على فكرهم، منهم من هو في خلق الغمام الدّلّخ، وفي عظم الجبال الشّمّخ، وفي قترة الظّلام الأيهم، ومنهم من قد خرقت أقدامهم تخوم الأرض السفلى، فهي كرايات بيض قد نفذت في مخارق الهواء، وتحتها ريح هفّافة تحبسها على حيث انتهت من الحدود المتناهية، قد استفرغتهم أشغال عبادته، ووصلت حقائق الإيمان بينهم وبين معرفته، وقطعهم الإيقان به إلى الوله إليه، ولم تجاوز رغباتهم ما عنده إلى ما عند غيره، قد ذاقوا حلاوة معرفته، وشربوا بالكأس الرويّة من محبته، وتمكنت من سويداء قلوبهم وشبحة حيفته، فحنوا بطول الطاعة اعتدال ظهورهم، ولم ينفذ طول الرغبة إليه مادة تضرّعهم، ولا أطلق عنهم عظيم الزلفة ربق خشوعهم، ولم يتولوا الإعجاب فيستكثروا ما سلف منهم، ولا تركت لهم استطانة الإجلال نصيبا في تعظيم حسناتهم، و لم تجر الفترات فيهم على طول دؤبهم، ولم تغض رغباتهم فيخالفوا عن رجاء ربهم، ولم تجفّ لطول المناجاة أسلات ألسنتهم، ولا ملكتهم الأشغال فتنقطع بهمس الجوار إليه أصواتهم، ولم تختلف في مقاوم الطاعة مناكبهم، ولم يثنوا إلى راحة التقصير في أمره رقابهم، ولا تعدوا على عزيمة جدّهم بلادة الغفلات، ولا تنتضل في هممهم خدائع الشهوات، قد اتخذوا ذا العرش ذخيرة ليوم فاقتهم، ويمموه عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين برغبتهم، لا يقطعون أمد غاية عبادته، ولا يرجع بهم الاستهتار بلزوم طاعته، إلّا إلى موادّ من قلوبهم غير منقطعة من رجاءه ومخافته، لم تنقطع أسباب الشفقة منهم فينوا في جدّهم، ولم تأسرهم الأطماع فيؤروا وشيك السعي على اجتهادهم، ولم يستعظموا ما مضى ـ من أعمالهم، ولو استعظموا ذلك لنسخ الرجاء منهم شفقات وجلهم، ولم يختلفوا في ربهم باستحواذ الشيطان عليهم، ولم يفرقهم سواء التقاطع، ولا تولّاهم على التحاسد، ولا تشعّبتهم مصارف الريب، ولا اقتسمتهم أخياف الهمم، فهم أسراء إيمان لم يفكهم من ربقته زيغ ولا عدول، ولا و ني ولا فتور، وليس في أطباق السماء موضع إهاب إلّا وعليه ملك ساجد، أو ساع حافد، يزدادون على طول الطاعة بربهم علما، وتزداد عزة ربهم في قلوبهم عظما.(من خطبة الأشباح ٩٠).

هنا ـ وبعد ما اكتملت الحجج البالغة عليهم من كافة النواحي الناحية منحى إثبات الحق وإزهاق الباطل، ولم يجدوا عنها مفلتا حيث قطعت عنهم كل أعذارهم الغادرة، ويئسوا من مناهضة حجته

بحجة، فتورطوا في لجة غامرة محجوجين، عند ذلك أخذتهم العزة بالإثم، فتركوا الحجة إلى التحدي:
قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ (٣٢).
«.. فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا» فوق الواجب، فصدعتنا دونما طائل واصب، وما نحن لك بمؤنين مهما جادلتنا، و«قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ»(٢٦:١١٦) (وَ قالُوا مَجْنُونٌ وَ ازْدُجِرَ» (٥٤: ٩) ثم وآخر ما قالوه: «فَأْتِنا بِما تَعِدُنا»من عذاب ربك «إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ»في رسالتك.
قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللّهُ إِنْ شاءَ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣).
«إنما» ليس إلّا «يَأْتِيكُمْ بِهِ اللّهُ إِنْ شاءَ» متى شاء وكما شاء، ولست أنا الذي آتيكم به من عند نفسي ولا من عند ربي، و«إن أنا إلا رسول» فالمشية هي مشيته دون سواه «وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» اللّه حين يشاء أن يأتيكم بعذاب من عنده أم لا يأتيكم به، «وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» اللّه في حجة رسالته، ولا «بمعجزين» إياي عن مواصلة الدعوة بالحجج البينة، ثم:
وَ لا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤).
أنا مريد أن أنصحكم رساليا دلالة إلى الحق المرام، ولكن «لا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ» ربانيا حملا على الحق ف «إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ» ولا سيما «إِنْ كانَ اللّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ» بما غويتم ختما على قلوبكم: «فَلَمّا زاغُوا أَزاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ» ف «الأمر إلى الله يهدي ويضل»*.
فقد يريد اللّه أن أنصح لكم دلالة إلى حق السبيل في شرعة الرسالة، ثم ويريد أن ينفع نصحي للذين يتحرون عن الحق حتى إذا وجدوه استقبلوه وقبلوه، وهو يريد إغواء الذين يحيدون عن الحق ويعارضونه، وعلى أية حال لست أنا بربكم حتى أنفعكم بنصحي إلّا دلالة أو أغويكم، وإنما «هُوَ رَبُّكُمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» هو ربكم لا سواه في المسير والمصير وليس لي من الأمر شيء إلا أنني نذير وبشير، واللّه على كل شيء قدير.
و هنا في «إِنْ كانَ اللّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ» لمحة إلى أن استحقاق عذاب الاستئصال هو من خلفيات إغواء اللّه كما «وَ إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً» (١٧: ١٦) ـ فإن أمر المترفين بما يأمر من طاعة ثقيلة للّه، حملا وجاه عباد اللّه، أمرا لهؤاء الذين يعلم أنهم يفسقون، إنما يعني هذا الأمر ـ فيما يعني ـ إغواءهم بما غووا، وإزاغتهم بما زاغوا كما «وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ» (٤١: ٢٥) و«أَنّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا»(١٩: ٨٣).
إذا فإغواء اللّه تعالى لا يعني إلّا تخييبه سبحانه لمستحقيه من رحمته، لكفرهم وذهابهم عن أمره: «فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا»(١٩: ٥٩) أي خيبة من الرحمة، وارتكاسا في النقمة.
أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمّا تُجْرِمُونَ (٣٥).
أ تراها آية معترضة لما افتري على محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله؟ والدور كله في هذه الآيات لنوح عليه‌السلام! أم هي نكاية على قوم نوح مستعرضة لمحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله؟.
نقول: إنها تعليقة على فرية المفترين منذ نوح إلى خاتم النبيين، هي تعليقة على هذه الفرية

الجاهلة على الرسل أنهم مفترون على اللّه «إِنِ افْتَرَيْتُهُ» على ربي رغم بينة الرسالة «فَعَلَيَّ إِجْرامِي» وليس عليكم، فأنتم معذورون في إيمانكم بحجة الرسالة البينة أمام اللّه، ثم «فَعَلَيَّ إِجْرامِي» إن افتريته، أمام اللّه، حيث يأخذني بجرمي هنا وفي الأخرى، فهنا: «وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ» (٦٩: ٤٥) حفاظا على شرعته من الفرية، فحين لا يأخذني هنا، كان ذلك برهانا آخر لا مرد له على صدقي، حاضرا أمامكم حاذرا إياكم، إضافة إلى سائر البراهين ـ مهما غاب عنكم أن يأخذني اللّه في الأخرى ـ: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللّهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ وَ يَمْحُ اللّهُ الْباطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٤٢: ٢٤) ـ (أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»(٤٦: ٨) ـ (أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ»(٣٢: ٣).

ذلك، فحين تثبت الرسالة الربانية بحججها فلا عاذرة لأحد في تكذيبها أو تركها، إلّا أن يفتري على اللّه أنه جاهل بهذه الدعوى، أو عاجز عن ردها، أو ظالم بحق العباد إغراء بجهلهم فيها، أم يوجد في هذا المدعي ما يبطل دعواه بذلك الوجدان، كأن يناقض في قوله، أو يقول ما ليست لتقبله الفطر والعقول، أم تكذبه الحواس الصادقة، وهذا هو المعني من: «لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ» إسقاطا لربانية دعواه إلى سقاط الدعاوي الباطلة الهباء.

ذلك، ودعوى الفرية في القرآن ـ بكل حقوله ـ هي دعوى خاوية غاوية، لا فحسب في آياته، بل وفي تأليفه، فإن فيه دورا هاما في القمة البيانية لكتاب الدعوة العالمية.

فاستناد هذا القرآن إلى اللّه يتطلب أن يكون كلّه مادة وتركيبا من اللّه، فلو كانت المفردات من اللّه والتركيب لغير اللّه لكان القرآن مزدوج الكيان، إلهيا في مفردات وبشريا في تنظيمات!.

ثم القسط الأوفر أو الموازي في إعجاز القرآن كامن وراء ذلك النظم البديع الرائع، تناسقا نغمياً مرناً في موسيقاه، وتناسبا معنويا في محتواه، وتحديه الصارخ لا يعني ـ فقط ـ مفرداته، بل هو متحدّ بنظمه البديع، فكما يتحدى بسورة قصيرة كالكوثر، كذلك يتحدى بعشر سور مثله مفتريات، أم وبه أجمع، وقد تشمل «سورة» آية مستقلة المعنى!.

و من ثم لو كان ذلك النظم مسنودا إلى غير الوحي الكافل لمفرداته، لكانت عندنا مئات من القرائن المختلفة في ترتيب آياتها وسورها حسب مختلف الأنظار في الموازين الأدبية والمعنوية.

و لقد تواترت الروايات أن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله كان يأمر كتّاب الوحي أن تجعل بعض الآيات في محالها التي بين أيدينا، لمكان اختلاف ترتيب التأليف عن ترتيب التنزيل.

و كما أن ترتيب الآيات كما هي الآن هو ترتيب قاصد بالوحي، كذلك ترتيب السورة كما هي الآن.

و قيلة إن هذا الترتيب هو من عثمان أمن أشبه إنها غيلة على صيانة القرآن، فأين عثمان وأمثاله من هذه القوة الخارقة التي تفوق قوة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله في قراره الحاسم الجاسم الذي لا حول عنه طول القرون الإسلامية؟!.

ذلك كله، إضافة إلى آيات تعني صيانة القرآن عن أي تدخل غير رباني في أيّ من شئونه، كآية القيامة: «إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ» وهل يعني الجمع إلّا جمع مفرداته آيات وسورا؟.

وَ أُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ(٣٦).

«أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلّا مَنْ قَدْ آمَنَ» تحمل حجتين اثنتين، حجة لنوح عليه‌السلام عليهم حيث أخبرهم بها ولم يؤن منهم أحد حتى غرقوا أجمعين، وكان لهم وإن لواحد منهم أن يؤنوا في ظاهر الحال تكذيبا لما أوحي إلى نوح عليه‌السلام، و حجة ثانية هي لغرقهم أجمعين حتى لا يقول قائل: علّهم كانوا يؤنون فلما ذا غرقوا؟.

ذلك، ولكن الأنسال الحاصلة بين هذا الوحي وغرقهم وهو طوال سنين، ما هو ذنبهم أولاء وهم قصّر أو صغار، أم وكبار منهم عقلاء علهم يؤنون؟.

هنا «لن» تحلق سلبية الإيمان على أنسالهم البالغين، وأن لم يكن هناك صغار وقصّر- حين الغرق، أم وقطع اللّه أنسالهم فلم ينسلوا في هذا البين*، أم أمات صغارهم والقصّر منهم قبل الطوفان، أم لو شملهم الطوفان فليس هو عذابا للقاصرين صغارا ومجانين.

أجل، «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلّا مَنْ قَدْ آمَنَ» فلا مبرر لبقاءهم، ثم «فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ» إذ لا مكان ولا دور للابتآس بفعلتهم الملعونة حين يجزون بما كانوا يفعلون، وأنه «لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلّا مَنْ قَدْ آمَنَ» فالداعي الراجي إجابته لوقت ما يبتئس بما يفعله المدعوون من التكذيب والعناد، وأما إذا عرف مسيرهم ومصيرهم فلا دور لابتئاسه بما كانوا يفعلون.

أجل «فَلا تَبْتَئِسْ»: لا تحسّ بالبؤ والقلق، ولا تهتمّ بهذا الذي كان منهم، لا على نفسك فما هم بضارين من شيء حتى يغرقوا، ولا عليهم فإنهم لا خير فيهم ولا رجاء لهداهم.

ثم وهذا الوحي كان بعد ما دعى نوح على قومه أم قبله بسناد:

«وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيّاراً. إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلّا فاجِراً كَفّاراً» (٧١: ٢٧)*.

فلقد كان دعائه عليهم بعد وحي اللّه وقبل الطوفان، دعاء على ضوء الوحي دونما تخرّص بالغيب، فالأخبار الناطقة بأن في ذلك الدعاء يدا شيطانية هي بنفسها من يد شيطانية! إذ لم يدع نوح إلّا بإذن اللّه وبعد ما أخبره اللّه «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلّا مَنْ قَدْ آمَنَ» من ثم وليس اللّه ليجيب نوحا إلى دعوة فيها يد شيطانية!.

و ترى «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ» تحيل إيمانهم في المستقبل؟ فهم غير مكلفين ـ إذا ـ بالإيمان! أم وعليهم أن يؤنوا أنه لن يؤنوا لأنه وحي رسالي واجب التصديق؟ فهو جمع بين نقيضي- واجب الإيمان والتصديق باستحالته!.

«أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ» يواجه نوحا والذين معه إخبارا عن حال هؤلآء الكفار، وهم مكلفون بتصديق أنهم لن يؤنوا، مع تكليفهم أن يؤنوا، حيث الامتناع بالاختيار لا ينافي الإختيار.

فعلم اللّه بأنهم لن يؤنوا كاشف قاطع أنهم لن يختاروا الإيمان، فليس ذلك العلم سببا لعدم إيمانهم تسييرا، إنما هو كاشف عنه، ولو أنهم أم واحدا منهم آمن كان يعلم اللّه من ذي قبل أنه سوف يؤن.

وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧).

«فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ»(٢٣: ٢٧).

و ذلك أمر صارح بصناعة الفلك، لا فقط تشريعيا، بل و«بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا» فالمهندس في صناعة هذا الفلك هو اللّه، والعامل هو رسول اللّه، فما ظنك إذا بالزمن الذي يشغله، والهيكل القويم الذي

يحمله؟ إنه فلك رباني ما أحكمه بنية وما أقصره زمنا، وما أيسره صنعا!.
ف «أعيننا» بجمعية الصفات ـ تعني أعين العلم والقدرة والرحمة، ثم «و وحينا»في مواده وحجمه وشكله وقوامه وكل كيانه، وصنع الفلك بأعين اللّه ووحيه لخضمّ الطوفان العام، نجاة لنوح والمؤنين معه، إنه دون ريب صنع منقطع النظير، فلا غرق أو انكسار لذلك الفلك حتى قضاء أمر اللّه.
أجل «وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ» ونحن نرعاك ونحفظك، إذ ليست له سبحانه عين تلحظ أو لسان يلفظ، وكما يقال: أنا بعين اللّه، سر وعين اللّه ترعاك، ومن كلامهم للظاعن المشيّع والحميم المودّع، صحبتك عين اللّه، أي: رعاية اللّه وحفظه.
و كيف هنا في صنع الفلك «بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا» وفي موسى «وَ لِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي»؟ قد يعني إفراد «عيني» في موسى عين الرحمة التربوية الرسالية، وهنا في «أعيننا»عيون الرحمات التي تصنع فلك النجاة من كافة الجهات هندسة ومادة وحجما وثقلا و مقاومة للأمواج.
أجل «وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا ..» وكما «تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ»(٥٤: ١٤).
و قد يقال في زمن صنعه أنه خمسمائة عام، ولكن كيف واللّه يقول «و وحينا»* وأعين اللّه ووحيه ليسا ليبطئا هكذا، لا سيما حسب وحيه «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلّا مَنْ قَدْ آمَنَ» فلما ذا ـ إذا ـ ذلك التأجيل الأجيل، رغم أن قضية «لن» و«لا يَلِدُوا إِلّا فاجِراً كَفّاراً» هي التعجيل.
«وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ .. وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا» حيث كفروا وكذبوا، فقد تقرر مسيرهم ومصيرهم وانتهى أمرنا فيهم كما دعوت وأجبناك، فخطابي فيهم أيا كان محظور، سواء أ كان دعاء الهداية أو المغفرة أو النجاة من الغرق.
وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنّا فَإِنّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (٣٩).
نوح عليه‌السلام أخذ «يَصْنَعُ الْفُلْكَ» فور أمر اللّه، ولكن أين؟
هل هو على شاطئ البحر؟ ولم يكن يسكن على شاطئ! ولا أنه يصنع ذلك الفلك لبحر! بل هو للطوفان الذي يجعل الكرة الأرضية بحرا، فلذلك، وأن صناعة الفلك ـ و إن كانت على شاطئ البحر ـ ليست لها صلة بالعذاب الموعود ف «كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ»:
«و يقولون تعمل سفينة في البر وكيف تجري»*.
و قد «جعلوا يضحكون ويسخرون ويقولون: قد قعد غرّاسا، حتى إذا طال النخل وكان جبارا طوالا قطعه ثم نحته فقالوا: قد قعد نجارا، ثم ألفه فجعله سفينة فمروا عليه يضحكون ويسخرون ويقولون: قد قعد ملاحا في فلاة من الأرض، حتى فرغ منها»*.
فقد أخذوا يقولون ويتقولون ملأ أفواههم ساخرين منه منذ بزوغ دعوته حتى غرقهم، فقبل أن يصنع الفلك كانوا يسخرون منه، كيف يرسل ذلك الرجل الفقير ومعه أراذلنا بادي الرأي، ومنذ أخذ في صناعة الفلك سخروا منه أنه تحول نجارا يصنع فلكا لكي يفلت منا ولكن لما ذا في الفلاة.
«قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنّا فَإِنّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ» «نَسْخَرُ مِنْكُمْ» حين تسخر منكم أمواج البحر الحيط الملتطم «كَما تَسْخَرُونَ» جزاء وفاقا «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ»حين نخلص من صناعة الفلك ويجيء أمر اللّه «مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ» في خضمّ الطوفان «وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ»منذ الغرق إلى يوم القيامة الكبرى، ف «مِمّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ أَنْصاراً» (٧١: ٢٥).

ذلك «و يصنع» مضارعة لحكاية الحال الماضية تصويرا لها كأنها حاضرة، ثم «فَإِنّا نَسْخَرُ مِـنْكُمْ» جمعـا حيث كان معه جمع المؤنين في صنع الفلك، وهي طبيعة الحال في القلة المؤنة أمام الثّلة الكافرة.
و السخرية جزاء لسخرية ليست من الجهالة، بل هي من العدالة «فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِـيمٌ» (٩: ٧٩) (اللّهُ يَسْـتَهْزِئُ بِهِـمْ وَ يَمُـدُّهُمْ فِي طُغْيـانِهِمْ يَعْمَهُـونَ» (٢: ١٥). وهنـا «كَـما تَسْخَرُونَ» موازنة عادلة بين السخريتين ولا يظلمون فتيلا.
و قد وردت في حجم الفلك وطوابقه مختلف الأثر، والقدر المعلوم منه أنه فلك يحمل نوحا والـذين معه من المؤنين، كما ويحمل من كلّ زوجين اثنين من مختلف حيوان البر، فلا بد مـن سـعة عظيمـة لذلك الفلك حتى يكون هو «الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ»: «فَأَنْجَيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» (٢٦: ١١٩) (وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ»(٣٦: ٤١).
حَتّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلّا قَلِيلٌ (٤٠).
فوران التنور هنا ـ أيّا كان ـ هو من آيات «جاءَ أَمْرُنا»* حيث الماء ليس ليفور من التنـور وفيـه فـوران النار، فهل هو بعد تنّور الشمس؟* بطلوعها؟ وليس هي آية! وصالح التعبير عنه «طلعت الشمس» ثم ولا رباط بينه وبين «جاءَ أَمْرُنا»!.
و قد يعني «التنور» ـ فيما يعنيه ـ تنّور الغضب الرباني؟ ولكنه قبل مجـيء الأمـر لأنـه مـن خلفياتـه فوران هذا التنور، ثم ولا تناسب التنور أصل الغضب ولا سيما بالنسبة لساحة الربوبية، أم قد تعني «التنور» إلى تنّور النار تنور النور للشـمس بفـور طلوعهـا و فورانهـا بتكـاثف حرارتهـا تقريـرا لتوافـق الأمرين* كما وفار تنور الغضب الرباني تأويلا للواو بالحالية كما وعنت العطف في الأولـين، أم يعنـي فوارة بركانية كانت علامة لنوح كفوران تنور الخبز؟.
علّ الجمع هكذا أجمع وأجمل دون منافرة لأدب اللفظ وحدب المعنى، ثم «التنور»معرّفة دليـل أنـه كان معروفا عند نوح بفورته آية لمجيء أمر اللّه، فقد يقرب أنه تنوره الذي يخبز فيه.
و هنا «من كل» تعني من كل من حيوان البر التي لا تعـيش في بحـر، دون البحـري أو الجـوي حيـث يعيشان في غير البر، ولا ذا الحياتين حيث بإمكانه العيشة في البحر، لأن هـذه هـي فلـك النجـاة فـلا تناسب إلّا حيوان البر المحتاج في الطوفان إلى النجاة.
و قد يعني «من كلّ» كلا من مختلف دواب الأرض حفاظا على أنسالها، ومـن مختلـف نباتهـا حفاظـا على بذورها، ف «زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ» في الدواب تعني ذكرا وأنثى، وفي النبات تعني بـذر الـذكورة والأنوثـة، ولكن بذور النبات والبعض من النبات نفسه تبقى في الماء صالحة للإنمـاء، إذا ف «مـن كـلّ» تعنـي ـ فقط ـ دواب البر ككل دون إبقاء، ولو أن اللّه كان يريد خلقها من جديد لما كان في حمل زوجين مـن كل معنى، فلا بد أن تعني «من كلّ»كل الدواب البرية التي لا تعيش في بحر أو جوّ.
ثم «زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ» قد تعني «زوجين» ذكر وأنثى، ولكي لا تعم الجنسين وهما غير حاصرين في شخصـين وصفهما ب«اثنين» ذكر واحد وأنثى واحدة، حيث يكفيان للإنسال.
ثم و«احمل» أهلك إلّا من سبق عليه القول، كامرأته حيث «ضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَـنْهُما مِـنَ اللّهِ شَـيْئاً وَ قِيـلَ ادْخُلَا النّارَ مَعَ الدّاخِلِينَ» (٦٦: ١٠) ثم «وَ مَنْ آمَنَ»من غير أهلك «وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلّا قَلِيلٌ».

ذلك، وأما ابنه الكافر وهو من أهله ولم يسبق عليه القول اللّهم إلّا لمحة من امرأته السابق عليها القول لكفرها، وقد امتحن نوح فيه حين سأل: «إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي» كما يأتي.
و كيف يتقدم هنا الدواب على المؤنين، وإيمانهم يقدّمهم على من سواهم وما سواهم؟ لأن الدواب لا تشعر بالخطر، ولا بد لمن يحملها إلى الفلك، ثم المؤنون هم بأنفسهم يدخلون الفلك، بعد ما أدخلوا هذه الدواب.
و هنا «ما آمَنَ مَعَهُ إِلّا قَلِيلٌ» إيمانا معه باللّه حيث هو المحور الأصيل في الإيمان، والقلة كأنها هي الضابطة في كتلة الإيمان على مدار الزمن، وكما في آيات عدة وروايات، منها مايروى عن علي أمير المؤنين عليه‌السلام من قوله: «و لم يخل أرضه من عالم بما يحتاج الخليقة إليه ومتعلم على سبيل نجاة، أولئك هم الأقلون عددا وقد بين اللّه ذلك من أمم الأنبياء وجعلهم مثلا لمن تأخر مثل قوله في قوم نوح «وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلّا قَلِيلٌ»*.
وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۴۱).
«فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجّانا مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ»(۲۳: ۲۸) (و قال» نوح «ارْكَبُوا فِيها» قولا لكلّ من زوجين اثنين عمليا، ولمن آمن معه وأهله إلّا من سبق عليه القول أمرا، فلم يقل لامرأته وابنه «اركبوا»حيث الظالمون كانوا من المغرقين.
«بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها» جريا بزمانه ومكانه حيث المثلث مقصود بهذه الصيغة السائغة للجمع بين أضلاعه، فبسم اللّه جريها وبسم اللّه زمان جريها ومكان جريها، وكذلك «مرساها» إرساء بزمانه ومكانه، وقد تتعلق كل من «اركبوا» و«مَجْراها وَ مُرْساها»«بِسْمِ اللَّهِ»: اركبوا فيها بسم اللّه و«بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها» فليست السفينة هي التي تنجيكم بمجراها ومرساها، إنما هو اسم اللّه المعبر عنه ب«تَجْرِي بِأَعْيُنِنا» فأعين اللّه هي التي تجريها وترسيها، ولكن عليكم أيضا أن تركبوها بسم اللّه وتحفظوا عن الغرق باسم اللّه، فمنكم بعد الإيمان باللّه بسم اللّه، ومن اللّه «تَجْرِي بِأَعْيُنِنا» تجاوبا بين محاولة العبد ورحمة اللّه!.
ذلك، وحين يفكر المؤن في طلب معرفة اللّه بالدليل والحجة فقد جلس في سفينة التفكر والتدبر وقد علت أمواج الظلمات والضلالات تلك الجبال، وصعدت إلى تلك القلال، فإذا ابتدأت سفينة الفكرة بالحركة فهنالك التوكل على اللّه، قولا باللسان والقلب والجنان: بسم اللّه مجراها ومرساها، حتى تصل هذه السفينة إلى ساحل النجاة تخلصا عن أمواج الضلالات.
«إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ» ذنوبكم «رحيم» بكم إذ أنتم مؤنون، ثم لا يغفر ولا يرحم هؤلآء المكذبين بالرسالات.
و قد تعني «بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها» ـ فيما عنت ـ أن قول نوح الربان لها «بِسْمِ اللَّهِ»يجريها، وقوله «بِسْمِ اللَّهِ» يرسيها، وطبعا بإذن اللّه، فكما أن صنع الفلك كان «بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا»كذلك مجراها ومرساها كانا باسم اللّه.
ذلك وكما قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: «أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا السفن أن يقولوا: بسم اللّه الملك الرحمن بسم اللّه مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم وما قدروا اللّه حق قدره ..»*.
وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ وَ نادى نُوحٌ ابْنَهُ وَ كانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَ لا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ (۴۲).
«و هي» الفلك المشحون «تَجْرِي بِهِمْ» هؤلآء المؤنين معه ومن كل زوجين اثنين «في»خضم «مَوْجٍ كَالْجِبالِ»

ـ وهي «كالجبال» المتحركة بهيبتها ـ قضية التطام هام عام للبحر المحيط على الأرض كلها «تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ»(۵۴: ۱۴) (وَ نادى نُوحٌ ابْنَهُ»الكافر «وَ كانَ فِي مَعْزِلٍ» عن الفلك وعلّه عن الكافرين أيضا «يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَ لا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ».

و الهول هنا هولان اثنان، هول في صامتة الطبيعة الهائجة المائجة، وهول في النفس البشرية المارجة الفالجة، فهما يلتقيان.

و تراه ناداه «وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ» «ارْكَبْ مَعَنا» وكيف يركب معهم وقد أخذت الفلك تجري بهم في موج كالجبال»؟.

علّه يناديه في اللحظات الأخيرة من رجاء النجاة وهي اللحظات الأولى من جريها ولمّا تعلو علوا لا يمكن معه ركوبها بمدّ يد أم طنب، أو بسبح له يمكنه للوصول إليها.

و لما ذا يناديه وهو كافر ومع الكافرين، وليس في وعد النجاة إلّا أهله إلّا من سبق عليه القول ومن آمن، وسابق القول يشمل إلى امرأته ابنه قضية الكفر المشترك بينهما، فلا هو مؤن ينجو معهم، ولا هو من أهله الآهلين للنجاة حيث هم المؤنون منهم دون الكافرين.

علّه كان يرجو إيمانه لمحة من الاستثناء الخاص «إِلّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» ولم يسبق القول صراحا إلا في امرأته كما في آية التحريم؟ ولكن ابنه مشمول ل«الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ»! إلا أنه يبقى احتمال خروجه عن ذلك الظلم بلمحة «إِلّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ»؟ ولكن سبق القول هنا ليس إلّا على «الَّذِينَ ظَلَمُوا» حيث تعم الظلم من قومه إلى أهله والظالم فيهم امرأته وابنه، وليس اختصاص سبق القول في خصوص امرأته، سابقا في قصة نوح المحكية في القرآن كله، ولا نحتمل ذلك الإختصاص بوحي خاص لم يأت في القرآن، لأنه اختصاص غالط يغلّط نوحا في ابنه، ولكن امرأته مذكورة في «امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللّٰهِ شَيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلَا النّارَ مَعَ الدّاخِلِينَ» (۶۶: ۱۰).

أجل قد نتلمّح من: «وَ كانَ فِي مَعْزِلٍ» أنه كان يفكر في أمره، عازلا عن نوح والمؤنين، وعن الكافرين، مما يؤد كأنه متروّ في شكه، وكما تلمّح إبراهيم عليه‌السلام من قول آزر: «وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا»فوعده الاستغفار واستغفر له ظنا منه أنه متروّ في ذلك المليّ.

أم علّه كان منافقا لا يبرز كفره لأبيه استجلابا لصالح الرحمة الأبوية، وأن كونه مع الكافرين لا يعني كفره؟.

و قد يتأيد ذلك ب«ارْكَبْ مَعَنا وَ لا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ» دون «من الكافرين» فالذي هو من الكافرين هو بطبيعة حاله يكون مع الكافرين.

و أما «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلّا مَنْ قَدْ آمَنَ»؟ فقد لا تشمل ابنه لمكان «قومك»الظاهرة في غير الأقارب، إضافة إلى وعد النجاة لأهله إلّا من سبق عليه القول، وهو من أهله ولم يسبق عليه القول، إضافة إلى انه قد يعنى «من قومه» في «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ» أم بخروج امرأته خاصة لسبق القول عليها بخصوصها في آية «امْرَأَتَ نُوحٍ».

أو أنه رجى خروجه من الكفر دون تمام أم هو على أشراف الخروج، إذا ف «لا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ»استنقاذ له من بينهم حتى يتخلص من كفرهم، ولكنه رغم زعمه ذاك يسمع نداء كفره الآيس من إيمانه في تلك الحالة الخطرة:

قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّٰهِ إِلّا مَنْ رَحِمَ وَ حالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (۴۳).

فيا حمقاه من ولد ويا عمقاه من ضلاله وكفره أنه يرى ذلك الموج العظيم الهضيم ولا يأوي إلى فلك النجاة، فإنما «يرجو ليأوي إلى جبل يعصمه من الماء وكأن الموج يخاف جبله، فجاء الجواب الحاسم القاصم: «قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّٰهِ إِلّا مَنْ رَحِمَ» ولا يرحم إلا من آمن، ثم «وَ حالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ» وعله من أنحسهم حيث طلب منه أن يركب دونهم فرفض فكان من المرفوضين.

و هنا يترك نوح ابنه إذ تبين له انه عدو للّٰه، وإنما يسأل بعد غرقه استعلاما عما حصل من وعد النجاة لأهله إلّا من سبق عليه القول.

ذلك، وحين تكون فلك نوح نجاة للمؤنين معه بأمر اللّٰه، أفلا تكون العترة الطاهرة (عليهم السلام) مع الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله سفن النجاة؟ وكما ورد في روايات*.

وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْماءُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ (۴۴).

«و قيل» والقائل بطبيعة الحال هو اللّٰه الذي قال: «فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ. وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ. وَ حَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ. تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ» (۵۴ ـ ۱۱ ـ ۱۴).

و هنا روايات مختلقة تقول إن بعض المياه تمردت كماء الكبريت وماء المرّ، وهي معروضة عرض الحائط إذ لا تخلّف عن أمر اللّٰه في حقل التكوين والتدبير*.

و لما ذا «قيل» مجهولا؟ والقائل وهو اللّٰه معروف! علّه لكي لا يضخم تلك الإرادة من اللّٰه، فليس اللّٰه ليتكلف في ذلك القول تكوينيا كما لم يتكلف في قوله الأول ولا أي قول، إذا ف «قيل» لمحة إلى أنه له تعالى هين، وإنما هو رهن إشارة خاطفة تتبعها رادفة.

و ليس القول هنا لفظيا يخاطب فيه الأرض والسماء، بل هو تكويني كما «قال لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ» (۴۱:۱۱) و«إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (۳۶: ۸۲) فهو أمر الإرادة التكوينية لمكان «أردناه» فلا يتخلف خلاف ما يروى* لا التشريعية فإنه لها أمر ليفعل وقد يتخلف عن شرعته.

و «يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ» مما يدل على أن الأرض أظهرت ماءها كلها على ظهرها، وكما تدل «وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً» فإنه التفجير الطليق للأرض كلها عيونا جارية على وجهها.

ثم «وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي» دليل أن نصيبا من ذلك الماء كان يخص السماء وكما تدل «فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ» فقد غرقت الأرض كلها بكل ماءها وبعض من ماء السماء، ثم «قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي» ماءً منك «وَ غِيضَ الْماءُ»: نقص حيث ابتلعت الأرض ماءها الخاص بباطنها، وأقلعت السماء ماءها الخاص بها، فلم يبق إلا ماء الأرض الخاص بوجهها بحارا وأنهارا وسواقي وعيونا كما كانت قبل الطوفان، «و استوت» الفلك «عَلَى الْجُودِيِّ» حيث مرساها الأخير «وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ» غرقا في الطوفان ثم حرقا في النار.

و هكذا انطوى طومار هؤلآء المكذبين الكفار، «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ»!.

و يا لها من جملة مختصرة جميلة حاسمة تطوي ذلك الموقف الطويل الطويل طيا خاطفا كأن لم

يغن بالأمس، فقد انطوى طومار كل هؤلآء الملإ وامرأة نوح وابنه لفترة قصيرة يسيرة، فظلوا هامسين ناكصين، ثم غرقوا فلا تسمع لهم ولا همسا.

و يا لها من فصاحة وبلاغة قمة، بارزة لكل معارضة، حيث فشلت أمام القرآن كله، وأمام هذه الآية بخصوصها، فقد روي أن كفار قريش أرادوا أن يتعاطوا معارضة القرآن فعكفوا على ألباب البر ولحوم الضأن وسلاف الخمر أربعين يوما لتصفوا أذهانهم، فلما أخذوا فيما أرادوا سمعوا هذه الآية فقال بعضهم لبعض: هذا كلام لا يشبه كلام المخلوقين وتركوا ما أخذوا فيه وافترقوا.

فهنا لا يذكر اللّه باسمه ولا باسم نوح والمؤنين معه ولا قومه إلّا دعاء: «بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ» حصرا في الموقف بعوامل الخلقة المأمورة، وحسرا عن طرح اسم اللّه، وكلّ واجد موضعه من فاعل ومفعول، لأن كلا معروف بموقفه، فلقد جمع عجاب من أسباب الإيجاز والإعجاز ما اهتم بشأنها الرعيل الأعلى من رجال البلاغة، فغاصوا خضمّها، واستخرجوا ما استطاعوا من لئاليها، ولم تكن إلا قطرة من يمّ.

و من ذلك خطاب الأرض والسماء ببلع الماء وقلعه، إنباءً عن نفاذ قدرته وسرعة مضيء أمره وكان حصول أمره رهن لفظ الكلام دون معاناة ولا كلفة ولا لغوب ومشقة و لطيفة أخرى هي أن «ابلعي» أبلغ من: اذهبي بماءك، لأن في الابتلاع دليلا على إذهاب الماء بسرعة إلى باطنها، وكذلك «أقلعي» فإنها أبلغ في الانجلاء، لأن في الإقلاع أيضا معنى الإسراع إلى السماء، وذلك أدل على نفاذ القدرة وطواعية الأمور المقدرة من غير وقفة ولا لبثة.

ثم في المزاوجة بين «ابلعي وأقلعي» بلاغة عجيبة وفصاحة شريفة أديبة!.

ف «قيل» تكوينا وقولا هما للّه، «وَ غِيضَ الْماءُ» غائضه هو الأرض بأمر اللّه، «وَ قُضِيَ الْأَمْرُ» أمر اللّه وفاعله هو اللّه «و استوت» فاعله الفلك، و«بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ» هم الغارقون أجمعون.

ذلك، فلما «اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ»:

وَ نادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ(۴۵).

ترى أنه كان ابنه من صلبه؟ أم ابن امرأته من غيره؟ قوله: «إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي» وقول اللّه: «وَ نادى نُوحٌ ابْنَهُ» يدلان على أنه في الحق كان ابنه من صلبه، ولا يقال لإبن الزوجة أنه ابن الزوج إلّا بمجاز بعيد وقرينة صارحة تدل عليه وهي هنا منفية.

و القول «إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي» يعني أنه من امرأته وهي أهله*، فهذه قرينة أنه كان ابنها لا ابنه، إنه مردود بقول اللّه: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» لو أريد أنه من امرأتي، فقد انقطع عنهما، فكيف يكون ـ إذا ـ ابنه من أهله؟.

ثم امرأته وهي من أهله سبق عليها القول نفسها، فكيف يسأل نوح ربه عن ابنه كيف غرق وهو من أهله هذه المحكوم عليها نفسها بالغرق؟!.

فإنما «ابْنِي مِنْ أَهْلِي» يعني أنه كان من أهله الموعودين بالنجاة في «وَ أَهْلَكَ إِلّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» ولمّا يتبين له عليه‌السلام أنه داخل في سابق القول، فقد يسأل استفهاما دونما استفحام، أنك يا رب قد وعدتني نجاة أهلي إلّا من سبق عليه القول وهم «الَّذِينَ ظَلَمُوا» وظلوا ظالمين، كما وعدت غرق الظالمين، وابني هذا من أهلي و هو ظالم، فوضح لي يا رب ما عمي علي من أمره بين الوعدين.

و لمّا يتبين لي أنه حقا من الظالمين كما امرأتي، إذ لم يظهر منه كفر ما حق مهما تخلف عن أمري بركوب السفينة، فإنه هو الذي دعا على الكافرين كلهم: «رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيّاراً»

والقائل:
«فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (۲۶: ۱۱۸) فلو كان يرى أن ابنه منهم لما كان يدعوه لركوب السفينة، ولا يعرض ما عرضه بعد غرقه بقوله: «رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ..» وقد نهاه اللّه أن يخاطبه في الذين ظلموا: «وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ» فذلك العرض ولا سيما بعد الغرق قد لاح له أنه كالفرض استعلاما لغريب الموقف.
ذلك «وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ»: حق كلمه دونما استثناء لمكان التعريف للخبر الذي يستحق التنكير، فوعدك الحق كلّا وإنك تنجي أهلي «إِلّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» «وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ» كما حكمت بغرق ابني وهو من أهلي، فوضّح لي يا رب إن شئت كيف هذا وذاك حتى أخرج من جهلي، ومع كل هذه التفاصيل ليس في النص أنه سأل أو دعا، وإنما نادى نداء الوالد الحنون بولده، ربّه الحنون بموعده في عباده، و إنما ينتج هاتان المقدمتان الحكم بنجاته، ولكنه لم يستنتج ذلك تأدبا، بل وبحكم عام حكم بخلافه: «وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ»فحكمك حق، وذلك العرض لا يعني إلا بيان الحال العضال.
قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (۴۶).
«إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» الآهلين للنجاة، لأنه كان من الظالمين، فقد كان امرأتك من أهلك وسبق عليها القول لأنها كانت من الظالمين، وهكذا ابنك مهما كان من أهلك نسبا وولادة، ولكنه ليس من أهلك الرسالي حتى يكون معك في حقول الرحمة الرسالية، فالأهلية المنجية هي التي يتبناها العقيدة والعمل الصالح لبيت الرسالة، دون أهلية الصلب وسواها، غير الآهلة للحقل الرسالي، ف «أهلك» هم كل أهله آهلين و سواهم، ثم «إِلّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» يستثنيدة امرأته عن أهلية النجاة رغم أنها داخلة في أهلية السبب، ف «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» تعني أهلية النجاة، أو من أهلك الموعودين بالنجاة، بل هو من المستثنين عن النجاة ل«إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ» فقد «نفاه اللّه عنه حين خالفه في دينه»*.
«فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» أنه ليس من أهلك الآهلين، فتسألني لما ذا لم ينج من الغرق، «إِنِّي أَعِظُكَ» عن «أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ» في سؤلك.
و قد يعني «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ» ـ إضافة إلى ابنه ـ سؤله المترقب:
لما ذا أهلكته وهو ابني وقد استثنيت أهلي وهو منهم؟.
و هنا يتوضح لنا بنصوع ونصوح أن ليس قرابة النسب والسبب وما أشبه مما تضر أو تنفع، فإنما هما من حصائل الأهلية العقيدية والعملية فتنفع، أم ضدها فتنقع، «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلّا ما سَعى».
أجل، إن للهالات النسبية والسببية ـ كما للحالات المساعدة في مختلف الظروف ـ إنها لها تأثيرا في تضخيم الصالحات والطالحات، «وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً».
و تراه بعد جهل وسأل ما ليس له به علم من كون ابنه من الظالمين فلم يكن من أهله الآهلين؟
النص هنا ساكت عن سؤله، والآية التالية تنفي على حد قوله سؤله:
قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ إِلّا تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ (۴۷).
فسؤل ما ليس للسائل به علم سؤلان اثنان، سؤل محظور وهو سؤل الاعتراض: لم أهلكت ابني وهو من أهلي، ولم يكن، فإنما طرح الموقف المجهول لديه ليقف على ما يجهله من قضية ضلال ابنه، ولما يتبين له أنه عدو للّه دون سؤل، ثم ذيّله ب: «وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ» مما يصرح بكامل رضاه بحكمه

تعالى في ابنه على أية حال له كما في كل الأحوال.
ثم وسؤل محبور أم هو لأقل تقدير غير محظور وهو الذي ينتجه «رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ..»وليس ذلك من طرح السؤل، بل هو أشبه بعرض الحال كما عرضها أيوب: «رب إني مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ» (٣٨: ٤١).
و ليس «إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ» إلّا حظرا عن مستقبل السؤل دون حاضره، أو ماضيه، كيلا يقع في فخ السؤل المحظور قضية الرحمة الأبوية، ناسيا أنه تعالى «أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ».
و كما صدق بكل تصديق وعظ ربه حيث: «قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ» وعوذا باللّه ألّا يعيذه ربه بعد دعاءه عن هذا السؤل!، ثم «إِلّا تَغْفِرْ لِي»صدا عن هكذا سؤل غفر الدفع ولمّا يحصل، دون غفر الرفع بعد ما حصل «وَتَرْحَمْنِي»حدا صالحا بكل سؤل «أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ» موقف العبودية السليمة وكامل التسليم.
و أقصى ما يحتمل هنا أن سؤله الاستعلام أيضا كان غير محبور ولا مشكور، فإنه كان يعلم أنه تعالى «أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ» وأن «ابنه من أهله» وقد استثنى أهله «إِلّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» ومع الوصف أهلك ابنه مع سائر الظالمين، وقضية الأدب الرسالي هي كامل السكوت في مثل ذلك الموقف الرهيف الرعيب.
و لكنه لمّا يسأل ـ مهما كان في حضون السؤل ـ ذلك السؤل الاستعلام حتى أدركته العصمة الربانية فلم يسأل، وكل ما في الأمر أنه عرض المسرح بموقفه منه راجيا أن يوضّح له ربه ليعلم بعد جهل، وهو عرض أديب أريب، ولكنه تعالى أراده ألّا يسأل ولا يطرح مسرح السؤل، وقد فعل فلم يسأل استعلاما فضلا عن اعتراض، وإنما عرض الموقف كما عرضه أيوب: «أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ» (٣٨: ٤١) عرضا دون أي سؤل لا محبور ولا محظور.
ذلك، ففي مثلث العرض: الاستعلام والاستفهام والاستفحام، لم يكن من نوح عليه‌السلام حسب النص إلّا العرض، وقد كفاه ربه عن استعلامه ب«إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ» ونهاه عن مستقبل سؤل: «فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ. قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ ..»، ولو اعتبر العرض للسؤل ـ أيضا ـ سؤلا، فغاية ما فيه أنه رغم كونه من حسنات الأبرار، هو من سيئات المقربين، فلا تنافي كيان العصمة الرسالية.
فهل إن محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله الذي يؤر بالسؤل:
«وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً» إذا سأل ما يجهل يفعل محظورا؟ فضلا عن العرض للسؤل وهو أدب في حقل السؤل، فليس ذلك العرض من سيئات المقربين، فضلا عن كونه سيئة في شرعة اللّه، مهما كان سؤله عن أمره تعالى دون سؤل نوح عليه‌السلام.
ذلك، فلا دور لقيلة الجمعية المرسلين الإمريكية ـ بعد الاعتراض عليهم أن التوراة ينسب إلى نوح عليه‌السلام شرب الخمر الفادح ـ أن «هناك أيضا معاصي ينسبها القرآن إلى نوح ومنها طلبه ما لا يجوز رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ..»(١١:٤٧ ـ ٤٩): وزجره اللّه وهدّده في سؤله هذا وهو طلب منه المغفرة وهذا دليل على أنه أذنب ..»؟.
فإن دليلهم عليل حيث النص لا يدل على سؤله، بل هو عرض هو في معرض سؤله ولمّا يسأل، ثم «وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ» تلحيقا لهذا العرض ينبئ عن بالغ أدبه وتسليمه لربه.

فلم يكن هناك سؤل، أم ولا إرادة سؤل، ولأنه ـ وإن كان استعلاما ـ قد ينافي سليم التسليم الرسالي لرب العالمين وـ حسنات الأبرار سيئات المقربين ـ لذلك أدركته العصمة الربانية كيلا يقع في محظور ذلك السؤل ـ وإن لم يكن محظورا ككلّ في شرعة اللّه ـ فنهاه ربه عنه فضلا عما علاه من سؤل التأنيب! قائلا: «فَلا تَسْئَلْنِ ..»وفيه انعطافة عطوفة من ربه عليه، نهيا عن أمثال هذا السؤل التي قد تشير إلى عدم التسليم لرب العالمين، فلم يسأل ولم يجهل.

و ليس النهي عن فعل دليلا على واقعه فحظرا عن تكراره، حيث الأحكام الرسولية والرسالية أمرا ونهيا تترى على رسل اللّه ليحملوها لهم وإلى المرسل إليهم، فهي لهم أوامر ونواهي بدائية دون سبق لها لكي تدل الأوامر على تركهم المأمور به، أو تدل النواهي على اقترافهم للمحظور.

و هنا النهي موجّه إلى مستقبل لذلك العرض ألّا يلحّقه بسؤل الاستعلام فلم يفعل، ثم ولا صراحة ولا لمحة أنه سأل ما ليس له به علم أي سؤل من ذي قبل ولا بعده، فقبله عرض وبعده: «رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ..» واللّه يعيذ المستعيذ به الصادق ولا سيما رسله، وقد أمر الرسل على درجاتهم كما أمر رسول الهدى صلى‌الله‌عليه‌وآله على عصمته القمة: «قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ ..» «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النّاسِ ..»«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ» وما أشبه من قول.

لذلك لم يؤبه ربه لا من قبل ولا من بعد، اللّهم إلّا بخطابه الحنون المنون:

قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنّا وَ بَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنّا عَذابٌ أَلِيمٌ (۴۸).

هنا السلام والبركات ينزل على هؤاء، وترى كما أن نوحا والذين آمنوا معه يستحقونها، فهل ـ كذلك ـ تستحقها «أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنّا عَذابٌ أَلِيمٌ»؟ كلّا! لمكان الاستئناف في «أمم»رفعا، فلا سلام عليهم ولا بركات ولا هم من أهل النجاة، و لم يكونوا وقتئذ معهم في الفلك ـ إلّا في الأصلاب والأرحام ـ حتى تشملهم سلام و بركات، أم هم معهم من أهل النجاة، بل هم الذين يقول اللّه عنهم: «وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» (۳۶: ۴۱) و«إِنّا لَمّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ»(۶۹: ۱۱).

ثم «أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ» تشمل إلى المؤنين معه أمما مؤنة من أنسالهم، فلم يقل «أمم معك» ثم وهم أمة واحدة مؤنة معه، بل «أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ» لتشمل معهم أمما من أنسالهم مؤنة، ف «من»بالنسبة للأمة المؤنة الحاضرة في الفلك بيانية، وهي لأنسال مؤنة منهم تبعيضية، فلو كانت تبعيضية فقط لم تصلح لشمولهم أنفسهم فإنهم كلهم «أمة معك» لا «أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ» ولو كانت بيانية فقط لم تصلح لشمول أنسالهم المؤنة فقط حيث الأكثرية الساحقة منهم أمم كافرة.

ذلك، ولكن الذين كانوا معه في الفلك لم يكونوا أمما حتى تشملهم ممن معك بيانية، والصحيح أو الأصح أنها بيانية تبين «من معه» على مدار الزمن، فلا تعني «معه»معية زمانية ومكانية حتى تختص بهؤاء الخصوص، بل هي معية رسالية تعم كافة الرساليين مرسلين ومرسلا إليهم المؤنين، ثم «أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ» ليسوا ممن معك، فهم غيرهم على مدار الزمن، ف «أمم» هنا مبتدأ علّ ظرفه «هناك» وخبره «سَنُمَتِّعُهُمْ ..».

إذا ف «بِسَلامٍ مِنّا وَ بَرَكاتٍ» هما على كل مؤني التاريخ الرسالي منذ نوح إلى خاتم النبيين وإلى يوم الدين، ثم «سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنّا عَذابٌ أَلِيمٌ» هم كل كفرة التاريخ الرسالي طول الزمان وعرض

المكان.
و «سلام» هنا هو سلام في الإيمان أن يسلمهم الله عن اللّاإيمان «و بركات» هي بركات الإيمان معنوية ومادية، ثم التمتيع لأمم كافرة من أنسالهم هو متعة الحياة المادية لفترة حياتهم الدنيوية «ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنّا عَذابٌ أَلِيمٌ».
«تلك» الإنباءات هي «مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ» حيث لا يعلمها إلّا الله، لانقطاع التاريخ عنها، وعجزه على حضوره عن تلقي الواقع كله وعرضه، وإنما «نُوحِيها إِلَيْكَ»لتكون على خبرة منها فأهبة للتصبّر على أذى قومك اللدّ ولظاهم «ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا» الوحي «فاصبر» على ما يقولون ويفعلون من تكذيب وعناد، فإن الحياة «العاقبة» لهذه الضيقة الملتوية، هي «للمتقين» ف «العاقبة» تعم العاقبة الأولى لهذه الحياة والأخرى، ومن الأولى الحياة الزاهرة الباهرة زمن القائم المهدي من آل محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله.

سفينة نوح عليه‌السلام وأهل بيت محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله:

يروى عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله متواترة قوله: «مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق ـ زخّ في النار ـ زجّ في النار»*.

أضواء على قصة نوح:
١ (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ» ترى وكيف يصبح الإنسان نفسه عملا غير صالح؟ فهل «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ» فعلا لا مصدرا؟ وهو خلاف النص المتواتر المعتمد عليه! أم المرجع ل«إنه»هو نداء نوح؟ وهو ليس عملا، بل هو قول!، أم هو عمل غير صالح حيث عمل في ولادة غير صالح إذ كان من الزنا كما «فخانتاهما» في امرأة نوح وامرأة لوط، وخيانة المرأة الفاتكة هي أن تجيء بولد من غير بعلها؟ و«ابنه ـ و ـ ابني» يثبتان أنه كان ابنه، وولد الزنا لا ينسب إلى صاحب الفراش حيث يثبت أنه ولد الزنا، ونساء الأنبياء لسن بخائنات جنسيا مهما خنّهم عقيديا وعمليا، حيث النكاح بالزانيات «حُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» على طول الخط، ومع الغض عن أي برهان لفظي فالدعارة في بيت النبوة مزرءة ضارية بهذه الكرامة.
ثم وكون الإنسان ولد الزنا ليس مما يحرمه الإيمان والرحمة الربانية، كما وأن ولادته من الزنا ليس من عمله فكيف يحاسب به؟.
الحق «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ» حيث كرّس كل أعماله لغير صالح فصدق عليه المصدر كأنه تجسّد عمل غير صالح، كما وأن السؤل حول قصته «عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ»لساحة الرسالة.
و هنا سلبية أهلية ابن نوح من صلبه عليه‌السلام عنه، مما يدل على أن الأهلية الصالحة هي صلاح العمل والعقيدة، وليست النسب ليحسب بفضله فضيلة أم برذله رذيلة، اللّهم إلّا بانضمام فضيلة أو رذيلة مكتسبة فنور على نور أم ظلمه على ظلمة، فإن «لمحسننا كفلان من الأجر ولمسيئنا ضعفان من العذاب* كما قال الله تعالى بحق نساء النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: «يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ

اتَّقَيْتُنَّ .. يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً. وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صالِحاً نُؤتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً» (٣٣: ٣١) وذلك قضية الموقف، هنا انتسابا إلى بيت النبي الطاهر، وفي غيره حسب الملابسات المقتضية لمضاعفة العذاب أو الرحمة.

إذا ف «أَهْلَكَ إِلّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» لا تعني إلّا أهلية النسب أم هو استثناء منقطع، وهنا «لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» تعني أهلية الحسب، ل«إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ» للنجاة مع أهلك الآهلين لها.

و عدم تلحيق «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» ب«و لا ممن آمن بك» يعمم الأهلية لكافة الآهلين للنجاة، سواء أ كانوا من أهله نسبا أم سواهم ف «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» لأنه كان مخالفا له، وجعل من اتبعه من أهله»* وهذا إشارة إلى المستفاد من آية الأنبياء في «وَ نُوحاً إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. وَ نَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ» (٢١: ٧٧)، فلو عني من «أهله»هنا أهل نسبه لشمل زوجه وابنه الكافرين ولم يشمل المؤنين معه!، و لا فحسب أنهم كلهم أهله، بل وهم كلهم ذريته كما «وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ»(٣٧: ٣٧) فهم ـ إذا ـ ذرية الحسب وليسوا ـ فقط ـ ذرية النسب وإن شملت المؤنين منهم.

«فاعلم أنه ليس بين اللّه عزّ وجلّ وبين أحد قرابة»*، بل «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقاكُمْ» (٤٩: ١٣) فحسب و«أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلّا ما سَعى» وليست الولادة خيّرة وشرّيرة هي من سعي المواليد.

ذلك، وقد يستشهد ب«إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» نفيا لكون ابن نوح ابنه، حرمان الولد الكافر عن ميراث الوالدين المؤنين، ولكنه ليس سلبا لأصل النسب، حقيقة ولا تنزيلا طليقا، وإلا لتسلب عن الكافر كافة أحكام النسب، إنما المقصود هنا سلب ميّزة النسب الرسالي والإيماني، أنه لا يلحق والده في النجاة وهي قضية الإيمان.

أجل إن الوشيجة الآهلة لعريق الصلة بين أفراد هي ـ فقط ـ وشيجة الإيمان باللّه والعمل الصالح، وليست وشيجة الدم والنسب، ولا الأرض والوطن، ولا القوم والعشيرة، ولا اللون واللغة، ولا الجنس والعنصر، ولا الحرفة والطبقة أماهيه من وشائج الأرض العريضة الحضيضة، إنما هي وشيجة الإيمان التي تجتاز فواصل الزمان والمكان وسائر الفواصل، فتوحّد من خلالها بين مختلف الأفراد.

فحين يقول نوح: «رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي» قاصدا وشيجة النسب يرد عليه ربه «يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» ولما ذا؟ ل«إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ» حيث انقطعت بينكما وشيجة الإيمان «فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ»!.

و هذا هو المعلم الواضح البارز على مفترق الطريق بين نظرة الدين الحق إلى الوشائج والروابط، وبين نظريات الجاهليات على مختلف مبادئها، ثم معلم آخر في نفس الوشيجة الإيمانية: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقاكُمْ».

٢ هل إن طوفان نوح عليه‌السلام عم الأرض كلّها بمن عليها من الكفار؟ أم خص أرض دعوته التي كان يدعو فيها؟.

إن قضية الرسالة العالمية لنوح عليه‌السلام هي شمول دعوته كل سكنة الأرض طيلة دعوته كما وظاهر القرآن كالنص يؤد شمولية هذه الدعوة والغرق، فقد انتسلت البشرية بعد الطوفان ـ فقط ـ ممن حمل مع نوح في الفلك: «ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً» (١٧:٣).

و دعى نوح على كل سكنة الأرض إلّا الذين آمنوا معه: «وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيّاراً» (٧١: ٢٦) وقد استجابه اللّه كما دعي: «فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ. وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ»(٧١:١١ ـ١٢).

و لا تعني الدعوة الرسولية أن يدعو الرسول بنفسه كافة المرسل إليهم، بل وبحملة رسالته الذين يوحى إليهم أم هم الربانيون من أمته، ثم الأرض التي كانوا يسكنونها كانت هي المعمورة ووقتذاك، وعلّها رقعة صغيرة منها شملتها دعوة نوح عليه‌السلام بنفسه أم بحملة رسالته، فقد عمّ الطوفان وطمّ هذه الرقعة بسائر الأرض، وقضي على كافة المتخلفين عن رسالته في الأرض كلها.

ذلك وقد يكفينا هذا التخمين الأمين لتصديق ذلك الحدث الكوني الهائل الذي جاءنا نبأه من مصدر الوحي الوثيق عن ذلك العهد السحيق الذي لا يعرف عنه التاريخ شيئا حيث يلحقه ولا يقارنه أو يسبقه حتى يخبرنا عنه، وهنا وفي سواه أصدق تاريخ لمصدقي الوحي هو الوحي وسائر التاريخ أيا كان ومن أي كان وأيان ليس يعتمد عليه كوثيقة قطعية.

و قد يتأيد شمول هذا الطوفان الأرض كلها بما يلي:

لو لم يشمل الأرض كلها فما هو الداعي أن يحمل فيها من كلّ زوجين اثنين، إذ كانت تكفيه حيوان سائر الأرض لو أنها غير مشمولة للطوفان.

«الأرض» في «رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيّاراً» دليل باهر لا مرد له على أن المعني منها هو كلّ الأرض، حيث الأرض تعنيها كلها إلّا إذا قامت قرينة على تحديدها، وهنا «ديارا»قرينة على إطلاقها، ثم «لن يلدوا» ليس يختص بكفار خصوص في أرض خاص.

وجود أصداف وحيوانات بحرية حجرية في قلل الجبال هو من الدلائل الكونية على أن الطوفان طم الأرض بقللها كلها.

٣ هل لسفينة نوح عليه‌السلام من آثار كما يشير إليها القرآن «إِنّا لَمّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ. لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَ تَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ» (٦٩: ١٢) فقد ذكرنا على ضوء آية الحاقة هذه* ما تحقق أخيرا من لوح خشبي من سفينته عليه أسماء الخمسة الطاهرة (عليهم السلام) باللغة الآرامية وهي لغة نوح عليه‌السلام ومن عجيب أمره أن هذه الصفحات من الفرقان التي تحوي قصة هذه اللوحة كانت في مطبعة مسيحية بيروتية تحت الطباعة فاشتدت الحرب وأحرقت فيما أحرقت هذه المطبعة وأنا في مكة المكرمة لمّا هاجرت إليها في خضم الحرب اللبنانية، ولما راجعت المطبعة بعد أشهر للاطلاع على الجزء (٢٩) هذا، وفتش صاحب المطبعة على يأسه البائس، فإذا هو بكامل هذا المجلد المصفوف تحت كل الأنقاض، فبقي حائرا متساءلا فقلت له: إن الصورة الفتوغرافية من هذه اللوحة الخشبية هي من ضمن ذلك المجلّد، فتجلّد على تبلّده وأسلم.

ذلك، وجماعة من العلماء الأمريكيين ـ بإشارة بعض رجال الهند الترك ـ عثروا في بعض قلل جبال آرارات شرقي تركيا بمرتفع/ ١۴٠٠ قدم على قطعات أخشاب يعطي القياس أنها قطعات متلاشية من سفينة عظيمة قديمة نزلت ورست هناك، وقد يوافقه المروي عن الصادق عليه‌السلام* وتبلغ قدمتها ل/ ٢٥٠٠ قبل الميلاد.

و قد أعطى القياس انها قطعات من سفينته يعادل حجمها ثلثي مركب (كوئين ماري) الإنجليزية التي طولها/ ١٠١٩ قدما وعرضها ١١٨ قدما وقد حملت الأخشاب إلى سانفرانسيسكو لتحقيق أمرها،

وأنها هل تقبل الانطباق على ما تعتقده أرباب النحل من سفينة نوح عليه‌السلام؟*.
و أين جبل الجودي؟ قد يكون هو آراراط كما في التوراة، ويؤده اللوحة والقطعات الأخرى من السفينة التي عثر عليها فيه، وتؤده اعترافات غربية وروايات*:
بشارات حول «الجودي»:
إنه ـ حسب التحقيق ـ جبل «آرارات» وقد نقلنا عن مجلة «أنقاد نيزوپ»السوگيتية وغيرها نبأ اللوحة الخشبية من أنقاض سفينة نوح التي استوت على الجودي، أن عليها أسماء الخمسة الطاهرة المحمدية صلى‌الله‌عليه‌وآله باللغة الآرامية، في هذا الفرقان*.
«آرارات» هي أرفع الجبال في أرمينستان، وقد انقطعت عنها سلسلتان متجهتان إلى إيران، والسلسلة الأصلية تمضي من جنوبي (أرض روم) وتتصل بالمرتفعات الشمالية لآذربايجان، وسلسلة أخرى منها متجهة إلى الجنوب وهي واقعة بين آذربيجان الغربية وتركيا، ورأس الخط لهذه المرتفعات هو مقسم المياه الذي يربط القسم الشرقي من المياه إلى بحيرة أرومية، كما يرسل مياه الجانب الغربي إلى بحيرة (وان) في تركيا.
جبل «آرارات» موسومة بأسماء عدة، ففي اللغة التركية (اگريداغ): المنحدر، وبالفارسية (كوه نوح): جبل نوح، وفي العربية (الجودي) وبالإرمينية (ماسيس) أو (مازيك) و(ميزه زوزار) أي: جبل السفينة.
لآرارات مرتفعتان باسم: نوح الكبير ونوح الصغير، وارتفاع الأولى (٥١٥٦) مترا والثانية (٣٩١٤) مترا، وهما مستورتان دوما من الثلج.
مرتفع النوح الكبير يسمى في المأخذ الإسلامي ب(جبل الحارث) وهو على شاكلة قبة بمحيط قدره ١٥٠ ـ ٢٠٠ قدما، والنوح الصغير يسمى ب(جبل الحويرث).
منخفضات آرارات واقعة في تركيا، وهي تتشكل من مرتفعات وتلال بركانية صامتة لها منظر رعيب رغيب.
آرارات من حيث موقعه الجغرافي الخاص، الواقع في حدود البلاد الثلاثة: إيران ـ تركيا ـ السوفيت، إنه ذو أهمية حدودية سوق الجيشية.
«جملي كارري» السياح، الذي سافر إلى إيران في عام (١١٠٥) هجرية قمرية بزمن السلطان سليمان الصفوي، يكتب في عرض سفرته أنه رأى في تركيا ـ عند عبوره بها ـ أديرة عدة للرهبان بآرارات حيث كانوا مقيمين بها، وهكذا جماعة آخرون من السياحين العابرين يشيرون إلى هذه الأديرة.
«آرارات» الموسومة ب«ميزة زوزار»: جبل السفن، شهيرة عند الأرامنة بهذا الاسم و المعنى، ومن آثارها العتيقة خشبة هي الآن في مودع الآثار العتيقة «لوور» في باريس، التي يقول عنها خبراء الآثار العتيقة، أنها من أنقاض سفينة نوح عليه‌السلام.
لذلك نسمع (دوگلاس) الأمريكي، من كبار القضات الأمريكيين أخذ يحقق عن مرتفعات آرارات، حتى اعترضته اعتراضات السوگيت فانصرف عن قصده.
ذلك، وتؤده رواية التوراة تصريحا ب(آراراط) ـ على حد تعبيرها ـ (الملوك الأول ١٩: ٣٧) و(أشعياء ٣٧: ٣٨).
و هي في الشهرة لحد يعبر عنها (أرميا ٥١: ٢٧) ب«ممالك آراراط قائلا: «ارفعوا الراية في الأرض. اضربوا بالبوق في الشعوب قدّسوا عليها الأمم. نادوا عليها ممالك آراراط ومنّي وأشكنار ..».

و يقول الدكتور بوست الأمريكي في قاموس الكتاب المقدس (٣٠) إن الروايات تقول: إن سفينة نوح استوت على آراراط الذي يسميه الأعراب (الجودي) والأرمن (مسيس) والترك (اگريداغ) وإيران (جبل نوح) والأوروبيون (آراراط).
و أوّل من صعد إلى أعلى القمم لآرارات هو: ى. ى. ف. و. يارو، في سبتامبر ـ أو ـ أكتوبر ١٨٢٩ م، الذي فتح الطريق إليه لمحققين آخرين.
و من جهة أخرى تقول التوراة: مدفن نوح هو بلدة (مرند) من أتباع «آذربايجان الشرقية» وقد تترائى القلة الجبلية من نوح الصغير من هذه البلدة.
و تصرح أيضا أن سفينة نوح عليه‌السلام استوت على آراراط:الجودي.
ذلك وإليكم عرضا من هؤلآء الذين صعدوا إلى قمة الجودي:
آراراط: إن أقدم ما اطلعنا عليه هو عرض بهذا الصدد من تاجر ـ ونيزى ـ اسمه (جوزافا باربار) الذي سافر عام ١۴٧٨ م. ٨٨٠ هجرية قمرية إلى إيران سفيرا إلى بلاط «أوزن حسن»: أمير آق‌قويونلوين ـ وقد تأثر عميقا من السوابق التاريخية (آرارات)، أنه يكتب «.. تصل بعد ثلاثة أيام إلى القمة الجبلية الموسومة ب«لورئو»ثم بعد ثلاثة أيام تصل إلى جبل استوت سفينة نوح عليه بعد الطوفان العظيم.
... هكذا مضيت ومضيت حتى وصلت في ٢۶ جونية إلى جبل نوح، وهو جبل رفيع شاهق، مستور طول أيام السنة من الثلج.
كان يقال كثيرون حاولوا الوصول إلى قمته، ففرقة منهم لم يرجعوا، ورجعت فرقة أخرى قائلة: لا سبيل للوصول إلى القمة*.
من ثم «جان باتيست تاورينه» الفرنسي، الذي سافر ستّ مرات إلى الشرق بين ١۶٣٢ ـ ١۶۶٨ م وزار إيران تسع مرات، وسفرته الأولى كانت زمن السلطان صفي خليفة السلطان عباس الصفوي.
يقول في كتابه حول (آرارات) ومهبط سفينة نوح عليه‌السلام:
في خمسة ليوات ـ واحد المسافة آنذاك ـ يبتدء فاصل (إيروان) السفن ..»*.
و تقول «مادام ديولافوا» عن سفرتها سنة ١٨٨٢ م عابرة عن آرارات: بناء على النقل التاريخي استوت سفينة نوح على قلة آرارات، ولو أن جماعة صمموا على الصعود إلى هذه القلة ـ على صعوبته ـ لوجدوا سفينة نوح عليه، هذه السفينة التي يريها القسس بمنظارات قوية من دير بحيرة «سوانگاه» بقفقاز وعند ذلك سوف يتناسون كل صعوبات الطريق»*.
۵ كم عاش نوح عليه‌السلام؟:
إنه عاش رسولا حسب النص «أَلْفَ سَنَةٍ إِلّا خَمْسِينَ عاماً» ولا تتحمل السنة ولا العام غير المعروف من حدهما الزمني، والقول: علّه أسبوع وما أشبه حيث المصطلح في قديم الزمن هو ذلك التقدير للعام والسنة، إنه غول، حيث القرآن لا يتّبع غير المعروف من الصلاحات المتعودة زمن نزوله، فلو كان السنة أسبوعا وما أشبه في زمن قبل القرآن ـ ولا دليل عليه ـ لم يصح في بلاغة عادية ـ فضلا عن القمة القرآنية ـ أن يستعمل في القرآن المخاطب ـ منذ نزوله إلى يوم الدين ـ من يفهمون من السنة ما يفهمون.
ذلك، وإذا كانت مدة رسالته ألف سنة إلا خمسين عاما فعمره أكثر منها بقدر يصلح لحمل الرسالة فهو ألف أو يزيد*، وبذلك تثبت إمكانية هكذا تعمير واقعيا، فلا استبعاد إذا لطول عمر صاحب

الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف وهو أعظم من نوح عليه‌السلام محتدا، وأحصل حاصلا من تأسيس دولته العالمية الكبرى.

٦ وكم كان عدد الراكبين في السفينة؟:

إنهم مع نوح عليه‌السلام يقرب كونهم ثمانين لعديد من الأخبار في تعديديهم، والأخبار التي تحكي عن قرية الثمانين التي نزلوا فيها فسميت بما سميت لهؤاء الثمانين*.

٧ وهل بقي شيء من الأرض عتيقا من الغرق؟:

في روايات عدة أن البيت العتيق كان عتيقا من الغرق ولذلك سمي عتيقا* وهذا يناسب محتد ذلك البيت العتيق عن أن يملك لأحد، والعتيق عن الإختصاص بأمة دون أمة، والعتيق القديم الذي لم يسبقه أي بيت ف «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ».

هذا، وقد جاءت قصة نوح هذه في التوراة في (١٢٨) آية بشاكل ناكل قاحل إلا في مقاطع توافق القرآن، يعرف المنافق منه عن الموافق بمقارنات نحولها إلى القارئين*، وبيننا وبينكم علامات العجاب: ـ! ـ والحكم للعقلاء المتشرعين بشرعة الله.

فقد تعبر عن الذكور بأبناء الله! وأن الله حزن وتأسف في قلبه من خلق الناس! وأنه أدخل السفينة زوجته وأبناءه ـ وهي وولد له كافران ـ! ثم ولا يذكر المؤنين معه، وأدخل كذلك طيور السماء حيث الغرق يغرقها مع دواب الأرض، والطيور لا تغرق! ثم وبالنسبة للدواب والطيور قد تقول اثنين اثنين طاهرة ونجسة، وأخرى تختص الطاهرة بسبعة سبعة، وأنه لما صار الطوفان كان عمر نوح ستمائة سنة، وقد لبث فيهم ألف سنة إلّا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون!.

هذا، وقد جاءت في أخبار الأمم وأساطيرهم* ـ كما في القرآن والتوراة ـ أنباء الطوفان، مهما اختلفت كلها عن القرآن في ملابساته، مما يؤد أصل الطوفان العام، وإن كان في نبإ القرآن كفاية.

يونس الرسول عليه‌السلام في تبرات وعبرات

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ. إِذْ نادى وَ هُوَ مَكْظُومٌ. لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ. فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصّالِحِينَ:

يا حامل الرسالة الخالدة، عليك ان تصبر في بلاغها، صبرا صامدا، دون فشل ولا فرار عمن أرسلت إليهم مهما كلف الأمر، فاثبت حتى يأتيك امر الله وأنت صامد وهم فاشلون وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ: ولا كأي من حملة الرسالات الذين غلبوا على أمرهم وقل صبرهم، فهذه وأمثالها من تجارب مضت في الأدوار الرسالية وحقولها، إنها لك زاد ورصيد، لتكون أنت صاحب الحصاد الأخير، والزاد والرصيد الأخير، فتعينك على العبء الثقيل الكبير في هداية البشرية جمعاء، في كافة القرون و الأجيال، نبراسا تنير به الدرب على المستنيرين، ومتراسا تكافح به المتخلفين.

فلقد حمل صاحب الحوت ـ يونس بن متى ـ رسالة جزئية مؤتة إلى قوم خصوص، فلم يتحمل أذاهم، وانكفأ إناء صبره فدعى عليهم وخرج من بينهم فحبسه الله في بطن الحوت، لماذا هذه العجلة في ترك الرسالة، والمرسل إليهم؟

و كما يروى عن الرسول الأقدس صلى‌الله‌عليه‌وآله قوله: «كان رجلا تعتريه الحدة، وكان قليل الصبر على قومه والمداراة لهم، عاجزا عما حمل من ثقل أوتار النبوة وأعلامها، وانه يتفسخ تحتها كما يتفسخ البعير تحت حمله ..»*.

و إلى تفصيل حاله في بعثته ورسالته: وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ. فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ. فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ. وَ أَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ. وَ أَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ(٣٧:١٤٨) وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَ كَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٢١: ٨٨).

إنه أبق إباق العبد من مولاه، أبق من تكميل الرسالة وتتميم الدعوة، مغاضبا مع قومه، فظن ان لن يقدر اللّه: يضيق اللّه: عليه في هذا الإباق، فساهم فكان من المدحضين، فالتقمه الحوت وهو مليم نفسه أن كان من الظالمين: المنقصين في بلاغ الرسالة، ولولا ان تداركه من ربه نعمة التسبيح للبث في هذا السجن إلى يوم يبعثون، فنبذه بالعراء لما سبح، وأرسله ثانية إلى قومه: إلى مائة الف أو يزيدون، فآمنوا فمتعهم اللّه إلى حين: فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلّا قَوْمَ يُونُسَ لَمّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (١٠: ٩٨).

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ: حكم الاستقامة في الدعوة: فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَكَ(١١: ١١٢) فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ (٤٦: ٣٥): هذا ـ وحكم اللّه في هؤلآء الماردين يوم الدنيا ويوم الدين، يوم في حريق الحرب كما حان حينها منذ الهجرة، ويوم في حريق النار يوم القرار ولا فرار! وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ: يونس صاحب السجن الحي السابح في اليم، إِذْ نادى ربه فيه وَ هُوَ مَكْظُومٌ: مكظوم الغضب عن قومه لما عرف خطأه في التعجيل، وتركه واجب التأجيل لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ:

أن كظم غيظه وغضبه، ووفقه للتوبة والتسبيح لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ ولكنه سبح ربه وتاب فنبذ بالعراء وهو ممدوح، فلقد كان بانتظاره عذاب دائب يوم الدنيا: فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ دون نبذ بالعراء مذموما أو ممدوحا، لو انه ترك كل الواجب قديما وفي السجن، ولكنه كان من المسبحين هنا وهناك، ولقد نجاه تسبيحه أن نبذ بالعراء، وكان يبقى عليه الذم لو لم يكمل التسبيح بما أنعم عليه ربه من الاعتراف بالظلم، ومن التوبة النصوح، وكظم الغيظ، فنبذ بالعراء ممدوحا فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصّالِحِينَ: لتكميل الرسالة: فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ. وَ أَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ. وَ أَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (٣٧: ١٤٨).

وَ إِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَ ما هُوَ إِلّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ:

الإزلاق هو إزلال القدم حتى لا يستقر على الأرض، والإزلاق بالبصر كناية عن غاية المقت والإبغاض عند النزاع والخصام، كأن هؤلآء الكفار ـ وعند سماع الذكر الذي لزامه التذكير ـ كأنهم من كثرة بغضهم يكادون ليستفزوه من الأرض بأبصارهم الحاقدة، وليمسوا من كرامته بألسنتهم الناقدة: وَ

يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ رغم أن كيانه ذكر للعالمين وَ ما هُوَ إِلّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ وهل يعقل انه بنعمة ربه مجنون، وهم بنقمته عقلاء، فما لهم كيف يحكمون؟

ثم وهل للعين تأثير عفوي، دون محاولة خارجية فيما يراد؟ عله يكون أحيانا، ولكنه لغير المؤدين المدركين بالعصمة الإلهية، فقد كاد الكفار ليزلقوه ولن يزلقوه، حيث العصمة الإلهية ترقب الرسول الأقدس عن كل محاولة تمس من كيانه الرسالي، مهما كادوا له كيدا ومادوا عليه ميدا، وكادوا ليزلقوه بأبصارهم، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين! هذا كله، رغم أن: «العين حق» *

و«العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر» *

و«أكثر من يموت بعد قضاء الله وقدره بالعين» *، كما يروى عن الرسول الأقدس صلى‌الله‌عليه‌وآله تأثيرات نفسانية سيئة تبتدئ بالعين، وكما لسائر المحاولات الشريرة آثار، إلا أن يشاء الله غيره وَ ما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلّا بِإِذْنِ اللهِ! وَ يَقُولُونَ قولتهم الكافرة المجنونة: إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ فهل لأنه لا يمشي ممشاهم ولا يهوى هواهم؟ وَ ما هُوَ: قرآن محمد ومحمد القرآن إِلّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ: كل العالمين مهما كانوا في هذه المعمورة أم سواها من كواكب عامرة، فالعالمون العقلاء هم المعنيون بهذا الذكر، ولكي يعقلوا عنه الكثير الكثير من متطلبات الحياة العقلية، ويرفضوا به الكثير الكثير من خرافات الحياة المجنونة المنفصلة عن وحي السماء.

حول هود عليه‌السلام وقومه

يذكر هود في القرآن كله سبع مرات في حين يذكر عاد وقومه أربع وعشرون مرة، وهم «عاد الأولى» (٥٣: ٥٠) وقد بشر به نوح عليه‌السلام من قبل * وصيغة الدعوة الرسالية وصبغها هنا هي صيغتها وصبغتها في كافة الرسالات، فإنها رسالة موحدة يحملها رسل الله على مدار الزمن الرسالي مهما اختلفت فيها طقوس، حيث الأصل واحد هو الدعوة إلى توحيد الله وشرعته، وبراهين الرسالات هي الآيات الرسالية ومنها الرسل أنفسهم.

هنا هود يدعو عادا إلى توحيد العبادة ورفض الأنداد ب«إِنْ أَنْتُمْ إِلّا مُفْتَرُونَ» إذ أنتم معترفون بالإله الأصل ولا برهان لكم فيما تدعون ف «إِنْ أَنْتُمْ إِلّا مُفْتَرُونَ».

ثم يزود دعوته التوحيدية التي هي مبرهنة بكافة البراهين الفطرية والعقلية والآفاقية، بأنها لا تدعو لسؤل أجر عليها «إِنْ أَجْرِيَ إِلّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي» وإياكم بالفطرة التوحيدية «أَ فَلا تَعْقِلُونَ» التوحيد الحق وحق التوحيد بقضية الفطرة وسائر الآيات الآفاقية والأنفسية المعسكرة لإثباته دونما أية ريبة؟!.

و تزويد ثان بإرسال السماء عليهم مدرارا وقد كانوا في جدب تلمح له: «فَلَمّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ» (٤٦: ٢٤)، ثم وازدياد قوة إلى قوتهم مادية ومعنوية، مما يدل على أن «لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ» (٧: ٩٦) إذاً ف «لا تَتَوَلَّوْا» عن الحق الناصع الناصح «مجرمين» ثمرات الحياة الإنسانية قبل إيناعها، والتوحيد الحق إيناع في أعلى القمم من الحيوية الإنسانية السامية.

ذلك، ولكن لا حياة لمن تنادي، حيث تغافلوا وتجاهلوا عن بينة التوحيد الرسولية والرسالية فانكروها

غائلين قائلين: «يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَ ما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَ ما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ».
هنا «ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ» تعني آية بينة على الرسالة التوحيدية، والرسل بأنفسهم في قالاتهم وحالاتهم وفعالاتهم بينات ربانية وإن لم يأتوا بسائر البينات، وكما قال رسل المسيح عليه‌السلام جوابا عن شطحات المنكرين «رَبُّنا يَعْلَمُ إِنّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ» (٣۶: ١۶) توجيها وجيها لهم إلى التربية الرسالية الباهرة فيهم، الظاهرة في دعواتهم.
ثم «وَ ما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ» إذ لا حجة فيه، وهم منكرون حجج الرسالات كلها، رامين إياها بالسحر والكهانة على طول الخط، مجتثين جذورها باستبعاد أو استحالة رسالة بشر إلى بشر، وما إلى ذلك من حجج داحضة في لجج من لجاجات.
ثم يلخصون قيلتهم هذه ب«إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ» غضبا ناقما عليك إذ ترفضهم ولا تفرضهم، وكأنه يؤن بهم فيخالفهم في ألوهتهم، ف «قالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَ اشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمّا تُشْرِكُونَ»:
«أُشْهِدُ اللَّهَ» بما رباني بالدعوة التوحيدية الباهرة، فالله شهيد لرسالاته برسله: «قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ» (۶: ١٩) ثم «وَ اشْهَدُوا» كما تشهدون من دعوتي ودعايتي المتواصلة التوحيدية: «أَنِّي بَرِيءٌ مِمّا تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِهِ» ثم يتحداهم باعترائهم وألهتهم إياه بأي سوء «فَكِيدُونِي جَمِيعاً» آلهة ومألوهين «ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ»وهذه المجاهرة بتلك البراءة استنهاض لهم بآلهتهم التي ألهتهم أن يعتروه ما أمكنهم، فلما رأوا أيديهم وإياهم فاضية عن هذه الإرادة السيئة، فليعرفوا بطلان «اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ»! وليكن ذلك التحدي من عديد آيات رسالته البينات إذ فنّد مدّعاهم أن آلهتهم على شيء مما يحددونه.
و ذلك «إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبِّكُمْ ما مِنْ دَابَّةٍ إِلّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ».
هنا «رَبِّي وَ رَبِّكُمْ» في أخذ كل ناصية للتدليل على شمول هذه الربوبية، ثم و«إِنَّ رَبِّي»الثانية دون «وَ رَبِّكُمْ» لمكان نكرانهم أنه على صراط مستقيم في ربوبيته، حيث اتخذوا له شركاء، إذا ف «رَبِّي» أنا الرسول المربي برحمته وخاصة عنايته، إنّه «عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ».
«ما مِنْ دَابَّةٍ» تدب في حياتها بريا وبحريا وجويا «إِلّا هُوَ» اللّٰه «آخِذٌ بِناصِيَتِها»وهي حياتها بكل ملابساتها، أخذا بحيطة العلم والقدرة الربانية، دون تفلّت لواحدة منها عن هذه الأخذة الربانية على أية حال، ولا تلفّت لربي عنها أبدا، وذلك «إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» في ربوبيته الطليقة الحليقة على كل شيء.
فالصراط المستقيم ثلاثة، ١ صراط الرب بربوبيته، ٢ وصراط الرسل برسالاتهم ٣ وصراط المرسل إليهم بسلوكهم صراط الحق بدلالاتهم أولاء وتوفيق اللّٰه، وهنا دور «إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» هو دور التدليل على أنه آخذ بناصية كل دابة، ولكنها سلطة عادلة مستقيمة وليست مثل سائر السلطات قاصرة ومقصرة، فهو عادل حكيم لا ينحرف ولا ينجرف حيث الصراط المستقيم قضية ذاتية لربنا مهما كانت مختارة له دون إجبار.
ذلك، ولأن الحاجة هي السبب لأي ظلم وانحراف، سواء أ كانت حاجة علمية أم كمالية أخرى فإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف، ولأنّ ربي آخذ بناصية كل دابة بحيطة العلم والقدرة الطليقة. إذا ف «إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ».

و كما أن قوة العدالة أو العصمة تمنعان أصحابها عن التخلف عن صراط الحق المستقيم، كذلك ـ وبأحرى ـ ربنا الذي هو الحق نفسه وهو العدالة والعصمة غير المحدودة نفسها، وهو الصراط المستقيم نفسه، ولأنه على صراط مستقيم في ربوبيته، لذلك يدلنا على صراط مستقيم في عبوديته، فلا صراط مستقيما في أي حقل من الحقول، معرفية أو عملية إلّا وهو يدل عليه ويوفق له: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ» (٨٩: ١٤) فليس اللّه خالقا فقط يذر خلقه على قصوراتهم وتقصيراتهم هدرا لا يعبأ بهم، بل هو الحفيظ عليهم ما هم حافظون، حفيظا برحمة رحمانية لكل الكائنات، وبرحمة معها رحيمية خاصة للخصوص من عباده الذين يسلكون سبيله:

«وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً» (٦: ٦١) (وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ. كِراماً كاتِبِينَ»(٨٢: ١٠).

أجل «ما مِنْ دَابَّةٍ إِلّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها» فليست تستقل أية دابة عن أخذ اللّه، وهؤلآء الغلاظ الشداد من قومه، إن هم إلّا دوابا من هذه الدواب التي هو آخذ بناصيتها ويقهرها بقوته، فما خوفي من هذه الدواب، وما احتفالي بها وهي لا تتسلط عليّ ـ إن كانت لها سلطة ـ إلّا بإذن ربي.

و هذه الحقيقة التي يجدها صاحب الدعوة الربانية في نفسه النفيسة لا تدع في قلبه أية مجالة للشك والارتياب في عاقبة أمره الناجحة مهما كانت إمرا، إذ لا تخرج على أية حال عن أمر اللّه، إذاً:

«فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَ لا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ» (٥٧).

«فَإِنْ تَوَلَّوْا» أنتم أولاء الأنكاد البعاد «ف» قل «قد أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ»فمالي غيره ولا لكم سواء، من حجة بالغة تبلغ العقول غير المدخولة وقد أديت واجبي، ثم لا أتحسر من تكذيبكم وتعذيبكم «وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّي» مكانكم بعد ما أخذكم بعذابه الموعود «قَوْماً غَيْرَكُمْ»«وَ لا تَضُرُّونَهُ» في كفركم إن بقيتم، ولا في منعتكم من عذابه إن حاولتم ولا نقضا لملكه على أية حال «شَيْئاً» فإن له الأمر كله وما أنتم بمعجزين ربي ولا إياي «إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ»بعلمه وقدرته وحكمته البالغة. «حفيظ» يحفظ دينه وأولياءه وسننه من الضياع، و«حفيظ» عليكم فلا تفلتون عن أخذته ولا تعجزونه هربا.

و هنا «يستخلف ربي قوما غيركم» تحديد لخلافتهم أنفسهم عمن قبلهم بتهديد،«اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَ زادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (٧: ٦٩) نبهة لهم في هذه الرسالة، ثم «يستخلف» تهديد بخلافة أخرى بعدهم حين يستأصلون عن بكرتهم.

ذلك لأن الحياة الأرضية هي حياة الخلائق، حيث يخلف بعضهم بعضا: «وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ» (٦: ١٦٥) و«خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ» (٣٥: ٣٩) وليس يعني أنهم خلفاء اللّه نفسه في الأرض، إذ لا خليفة يخلفه في سماء أو أرض، وإنما هم خلائق خلائف يخلف بعضهم بعضا في الحياة الأرضية، كل خلف لآخر خلفا وغير خلف.

«وَ لَمّا جاءَ أَمْرُنا» باستئصالهم عن بكرتهم ب«الرِّيحَ الْعَقِيمَ. ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ» (٥١: ٤٢) (بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ. سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ»(٦٩: ٨).

و هنا «نَجَّيْنا هُوداً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّا» كما وفي الأخرى «نَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ».

و هنا مواصفة «عذاب» ب«غليظ» استعارة بالغة الحسن، حيث العذاب لا يوصف بالغليظ لأنه الألم الذي يلحق الحي في قلبه أو جسمه، وإنما وصفه تعالى هنا بالغلظ إذ يوصف الأمر الهيّن بالضئولة والدقة كما يوصف الأمر الشاق بالغلظ والشدة، حملا لذلك على عرف المراعاة للشيء الغليظ الكثيف، وقلة الحفل بالشيء الدقيق الضئيل، وكما يقال: عرض فلان دقيق وقدره ضئيل.
و وجه آخر أن يعنى بعذاب غليظ هنا عذاب الآخرة حيث يقع بالآلات المستعظمة والأعيان المستفظعة، كمقامع الحديد والحجارة المحمّاة، ومما يؤد أنه عذاب الآخرة ذكر «وَ نَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ» بعد «نَجَّيْنا هُوداً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّا».
«و تلك» البعيدون البعيدون «عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ» آفاقية وأنفسية وعموا عنها وصموا «وَ عَصَوْا رُسُلَهُ» مهما عاشوا رسولا واحدا، فإن عصيان رسول واحد بيّن الرسالة هو عصيان للرسالات كلها فقد: «كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَ لا تَتَّقُونَ» (٢٦:١٢٤)
(وَ اذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ»(٤٦: ٢١) فهم كذبوا بهؤاء النذر إذ كذبوا بنذير بهم والسند واحد و«لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ»، «وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبّارٍ عَنِيدٍ» تاركين إتباع رسولهم وسائر رسل اللّه.
تغن عنهم قوتهم ولا طغواهم وثروتهم شيئا، وبأحرى هؤلآء الذين ابتلي بهم الرسول محمد صلى الله عليه وآله.

هود

وَ اذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أَلّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللّٰهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ* وَ اذْكُرْ زادا في سبيل الدعوة، وحيادا عن الفشل في الحصول على البغية اذْكُرْ أَخا عادٍ: هودا عليه‌السلام أخا عاد الأولى، ولا خبر لنا عن الثانية وإنما الأولى:
«أَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى» (٥٣: ٥٠) مما يوحي بأنهم كانوا أقوى منهم وأظلم وأطغى، فلقد كانوا أقوى الأقوياء وأشد الأشداء في التاريخ.
«اذْكُرْ أَخا عادٍ»: اخوة في الإنسانية والقومية والإقليمية والقرابة أم ماذا إلا صالح العقيدة، فهي بحذافيرها لا تنفع ما لم تكن اخوة الإيمان كما لم تنفع أخا عاد وكذلك أنت مع قومك.
«أذكر ..» ماذا لقي من اخوته من كفر صارم، وتكذيب عارم، ثم ماذا لقوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ ... فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ (٦٩: ٨) وهم كانوا أقوى من قومك مكنة ورذالة، وأنت أقوى منه مكانة ورسالة. أَذْكُرَهُ ما طاب لك وطيّب خاطرك ولقد ذكر كما أمر بقوله صلى‌الله‌عليه‌وآله (يرحمنا الله وأخا عاد)*
اذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وترى أين الأحقاف، وهي الكتب المرتفعة من الرمال المعوجة حيث كانت منازل عاد؟ هل هي إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ (٨٩: ٧) وقد كانت مبنية على الأحقاف: أراضي الرمول والصخور، المبنية عليها ارم ذات العماد، وهي بالشامات، وعلّها قلعة بعلبك، أو انها نموذج من تلكم العماد الحجرية المنقطعة النظير في تاريخ الإنسان؟
ام هي واد بين عمان ومهرة؟* أو رمال بين عمان وحضر موت؟* أو رمال مشرفة على البحر بالشحر

من أرض اليمن* أو منزل في طريق مكة من القادسية أم ماذا؟ القدر المسلم قرآنيا ان الأحقاف هي أودية* الأراضي التي بنيت عليها ارم ذات العماد، وإذا كانت باقية حتى الآن فقد تكون قلعة بعلبك، العماد المنقطعة النظير في تاريخ الإنسان، وقد يوحي ببقائها: «تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلّا مَساكِنُهُمْ»: أن دمرت الصرصر العاتية أشياعهم بأشيائهم إلا مساكنهم عبرة للمعتبرين، إلا أن «لايُرى إِلّا» هنا، لا تضمن بقاء الرؤة إلى زمن نزول القرآن، فضلا عن الآن، فقد تختص بوقت العذاب، ولفترة بعد تدميرهم، كما قد توحي له: فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ(٦٩: ٨)؟ كلا! لا أشخاصا ولا آثارا، الا دمارا ومخازي وآصارا!: وَ فِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٥١: ٤٢) ثم المساكن هي محال السكن: أعم من البيوت، فقد تعني محال البيوت، الأودية الأحقاف المبنية عليها ارم ذات العماد، فلو كانت هي البيوت لذكرت كما في ثمود: أَنّا دَمَّرْناهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ. فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا .. (٢٧: ٥٢). ولكن البيوت قد يعبر عنها بالمساكن فقد تعني هي أيضا البيوت: وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ .. (٢٩: ٣٨) فها هي مساكنهم مبينة زمن نزول القرآن ومرئية، ولا تتميز مساكن المعذبين إلا ببقاء بقايا من بيوتهم الخاوية، لا أرضا مستوية أو عوجاء! فعلها قلعة بعلبك أم ماذا! مبيّنة لحد الآن ومرئية ولا نجد مساكن لهم غيرها تناسب أن تكون ارم ذات العماد.

و بما أن الغرض هنا لا يتعلق بمكان الأحقاف ارم ذات العماد، وإلا لصرح به، فلنسكت عما سكت اللّه عنه، إلا ما نعرف من أنهم ألأم حماقى الطغيان، فأحقافهم من أشر الوديان* ثم لا نتأكد من بقاء أثر من عاد.

وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ وترى ماذا يعني بين يديه ومن خلفه؟ هل هم الرسل الذين خلوا قبله مِنْ خَلْفِهِ وخلوا في إنذارهم زمنه مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ: إذ عاصروه؟: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ. إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللّهَ .. (٤١: ١٤) والرسل هنا هم النذر هناك.

فكما لا يعني مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ: هنا الرسل الذين أتوا من بعدهم، إذ لم يأتوهم وإنما أتوا من بعدهم، وإنما هم الذين كانوا في زمنهم، ولا مِنْ خَلْفِهِمْ يعنيهم، وإنما الذين أتوا قبلهم، فإنذارهم من قبلهم من آباءهم إنذار لهم.

فكذلك الرسل من بين يدي هود ومن خلفه، دون الذين أتوا من بعده، إذ لا صلة لمن بعده به ولا بهم ولا حجة له ولا لهم، وإنما الذين أنذروهم حاضرين ثم الذين أنذروا آباءهم، فلينذروا برسلهم حاضرين، أو غابرين حاذرين، فهم أقرب إلى الهدى ممن لم ينذر آباءهم فهم غافلون، كقومك اللّدّ: لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ(٣٦:٦).

و دعوة الرسالات الماضية والحاضرة ـ وكذا المستقبلة هي في صيغة واحدة:

أَلّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللّهَ دعوة واحدة إلى إله واحد دونما أي خلاف واختلاف، دعوة مركزة واحدة ثم إنذار واحد: إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.

و يَوْمٍ عَظِيمٍ في هذه الإنذارات هو القيامة الكبرى، وبالنسبة لعاد يضاف يوم الصرصر يوم نحس مستمر، فيوم عذابهم عظيم في الدنيا كما هو عظيم في الآخرة.

ف: إِنِّي أَخافُ .. كما هي مقالة سائر المنذرين بين أيديهم ومن خلفهم، كذلك هي مقالة هود لعاد إذ

يخوفهم بعذاب الدنيا قبل الآخرة وكما قالوا:
قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ.
توحي أن وعد عذاب يوم عظيم يختصهم كما طلبوه، وكما يعمهم وسواهم كعذاب عام يوم الآخرة، فقد يعني اليومين العظيمين معا، أو يختص في وعد هود يوم الدنيا، بعد ما وعدهم مرارا وتكرارا عذاب الآخرة.
فيا لهذا الحمق الصارم والكفر العارم أن عادا يعكفون على آلهتهم كأنها الحقة القاطعة، دونما خوف من عذاب يوم عظيم، لحد يتهددون نبيهم: «فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ». فلو ان عندهم احتمالا لصدق ذلك الوعد لعدلوا عن آلهتهم، ولكنما القلوب خاوية مقلوبة بما ظلموا، فهم في نظرة العذاب، ويزعمون أن هودا هو الآتي بالعذاب، وكأنه إله مع اللّٰه!.
«قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَأْفِكَنا» تصرفنا كذبا وافتراء «عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا» من عذاب يوم عظيم «إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ» في نبوتك وانباءك:
قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللّٰهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ «قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللّٰهِ»: لا يعدوه إلى سواه وان كان نبي اللّٰه، ف «إِنَّمَا الْعِلْمُ»: علم العذاب الموعود: ما هو؟ كيف هو؟ متى هو؟ كل ذلك عِنْدَ اللّٰهِ! وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ من وعد العذاب والوعد فقط، فلست أعلم ما هي حقيقة العذاب الموعود؟ ولا شكله وكيفيته؟ ولا متى يحين حينه، إنما وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ: بلاغا وإنذارا وعذابا أم ماذا!: وكما في نوح وأضرابه: قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ. قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللّٰهُ إِنْ شاءَ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١١: ٢٣).
و هذه هي السنة العامة في معجزات المرسلين، انها من أفعال اللّٰه الخاصة وليست من أفعالهم، وانما تجري بإذن اللّٰه على أيديهم أم بوعدهم تثبيتا للحجة، وإيضاحا للمهجة، اللهم إلا ما يظهر اللّٰه تعالى على غيبه من يشاء منهم، وكما أرى ابراهيم كيف يحيي الموتى أم ماذا*.
ف إِنَّمَا الْعِلْمُ علم المعجزات، كل العلم وبكل المعجزات عِنْدَ اللّٰهِ وليس عندي.
(و) انما أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ: من وعد العذاب ووعده فقط:
وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ:
فيا لآية العلم هذه من زوايا ثلاث، قارعة حجتهم الداحضة: أولا بانحصار علم العذاب الآية باللّٰه، ثم انه ليس الا مبلغا عن اللّٰه، وأخيرا وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ!: تجهلون لا عن جهل قاصر: الجاهل جهله، وانما عن تجاهل مقصر، وهكذا الأكثرية الساحقة من الكافرين، أنهم متجاهلون تقصيرا، لا جاهلون قصورا:
وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلّا أَنْ يَشاءَ اللّٰهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (٦: ١١١) إذا فأقلهم جاهلون وهم القاصرون!.
إنه ليس في حجتي ما ترتابون، ولا عندكم ما به تحتجون وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ في كل ما تقولون وتقترحون من أقوالكم وأفعالكم، متخبطين فيها: وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا (٢٧: ١٤)وَ تِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبّارٍ عَنِيدٍ. وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ (١١: ٦٠).
أراكم تجهلون وحتى مصالحكم في الحياة الدنيا، إذ تطالبون أخاكم المرسل إليكم بكل رفق وحنان،

تحقيق وعد العذاب عاجلا غير آجل، متهددين إياه: لو لم يأت به فهو كاذب في وعده!.
ترى كيف تجهلون مدى وعدي؟ فلم يكن إلا وعدا غير موقت، وأن اللّه يأتي به إذا شاء لا أنا، ولكنكم قوم تجهلون لغة الإنسان، فتستعجلون إلى ما تهوون غضا عما توعدون، ثم تكذبونني سلفا إن لم آت بما تقترحون، وإن في ذلك جهالات وحماقات:
١ ـ وعدتكم ان اللّه يأتي بعذاب، وأنتم تطلبونه مني: فَأْتِ بِها! ٢ ـ ولم يكن الوعد مؤتا وأنتم تستعجلون: فَأْتِ بِها وإذا لم استعجل فتكذبون: «إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ»: ثالوث الحماقة الجهالة!.
داحضة بمثلث الحجة البالغة «إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللّهِ» وليس عندي علم لا بإتيان العذاب ولا بوقته «وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ» من رسالات اللّه ومن وعد العذاب من اللّه غير موقوت: «وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ»! فلنفرض انني ما جئت بالعذاب، فكيف أكون كاذبا وليس التعذيب من شأني؟ أو أجّل عنكم العذاب فكيف لا أكون صادقا وليس التعجيل من شأني؟.
ثم وفي تعجيل العذاب كما عجل به عجالة دماركم فما ذا تربحون، أ فآلهتكم هي التي تنجيكم من بأس اللّه، «أَ إِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللّهِ تُرِيدُونَ»! كما ولستم في تأجيله تخسرون وتكذّبون، إذ لم يكن الوعد كما تستعجلون، فأنتم أنتم الخاسرون في عاجل العذاب وآجله، فكيف تحمقون في مجابهة رسولكم الناصح الأمين، متهددين إياه بالتكذيب لو لم يأت بما تهوون، مواجهة الحجة بالتهديد الهاتك، والتشديد الفاتك .. «وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ»! فلو وقفتم عند حد فيما تجهلون! ولكنها مستمرة وحتى إذا جاءكم تحسبونه عارضا يمطركم:
فَلَمّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ.
«فَلَمّا رَأَوْهُ»: العذاب الموعود، والمستعجل به رأوه «عارضا» سحابا يعرض في لأفق ثم يطبق في السماء «مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ»: تستقبل مخازن مياههم وكأنها موجهة لها لتمطرها وتملأها ماء، وذلك بعد ما أصابهم حر وعطش شديد «قالوا»: استبشارا بعارض ممطر بعد جدب، واستهزاء بهود: «هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا» تنديدا برسولهم وتكذيبا، فإذا بهم يسمعون منه بإعراض عن عارضهم الممطر «بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ» من عذاب موعود: «ريح»وليس سحابا عارضا، وإنما من ثخنها وتكاثفها خيّل إليهم انها سحاب «رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ»: تحمل أليم العذاب.
... وإنها «ريح صرصر عاتية. سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ» (٦٩: ٨).
«وَ فِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ»(٥١: ٤٢) وهي ريح: «تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلّا مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ»:
تستقبلهم عاصفة مدمرة مزمجرة، وقد بلغوا في حمقهم لعمقهم أن حسبوها عارضة ممطرة، وهم أولاء ضحايا الزمجرة، فانحسموا حسوما صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية، ورمم بالية «فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ»؟ اللهم لا إلا باغية!.
إن الصرصر العاتية دمرتهم ـ كما تدمر كل شيء ـ بحيث لا يرى إلا مساكنهم:
الأحقاف المبنية عليها ارمهم وبيوتهم، فالتدمير الاستئصال هو من طبيعة الريح الصرصر العقيم العاتية «ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ» فهل إنها ما أتت بيوتهم حين أتتهم؟! او أنها لم

تكن شيئا حتى تـدمره، او أنهـا في غـير رميمهـا تحولـت معهـم رمـيما فـلا يـرى إلا الـرميم، مسـاكن وأجسادا، او بقيت من مساكنهم ما تدل على تدمرهم وتذمرهم، وعله أولى لما قدمناه*.

و من عجيب الأمر انها«خرجت في مثل خرق الإبرة ..» او «مثل الخاتم»*

فدمرت أشياءهم وإياهم و«كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ» في دنياهم، فأولى لهم في أخراهم!.

و ترى هل كان هؤلآء الأغبياء ضعفاء ولذلك حسموا؟ كلا! وإنهم كانوا أقوى الأقوياء وأقوى منكم: وَ لَقَدْ مَكَّنّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنّاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصاراً وَ أَفْئِدَةً فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لا أَبْصارُهُمْ وَ لا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللّهِ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ»*.

آية التمكين هذه توحي أن عادا كانوا أمكن من هؤلآء واسمع وابصر وافأد، ولأنهـم كـانوا يجحـدون بآيات اللّه ويستهزءون ما أغنت عنهم ما فضلوا به من مكنة السمع والأبصار والأفئدة وسواها، وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون، فأولى لهم أولاء: قوم الرسول محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله ألا تغني عنهم مكنتهم وهي أضعف واقل قدرا، فما هي مكنتهم الأقوى؟ وما هي قوتهم في الثلاثة الاخرى؟

انهم ـ مع الآخرين المهلكين ـ كانوا احسن أثاثا ورءيا: «وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَ رِءْياً»* (١٩: ٧٣) وأشد قوة وآثارا: «أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كـانُوا مِـنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنَ اللّهِ مِنْ واقٍ» (٤٠: ٢١).

و لأن عادا ألعن حماقى الطغيان فليكونوا هم من أشدهم قوة وآثارا في الأرض، وأحسنهم أثاثا ورءيا، فأشدهم عذابا في الآخرة والأولى.

هنا نتبين ان «إن» تنفي عن الحاضرين زمن وحي القرآن المكنة التي كانت عند عاد، فقولة من قـال: انها زائدة، فارغة زائدة، إذ تنافي بلاغه القرآن وفصاحته، ولا تلائم الآيات الاخـرى التـي تـؤد أن عـادا كانوا أشد وأقوى، على أن المساواة في المكنة بين الغابرين والحاضرين لا تفيدهم عبرة.

ثم المكنة الأشد في عاد تعني القوى العقلية والعلمية والجسمية: «أَشَـدَّ قُـوَّةً» وقـوى الجـمال والمـال والأثاث: «أَحْسَنُ أَثاثاً وَ رِءْياً» ومن ثم الآثار أية آثار:

«أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ»: «وَ لَقَدْ مَكَّنّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنّاكُمْ فِيهِ».

و لعل آثار بعلبك من تلكم الآثار، التي تحدّث عن آصارهم في حمل هذه الآثـار: فكـم مـن ضـحايا رضخوا بدمائهم حمل هذه الصخور الضخمة، وكم من أشلاء فرشت لكي تقوم تحتها هذه العـماد في إرم عاد؟!.

و لقد جمعوا الكمال عقلا وجسما، والجمال رأيا ورءيا، أكمل من هؤلآء وأجمل، فلم تك تغن عنهم لا مالهم ولا مالهم من رأي أو رءي، ولا قوتهم في العقل والمال والجسـم .. ولأنهـم أذهبـوا طيبـاتهم في حياتهم الدنيا واستمتعوا بها ..

ثم الثلاثة الاخرى: السمع والأبصار والأفئدة، لا بـد وأنهـا ـ كـذلك ـ أقـوى ولـكي تزيـدهم قـوات إلى قوات، وإلا لم يكن لذكرها مجال، وبعد التمكين في الأرض قوة وآثارا، لأنهم والحاضرين ومعهم الناس، هم مشتركون في أصول هذه الثلاث، وإنما الاختلاف في الدرجات: «وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجـاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ»(٦:١٦٥): درجات في مختلف الطاقات: سمعا وأبصارا وأفئدة أم ماذا، وقد تحول إلى دركات كقوم عاد، الذين بدلوا نعمة اللّه كفرا «إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآيـاتِ اللّهِ» ولم يسـتفيدوا مـن

هذه الدرجات إيمانا بالآيات «وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» وكان حقا عليهم ما حاق بهم!.
إنهم كانوا أسمع من هؤلآء بآذان مداركهم، وأبصر بأبصارها، وأفئد بقلوبهم المتفئدة: المتوقدة بأنوار العلوم المادية «فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لا أَبْصارُهُمْ وَ لا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ»: ما أغنت عنهم في دفعهم إلى الإيمان إذ لم يستعملوها في التسمع لآليات والتبصر بها والتفوءد لها، وإنما أخلدوا بها إلى الحياة الدنيا فجمعوا لها غافلين عن الاخرى، فما أغنت عنهم في دفع العذاب، كما لم يندفعوا بها إلى الصواب والثواب.
كذلك والحاضرون المتحضرون، الذين بلغوا من المكنة، وفي السمع والأبصار والأفئدة ـ بلغوا قمتها، فيسمعون الأصوات من مشارق الأرض ومغاربها من الإذاعات، ويبصرون صورها من التلفزيونات، ويعقلون ويعلمون مختلف العلوم والاختراعات بالأفئدة: المتوقدة بأنوار العلم، وعلى أضواء هذا المثلث تمكنوا فيما لم يمكّن فيه انسان التاريخ فيما نعلم.
كذلك هؤلآء لا تغني عنهم حضاراتهم بحذافيرها من شيء، ما هم مكذبون بآيات اللّه وجاحدون، وسوف يحيق بهم ما كانوا به يستهزئون: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ. وَ اللّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ»(٨۴: ٢٣).
فالعبرة التي يستفيدها كل ذي مكنة، وكل ذي سمع وبصر وفؤد، ألا يغتر ذو قوة بقوته، ولا ذو مال بماله، ولا ذو علم بعلمه، فإنها قوى من قوى الكون، لو لم تجر في مجاريها، والسنن التي سنها اللّه، لرجعت عذابا وتبابا تدمر كل شيء، كما فعلت بعاد و ثمود! فتلك عاد تذمروا تسمعون أخبارهم وترون آثارهم، ولكي تعتبروا بهم وباضرابهم:
وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى وَ صَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ترى ما هي الصلة بين «أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ» و«لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» ف «هم» أولاء قوم عاد و«كم» هم الحاضرون في الخطاب؟ ثم وكيف يرجع المهلكون بعد هلاكهم اللهم إلا إلى اللّه يوم الدين؟.
إن «ما حولكم» تشمل قرى عاد وسواهم من المهلكين، ولقد صرف اللّه لهم من آياته قبل أن يهلكهم «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» فلما بقوا على ما طغوا ولم يرجعوا أهلكهم اللّه.
و من ثم في «أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ»: المخاطبين بوحي القرآن، تذكير لهم بما جرى على القرون من قبلهم لعلهم يرجعون، وإلا فثم الهلاك الدمار كما أهلك ما حولكم فما لكم لا تؤنون؟
و تصريف الآيات هو صوغ آيات النبوات وسائر الآيات في صيغ مختلفة حسب البيئات أو الطلبات، آيات تتوارد وتترى «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» عن غيهم ولكنهم ... صرفناها لهم لينصرفوا، إلا أن صيغة الكفر المعاند لا تنصرف، إلا إلى جهنم وبئس المصير.
«أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ» كعاد بالأحقاف ـ ارم ذات العماد، وثمود بالحجر، وسبأ باليمن وفي مدين أم ماذا، وهي من القرى التي كانت حول أم القرى، قريبة منها أو بعيدة عنها، فإنها أم القرى كلها، كما الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله أرسل «لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها»: كل القرى فإنها أيا كانت فهي حول المركز الرئيسي للدعوة الإسلامية العالمية.
و لكنما القرى الهالكة حولكم، القريبة تكفي عما هي بعيدة عنكم ومنها الأحقاف ومنها .. «فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ»؟ .. وهل نصرتهم آلهتهم أم ضلت عنهم وألهت؟:
فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّهِ قُرْباناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذلِكَ إِفْكُهُمْ وَ ما كانُوا يَفْتَرُونَ.
و كيف ينصرونهم في بأسهم وهم أولاء كانوا لهم جندا محضرين، يكفّون عنها بأس الحاضرين

لكسرها، فهؤاء الآلهة القربان «ما نَعْبُدُهُمْ إِلّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى»كيف لم تقرب عابـديها إلى الله أو تشفع لهم أو تنفعهم حين بأسهم كما كانوا لها جندا محضرين؟.

«بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ»: حين البأس: ضلالا عن كونها إذ دمرت بتدميرهم، وعـن كيانهـا ـ بـاحرى ـ إذ ضـلت الوهيتها المؤفكة: واقعيا إذ ما أثرت، وفي ظنهم: إذ عرفوا أنهم خاطئون، فحين البأس المـوت تكشـف الحقائق، ثم البرزخ معرض الكشف التام، ثم في القيامة الأتم: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هـذا فَكَشَـفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ»متحللا عن الكلل التي كانت من علل منك أو مـن حجـاب الحيـاة الدنيا.